

الرواية التي بيع منها أكثر من
4 ملايين نسخة حول العالم
وتحوّلت إلى فيلم سينمائي
من بطولة جوليا روبرتس

طَعَامٌ... صَلَاةٌ... حُبٌّ..



امرأة تبحث عن كل شيء
إليزابيث جيلبرت

«هذا الكتاب هو هديتي المفضلة إلى صديقي» جوليا روبرتس
«على كل امرأة أن تقرأ» اللي ماكيرسون
«إنه المفضل» صوفي داهل





طَعَامٌ.. صَلَاةٌ.. حُبٌّ..

امرأة تبحث عن كل شيء

تأليف

إليزابيث جيلبرت

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحريير

مركز التعريب والبرمجة



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Eat, Pray, Love

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Bloomsbury Publishing Plc

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © by Elizabeth Gilbert 2006

All rights reserved

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 3-602-87-9953-978



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

tarjem@mbrfoundation.ae

www.mbrfoundation.ae

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم والدار العربية للعلوم ناشرون غير مسؤولتين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعتبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء المؤسسة والدار.

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدّمة

أو كيف يعمل هذا الكتاب

أو الحبة 109

حين تسافر إلى الهند، وتتحوّل في عدّة أماكن، تصادف كثيراً من الأشخاص الذين يضعون مسابح في أعناقهم. كما ترى صوراً كثيرة لمزاوي رياضية السيوغا النحيلين والمخيفين أو حتى أحياناً الممتلئين، اللطفاء، والمشرقين هم أيضاً يضعون المسابح. تدعى هذه المسابح بلغتهم *جابا مالاس*. وقد استعملت في الهند لقرون من الزمن لمساعدة الهندوس والبوذيين على التركيز خلال تأملاتهم. فتُحمل المسبحة بيد واحدة وتمرّر حباتها بالإصبع، ومع كلّ حبة تكرر المانترا مرّة واحدة. وحين توجه الصليبيون شرقاً في القرون الوسطى خلال حروبهم، رأوا تلك المسابح فأعجبتهم الفكرة وأحضروها معهم إلى أوروبا.

تتألف *الجابا مالا* التقليدية من 108 حبات. ويعتبر الرقم 108 بين الأوساط الأكثر سرّية للفلاسفة الشرقيين رقم السعد. فهو مؤلّف من ثلاثة أرقام ويشكّل مضاعفاً كاملاً للرقم ثلاثة، وإن جمعت أرقامه تحصل على تسعة، وهي ثلاثة ثلاثات. وبما أنّ هذا الكتاب يتحدّث عن مساعي لإيجاد التوازن، قرّرت تقسيمه على غرار *الجابا مالا*. فقسّمت روايتي إلى 108 حكايات، أو حبات. وهذا العقد المؤلّف من 108 حكايات، مقسّم بدوره إلى ثلاثة أقسام عن إيطاليا والهند وإندونيسيا،

وهي البلدان الثلاثة التي زرتها خلال ذلك العام من بحثي عن ذاتي. ويعني ذلك أن كلّ قسم يضمّ 36 حكاية، ما يحمل دلالة شخصية بالنسبة إليّ، لأنني كنت قد بلغت السادسة والثلاثين من عمري وأنا أكتب كلّ هذا.

الآن، وقبل أن أصبح أقرب إلى لويس فرّخان هنا مع كلّ هذا الحديث في علم الأعداد، أودّ أن أخلص إلى القول بأنني أحببت فكرة ربط هذه الحكايات على غرار الجابا مالا لأنها شديدة الترابط. لطالما كان البحث الروحي الصادق وما زال محاولةً للتهذيب المنهجي. فالبحث عن الحقيقة ليس متاحاً للجميع، ولا حتى في هذا العصر حيث كلّ شيء متاح للجميع. وكباحثة عن الحقيقة وكاتبة على حدّ سواء، وجدت أنه من المفيد الاعتماد على حبات المسبحة قدر الإمكان لكي أركز على ما أحاول تحقيقه.

بأي حال، تحتوي كلّ جابا مالا على حبة إضافية خاصة، هي الحبة 109، تعلق خارج هذه الدائرة المتوازنة المؤلفة من 108 حبات. وكنت أعتقد بأنّ هذه الحبة موجودة احتياطاً، كالزرّ الإضافي في ستره باهظة الثمن أو كالأبن الأصغر في عائلة ملكية. ولكن، لديها على ما يبدو هدف أسمى. فحين تصل أصابعك إلى هذه الحبة في أثناء التأمل، عليك التوقّف عن استغراقك في التأمل لتشكر معلميك. وها أنا أتوقّف عند الحبة 109 خاصتي، قبل حتى أن أبدأ، لأقدّم شكري لمعلمي الذين ظهروا في طريقي خلال تلك السنة بأساليب غريبة جداً.

غير أنني أوجّه شكراً خاصاً لمرشدتي التي كانت شديدة التعاطف معي والتي سمحت لي بأن أدرس في معتزلها خلال إقامتي في الهند. وأودّ التوضيح هنا أيضاً بأنني كتبت عن تجربتي في الهند من منطلق شخصي

وليس كطالبة أو متكلمة رسمية باسم أحد. لهذا السبب، لن أستعمل اسم مرشدتي في هذا الكتاب لأنني لا أستطيع التحدّث عنها. فتعاليمها تتحدّث عن نفسها. كما أنني لن أكشف اسم أو موقع معتزله، لتبقى تلك المؤسسة الرائعة بعيدة عن أعين الدعاية، لعدم اهتمامها أو قدرتها على التعامل معها.

ثمّة امتنان أخير أوّدّ التعبير عنه: بما أنّ جميع الأسماء في هذا الكتاب قد تمّ تغييرها لأسباب مختلفة، قرّرت أيضاً تغيير أسماء جميع الأشخاص الذين التقيت بهم في المعتزل في الهند، أكانوا هنوداً أم غربيين. وهذا لأنّ معظم الأشخاص لا يذهبون إلى هناك لكي يظهروا لاحقاً كشخصيات في كتاب. (ما لم يكونوا أنا، بالطبع). غير أنني استثنيت شخصاً واحداً من هذه القاعدة التي فرضتها على نفسي. فريتشارد الآبي من تكساس هو فعلاً ريتشارد وفعلاً من تكساس. وقد قرّرت استخدام اسمه الحقيقي لأنّه كان في غاية الأهمية بالنسبة إليّ حين كنت في الهند.

كلمة أخيرة، حين سألت ريتشارد ما إذا كان لديه مانع أن أذكر في الكتاب أنّه كان سكّيراً ويتعاطى المخدّرات، قال إن لا مانع لديه.

قال: "كنت أحاول أن أتخيّل كيفية قول ذلك، بأيّ حال".
ولكن أولاً، إيطاليا...



إيطاليا

أو

"قلها كما تأكلها"

أو

36 حكاية عن السعي
إلى السعادة الداخلية



1

أتمنى لو أن جوفاني يقبلني.

ولكنّ هذه الفكرة تبدو فظيعة لأسباب عدّة، أوّلاً أن جوفاني يصغري بعشرة أعوام، وشأنه شأن معظم الشبان الإيطاليين الذين ما زالوا في العقد الثاني من العمر، هو لا يزال يعيش مع أمّه. وهذان الأمران وحدهما كفيّان باستبعاده كشرّيك رومانسي لي، نظراً لكوني امرأة أميركية عاملة في أواسط العقد الثالث من العمر، خرجت للتوّ من تجربة زواج فاشلة وطلاق طويل ومدمّر، أعقبته على الفور علاقة حبّ ملتهبة انتهت على نحو مفاجئ. تركتني تلك الخسارات المتتالية فريسة للحزن وشعرت بأنّي هشّة وضعيفة وكأنّ عمري سبعة آلاف سنة. ومبادئ لا تسمح لي بأن أرمي أحزاني ومآسيّ عند أقدام جوفاني، ذاك الشابّ اللطيف المرح. هذا من دون أن نذكر أنّي بلغت أخيراً السنّ التي تبدأ عندها المرأة بالتساؤل ما إذا كان من الحكمة دعوة شابّ آخر إلى... للتغلّب على خسارة شابّ وسيم. لهذا السبب، أنا أعيش وحيدة منذ عدّة أشهر. وللأسف عينه في الواقع، قرّرت تمضية هذه السنة بأكملها عازبة.

المراقب الذكي قد يتساءل: "ما الذي أتى بك إذاً إلى إيطاليا؟".

إنه سؤال لا يمكنني سوى أن أجيب عنه بالتالي، لا سيّما إن كنت

أنظر عبر الطاولة إلى جوفاني الوسيم: "سؤال ممتاز".

جوفاني هو شريكّي في التبادل الثقافي. فنحن نلتقي عدّة أمسيات

في الأسبوع هنا في روما للتمرّن على اكتساب واحداً لغة الآخر.

نتحدّث أولاً بالإيطالية، ويكون صبوراً معي، ثمّ نتحدّث بالإنكليزية،

وأكون صبورة معه. عثرت على جوفاني بعد بضعة أسابيع من وصولي إلى روما، بفضل مقهى الإنترنت الكبير في ساحة بارباريني، إلى الجانب الآخر من الشارع الذي تقع فيه تلك النافورة المحتوية على منحوتة لُغرنوق ماء جذاب يرشّ الماء في محارته. وكان (أي جوفاني، وليس لُغرنوق) قد علّق لافتة على لوحة الإعلانات تقول إن إيطالياً يبحث عن إنكليزي للتمرّن معه على المحادثة باللغة الإنكليزية. وظهر تحت الإعلان تماماً إعلان آخر بالطلب نفسه، حرفياً. أمّا الفرق الوحيد فكان في عنوان البريد الإلكتروني. فأحدهما باسم شخص يدعى جوفاني، والآخر باسم داريو. ولكن، حتى رقم هاتف المنزل كان نفسه. استخدمت قوّة حدسي، وأرسلت إلى الاثنين معاً في الوقت نفسه وسألتهما بالإيطالية: "هل أنتما أخوان؟".

كان جوفاني هو الذي ردّ بهذه الرسالة المثيرة: "بل أفضل من ذلك، توأمان!".

نعم، أفضل بكثير. توأمان متشابهان طويلاً، أسمر اللون ووسيمان، في الخامسة والعشرين من عمرهما، كما تبين لاحقاً، صاحباً أعين إيطالية كبيرة بنية اللون، لطالما خطفت أنفاسي. بعدما قابلت الشابين شخصياً، رحّت أتساءل ما إذا كان يفترض بي ربّما تعديل القانون الذي فرضته على نفسي بالبقاء عازبة هذه السنة. مثلاً، يمكنني أن أبقى عازبة باستثناء الاحتفاظ بتوأمين إيطاليين في الخامسة والعشرين من عمرهما كعاشقين. وهذا ما ذكرّني قليلاً بصديقة لي كانت نباتية باستثناء اللحم المقدّد، ولكن مع ذلك... كنت قد بدأت بوضع رسالتي إلى بنتهاوس:

في ضوء الشموع المتمايل في المقهى الروماني، كان من المستحيل

معرفة يدي من...

ولكن، لا.

لا وألف لا.

قطعت الحلم في وسطه. فالوقت لم يكن مناسباً للبحث عن الرومانسية، ومع الوقت، تعقيد حياتي المعقدة أصلاً. إنه وقت البحث عن الشفاء والسلام اللذين لا يأتيان إلا من الوحدة.

على كل حال، أصبحت وجوفاني بحلول منتصف تشرين الأوّل صديقين عزيزين. أمّا بالنسبة إلى داريو، الأكثر نشاطاً بين الاثنين، فقد عرّفته بصديقتي السويدية الفاتنة صوفي، والطريقة التي يمضيان بها أمسياتهما في روما تشكّل نوعاً مختلفاً تماماً من التبادل الثقافي. أنا وجوفاني كنّا نتحدّث وحسب. في الواقع، نأكل ونتحدّث. وكنا نأكل ونتحدّث منذ عدّة أسابيع سارة، نتشارك فيها البيتزا والتصحيحات اللغوية اللطيفة، والليلة لم تكن مختلفة. كانت أمسية وديعة طغت عليها العبارات الجديدة والموزاريلا الطازجة.

كان الليل قد انتصف والجوّ كان غائماً، وكان جوفاني يرافقتني إلى شقّتي عبر تلك الشوارع الخلفية لروما، التي تتعرّج حول المباني القديمة مثل السواقي التي تتلوّى حول أشجار السرو الظليلة. وصلنا عند الباب ووقفنا في مواجهة بعضنا، فضمّني بدفء. كان قد حقق تحسّناً، ففي الأسابيع الأولى، كان يكتفي بمصافحتي. وأظنّ لو أنّي أبقى في إيطاليا للسنوات الثلاث المقبلة، فقد يرغب بتقبيلي. إلاّ أنّه بالمقابل قد يقبّلني الآن، الليلة، هنا أمام باب بيتي... ما زال ثمة أمل... أعني نحن نضمّ بعضنا تحت ضوء القمر... وبالطبع ستكون غلطة فظيعة. ولكن، ما زال الاحتمال وارداً بأن يفعل الآن... بأن ينحني... و... و...

كلّاً.

ابتعد عني قائلاً: "ليلة سعيدة، ليز".

أحبته بالإيطالية: "ليلة سعيدة، عزيزي".

صعدت السلالم إلى شقتي في الطابق الرابع، وحيدة. دخلت
الأسستوديو الصغير، وحيدة. أغلقت الباب خلفي. ليلة أخرى من
الوحدة تنتظري في روما. ليلة طويلة أخرى في...، ما عدا كومة من
الدفاتر والقواميس الإيطالية.
أنا وحيدة، وحيدة تماماً.

حين أدركت هذه الحقيقة، تركت حقيبي، وسقطت على ركبتي،
وضغطت جبيني على الأرض.

...

2

وبما أنني جائعة أتضرع هنا على الأرض، سأبقى بهذه الوضعية،
وأعود إلى الورا، إلى ثلاث سنوات خلت، حين بدأت هذه القصة، كنت
في تلك اللحظة على الوضعية نفسها: جائئة على ركبتي، على الأرض.
غير أن المشهد كان مختلفاً تماماً منذ ثلاث سنوات. في ذلك
الوقت، لم أكن في روما بل في الحمام العلوي للمنزل الكبير الواقع
في ضواحي نيويورك والذي اشتريته مؤخراً أنا وزوجي. كانت ليلة
باردة من ليالي تشرين الثاني، والساعة قد قاربت الثالثة صباحاً. كان
زوجي نائماً في سريرنا بينما كنت مختبئة في الحمام لليلة السابعة
والأربعين تقريباً على التوالي، وككلّ ليلة، أبكي. كنت أبكي بشدة
لدرجة أن بحيرة كبيرة من الدموع كانت تتكوّن أمامي على أرض
الحمام، بحيرة فعلية من كلّ العار، والخوف، والارتباك، والحزن الذي
استبدّ بي.

لا أريد أن أكون متزوجة بعد الآن.

لكن كان يفترض بي أن أرغب بإنجاب طفل. كنت في الحادية والثلاثين من عمري. وكنت أنا وزوجي معاً منذ ثماني سنوات، ومتزوجين منذ ست سنوات، وبنينا حياتنا بأكملها على فكرة أننا بعد تجاوز الثلاثين، سأرغب بالاستقرار وإنجاب الأطفال. كلانا توقعنا أنني سأعمل من السفر وأسأر لعيش حياة أسرية كبيرة ونشيطة، مليئة بالأطفال والأعمال اليدوية، مع حديقة خلفية وطنجرة جميلة من الطعام تغلي على الفرن. (وكون هذه الصورة هي وصف دقيق لأمي ليس سوى مؤشر سريع لمدى الصعوبة التي واجهتها في تحديد الفرق بيني وبين المرأة القوية التي ربتني). إلا أنني لم أرغب بهذه الأشياء كما كنت أكتشف بخوف.

عوضاً عن ذلك، ومع اقتراب سنواتي العشرين من نهايتها، راحت سن الثلاثين تضيّق على خناقي وكأنها جبل مشنقة، واكتشفت أنني لم أكن أريد الإنجاب. انتظرت طويلاً كي أشعر بالرغبة بالإنجاب، ولكن ذلك لم يحدث. أنا أعرف كيف يشعر المرء حين يرغب بشيء ما، صدقتني. أعرف تماماً ما هي الرغبة، ولكنها لم تكن موجودة. كما أنني لم أتوقف عن التفكير في ما قالته لي شقيقتي يوماً وهي تُرضع طفلها الأول: "إنجاب طفل هو أشبه برسم وشم على الوجه، عليك أن تكوني واثقة من أن هذا ما تريدينه قبل الإقدام على إنجابه".

لكن، كيف لي أن أدير ظهري الآن؟ كل شيء أصبح في مكانه. وكان يفترض بنا الإنجاب هذا العام. في الواقع، كنا نحاول الإنجاب منذ عدة أشهر. ولكن شيئاً لم يحدث (باستثناء غثيان صباحي نفسي المنشأ، جعلني أتقيأ فطوري بعصبية كل يوم، وكأنها سحرية من الحمل). وكل شهر أكتشف فيه بأنني لست حاملاً، أجد

نفسي أهمس بمكر في الحمام: شكراً، شكراً، شكراً، شكراً، شكراً لإعطائي شهراً إضافياً لأعيش...

كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن ما أشعر به طبيعي، وأنه ينتاب كل امرأة تحاول الإنجاب. (تضارب المشاعر هو التعبير الذي استخدمته، تفادياً للوصف الأكثر دقة: تملكها الخوف). كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن مشاعري عادية، على الرغم من أن كل الأدلة تشير إلى العكس، كأحدى معارفي التي التقيت بها الأسبوع الماضي والتي اكتشفت للتو أنها حامل للمرة الأولى، بعدما أمضت سنتين، وأنفقت ثروة على العلاجات التخصصية. كانت منتشية. أخبرتني بأنها تود أن تكون أمماً إلى الأبد، وأقرت بأنها كانت تتابع سرّاً ملابس للطفل منذ سنوات، وتخبئها عن زوجها تحت السرير. رأيت الفرحه في عينيها وعرفتها. كانت تلك الفرحه عينيها التي شعت في عيني الربيع الماضي حين عرفت بأن الحمل التي أعمل فيها قرّرت إرسالها في مهمّة إلى نيوزيلندا لكتابة مقال عن البحث الدائر عن الصبيدج العملاق. وفكّرت حينها: "إلى أن أشعر حيال الطفل بالنشوة نفسها التي ملأت كياني حيال الذهاب إلى نيوزيلندا للبحث عن صبيدج عملاق، لا يمكنني الإنجاب".

لا أريد أن أكون متزوجة بعد الآن.

كنت أرفض هذه الفكرة نهائياً، ولكن ما إن يجّل الليل، حتى تتملّكني مجدداً. يا للكارثة. كيف لي أن أكون بهذه الدناءة بحيث أستمّر بالزواج حتى هذه المرحلة المتقدّمة، ثمّ أنسحب منه؟ لقد اشترينا هذا المنزل منذ عام واحد فقط. ألم أرغب بهذا المنزل الجميل؟ ألم أحبه؟ لم أهيّم إذاً بين جدرانها أنوح كل ليلة؟ ألسنت فخورة بكل ما جمعناه؛ منزل هودسون فالي الفخم، شقة منهاتن، خطوط الهاتف الثمانية،

الأصدقاء والنزهات والحفلات، العطل التي نخصيها في التحوّل بين أجنحة المتاجر الفخمة، نشترى مزيداً من المقتنيات؟ لقد شاركت على نحو فاعل في كل لحظة من لحظات بناء هذه الحياة المشتركة، لم أشعر إداً بأن شيئاً فيها لا يشبهني؟ لم أشعر بأنني منهكة من واجباتي، بمهدة من كوني المعيل الأساسي وسيدة المنزل والمنسقة الاجتماعية ومن ينزّه الكلب والزوجة وقرياً الأم، وفي لحظات خاطفة، كتابة...؟
لا أريد أن أكون متزوجة بعد الآن.

كان زوجي نائماً في الغرفة الأخرى، في سريرنا. شعرت بأنني أحبه ولا أطيعه في الوقت نفسه. لم أتمكن من إيقاظه ليشاركني بؤسي، ما النفع من ذلك؟ كان يراني وأنا أتلاشى منذ أشهر، يراني وأنا أتصرف كالمجنونة (كنا متفقين على ذلك)، وقد أهكته. عرفنا أنه نمة نخطب بي، وقد بدأ يفقد صبره. إذ كنا نكافح ونبكي وسمننا مثلما يحدث مع زوجين يران زواجهما ينهار. كانت في أعيننا نظرة اللاجئين.

في الواقع، إن الأسباب العديدة خلف عدم رغبتني بأن أكون زوجة هذا الرجل بعد الآن، شخصية جداً ومحنة جداً لأتحدث عنها هنا. معظمها متعلق بمشاكلي، إلا أن جزءاً كبيراً من مشاكلنا مرتبط به هو أيضاً. وهذا طبيعي، فتمّة دوماً شخصان في الزواج؛ صوتان، رأيان، مجموعتان متضاربتان من القرارات والرغبات والقيود. غير أنني لا أجد من الملائم مناقشة مشاكله في كتابي. كما أنني لن أطلب من أحد التصديق بأنني قادرة على رواية قصتنا بشكل موضوعي، وبالتالي، لن أذكر أسباب فشل زواجنا هنا. كما أنني لن أناقش أسباب رغبتني بأن أبقى زوجته، أو مدى روعته، أو سبب حبسي له، وزواجي به، وعدم قدرتي على تخيّل الحياة من دونه. لن أتطرّق إلى أيّ من ذلك. بل

سأكتفي بالقول إنّه في تلك الليلة كان لا يزال مصدر سعاديّ وتعاسيّ بقدر متساوٍ. فالأمرّ من الرحيل كان البقاء، والأفطع من البقاء كان الرحيل. لم أكن أرغب بتدمير أيّ أحد أو أيّ شيء. لم أرغب سوى بالتسلّل بهدوء من الباب الخلفي، من دون أن يكون لرحيلي أي جلبة أو عواقب، والركض من دون توقّف حتى أصل إلى غرينلاند.

هذا الجزء من قصّتي ليس سعيداً، أعرف ذلك. ولكنّي أودّ أن أذكره لأنّ أمراً كان على وشك الحدوث على أرض الحمام سيغيّر مسار حياتي إلى الأبد. تقريباً مثل تلك الأحداث الفلكية الجنونية الهائلة، التي يخرج فيها كوكب في الفضاء الخارجي عن مساره من دون سبب معروف، ويتغيّر لبه المصهور، فيتبدّل موضع قطبيه، ويتعدّل شكله جذرياً، بحيث تصبح كتلة الكوكب مستطيلة بعد أن كانت كروية. شيء من هذا القبيل.

ما حدث هو أنّي بدأت أدعو.

...

3

....

4

بالطبع، كان لديّ وقت طويل للتفكير في آرائي الدينية منذ تلك الليلة على أرض الحمام. إلّا أنّي في وسط الأزمة التي مررت بها في ذاك الشهر القائم، لم أكن مهتمّة بصياغة آرائي الدينية، بل كنت أسعى إلى

إنقاذ حياتي وحسب. فقد لاحظت أخيراً بأنني بلغت حالة خطيرة من اليأس، وخطر لي بأن الناس في هذه الحالة يلجأون إلى الله للمساعدة. أعتقد أنني قرأت ذلك في كتاب ما.

...

5

لو تسنّى لي أن أعرف بأنّ الأمور سوف تتأزّم على نحو خطير قبل أن تسوء، كما قالت ليلي توملين مرّة، أشكّ بأنني كنت لأنام جيداً تلك الليلة. ولكن بعد سبعة أشهر مضنية، تركت زوجي بالفعل. وحين اتّخذت القرار أخيراً، اعتقدت بأنّ الأسوأ قد فات. ولكنني على ما يبدو كنت أجهل الكثير عن الطلاق.

رأيت في مجلّة ذا نيويورك ركر ذات مرة رسوماً كرتونية لامرأتين، تقول إحداهما للأخرى: "إن أردت معرفة شخص ما على حقيقته، طلقّيه". بالطبع، كانت تجرّبي معاكسة. وكنت لأقول، إن أردت التوقّف عن معرفة شخص ما، طلقّيه. أو طلقّها. لأنّ هذا ما حدث بيّني وبين زوجي. أظننا صدمنا بعضنا بمدى السرعة التي انتقلنا بها من كوننا أكثر شخصين يعرفان بعضهما في العالم إلى غريبين يجهلان بعضهما تماماً. ويعود سبب ذلك إلى حقيقة أنّ كلاً منّا كان يفعل ما لم يتصوّره الآخر ممكناً. فهو لم يسبق أن فكّر في أنني سأتركه يوماً. كما أنّه لم يخطر لي في أكثر تخيّلاتي غرابة أنّه سيجعل الأمر بهذه الصعوبة عليّ.

ظننت صدقاً أنّه حين أترك زوجي، ستمكّن من تسوية شؤوننا في بضع ساعات بآلة حاسبة مع شيء من الحسّ العام والنّيّة الحسنة تجاه

الشخص الذي أحببناه يوماً. كان اقتراحي الأول أن نبيع المنزل ونتقاسم جميع الأملاك، ولم يخطر لي أبداً أن نفعل غير ذلك. إلا أنه لم يجد الاقتراح عادلاً. فرفعت العرض، واقتרכת ذاك النوع الآخر من القسمة بالنصف: يحصل هو على كلّ الأملاك وأنا على كلّ اللوم. ولكن حتى هذا العرض لم يلقَ قبولاً. عندها أصبحت في موقف ضعيف. كيف تتفاوض بعد أن تكون قد عرضت التنازل عن كلّ شيء؟ كان عليّ انتظار عرضه المقابل الآن. في الواقع، منعي شعوري بالذنب لتركه من التفكير في أنّ لي الحقّ بالاحتفاظ بشيء من المال الذي جمعته طيلة العقد الفائت. كما أنّ الجانب الروحاني حديث الاكتشاف لديّ دفعني إلى تجنّب الدخول في نزاع معه. بالتالي، كان هذا موقفني. لن أدافع عن نفسي ضدّه ولن أتشاجر معه. وقاومت لأطول مدّة ممكنة استشارة محامٍ، على عكس ما نصحتني به كلّ من حولي، لأنّني اعتبرت ذلك إعلان حرب. أردت أن أكون غاندي أو نيلسون مانديلا في هذه القضية. ولم أدرك في ذلك الوقت أنّ كلا من غاندي ونيلسون مانديلا كانا محاميين.

مرّت الشهور وحياتي متوقّفة وأنا أنتظر إطلاق سراحني، أنتظر لأرى ما ستكون الشروط. كنا نعيش منفصلين (إذ انتقل إلى شقّتنا في منهاتن)، ولكن لم تحلّ الأمور. بل راحت الفواتير تتكدّس وأعمالنا تتوقّف والمنزل يتحوّل إلى خراب ولا يكسر صمت زوجي سوى اتصالاته المتقطّعة لتذكيري كم أنا مجرّمة وسافلة.

ثمّ ظهر ديفيد.

أتت مأساة ديفيد لتزيد سنوات الطلاق الأليمة تعقيداً وكآبة. كان ديفيد هو الشابّ الذي أغرمت به وأنا أنهيت زواجي. هل قلت أغرمت بديفيد؟ ما عنيته هو أنّي خرجت من زواجي لأقع بين ذراعي

ديفيد، تماماً كما يغطس لاعب السيرك في الرسوم المتحركة عن لوح القفز في كوب ماء صغير ويختفي تماماً. وتشبّثت بديفيد هرباً من زواجي وكأته آخر هليكوبتر ستقلع من سايغون. وعَلّقت عليه كلّ آمالي بالخلاص والسعادة. وقد أحببته، نعم. ولو كنت أعرف وصفاً آخر غير تعبير يائس لأصف جبي لديفيد، لاستعملته هنا، ولكنّ الحبّ اليائس هو دوماً الأقسى.

انتقلت للعيش مع ديفيد بعدما تركت زوجي. كان شاباً شديد الوسامة. هو ممثل وكاتب نيويوركي، يملك عينين إيطاليتين بنيّ اللون لطالما (هل سبق لي أن قلت ذلك؟) خطفتنا أنفاسي. ذكي، مستقلّ، نباتي، بذّيء اللسان، روحاني، ساحر. شاعر يوغاني متمرد. أكبر من الحياة، أكبر من الكون، أو هكذا كان بالنسبة إليّ على الأقلّ. حين سمعتني صديقتي سوزان أتحدّث عنه للمرّة الأولى، نظرت إلى الاحمرار الذي كسا وجهي وقالت لي: "يا الله، أنت في ورطة كبيرة يا حبيبتى".

التقيت بديفيد وهو يلعب دوراً في مسرحية مرتكرة على قصص قصيرة كتبها. كان يؤدّي دور شخصية من اختراعي، وهو أمر مؤثّر نوعاً ما. فهذا ما يحدث في الحبّ اليائس، أليس كذلك؟ في الحبّ اليائس، نخترع شخصيات لشركائنا في الحياة ونطلب منهم أن يكونوا كما نريدهم أن يكونوا، ثمّ نهار حين يرفضون لعب الدور الذي اخترعناه في الأساس.

على الرغم من ذلك، قضينا وقتاً رائعاً معاً في الشهور الأولى حين كان لا يزال بطلي الرومانسي وأنا حلمه الذي تموّل إلى حقيقة. عشنا إثارة وتناغماً لم يسبق لي أن تخيلتهما ممكنين. اخترعنا لغة خاصة بنا. ذهبنا في رحلات منوّعة. صعّدنا إلى قمم أشياء، وغصنا في أعماق أشياء أخرى، وخططنا للرحلات التي سنقوم بها معاً حول العالم. كنّا

نستمع في الوقوف معاً في الصفّ أمام قسم الدرّاجات النارية أكثر ممّا يستمتع الأزواج الجدد في شهر العسل. أطلقنا على بعضنا اللقب نفسه لكي لا نفترق أبداً. وضعنا أهدافاً ونذوراً ووعوداً وأعدنا العشاء معاً. كان يقرأ لي الكتب ويغسل ثيابي. (في المرّة الأولى التي حدث فيها ذلك اتصلت بسوزان وأخبرتها بهذه الأعجوبة بذهول وكأنني رأيت للتوّ جملاً يستخدم هاتفاً عموماً. هتفتُ قائلة: "قام رجل للتوّ بغسل ملابسني! حتى إنّه غسل بيديه ملابسني الداخلية!" فكرّرت تعليقها السابق: "يا الله، أنت في ورطة كبيرة يا حبيبي").

كان الصيف الأوّل لليز وديفيد شبيهاً بموتاج الوقوع في الحبّ لجميع الأفلام الرومانسية التي سبق أن رأيتها، بدءاً من رشّ بعضنا بالماء على الشاطئ وحتى ركضنا يداً بيد فجراً عبر المروج الذهبية. في ذلك الوقت، كنت لا أزال أعتقد بأنّ طلاقني سيتمّ بشكل لائق، فمنحت زوجي الصيف كلّهُ لنهدأ قبل أن نبحث الموضوع مجدّداً. على أي حال، كان من السهل عدم التفكير بتلك الخسارة وسط السعادة التي خيّمت علينا. ذاك الصيف الذي كان كإرجاء لحكم الإعدام، انتهى أخيراً.

في 9 أيلول 2001، التقيت بزوجي للمرّة الأخيرة وجهاً لوجه، ولم أكن أدرك أنّ كلّ لقاءاتنا المقبلة ستحتاج إلى وساطة المحامين. تناولنا العشاء في مطعم. وقد حاولت التحدّث في موضوع انفصالنا، ولكننا لم نفعل سوى الشجار. أخبرني بأنني كاذبة وخائنة وبأنّه يكرهني ولن يتحدّث معي مجدّداً. استيقظت بعد يومين، بعد ليلة مضطربة، لأجد هاتين الطائرتين المختطفتين تصطدمان بأطول برجين في مدينتي، تماماً مثلما ينهار كلّ ما يبدو ثابتاً لا يُقهر ويتحوّل إلى أنقاض. اتصلت بزوجي للاطمئنان عنه وبكينا معاً على تلك الكارثة، ولكنني لم أذهب إليه. وخلال ذاك الأسبوع، نسي جميع أهالي نيويورك أحقادهم

احتراماً لتلك المأساة، مع ذلك، لم أعد لزوجي. حينها أدركنا كلانا بأن زواجنا انتهى تماماً.

لا أظن أنني أبالغ إن قلت إنني لم أعرف طعم النوم للأشهر الأربعة التالية.

اعتقدت بأنني قد اهرت من قبل، ولكن في تلك الفترة (وتناغماً مع الاهتبار الذي شهده العالم كله) تحوّلت حياتي فعلاً إلى حطام. أشعر بالخوف الآن حين أتذكّر العذاب الذي فرضته على ديفيد في الأشهر التي عشنا خلالها معاً، مباشرة بعد 11 أيلول وانفصالي عن زوجي. تصوّر ذهوله حين اكتشف بأن المرأة الأكثر سعادة وثقة التي عرفها في حياته تتحوّل إلى فجوة مظلمة من الحزن. فقد عدت إلى البكاء المتواصل مجدداً. حينها أخذ بالانسحاب، حينها رأيت الوجه الآخر لبطلتي الرومانسي الشغوف، ديفيد الوحيد، البارد، الذي يحتاج إلى مساحة شخصية أكبر من قطع من الثيران الأميركية.

ولكان البعد العاطفي المفاجئ لديفيد كارثة على الأرجح بالنسبة إليّ تحت أفضل الظروف، نظراً لكوني المخلوق الأكثر حناناً على وجه هذا الكوكب، إلا أنني كنت أمرّ بأسوأ الظروف. كنت مكتئبة ومستقلّة وبحاجة إلى العناية أكثر من ثلاثة توائم ولدوا قبل أوأهم. وانسحابه من حياتي جعلني أكثر حاجة، وحاجتي عجزت في انسحابه، وسرعان ما كان يتراجع تحت وقع توسلاتي ودموعي: "إلى أين تذهب؟ ما الذي حدث لنا؟".

(نصيحة للنساء: الرجال يحبون ذلك).

في الحقيقة، لقد أصبحت مدمنة على ديفيد (وهو الذي شجّعني على ذلك، كان رجلاً شديداً التأثير)، والآن حين أصبح اهتمامه يتراجع، بدأت أعاني من عواقبه الحتمية. فالإدمان على الحبيب هو

العلامة المميّزة لقصص الحبّ المتيمّة. ويبدأ ذلك حين يغدق عليك موضوع هيامك بجرعة مسكرة ومسبّبة للهلوسة من شيء لم تجرؤ حتى على الاعتراف يوماً بأنك تريده؛ هبة عاطفية من الحبّ والإثارة الجارفين. وسرعان ما تتناكب حاجة ملحة إلى ذاك الاهتمام الشديد، فتتوق إليه بهوس المدمن. وحين ينقطع عنك المخدر، تشعر بأنك مريض، ومجنون، ومستنزف (هذا من دون أن نذكر استيائك من التاجر الذي كان هو من شجّع على هذا الإدمان في الأساس، ولكنه يرفض الآن تزويدك بالبضاعة؛ مع أنك تعلم بأنه يحبّها في مكان ما، عليه اللعنة، لأنه اعتاد على إعطائك إياها تجّاناً). في المرحلة التالية، تجد نفسك ضامر الجسد ترتعش في إحدى الزوايا، على استعداد تامّ لأن تبيع روحك أو تسرق جارك لتحصل على ذلك الشيء مجدّداً ولو لمرة واحدة. وفي تلك الأثناء، يكون موضوع هيامك قد أصبح ينفر منك. ينظر إليك كمن لم يعرفك من قبل، فما بالك كمن أحبّك يوماً بشغف بالغ. وفي الحقيقة، لا يمكن لومه. أعني، انظر إلى نفسك. أنت في حالة مزرية، وكأنك شخص آخر لا تعرفه.

هكذا تكون قد بلغت آخر مراحل الحبّ المتيمّ، ألا وهي فقدان التامّ والقاسي للقيمة الذاتية.

كوني قادرة على الكتابة عن ذلك بهدوء اليوم، هو دليل قاطع على قدرة الوقت على شفاء الجروح، لأنني لم أكن أتحمّل ما كان يحدث حينها. فقد خسرت ديفيد مباشرة بعد فشل زواجي، ومباشرة بعد أعمال إرهابية تعرّضت لها مدينتي، وخلال أسوأ أشكال الطلاق وأكثرها بشاعة (وهي تجربة قارنها صديقي براين بالتعرّض لحادث سيارة كلّ يوم لمُدّة سنتين)... في الواقع، ما كان يحدث يفوق الاحتمال.

واصلت وديفيد حياتنا المرححة والمتناغمة نهاراً، ولكن ليلاً، في سريره، كنت أتحوّل إلى الناجي الوحيد من شتاء نووي وهو يبتعد عني كما بدا واضحاً لي، على نحو متزايد كلّ يوم، وكأني مصابة بمرض معد. بتُّ أخاف الليل وكأني خلية تعذيب. فقد كنت أتمدّد قرب ديفيد النائم بجسده الجميل البعيد عن متناولي، وأغرق في دوامة من الخوف، ومن الوحدة، ومن أفكار انتحارية شديدة التفصيل. كان كلّ جزء من جسدي يؤلمني. شعرت وكأني آلة بدائية حُمّلت أكثر بكثير من طاقتها وعلى وشك أن تنفجر على نحو يهدّد كلّ من يقف بقربها. شعرت بأنّ أعضاء جسدي تطير من صدري هرباً من هوة الحزن التي أصبحت على شفيرها. وفي معظم الأيام، كان ديفيد يستيقظ ليجدني نائمة بتشنج على الأرض قرب سريره، مكورة على كومة من المناشف. كان يسأل: "ماذا حدث الآن؟" رجل آخر منكم تماماً بسببي. أظنني خسرت ثلاثين باونداً من وزني تقريباً في تلك الفترة.

6

آه، ولكنّ تلك السنوات لم تكن سيئة تماماً...

...

حدثت معي بعض الأمور الرائعة في ظلّ كلّ ذلك الحزن. منها أنني بدأت أخيراً بتعلّم الإيطالية. كما أنني وجدت غورو هندية. وأخيراً، تلقّيت دعوة من قبل عرّاف كهل للسفر إلى إندونيسيا والعيش معه. سأشرح ما حدث تدريجياً.

أولاً: بدأت الأمور تتحسنّ نوعاً ما حين انتقلت من شقة ديفيد في بداية العام 2002، وعثرت على شقة خاصة بي للمرة الأولى في

حياتي. لم أكن قادرة على تحمّل نفقاتها لأنني كنت لا أزال أدفع أقساط المنزل الكبير في الضواحي المهجور حالياً والذي يمنعني زوجي من بيعه، ولا أزال أحاول تسديد جميع النفقات القانونية والاستشارية... ولكنّ الحصول على غرفة نوم خاصة بي كان أمراً حيوياً بالنسبة إليّ. اعتبرت الشقة وكأنّها مصحّة، أو عيادة سأمكنث فيها حتى الشفاء. طلّيت الجدران بالألوان التي وجدتها أكثر دفئاً، وابتعت الأزهار لنفسني كلّ أسبوع، وكأني أزور نفسي في المستشفى. كما قدّمت لي شقيقتي كيساً للماء الساخن كهدية (لكي لا أنام وحيدة في سرير بارد) وقد نمت وأنا أضمّ ذاك الشيء إلى صدري كلّ ليلة، وكأني أعالج إصابة رياضية.

كنت وديفيد قد انفصلنا نهائياً. أو ربّما لا. فمن الصعب أن أتذكّر كم مرّة انفصلنا ثمّ عدنا لبعضنا خلال تلك الأشهر. فقد كنت أقرّر الانفصال عنه إلى أن أستعيد قوّتي وثقتي بنفسني مجدّداً، إلّا أنّ شغفه بي يتجدّد (منجذباً كالعادة إلى قوّتي وثقتي بنفسني). فنناقش بكلّ احترام، ووعي، وذكاء فكرة المحاولة من جديد، دائماً مع خطّة جديدة لتقليص اختلافاتنا الواضحة. كنّا شديدي الالتزام بحلّ هذه المسألة. إذ كيف يمكن لشخصين مغمّرين بهذا الشكل ألاّ يعيشا بسعادة لبقية حياتهما؟ لا بدّ من أن ينجح الأمر. فكنا نعود بأمال جديدة ونعيش أياماً أو حتى أسابيع بالغة السعادة معاً. ولكن ديفيد ينسحب في النهاية مجدّداً، وينتهي بي الأمر إلى الاثنيار مجدّداً، فيما ينتهي به إلى الرحيل.

كان ديفيد كالماء والهواء بالنسبة إليّ.

لكن خلال تلك الفترات التي انفصلنا فيها، وعلى الرغم من صعوبتها، كنت أعتاد على العيش بمفردي. وكانت هذه التجربة تولّد

في تحولاً جديداً. فمع أنّ حياتي كانت لا تزال أشبه بحادث سير بين سيارات عديدة على طريق نيو جيرسي في يوم شديد الازدحام، إلا أنني كنت أتربّح على شفير حياة جديدة، أنا فيها سيّدة نفسي. فحين كانت الأفكار الانتحارية حول طلاقني أو انفصالي عن ديفيد تفارقني، كنت أشعر بالسعادة في الواقع بسبب الوقت والمساحة اللذين أخذنا يظهران في حياتي، بحيث كنت أسأل نفسي سؤالاً جذرياً جديداً: ماذا تودّين أن تفعلي، ليز؟".

في معظم الأوقات (و كنت حينها لا أزال مضطربة بسبب فشل زواجي) لم أجرؤ على الإجابة عن السؤال، بل كنت خائفة منه بيني وبين نفسي. وحين بدأت أجيب عنه أخيراً، فعلت ذلك بحذر كبير. فسمحت لنفسي بالتعبير عن رغبات صغيرة خجولة، مثل:

أودّ الانتساب إلى صفّ يوغا.

أريد مغادرة هذه الحفلة باكراً لكي أعود إلى المنزل وأقرأ رواية.

أريد شراء علبة أقلام جديدة.

ثمّ كان ثمة جواب غريب يتكرّر دوماً، هو نفسه في كلّ مرّة:

أريد أن أتعلّم الإيطالية.

منذ سنوات وأنا أرغب بتحدّث الإيطالية، وهي لغة أحدها أجمل من الورد، ولكنني لم أجد يوماً مبرراً عملياً لتعلّمها. لمّ لا أتابع تعلّم الفرنسية أو الروسية اللتين درستهما منذ سنوات؟ أو أتعلّم الإسبانية التي تساعدني على التواصل مع ملايين الأميركيين؟ بماذا ستفنعني الإيطالية؟ فأنا لا أنوي الانتقال إلى هناك. ربّما كان من العملي أكثر لو أتعلّم العزف على الأكورديون.

لكن لمّ يجب أن يكون لكلّ شيء في الحياة وظيفة عملية؟ كنت لسنوات عديدة أعمل كجنديّ متفانٍ؛ أعمل، أنتج، أحترم وعودي،

أعتني بأحبائي وبشؤوني المالية، أؤدّي واجبي الانتخابي... وغيرها من الواجبات. هل يفترض بنا أن نحيا لتأدية واجباتنا وحسب؟ وهل أحتاج في هذه المرحلة المظلمة إلى مبرّر لتعلّم الإيطالية عدا كونه الشيء الوحيد الذي يجلب لي السعادة في الوقت الحاضر؟ علماً أنّه ليس بالشيء الفاضح أن ترغب بتعلّم لغة. فهذا ليس كمن تقول في سنّ الثانية والثلاثين: "أريد أن أصبح راقصة الباليه الأولى في فرقة نيويورك للباليه". تعلّم لغة جديدة هو أمر ممكن. هكذا، انتسبت إلى أحد الصفوف التعليمية المستمرة (المعروفة أيضاً بالمدرسة الليلية للمطلّقات). وجد أصدقائي الأمر مثيراً للضحك. فقد سألتني صديقي نيك مرّة: "ماذا تدرسين الإيطالية؟ هل تفعلين ذلك تحسباً لقيام إيطاليا باحتياج أثيوبيا مجدّداً، ونجاحها هذه المرّة، فتتفاخرين عندها بأنك تتحدّثين لغة تستعمل في دولتين بأكملهما؟".

غير أنّني أحببتها. كانت كلّ كلمة كتفريد عصفور، أو كلمة سحرية بالنسبة إليّ. كنت أندفع إلى البيت تحت المطر بعد انتهاء الصفّ وأعدّ حماماً ساخناً، ثمّ أتمدّد هناك وسط فقاقيع الصابون أقرأ القاموس الإيطالي بصوت مرتفع، وأبعد ذهني عن ضغوط الطلاق وأحزان قلبي. كانت الكلمات تجعلني أضحك مسرورة. بدأت أسمّي هاتفي النقال "il mio telefonino" (أي: هاتفي الصغير). أصبحت من أولئك الأشخاص المزعجين الذين يقولون تشاو دوماً! ولكنني كنت أكثر إزعاجاً لأنني كنت أفسّر دائماً مصدر الكلمة. (إن أردت أن تعرف، هي اختصار لجملة كان يستعملها أهالي البندقية في القرون الوسطى كتحيّة حميمة: *Sono il suo schiavo!* أي: أنا عبدك!) مجرد قول تلك الكلمات كان يشعرني بأنني مثيرة وسعيدة. وقد أخبرتني محامية الطلاق بالأقلن. فقد عمدت إحدى زبائنها (وهي كورية الأصل) بعد

طلاق شنيع، إلى تغيير اسمها قانونياً إلى اسم إيطالي لتشعر بأنها مثيرة وسعيدة مجدداً.

في النهاية، قد أنتقل للعيش في إيطاليا...

7

الأمر الآخر البارز الذي حدث في ذلك الوقت كان مغامرتي الروحانية الجديدة. وما ساعد وشجّع عليها بالطبع كان دخول مرشدة هندية حيّة وحقيقية إلى حياتي، والفضل في ذلك يعود إلى ديفيد. تعرّفت على مرشدتي في أوّل ليلة دخلت فيها شقّة ديفيد. فقد أغرمت بهما نوعاً ما. إذ دخلت شقّة ديفيد، ورأيت على الرفّ صورة مشرقة لامرأة هندية جميلة، فسألته: "من هذه؟".

أجاب: "إنّها مرشدتي".

توقّف قلبي للحظة، ثم طار، وتعثّر، ووقع على وجهه. بعدها قام ونفض الغبار عن نفسه وقال بعد أن أخذ نفساً عميقاً: "أريد أن يكون لي مرشدة". أنا أعني ذلك فعلاً حين أقول إنّ قلبي هو من قال ذلك، وتحدّث من خلال فمي. فقد شعرت بانقسام يحدث في داخلي وبعقلي يخرج من جسدي للحظة، ثم يستدير ليواحه قلبي مذهولاً ويسأله بهدوء: "حقاً؟".

أجاب قلبي: "أجل، حقاً".

عندها سأله عقلي ساخرًا: "منذ متى؟".

لكنتي عرفت الإجابة مسبقاً: منذ تلك الليلة على أرض الحمام. يا الله، لكنتي أردت أن يكون لي مرشدة. فرّحت أنخيّل على الفور كيف سيكون الأمر. تخيلت تلك المرأة الهندية الجميلة والمشرقة

تأتي إلى شقّتي بضع ليالٍ في الأسبوع فنجلس معاً ونشرب الشاي
ونتحدّث، ثمّ تعطيني واجباتٍ للقراءة وتشرح لي معنى المشاعر الغريبة
التي تتابني في أثناء التأمل...

لكن سرعان ما تلاشت تلك الفانتازيا حين أخبرني ديفيد
بالمنزلة العالمية لتلك المرأة وطلّابها الذين يبلغ عددهم عشرات
الآلاف، ومعظمهم لم يقابلها أبداً وجهاً لوجه. ولكن كان ثمة اجتماع
هنا في نيويورك، على حدّ قوله، كلّ مساء ثلاثاء لأنصار الغورو
يستمعون للتأمل والإنشاد. قال ديفيد: "إن كانت فكرة وجودك في
غرفة مع بضع مئات من الأشخاص الذين ينشدون بالسنسكربتية لا
ترعبك، يمكنك مرافقتي أحياناً".

رافقته مساء الثلاثاء التالي. وعضواً عن الشعور بالفزع من هؤلاء
الأشخاص العاديين الذين ينشدون لله، شعرت بروحي ترتفع وكأنّها
شفافة على أثر ذلك الإنشاد. وعدت إلى المنزل تلك الليلة وأنا أشعر
بأنّ الهواء يمكنه اختراقني وكأنّني قطعة من الملابس القطنية النظيفة التي
ترفرف على جبل غسيل، وكأنّ نيويورك نفسها أصبحت مصنوعة من
ورق الأرز، وأنا خفيفة جداً إلى حدّ أنّي أركض فوق أسطح المنازل.
فأخذت أذهب إلى جلسات الإنشاد كلّ ثلاثاء. ثمّ بدأت أمارس التأمل
كلّ صباح بالمانترا السنسكربتية القديمة التي أعطتها الغورو لجميع
طلّابها. ثمّ استمعت إلى الغورو وهي تتحدّث شخصياً للمرّة الأولى،
وكلامها جعل القشعريرة تسري في جسدي كلّها، وحتى في وجهي.
وحين سمعت أنّ لديها معتزلاً في الهند، عرفت أنّ عليّ الذهاب إلى
هناك بأسرع ما يمكن.

في تلك الأثناء، اضطررت إلى الذهاب في تلك الرحلة إلى إندونيسيا. وقد حدث ذلك مجدداً كمهمة صحفية. ففي الوقت الذي كنت أشعر فيه بالأسف الشديد على نفسي لانفصالي عن زوجي ووحدتي وتعثر محاولات طلاقي، سألتني محررة في مجلة نسائية ما إذا كان من الممكن أن تدفع لي لإرسالي إلى بالي لكتابة قصة عن عطلات اليوغا. فطرحت عليها سلسلة من الأسئلة، معظمها على شاكلة هل البازيلاء حضراء اللون؟ وحين وصلت إلى بالي (وهو مكان جميل جداً للمناسبة) سألتنا الأستاذ الذي كان يدير صفّ اليوغا: "بما أنكم هنا، هل ثمة من يودّ زيارة عرّاف بالي من الجيل التاسع؟" (سؤال آخر بديهي جداً لنجيب عنه)، فذهبنا جميعاً إلى منزله ذات ليلة.

كان العرّاف، كما تبين لنا، عجوزاً قصير القامة، بشوش الوجه، خمري اللون، فمه خال تقريباً من الأسنان، لا أبالغ إن شبهته تماماً بشخصية يودا في حرب النجوم. كان اسمه كيتوت لاير. يتحدّث الإنكليزية بطريقة غير واضحة وممتعة بكلّ معنى الكلمة، ولكن كان ثمة مترجم يساعده حين تستعصي عليه كلمة ما.

كان أستاذ اليوغا قد أخبرنا مسبقاً أنّ بإمكان كلّ منّا طرح سؤال أو مشكلة على العرّاف، وسيحاول مساعدتنا على حلّ مشاكلنا. ورحت أفكّر لأيام ماذا أسأله. كانت أفكارني الأولى غير مترابطة. هل يمكنك أن تجعل زوجي يمنحني الطلاق؟ هل يمكنك أن تجعل ديفيد ينجذب إليّ من جديد؟ شعرت بالخجل من نفسي لتلك الأفكار: من يسافر حول العالم لمقابلة عرّاف قدم في إندونيسيا ليطلب منه التدخّل في أمور عاطفية؟

لذا، حين سألني الرجل ماذا أريد فعلاً، أجبته بكلمات أخرى أكثر صدقاً.

...

قال كيتوت إنه يستطيع الإجابة عن سؤالي بواسطة صورة. فأراني رسماً خطّه ذات مرّة في أثناء جلسة تأمل. كان الرسم لكائن بشري يقف مصلياً ويده مشبوكتان. ولكن كان لذلك الكائن أربع أرجل ولم يكن له رأس. فمكان الرأس، كان ثمة أزهار وحشائش بريّة. فيما ظهر وجه صغير مبتسم فوق القلب.

قال كيتوت من خلال المترجم: "التجدي التوازن الذي تبحثين عنه، عليك أن تصبّحي كذلك. عليك أن تقفي بثبات على الأرض وكانّ لديك أربع أرجل عوضاً عن اثنتين. بتلك الطريقة يمكنك البقاء على الأرض. ولكن ينبغي أن تتوقّفي عن النظر إلى العالم من خلال رأسك، وأن تنظري من خلال قلبك. هكذا ستعرفين الله".

ثمّ سألني ما إذا كنت أسمع له بقراءة كفي. فأعطيته يدي اليسرى وراح يجمع أجزائي وكأني أحجّية من ثلاث قطع. بدأ قائلاً: "أنت تحيّن السفر حول العالم".

وجدت الأمر بديهياً، نظراً لكوني في إندونيسيا، ولكنني لم أعلّق...

"أنت أكثر شخص محظوظ قابلته في حياتي. ستعيشين طويلاً ويكون لديك العديد من الأصدقاء والكثير من التجارب. ولكن ثمة مشكلة واحدة في حياتك، فأنت شديدة القلق. أنت انفعالية وعصبية جداً. إن وعدتك بأنه ليس لديك أيّ سبب للقلق على أيّ شيء في حياتك، فهل تصدّقيني؟".

أومأت برأسي، ولكنني لم أصدّقه.

من الناحية المهنية، أنت تقومين بعمل مبدع، فتانة ربّما، وتجنّين منه مبالغ جيّدة من المال. ستجنّين دوماً الكثير من المال لقاء العمل الذي تقومين به. وأنت كريمة بالنسبة إلى المال. شديدة الكرم ربّما. هنا أيضاً، نَمّة مشكلة واحدة. ستخسرين كلّ مالك مرّة في حياتك. وأعتقد أنّ هذا الأمر سيحدث قريباً".

قلت وأنا أفكّر بطلاقي: "أعتقد بأنّه قد يحدث في الأشهر الستّة إلى العشرة القادمة".

أوماً كيتوت برأسه وكأنّه يقول، أجل، يبدو ذلك صحيحاً. ثمّ قال: "ولكن لا تقلقي، بعدما تخسرين كلّ مالك، ستستعيدينه مجدّداً. وبعدها ستكونين بخير. تعرفين زوجين في حياتك، أحدهما قصير والآخر طويل. وتجنّين طفلين...".

انتظرتّه ليقول: "أحدهما قصير والآخر طويل"، ولكنّه صمت فجأةً وعبس محدّقاً إلى كفيّ. ثمّ قال: "غريب..."، وهذا ما لا ترغب بسماعه لا من قارئ كَفك ولا من طبيب أسنانك. هنا طلب منّي الاقتراب من المصباح ليتمكّن من رؤية التفاصيل بشكل أفضل.

عندها أعلن قائلاً: "أنا مخطئ، ستجنّين طفلاً واحداً. لاحقاً في حياتك، ابنة، ربّما. هذا إن قرّرت... ولكنّ نَمّة أمراً آخر". عبس ثمّ رفع رأسه وقال بثقة تامّة: "يوماً ما ستعودين إلى بالي. لا بدّ من ذلك. ستقيمين هنا في بالي لثلاثة أو أربعة أشهر. وستصبحين صديقتي. وقد تعيشين هنا مع عائلتي وسأتمكّن عندها من التمرّن على الإنكليزية معك. لم أحصل يوماً على شخص أتمرّن معه على التحدّث بالإنكليزية. أعتقد أنّك ماهرة مع الكلمات. أظنّ بأنّ العمل المبدع الذي تقومين به على علاقة بالكلمات، صحيح؟".

قلت: "أجل! أنا كاتبة. أوّلّف الكتب!".

وافقني مؤكداً: "أنت مؤلفة كتب من نيويورك. إذاً، ستعودين إلى هنا، وتعيشين في بالي، وتعلميني الإنكليزية. وأنا سأعلمك كل ما أعرفه".

ثم وقف وفرك كفيه وكأنه يقول، لقد سوي الأمر.

قلت: "إن كنت جاداً يا سيدي، فأنا جادة".

ابتسم لي فانفجرت شفتاه عن فم خال من الأسنان وقال: "إلى اللقاء قريباً".

9

في الحقيقة، أنا من النوع الذي، حين يخبره عراف إندونيسي من الجيل التاسع بأنه سينتقل للعيش في بالي لأربعة أشهر، يظن أن عليه بذل كل ما في وسعه لفعل ذلك. وهكذا أخذت تتبلور فكرة السفر كلها تلك السنة. كان عليّ حتماً العودة إلى إندونيسيا بطريقة ما، على حسابي الخاص هذه المرة. كان هذا بديهيّاً. ولكن، كيف سأتمكن من ذلك، في ظلّ الفوضى والاضطراب اللذين يسودان حياتي؟ (لا أعني الطلاق المكلف الذي لم يسوّ بعد، ومشاكل ديفيد وحسب، بل وظيفتي في المجلّة أيضاً، والتي لا تسمح لي بالتغيب لأربعة أشهر متواصلة). ولكن، ينبغي عليّ العودة. أليس كذلك؟ ألم يتوقع لي بذلك؟ المشكلة هي أنني أرغب أيضاً بالذهاب إلى الهند لزيارة معتزل مرشدتي، والرحلة إلى الهند مكلفة من ناحية المال والوقت على حدّ سواء. ولزيادة الأمور تعقيداً، كنت أتوق مؤخراً للذهاب إلى إيطاليا، ليس لأتمرن على الإيطالية في مهدها فحسب، بل لأنني كنت منجذبة إلى فكرة العيش لفترة من الزمن في أحضان ثقافة تمجّد اللذة والجمال.

تبدو كلّ هذه الرغبات متضاربة مع بعضها، لا سيّما صراع إيطاليا/الهند. أيّ جزء منّي كان الأهمّ؟ أهو ذاك الذي أراد تناول لحم العجل في البندقية، أم ذاك الذي أراد أن يصحو قبل الفجر بكثير في عتمة معتزل ليبدأ نهاراً طويلاً من التأمل؟ ذات مرّة، طلب الشاعر والفيلسوف الكبير، الرومي، من تلامذته كتابة ثلاثة أشياء هي أكثر ما يرغبون به في حياتهم. فإن تضارب أحدها مع آخر، حدّتهم الرومي من أن مصيرهم سيكون التعاسة. من الأفضل على حدّ قوله أن يركّز الإنسان في حياته على نقطة واحدة. ولكن ماذا عن حسنات العيش المتناغم بين طرفين متناقضين؟ ماذا لو تمكّنت بطريقة ما من أن تجمع بين طرفين متناقضين في الظاهر في حياة لا تستثني شيئاً؟ حقيقتي هي في الواقع ما قلته للعرّاف في بالي بالضبط - أردت اختبار الاثنين: المتعة الدنيوية والتجاوز الروحي - المجد المزدوج للحياة البشرية. أردت ما سماه الإغريق التوازن الفريد للخير والجمال. فقد كنت أفتقد إلى الاثنين في السنوات الصعبة الماضية، لأنّ كلاً من المتعة والتعبّد يحتاجان إلى مساحة خالية من التوتّر يزدهران فيها، بينما كنت أعيش في مستوعب كبير من القلق المتواصل. أمّا بالنسبة إلى كيفية الموازنة بين المتعة والتوق إلى العبادة... حسناً، لا بدّ من وجود حيلة لتحقيق ذلك. وقد بدا لي، من إقامتي القصيرة في بالي، أنني قد أتعلّم ذلك من الباليين. ربما من العرّاف نفسه.

أربع أرجل على الأرض، رأس مكسو بالأعشاب، ينظر إلى العالم من خلال قلبه...

هكذا توقّفت عن الاختيار بين إيطاليا والهند وإندونيسيا. وأقررت في النهاية أنني أودّ السفر إليها جميعاً. أربعة أشهر في كلّ منها، ما مجموعه عام كامل. بالطبع، كان هذا الحلم طموحاً أكثر بقليل من

رغبتني بشراء علبة أقلام جديدة. ولكن كان هذا ما أردته. كما عرفت أنني أودّ الكتابة عنه. إلا أنّ ما أسعى إليه ليس استكشاف تلك البلدان، لقد سبق وتمّ ذلك. ما أردته في الواقع هو أن أستكشف بعمق ناحية معيّنة من ذاتي في إطار كلّ تلك البلدان، في مكان أعتاد تقليدياً على إتقان ذلك الشيء. أردت استكشاف فنّ المتعة في إيطاليا، وفنّ التأمل في الهند، وفي إندونيسيا، فنّ الموازنة بين الاثنين. ولم ألاحظ سوى لاحقاً، بعد الإقرار بهذا الحلم، أنّ كلاً من هذه البلدان يبدأ (بالإنكليزية) بالحرف I (أي أنا). وهي إشارة تبشّر بالخير على ما بدا لي في تلك الرحلة من البحث عن الذات.

تخيّل الآن التعليقات الساخرة التي أطلقها أصدقائي الماكرون. لمّ لا تمضين العام في إيران وشاطئ العاج وإيسلندا؟ أو حتى تذهبين في رحلة إلى الدولة الثلاثية: إيسليبي، إي - 95، وإيكيا؟ أما صديقتي سوزان فاقترحت عليّ تأسيس جمعية خيرية تحت اسم **مطلقات بلا حدود**. ولكنّ كلّ هذا المزاح كان بلا جدوى لأنني لم أكن حرة بالذهاب إلى أيّ مكان بعد. فعلى الرغم من مرور وقت طويل على انفصالي عن زوجي، لم أحصل على الطلاق بعد. كنت قد بدأت أضغط على زوجي قانونياً، وأقوم بأمر فظيعة، كتقديم الأوراق وكتابة اتهامات قانونية مُدِينة (يفرضها قانون ولاية نيويورك) عن قسوته الذهنية المزعومة، وهي وثائق لم تترك أيّ مجال للتحاذق أو لأن أقول للقاضي: "اسمع، كانت علاقة معقّدة جداً، وقد ارتكبت الأخطاء أنا أيضاً، وأنا آسفة جداً لذلك، ولكن كلّ ما أريده الآن هو السماح لي بالرحيل".

(هنا أتوقّف لأدعو للقارئ: أتمنّى ألاّ تضطر يوماً ما إلى الحصول على الطلاق في نيويورك).

في ربيع العام 2003، بلغت الأزمة ذروتها. فبعد سنة ونصف من رحيلي، أصبح زوجي مستعداً أخيراً لمناقشة شروط التوصل إلى تسوية. أجل، أراد المال والمنزل وإيجار شقة منهاتن، كل ما كنت أعرضه طيلة الوقت. ولكنه كان يطلب أيضاً أشياء لم أفكر فيها أبداً (حصّة من إيراد الكتب التي ألّفتها في أثناء الزواج، نسبة من حقوق الاستثمار المحتمل لأعمالي في السينما في المستقبل، حصّة من حساب تقاعدي... وغيرها) وهنا كان لا بدّ من أن أعترض أخيراً. أعقب ذلك شهر من المفاوضات بين محامينا، وبدأت بوادر التسوية تظهر، إلى أن بدا بأن زوجي قد يقبل في الواقع بصفقة معدّلة. ستكلّفني ثمناً باهظاً، ولكن النزاع في المحاكم سيكون طويلاً ومكلفاً أكثر، هذا من دون أن نذكر كم سيكون مضمناً. إن وقع على الاتفاق، فلن يكون عليّ سوى دفع المال والرحيل. ولم أكن أرى بأساً في ذلك عندها. فبعد أن تدمّرت علاقتنا تماماً، ولم يعد ثمة مكان للياقة والمدنية بيننا، لم أعد أريد سوى الرحيل.

كان السؤال: هل سيوقع؟ مرّت الأسابيع، وكان يناقش في مزيد من التفاصيل. إن لم يوافق على هذا الاتفاق، فسيحتّم علينا اللجوء إلى القضاء. والمحكمة تعني خسارة كلّ ما تبقى من مال في النفقات القانونية بالتأكيد. والأسوأ من ذلك هو أنّ المحكمة تعني سنة أخرى من العيش في هذه الفوضى. إذاً، مهما قرّر زوجي (فهو ما زال زوجي في النهاية) فإنّ قراره سيحدّد شكل العام المقبل من حياتي. هل سأسافر وحدي إلى إيطاليا والهند واندونيسيا، أم سأكون في قاعة محكمة أدلي بشهادتي؟

كنت أتصل بمحاميي كلّ يوم أربع عشرة مرّة - هل من أبناء جديدة؟ - وفي كلّ مرّة كانت تؤكد لي بأنّها تبذل ما في وسعها وبأنّها

ستصل بي على الفور ما إن تُوقَّع الصفقة. كان التوتّر الذي عشته في تلك الفترة يتراوح بين انتظار استدعاء من قبل المدير واستباق نتائج تحليل خزعة. أودّ لو أقول بأنني حافظت على هدوئي وسلامي الداخليين، ولكنني لم أفعل. بل قضيت عدّة ليالٍ أطرق بيدي على الأريكة فيما تتقاذفني أمواج الغضب، وفي معظم الوقت كنت أغرق في اكتئاب مؤلم.

في تلك الأثناء، انفصلت وديفيد مجدّداً. وبدا الانفصال هذه المرّة نهائياً. أو ربّما لا، فنحن لم نكن قادرين على التخلّي عن بعضنا تماماً. كثيراً ما كانت تغلبي الرغبة بالتضحية بكلّ شيء مقابل حبه. وفي أحيان أخرى، كانت تتأبني رغبة مناقضة تماماً، فأودّ لو أنّ قارّات وبحاراً تفصل بيني وبين ذاك الشابّ أملاً في أن أجد السلام والسعادة. أصبحت لديّ الآن خطوط عميقة في وجهي، أثلام دائمة حفرها البكاء والقلق بين حاجبي.

ووسط كلّ هذا، كان يتمّ نشر كتاب ألفته منذ بضع سنوات، وكان عليّ الذهاب في جولة ترويجية صغيرة. اصطحبت معي في تلك الجولة صديقتي إيفا. كانت إيفا من عمري، ولكتّها نشأت في بيروت، لبنان. ما يعني أنّه فيما كنت أمارس الرياضة وتعلّم عزف الموسيقى في مدرسة متوسطة في كونكتيكت، كانت إيفا مكوّرة في ملجأ لخمس ليالٍ في الأسبوع هرباً من الموت. لست واثقة كيف أنتج هذا التعرّض المبكر للعنف شخصاً بهذا الثبات الآن، إلّا أنّها من أكثر الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي رزانة. بالإضافة إلى كلّ ذلك، لديها ما أدعوه بالاتصال الدائم مع الكون، وكأنّها قناة خاصة مفتوحة على مدار الساعة.

كنّا نقود السيارة عبر كنساس وكنت في حالتي المعتادة من القلق بسبب مسألة الطلاق - هل سيوقّع أم لن يوقّع؟ - وقلت لإيفا: "لا

أظنني قادرة على احتمال عام آخر في المحاكم. أمتني لو أن تدخلًا يحدث الآن...".

"لم لا تفعلين إذا؟".

شرحت لإيفا آرائي الشخصية.

أصغت إليّ إيفا بتهذيب ثم سألتني: "من أين أتيت بتلك الأفكار السخيفة؟".

"ماذا تعنين؟".

"من أين أتيت بفكرة كونك لا تملكين الحقّ بطلب ما تشائين في الدعاء؟ أنت جزء من هذا الكون ليز. أنت جزء أساسي ولديك كلّ الحقّ بالمشاركة في ما يحدث فيه وبأن تعبّري عن مشاعرك. لذا، قولي رأيك. قدّمي قضيتك، وصدّقيني، سنؤخذ على الأقلّ في الاعتبار".

"حقاً؟" كان كلّ ذلك جديداً بالنسبة إليّ.

"حقاً! اسمعي، لو كتبت رسالة طلب الآن، ماذا ستقولين فيها؟".

فكرت لبرهة ثمّ أخرجت دفترًا صغيراً وكتبت الطلب:

....

قرأتها لإيفا، فأومأت برأسها موافقة.

ثمّ قالت: "كنت لأوقع عليها".

قدّمت لها الرسالة مع قلم، ولكنها كانت مشغولة بالقيادة،

فقالت: "كلا، لنقل بأنني وقّعت. وقّعت عليها بقلبي".

"شكراً إيفا، أفدّر دعمك لي".

فسألت: "والآن، من كان ليوقع عليها أيضاً؟".

"عائلتي. أمي وأبسي. شقيقتي".

قالت: "حسناً. ها قد فعلوا. اعتبري بأن أسماءهم قد أضيفت -
في الحقيقة شعرت فعلاً بأنهم وقَّعوا عليها؛ أصبحوا على القائمة الآن -
حسناً، من كان ليوقع أيضاً؟ ابدأي بتعداد أسماء".

فبدأت بتعداد أسماء جميع الأشخاص الذين كانوا ليوقعوا على
تلك الرسالة. ذكرت جميع أصدقائي المقربين، وبعض أفراد العائلة
وأشخاصاً عملت معهم. وبعد كل اسم، كانت إيفا تقول بثقة:
"أجل، وقَّع عليها للتو"، أو "وقَّعت عليها للتو". وكانت تطلق
أحياناً أسماء موقعين من قبلها، مثل: "والداي وقَّعا للتو. فقد ربّيا
أطفالهما خلال الحرب. وهما يكرهان الصراعات العقيمة وسيفرحان
لانتهاه طلاقك".

أغمضت عيني، وحاولت تذكّر المزيد من الأسماء.
ثمّ قلت: "أعتقد بأنّ بيل وهيلاري كلينتون وقَّعا للتو عليها".
قالت: "لا أشكّ بذلك. اسمعي ليز، بإمكان أيّ شخص أن يوقع
على هذه الرسالة. هل تفهمين ذلك؟ اتصلي بأيّ كان، حيّ أو ميت،
وابدأي بجمع التواقيع".
هنا بدأت ألق الأسماء:

"أبراهام لينكولن وقَّع للتو! وغاندي ومانديلا وجميع دعاة
السلام. إيليانور روزفلت، بونو، جيمي كارتر، محمّد علي، جاكوي
روبنسون... وجدّتي التي توفّيت عام 1984 وجدّتي التي ما زالت على
 قيد الحياة... وأستاذ اللغة الإيطالية ومستشارتي النفسية ووكيلي...
ومارتن لوثر كينغ الابن وكاثرين هيبورن... ومارتن سكورسيزي
(وهو أمر لم تكن تتوقّعه بالضرورة، إلّا أنّها كانت بادرة لطيفة من
قبله)... ومرشدتي، بالطبع... وجوان وودوارد وجان دارك والأنسة
كارينتر، مدرّستي في الصفّ الرابع، وجيم هنسون".

هكذا توالى الأسماء. لم تكفّ عن التدفّق لساعة تقريباً، ونحن نقود عبر كنساس، فيما تعاقبت الصفحات غير المرئية للمؤيدين لعريضي. واستمرت إيفا تؤكد - أجل، وقع عليها، أجل وقّعت عليها - فملاًني إحساس عارم بالحماية، وأنا محاطة بكلّ هؤلاء الأشخاص ذوي النوايا الطيبة.

أخيراً، انتهت القائمة وانتهى معها قلقي. كنت أشعر بالنعاس، فقالت لي إيفا: "خذني غفوة قصيرة وأنا أتابع القيادة". أغمضت عيني. ظهر اسم أخير فتمتت قائلة: "مايكل جاي. فوكس وقّع للتو"، ثم غرقت في النوم. لا أعرف كم طال نومي، ربّما عشر دقائق فقط، ولكنّه كان عميقاً. حين استفتقت، كانت إيفا لا تزال تقود السيارة وهي تدندن أغنية لنفسها. ثناءبت.

هنا رنّ هاتفني المحمول.

نظرت إلى الهاتف الصغير المجنون وهو يرنّ طرباً في منفضة السيارة. شعرت بالإرباك لأنّني ما زلت تحت تأثير النعاس، ولم أعد قادرة فجأة على تذكر كيفية استعماله.

"هيا، أجيبني"، قالت إيفا، التي عرفت مسبقاً.

فتحت الخطّ وهمست: ألو.

"أخبار رائعة!" أعلنت محاميّتي من مدينة نيويورك. "لقد وقّع للتو!"

10

بعد مرور بضعة أسابيع، كنت أعيش في إيطاليا.

كنت قد تركت عملي، وسدّدت تكاليف الطلاق والنفقات القانونية، وتخلّيت عن منزلي وعن شقّي، تركت مقتنياتي في منزل

شقيقتي، وحزمت حقيبتين. كنت قادرة على تحمّل نفقات الرحلة بسبب معجزة شخصية مذهلة: فقد اشترى الناشر الكتاب الذي سأؤلفه عن رحلتي مسبقاً. هكذا، وبتعبير آخر، حدثت الأمور تماماً كما توقع العرّاف الإندونيسي. خسرت كلّ مالي واستعدته على الفور أو على الأقلّ ما يكفي لأعيش لمدة عام.

ها أنا الآن مقيمة في روما. كانت الشقّة التي وجدتها عبارة عن استوديو هادئ في مبنى تاريخي يقع على بعد بضعة مبان فقط من فندق Spanish Steps، محبباً تحت ظلال الحدائق البورغيزية الأنيقة، في الشارع المتجه من بياترا ديل بولو، التي كان الرومان القدماء يتسابقون فيها بعرباتهم. بالطبع، لم يكن هذا الحيّ يشبه بشيء فخامة الحيّ النيويوركي الذي كنت أعيش فيه والذي كان يطلّ على مدخل نفق لينكولن، إلّا أنّه مع ذلك، يفي بالغرض...

11

لم تكن الوجبة الأولى التي تناولتها في روما بذات أهمية. مجرد بعض الباستا المحضّرة في المنزل (سباغيتي ألا كاربونارا) مع السبانخ والثوم المقلّى. (ذات مرة، كتب الشاعر الرومانسي الكبير شيلي رسالة مروّعة إلى صديقه في إنكلترا عن المطبخ الإيطالي: "لن تتخيّل ماذا تأكل الشابات من العائلات العريقة، الثوم!") كما طلبت قطعة أرضي شوكي، أردت تجربتها وحسب، فالرومان فخورون جداً بها. ثمّ أحضرت لي النادلة طبقاً جانبياً مجانياً كمفاجأة، براعم الكوسى المقلية مع قليل من الجبن في الوسط (محضّرة بعناية شديدة لدرجة أنّ البراعم لم تلاحظ على الأرجح أنّها لم تعد على النبتة). وبعد السباغيتي، جرّبت

لحم العجل. أوه، كما شربت زجاجة من الشراب، لي وحدي.
وأكلت بعض الخبز الساخن مع زيت الزيتون والملح. أمّا التحلية
فكانت عبارة عن طبق من التيراميسو.

في طريقني إلى المنزل بعد تلك الوجبة، حوالى الحادية عشرة
ليلاً، تناهت إليّ أصوات من أحد الأبنية في الشارع الذي أظن فيه، بدا
وكأنه اجتماع لأطفال في السابعة من العمر، ذكرى ميلاد ربّما؟
ضحك، وصراخ، وركض. صعدت السلام إلى شقّي، وتمدّدت على
سريري، وأطفأت النور. انتظرت أن يبدأ البكاء والقلق، لأنّ هذا ما
يحدث عادة مع انطفاء النور، ولكن كنت بخير في الواقع. أحسست
بالأعراض الأولى للرضى.

عندها سألت جسدي المرهق عقلي المرهق: "أهذا كلّ ما كنت
تحتاج إليه إذاً؟".

لكن لا جواب. كنت قد استغرقت في النوم.

12

في جميع المدن الكبرى في العالم الغربي، تبقى الأمور نفسها
على حالها. فالرجال الأفريقيون أنفسهم يبيعون الحقائق والنظارات
الشمسية نفسها للمصمم نفسه، والعازفون الغواتيماليون أنفسهم
يعزفون دوماً الأغنية نفسها بقصب الخيزران. غير أنّ بعض الأشياء لا
توجد سوى في روما. كبائع الشطائر الذي يناديني بعفوية "آيتها
الجميلة" كلّما تحدّثنا. تريدين البانينو مشوّياً أم بارداً، ييلاً؟ أو كالحخبين
الذين يعبرون عن هيامهم في كلّ مكان، وكأنهم في مباراة، فيجلسون
في أحضان بعضهم على المقاعد ويداعبون بعضهم بلا توقّف...

هنالك أيضاً النوافير. فقد كتب بليبي الأكبر مرة: "لو تأمل المرء في وفرة المياه العامّة في روما، المؤمّنة للحمامات، والأحواض، والأقنية، والبيوت، والحدائق، والدارات وأخذ في الاعتبار المسافة التي قطعتها، والقناطر التي بنيت، والجبال التي خُرقت، والأودية التي حُفرت لأقرّب بأنّه ما من شيء أكثر روعة في العالم بأسره".

بعد بضعة قرون، سيكون لي بضع نوافير تُضاهي نافورتي المفضّلة في روما جمالاً. إحداها في دارة بورغيز. في وسط تلك النافورة ثمة عائلة برونزية جذلة. أبي هو عبارة عن فون وأمّي امرأة بشرية عادية. ومعهما طفل يستمتع بأكل العنب. تمثالاً أمّي وأبي يقفان في وضعية غريبة؛ يواجهان بعضهما ويمسك كلّ منهما برسغي الآخر، وكلاهما منحنيان إلى الخلف. من الصعب القول ما إذا كانا متخاصمين أم يتمايلان بمرح، ولكنّ طاقة قوية تنبعث منهما. في كلتا الحالتين، يجلس الصغير فوق رسغيهما، بينهما تماماً، غير متأثر بمرحهما أو خصامهما، ويمضغ العنب. بينما تتدلّى قدماه تحته وهو يأكل. (وقد ورث ذلك من أبيه).

كنا في أوائل أيلول 2003، وكان الجوّ دافئاً وبيع على الكسل. مرّ على وجودي في روما أربعة أيام، لم أظأ فيها عتبة دار عبادة أو متحف ولم أتصفّح دليلاً سياحياً. بل كنت أسير بلا توقّف ومن دون هدف معيّن إلى أن عثرت أخيراً على محلّ صغير أخبرني عنه سائق باص ودود بأنّه يبيع أفضل المثلّجات في روما. يدعى المكان جيلاتو سان كريسينو. لست واثقة تماماً، ولكنني أظنّ بأنّ الاسم قد يترجم مثلّجات القديس المقرمش. فجرّبت مزيجاً من العسل والبندق. ثمّ عدت لاحقاً في اليوم نفسه لتذوّق الغريفون والبطيخ الأصفر. وبعد العشاء من الليلة نفسها، مشيت إلى هناك مرّة أخيرة لشرب فتجان من الزنجبيل بالقرفة.

كنت أحاول قراءة مقال واحد في الجريدة كل يوم، مهما استغرقني ذلك. كنت أبحث عن معنى كلمة كل ثلاث كلمات تقريباً. واليوم كان الخبر لافتاً. من الصعب تخيل عنوان مأساوي أكثر من ذلك: " *Obesità! I Bambini Italiani Sono i più Grassi d'Europa!* يا الله! البدانة! المقال كان يعلن، على ما أظن، بأن الأطفال الإيطاليين هم الأكثر بدانة في أوروبا! حين واصلت القراءة، تبين لي بأن الأطفال الإيطاليين هم أكثر بدانة من الأطفال الألمان وأكثر بدانة بكثير من الأطفال الفرنسيين. (لحسن الحظ، لم يقارنوا وزهم بالأطفال الأميركيين). ويعتبر الأولاد الإيطاليون الأكبر سناً بدينين على نحو خطير هذه الأيام أيضاً، استناداً إلى المقال. (صناعة المعجنات الإيطالية دافعت عن نفسها). وكانت تلك الإحصاءات المثيرة للقلق قد نشرت البارحة من قبل هيئة دولية. استغرقت لساعة تقريباً في فك رموز المقال بأكمله. وكنت خلال ذلك آكل البيتزا، وأستمع إلى أحد الأطفال الإيطاليين وهو يعزف على الأكورديون، ولكنه لم يبد لي بديناً، ربما لأنه غجري. ولست واثقة مما إذا كنت قد أسأت فهم آخر سطر في المقال، ولكن بدا لي أن الحكومة تتحدث عن فرض ضريبة على البدانة، لكونها الطريقة الوحيدة لحل أزمة البدانة في إيطاليا...؟ أمن الممكن أن يكون الأمر صحيحاً؟ وهل سيلاحقوني بعد عدة شهور من الأكل على هذا الشكل؟

من الأهمية بمكان أيضاً، قراءة الجريدة كل يوم للاطلاع على حال البابا. هنا في روما، تسجل صحة البابا يومياً في الجريدة، تماماً كالطقس، أو برامج التلفزيون. البابا اليوم متعب. البارحة، كان البابا أقلّ تعباً مما هو عليه اليوم. غداً، من المتوقع ألا يكون البابا متعباً بقدر اليوم.

كانت اللغة هنا أشبه بلغة الحكايات الخرافية بالنسبة إليّ. فبالنسبة إلى شخص أراد دوماً تكلم الإيطالية، هل من مكان أفضل من روما؟ وكان أحدهم أوجد مدينة حسب طلبي، حيث الجميع (حتى الأطفال، حتى سائقو التاكسي، حتى ممثلو الإعلانات!) يتحدثون هذه اللغة الساحرة. وكانّ المدينة كلّها متأمرة لتعليمي الإيطالية. حتى إنهم ينشرون الجرائد بالإيطالية خلال وجودي هنا، لا يمانعون في ذلك! ولديهم مكتبات لا تباع سوى الكتب الإيطالية! عثرت على إحداها صباح البارحة وشعرت وكأنّني دخلت قصرًا خياليًا. كان كلّ ما فيها بالإيطالية. تجوّلت فيها وكنت ألمس جميع الكتب، على أمل أن يعتقد كلّ من يراني بأنّ الإيطالية هي لغتي الأمّ. آه، كم أودّ لو أنّ الإيطالية تفتح أبوابها لي! ذكّرني هذا الشعور حين كنت في الرابعة من عمري، ولا أعرف القراءة، ولكنّني كنت أتوق إلى تعلّمها. أذكر أنّي جلست مرّة مع أمّي في صالة الانتظار في عيادة أحد الأطباء، أحمل مجلّة عن فنّ الطبخ أمامي، وأقلب الصفحات ببطء وأنا أحدّق إلى النصّ، أمله أن يظنّ الموجودون في الصالة بأنّني أقرأ فعلاً. ولم أشعر بتلك الرغبة بالفهم منذ ذلك الوقت. عثرت في تلك المكتبة على دواوين لشعراء أميركيين تضمّ النصّ الإنكليزي الأصلي على صفحة والترجمة الإيطالية على الأخرى. فاشترت ديواناً لروبرت لويل وآخر للوزير غلوك.

ثمّة دروس محادثة عفوية في كلّ مكان. اليوم مثلاً، كنت جالسة على مقعد في حديقة عامّة حين أتت امرأة مسنّة في ثوب أسود، وراحت تحدّثني عن أمر ما. هزرت رأسي مرتبكة وعاجزة عن الكلام. فاعتذرت بلغة إيطالية لطيفة جداً: "أنا آسفة، ولكنني لا أتحدّث الإيطالية". فبدت وكأنّها على وشك أن تضربني بملقعة من الخشب وأصرّت قائلة: "أنت تفهمين!" (وكانت على حقّ في الواقع. فقد

فهمت تلك الجملة). أصبحت تريد أن تعرف الآن أين ولدت. فأخبرتها أنني من نيويورك، وسألته من أين هي. كانت من روما بالطبع! فصفقت كفتي بحماس الأطفال. آه، روما! روما الجميلة! أحب روما! روما الساحرة! أصغت إلى انفعالي البدائي بتشكك. ثم سألتني ما إذا كنت متروجة، فأخبرتها أنني مطلقة. كانت تلك المرة الأولى التي أخبر أحداً بذلك، وها أنا أقولها بالإيطالية. سألتني بالطبع "Perché?" في الواقع... "لماذا" هو سؤال تصعب الإجابة عنه في أي لغة كانت. تلعثت، ثم قلت أخيراً: "L'abbiamo rotto" (حطّمنا زواجنا).

هزّت برأسها، ثم سارت عبر الشارع إلى محطة الباص، ولم تلتفت إليّ مجدداً. هل غضبت مني؟ الغريب أنني بقيت منتظرة على المقعد لعشرين دقيقة، على أمل أن تعود لتتابع حديثنا، ولكنها لم ترجع أبداً. كان اسمها تشيليسته.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، عثرت على مكتبة. كم أحبّ المكتبات. وبما أننا في روما، كانت هذه المكتبة جميلة وقديمة العهد، وكانت تضمّ باحة خلفية ما كنت لتكتشف وجودها إن نظرت إلى البناء من الشارع. كانت الحديقة عبارة عن مربع توزعت على أرضها أشجار الليمون مع نافورة في الوسط. هذه النافورة ستنافس نافورتي المفضّلة في روما، أستطيع أن أرى ذلك منذ الآن، على الرغم من أنها لا تشبه أياً من النوافير التي رأيتها حتى الآن. فهي لم تكن مصنوعة من الرخام الفخم، بل كانت عبارة عن نافورة عضوية صغيرة خضراء ومكسوة بالطحالب. كانت أشبه بأجمة من الحشائش البرية التي تسيل منها المياه. (بدت في الواقع تماماً مثل الحشائش البرية النابتة من رأس الكائن البشري الذي يصلي والذي رسمه لي العرّاف العجوز في إندونيسيا). وتدفقت المياه من وسط تلك

الشجيرة المزهرة وانهمرت على الأوراق مصدرة صوتاً كثيفاً وناعماً
عبر الباحة بأكملها.

وجدت مقعداً تحت شجرة ليمون، فجلست عليه، وفتحت أحد
الكتب التي اشتريتها في اليوم السابق. لويز غلوك. قرأت القصيدة الأولى
بالإيطالية، ومن ثمّ بالإنكليزية، واستوقفتني هذا السطر القصير:

Dal centro della mia vita venne una grande Fontana...

"من وسط حياتي، تفجّر ينبوع عظيم..."
وضعت الكتاب في حجري وأنا أرتعش من الراحة.

13

للحقيقة، أنا لست أفضل مسافرة في العالم.
أعرف ذلك لأنني سافرت كثيراً وصادفت أناساً ممتازين في
السفر، طبيعيين فعلاً. أناساً يتمتعون بقوة جسدية إلى حدّ أنهم قد
يشربون زجاجة من المياه من مجارير كالكوتا من دون أن يمرضوا. أناساً
يلتقون لغات جديدة حيث يلتقط آخرون أمراضاً معدية. أناساً
يعرفون كيف يواجهون حارس حدود شرساً أو يتملقون بيروقراطياً غير
متعاون في مكتب الفيزا. أناساً يمتازون بطول ولون مناسين بحيث
يبدون عاديين تقريباً أينما حلّوا - في تركيا يكونون أتراكاً وفي
المكسيك يتحولون فجأة إلى مكسيكيين وفي إسبانيا قد يظنهم الناس
باسكيين فيما قد يُعتبرون في شمال أفريقيا عرباً أحياناً...

أمّا أنا فلا أتمتع بتلك المزايا. أولاً، أنا لا أمتزج بسهولة. فبقامتي
الطويلة وشعري الأشقر وبشرتي الوردية، أنا أقرب إلى الفلامينكو منّي إلى
الحرباء. أينما حللت، باستثناء دوسلدورف، يبدو اختلافي بوضوح. حين

كنت في الصين، كانت النساء يُشِرْنَ إليّ في الشارع لأطفالهنّ وكأني حيوان هارب من حديقة الحيوانات. أمّا أطفالهنّ، الذين لم يسبق لهم أن رأوا هذا المخلوق وردي اللون وأشقر الشعر من قبل، فكانوا غالباً ما ينفجرون بالبكاء لدى رؤيتي. كرهت ذلك حقاً في الصين.

أنا لست ماهرة (أو ربّما كنت كسولة بالأحرى) في إجراء بحث عن المكان قبل السفر إليه، بل أذهب وأرى ما يحدث. وحين تسافر بهذه الطريقة، فإنّ ما يحدث عادة هو أنّك تضيّع كثيراً من الوقت واقفاً في محطة القطار بارتباك، أو تنفق كثيراً من المال على الفنادق لأنّك لا تعرف مكاناً أفضل. فقد قمت باستكشاف ستّ قارّات في حياتي إلّا أنّ حسّي الضعيف بالاتّجاه والجغرافيا نادراً ما أسعفني في معرفة المكان الذي أتواجد فيه في أيّ وقت من الأوقات. بالإضافة إلى ذلك، أعاني من صعوبة في الحفاظ على رباطة جأشي. فأنا لم أتقن يوماً كيفية إخفاء مشاعري وارتداء قناع يجعلك غير مرئي، ما يعتبر مفيداً عند السفر إلى أماكن خطيرة أو غريبة، كتعابير الاسترخاء التام والسيطرة على الموقف، ما يجعلك تبدو وكأنك تنتمي إلى المكان الذي أنت فيه، حتى وإن كنت في خضمّ أعمال شغب في جاكرتا. ولكنني لست كذلك إطلاقاً، إن كنت لا أعرف ما أفعل، أبدو أنّي لا أعرف ما أفعل. وحين أكون متحمّسة أو عصبية، أبدو متحمّسة أو عصبية. وحين أكون ضائعة، وهو أمر يحدث غالباً، أبدو ضائعة. فوجهي ينقل ما أشعر به بشفافية تامّة. وكما قال ديفيد مرّة: "لديك عكس وجه البوكر. لديك ما يشبه... مصعراً لوجه الغولف".

هذا من دون ذكر الولايات التي جرّها السفر على جهازي الهضمي! لا أودّ في الواقع فتح هذا الموضوع، ولكن يكفي القول بأنني تعرّضت لجميع أنواع الحالات الهضمية الطارئة. ففي لبنان، مرضت إلى

حدّ اعتقدت معه أنني التقطت نوعاً متوسطياً من فيروس الإيبولا. أما في
هنغاريا، فعانيت من نوع مختلف تماماً من الأمراض المعوية، غير إلى
الأبد ما أشعر به تجاه تعبير الجبهة السوفياتية. إلا أنني أعاني أيضاً من
علل جسدية أخرى. فقد أجهد ظهري في اليوم الأول لي في أفريقيا،
وكنت الوحيدة التي أصيبت بعضّة عنكبوت في أدغال فنزويلا، وأسألك
- لا بل أرجوك أن تجيبني! - من يصاب بحرق شمس في ستوكهولم؟

على الرغم من كلّ ذلك، يبقى السفر هو حبّ حياتي الحقيقي.
فمنذ أن كنت في السادسة عشرة من عمري وسافرت للمرّة الأولى إلى
روسيا بنقود جمعتها من عملي كحاضنة أطفال، شعرت بأنّ السفر
يستحقّ أيّ ثمن أو تضحية. أنا مخلصّة ولا أترجع عن حبي له، أكثر
من أيّ حبّ آخر في حياتي. وشعوري تجاه السفر شبيه بشعور أمّ
حديثة وسعيدة تجاه مولودها الذي يعاني من المغص ويكي باستمرار
من دون أن يهدأ، فأنا لا آبه إطلاقاً للمتاعب التي يعرضني لها لأنني
شغوفة به، لأنّه لي، لأنّه يبدو مثلي تماماً.

على أي حال، لست عاجزة تماماً بالنسبة إلى طائر فلأمينكو. بل
لديّ تقنياتي الخاصة للبقاء على قيد الحياة. فأنا صبورة، أعرف كيف أسافر
بحقائب خفيفة ولا أخاف من الأكل. إلا أنّ أئمن مواهبي في مجال
السفر، هي أنني أكوّن صداقات مع أيّ كان. أستطيع أن أصادق
الأموات. لا بل صادقت مرّة مجرم حرب في صربيا، ودعاني لقضاء عطلة
في الجبال مع عائلته. ولا أعني أنني فخورة بذكر قاتل جماعي صربي
كواحد من أصدقائي المقربين (كان عليّ مصادقته لأجل قصّة، ولكي لا
يؤذيني)، ولكنني أقول وحسب إنني أستطيع ذلك. وإن لم يكن ثمة من
أتحّدث معه، بإمكانني مصادقة مجموعة من الصخور. لهذا السبب، لا
أخشى السفر إلى أكثر الأماكن النائية في العالم، وإن لم يكن فيها بشر.

وحين سألتني الناس قبل سفري إلى إيطاليا: "هل تملكين أصدقاء في روما؟" كنت أنفي ذلك، ولكنني أفكر بيّني وبين نفسي، سيكون لي.

في معظم الأحيان، يقابل الناس بعضهم في أثناء السفر صدفة، في المطار أو في مطعم أو سجن. ولكن هذه اللقاءات تحدث عرضاً ولا يجب الاعتماد على الصدفة بالكامل. ولمقاربة أكثر منهجية، كانت هنالك الطريقة التقليدية القديمة المتمثلة في رسالة التعريف (هي اليوم عبارة عن بريد إلكتروني)، تقدّمك رسمياً لمعارف أحد معارفك. وهذه طريقة ممتازة للتعرف، إن كنت لا تتجمل من الاتصال ودعوة نفسك على العشاء. هكذا، وقبل أن أغانر إلى إيطاليا، سألت كلّ من أعرف في أميركا ما إذا كانوا يملكون أصدقاء في روما، ويسرّني القول إنني سافرت مع لائحة لا بأس بها.

ومن بين المرشّحين على لائحة أصدقائي الإيطاليين المحتملين، كنت أتوق للتعرف على شخص يدعى... لوكا سباغيتي. لوكا سباغيتي هو صديق عزيز لصديقي باتريك ماك ديفيت، الذي أعرفه منذ أيام الجامعة. وهذا هو اسمه الحقيقي، أقسم بذلك، ولم أختعه. أعرف أنّه جنوبي، أعني تحيّل كيف تكون حياتك إن كان اسمك باتريك ماك ديفيت؟ على أي حال، أنوي الاتصال بلوكا سباغيتي بأسرع ما يمكن.

14

مع ذلك، علميّ أولاً أن أستقرّ في المدرسة. تبدأ صفوفي اليوم في أكاديمية ليوناردو دا فينشي للغة، وفيها سأدرس الإيطالية لخمسة أيام في الأسبوع، أربع ساعات في اليوم. كنت متحمّسة للدراسة، فأنا تلميذة مثابرة. جهّزت ملابسني في الليلة السابقة، كما فعلت أوّل يوم لي في

الصفّ الأوّل، مع حدائني الجلديّ النظيف وعلبة غدائني الجديدة. أتمنّى أن أعجب أساتذتي.

علينا جميعاً أن نخوض اختباراً في يومنا الأوّل في ليوناردو دا فينشي، لكي نصنّف في المستوى المناسب لقدراتنا. حين سمعت ذلك، بدأت أمل على الفور ألاّ أصنّف في المستوى الأوّل، لأنّ ذلك سيكون مهيناً، لا سيّما وأنّني درست الإيطالية لفصل كامل في مدرسة السيّدات المطلّقات الليلية في نيويورك، وأمضيت الصيف بأكمله في حفظ مفردات، كما أنّني في روما منذ أسبوع، أتمرّن على اللغة شخصياً وأتحدّث مع الجدّات العجائز عن الطلاق. المشكلة هي أنّني لا أعرف عدد المستويات في هذه المدرسة، ولكن ما إن سمعت كلمة مستوى حتى قرّرت أنّني ينبغي أن أدخل المستوى الثاني على الأقلّ.

إذاً، كان الجو ممطراً ذاك اليوم، ووصلت إلى المدرسة باكراً وخضعت للامتحان. كان امتحاناً صعباً للغاية! لم أستطع حلّ رבעه حتى! مع أنّني أعرف الكثير في الإيطالية، أعرف عشرات الكلمات، ولكنّهم لم يسألوني شيئاً ممّا أعرفه. ثمّ خضت امتحاناً شفهيّاً، وكان أسوأ. كان ذلك الأستاذ الإيطاليّ النحيل يقابلني ويتحدّث معي بسرعة برأيي، وكان يجدر بي أن أبلي أفضل من ذلك ولكنّني كنت متوتّرة فارتكبت أخطاء في أشياء أعرفها (لمّ قلت مثلاً *Vado a scuola* عوضاً عن *Sono andate a scuola*؟ أنا أعرف ذلك!).

في النهاية، كان الاختبار لا بأس به. نظر الأستاذ الإيطاليّ النحيل إلى الامتحان واختار المستوى المناسب:

المستوى الثاني!

تبدأ الدروس بعد الظهر. هكذا ذهبت أتناول الغداء (الهندباء المشوية) ثمّ تمشّيت عائدة إلى المدرسة ومشيت بفخر بين جميع طلاب

المستوى الأوّل (الذين لا بدّ بأنّهم molto stupido، حقاً) دخلت حصّتي الأولى. مع زملائي. ولكن يتبيّن لي بوضوح بأنّهم ليسوا زملائي وأنّه لا مصلحة لي هنا لأنّ المستوى الثاني صعب للغاية. أشعر وكأني أسبح، ولكن بصعوبة. وكأني أتكلّم في الماء على كلّ نفس. كان الأستاذ شاباً نحيلاً (لمّ جميع الأساتذة نحيلون جداً هنا؟ أنا لا أتق بالإيطاليين النحيلين)، ويتقدّم بسرعة كبيرة، يفوت فصولاً بأكملها من الكتاب وهو يقول "أنتم تعرفون هذا..." ويتحدّث بسرعة كبيرة مع زملائي الذين يتكلّمون بطلاقة كما يبدو. فتقلّصت معدتي من الخوف، وصرت ألهث لتنفّس الهواء وأدعو ألاّ ينادي اسمي. وما إن حان وقت الاستراحة حتّى ركضت خارج الصفّ برجلين مرتعشتين، وانطلقت مسرعة إلى مكتب المدير والدموع في عيني، فرجوته بإنكليزية واضحة نقلني إلى صفّ المستوى الأوّل. وهذا ما كان. وهكذا أنا هنا الآن.

هذا الأستاذ ممتليّ، ويتكلّم ببطء. هذا أفضل بكثير.

15

المثير للاهتمام في صفّ اللغة الإيطالية الذي أنتمي إليه، أن أحداً من طلابه لا يحتاج فعلاً إلى أن يكون هنا. فقد كتنا اثني عشر طالباً ندرس معاً، من جميع الأعمار، ومن جميع أنحاء العالم، والجميع أتوا إلى روما للسبب نفسه؛ لدراسة الإيطالية لأنّهم شعروا بالرغبة بذلك. إلاّ أنّ أحداً منّا لم يكن لديه سبب عملي واحد ليكون هنا. لم يكن ثمة من قال له رئيسه: "من الحيويّ أن تتعلّم الإيطالية لكي تتمكن من إدارة أعمالنا وراء البحار". الجميع، حتّى المهندس الألماني

الأنيق، يشاركني في ما اعتقدت بأنه دافع شخصي: كلنا نريد تحدّث الإيطالية لأننا نحبّ الشعور الذي تولّده فينا. أخبرتنا امرأة روسية حزينة الملامح بأنها تأخذ دروس اللغة الإيطالية لأنها تظنّ بأنها تستحقّ شيئاً جميلاً. أمّا المهندس الألماني فقال: "أريد تعلّم الإيطالية لأنني أحبّ *dolce vita*"، أي الحياة الحلوة. (غير أنّه بلكنته الألمانية القاسية، بدا وكأنه قال "أحبّ *deutsche vita*" - الحياة الألمانية - التي أخشى بأنه قد اكتفى منها).

كما سأكتشف خلال الأشهر القليلة المقبلة، ثمة في الواقع بعض الأسباب الجيدة لكون الإيطالية اللغة الأكثر جمالاً وسحراً في العالم، ولعدم كوني الشخص الوحيد الذي يعتقد ذلك. لفهم السبب، عليك أن تفهم أولاً بأن أوروبا كانت في ما مضى مسرحاً لعدد لا يحصى من اللهجات لاتينية المنشأ التي تحوّلت تدريجياً على مرّ القرون إلى لغات مستقلّة: الفرنسية، البرتغالية، الإسبانية، الإيطالية. وما حدث في فرنسا والبرتغال وإسبانيا كان تطوّراً عضوياً: إذ أصبحت لهجة المدينة الأبرز تدريجياً هي اللغة المقبولة في المنطقة كلّها. لذا، ما ندعوه اليوم بالفرنسية هو بالفعل نسخة معدّلة من اللغة الباريسية للقرون الوسطى. والبرتغالية هي الليشبونية. أمّا الإسبانية فهي أساساً المادريلية. تلك هي انتصارات رأسمالية، إذ إنّ المدينة الأقوى تحدّد في النهاية لغة البلد بأكمله.

أمّا إيطاليا، فسارت فيها الأمور بشكل مختلف. كان ثمة اختلاف خطير، وهو أنّ إيطاليا لم تكن بلداً لوقت طويل. فهي لم تتوحّد إلّا في وقت متأخّر (1861) وظلّت حتى ذلك الوقت شبه جزيرة من الدويلات المتناحرة التي يسيطر عليها أمراء محليّون أو قوى أوروبية أخرى. فأجزاء من إيطاليا كانت لفرنسا وأجزاء لإسبانيا، وأخرى

للكنيسة، وأجزاء لكلّ من أمكنه انتزاع قلعة أو قصر محليين. وكانت مشاعر الشعب الإيطالي تتبدّل بين الذلّ والفخر. معظمهم لم يحبّ أن يكون محتلاً من قبل إخوانه الأوروبيين، إلاّ أنّه ثمة دوماً مجموعة لا مبالية تقول: "*Franza o Spagna, purchè se magna*", أي "فرنسا أو إسبانيا، لا فرق، ما دمتنا نأكل".

كلّ هذا الانقسام الداخلي كان يعني بأنّ إيطاليا لم تلتحم أبداً كما يجب، وكذلك الإيطاليين. ليس مستغرباً بالتالي أن يكونوا قد كتبوا وتحدّثوا لقرون بلهجات غير مفهومة في ما بينهم. فكان العالم في فلورنسا بالكاد قادراً على التواصل مع شاعر في صقليا أو تاجر في البندقية (ما عدا باللاتينية بالطبع، التي كانت تعتبر اللغة القومية بصعوبة). وفي القرن السادس عشر، اجتمع بعض المثقفين الإيطاليين ووجدوا أنّ الوضع غير مقبول. فشبّه الجزيرة الإيطالية هذه تحتاج إلى لغة إيطالية، مكتوبة على الأقلّ، يوافق عليها الجميع. هكذا، قام هؤلاء المثقفون بأمر لم يسبقهم عليه أحد في تاريخ أوروبا. فانتقوا أجمل ما في اللهجات المحلية وابتكروا بذلك اللغة الإيطالية.

ومن أجل اكتشاف أجمل لهجة في إيطاليا، كان عليهم العودة في الزمن مئتي عام إلى الورا، إلى فلورنسا القرن الرابع عشر.

إنّ الإيطالية التي تتكلّمها اليوم ليست لغة روما ولا البندقية (مع أنّهما كانتا المدينتين الأقويين عسكرياً وتجارياً) ولا هي فلورنسية تماماً. إنّها أساساً دانتية. وليس لأيّ لغة أوروبية أخرى نسب فتّي بهذا القدر. وربّما ليس ثمة لغة مكرّسة بهذا القدر من الكمال للتعبير عن العواطف البشرية أكثر من إيطالية فلورنسا في القرن الرابع عشر، مثلما زيّنها أحد أعظم شعراء الحضارة الغربية.

لذا، لا عجب حقاً في رغبتّي اليائسة بتعلّم هذه اللغة.

لحق بي الاكتئاب والوحدة بعد عشرة أيام من وجودي في إيطاليا. كنت أمشي في فيلا بورغيز في إحدى الأمسيات بعد يوم سعيد قضيته في المدرسة، وكانت الشمس الغاربة تلقي بأشعتها الذهبية على بازيلييك سان بيتر. شعرت بالسعادة أمام ذلك المشهد الرومانسي، وإن كنت بمفردي، فيما كان جميع من في الحديقة إما يداعب حبيبه أو يلعب مع طفل يضحك. ولكنني توقفت واستندت إلى الدرابزين أشاهد غروب الشمس، ورحت أفرط في التفكير، ثم توالدت أفكاري، وهنا أدركاني.

تقدّما نحو بصمت وتهديد وكأنهما المحققان بينكرتون، وأحاطا بي؛ الاكتئاب عن يميني والوحدة عن يساري. لم يكونا بحاجة إلى إبراز شائتيهما، فأنا أعرفهما جيدا. نحن نلعب لعبة القطّ والفأر منذ سنوات. مع ذلك، أقرّ بأنني تفاجأت لرؤيتهما في هذه الحديقة الإيطالية الأنيقة عند الغروب. فهما لا ينتميان إلى مكان كهذا.

قلت لهما: "كيف عثرتما عليّ هنا؟ من أخبركما بمجيئي إلى روما؟".

قال الاكتئاب، الأكثر مكرراً: "ماذا، ألسنت سعيدة بلقائنا؟".

قلت: "ارحلا عني".

قالت الوحدة، وهي أكثر حساسية: "أسفة سيّدتي. ولكن كان

عليّ تعقبك طيلة سفرك. إنها مهمّتي".

قلت لها: "أفضّل حقاً لو أنّك لم تفعلني"، فهزّت كتفيها معتذرة

تقريباً، ولكن لتتقرب أكثر.

ثمّ أفرغا جيوبسي من أيّ فرح حملته معي إلى هناك. حتى إنّ

الاكتئاب صادر هويّتي، ولكنّه يفعل ذلك دوماً. ثمّ بدأت الوحدة

تستجوبني، وهذا ما يثير رعبني، لأنها تستمر لساعات. هي مهذبة ولكنها لا تتعب، وفي النهاية يزل لساني دائماً. تسأل إن كان لدي أي سبب لأكون سعيدة. تسأل لم أنا وحيدة تماماً الليلة، مجدداً. تسأل (مع أنني خضعت لهذا الاستجواب مراراً من قبل) لم لا أنجح في الحفاظ على علاقة عاطفية، لم دمّرت زواجي، لم أفسدت الأمر مع ديفيد، لم أفسدت الأمور مع كل رجل عرفته. تسألني أين كنت ليلة بلوغني الثلاثين ولم ساءت الأمور بهذا الشكل منذ ذلك الحين. لم لا أستطيع للممة شتات نفسي ولم لست في البيت أعيش في منزل جميل وأرسي أطفالاً ظرفاء كما تفعل أي امرأة محترمة من عمري. تسأل لماذا بالضبط أعتقد بأنني أستحقّ عطلة في روما بعد أن عبثت بحياتي على هذا النحو. ولماذا أعتقد بأن هربي إلى إيطاليا كتلميذة مدرسة سيجعلني سعيدة. تسأل أين برأيي سينتهي بي الأمر في كبري، إن واصلت العيش بهذه الطريقة.

عدت إلى المنزل، على أمل أبعادهما عني، ولكنهما لحقا بي، الأحمقان. كان الاكتئاب يمسك بكفّي بقوة والوحدة تلاحقني بأسئلتها. لم أتكبد عناء تناول العشاء، لم أشأ أن أكل تحت أعينهما. كما أنني لم أرغب بأن يصعدا السلام معي إلى شقتي، ولكنني أعرف الاكتئاب، لا شيء يمنعه من الجيء إن قرّر ذلك.

قلت له: "ليس من العدل أن تأتي إلى هنا. لقد سبق ودفعت للتخلص منكما. قضيت عقوبتي في نيويورك".

إلا أنه وجه إليّ ابتسامته القائمة ثم جلس على كرسيّ المفضّل، ووضع قدميه على طاولتي، وأشعل سيجاراً ملاً المكان برائحته المريعة. أمّا الوحدة فراقبت ما يجري وتنهدت، ثم استلقت على سريري وغطت نفسها بالملاءات، وهي بكامل ملابسها وحذائها. سوف تجبرني على النوم معها ثانية الليلة، أعرف ذلك.

كنت قد توقفت عن تناول الأدوية منذ بضعة أيام فقط. إذ بدا لي من الجنون استعمال مضادات الاكتئاب في إيطاليا. من يشعر بالاكتئاب هنا؟

في الواقع، أنا لم أرغب بتناول الأدوية أساساً. فقد قاومتها لوقت طويل، بسبب لائحة طويلة من الأسباب الشخصية (مثلاً: الأمير كيون يفرطون بتناول الأدوية؛ نحن نجهل الآثار طويلة الأمد لهذه الأشياء على الدماغ البشري؛ إن تعاطي أطفال أميركيين لمضادات الاكتئاب هو جريمة؛ نحن نعالج الأعراض وليس أسباب حالة ذهنية واسعة الانتشار...). مع ذلك، خلال السنوات الأخيرة من حياتي، كان واضحاً أنني أعاني من مشكلة وأن هذه المشكلة لا تزول بسهولة. فمع انتهاء زواجي وتطور علاقتي ببديفيد، بدأت أعاني من جميع أعراض الاكتئاب الخطيرة؛ الأرق، زوال الشهية والرغبة الجنسية، البكاء المتواصل، آلام الظهر والمعدة المزمنة، العزلة واليأس، صعوبة التركيز على العمل، عدم القدرة حتى على الشعور بالغضب لكون الجمهوريين قد سرقوا انتخابات رئاسية... وغيرها.

وهكذا ضعت في تلك الغابة، واستغرقني الأمر وقتاً لأدرك أنني تائهة فعلاً. فبقيت أفنع نفسي لوقت طويل بأنني انخرفت قليلاً عن الطريق وأنتي سأجد طريقي مجدداً في أي لحظة. ولكن الليالي تتوالى من دون أن أعرف أين أنا، إلى أن يحين الوقت لأعترف أنني ابتعدت كثيراً وأنتي لم أعد أعرف حتى من أي اتجاه تشرق الشمس.

اعتبرت بأن اكتسابي هو معركة حياتي، وهذا ما كان بالفعل. صرت تلميذة لتجربتي الخاصة، أحاول معرفة أسبابها. ما كان أساس كل ذلك؟ أهو نفسي؟ (أهو غلطة أُمِّي وأبِي؟) هل هو مؤقت، مجرد

مرحلة صعبة من حياتي؟ (حين ينتهي الطلاق، هل سيزول معه الاكتئاب؟) أهو وراثي؟ (فالكآبة، بأسمائها العديدة، قد مرّت على عائلتي لأجيال، هي ورفيقها الحزين، الإدمان على الشراب). أهو ثقافي؟ (أهو من عواقب محاولات فتاة أميركية عاملة مناصرة حقوق المرأة لإيجاد التوازن في عالم مديني يسوده التوتر والعزلة على نحو متعاضم؟) أهو فلكي؟ (أنا حزينة جداً لأنني سرطان هزيل يسيطر عليه جوزاء غير مستقرّ؟) أهو فتّي؟ (ألا يعاني الأشخاص المبدعون دوماً من الاكتئاب لأنهم حساسون جداً ومميزون؟) أهو نشوئي؟ (هل أحمل في داخلي مخلفات الذعر الذي يأتي بعد آلاف السنوات من محاولات الجنس البشري للبقاء في عالم قاس؟) أهو كارمي؟ (كلّ تشنجات الحزن هذه هي نتائج السلوك السيئ في الحيوانات السابقة، العقبات الأخيرة قبل التحرّر؟) أهو هرموني؟؟ غذائي؟ فلسفي؟ موسمي؟ بيئي؟ هل أعاني من خلل كيميائي؟ أم أنني أحتاج إلى أن أهدأ وحسب؟

كم هي عديدة العوامل التي تؤلّف الكائن البشري! كم هي عديدة الطبقات التي نعمل عليها والتأثيرات التي نتلقاها من أذهاننا، وأجسادنا، وتاريخنا، وعائلتنا، ومدننا، وأرواحنا، ووجباتنا! صرت أشعر بأنّ اكتسابي هو على الأرجح مزيج من كلّ تلك العوامل ويتضمّن على الأرجح أيضاً بعض العناصر التي لم أتمكّن من تسميتها أو معرفتها. هكذا خضت المعركة على جميع المستويات. ابتعت جميع كتب العناية الذاتية ذات العناوين المخرجة (وحرصت دوماً على تغطية الكتب بأغلفة آخر إصدارات هاستلر، لكي لا يعرف الغرباء ماذا أقرأ). بدأت أحصل على مساعدة أخصائية في العلاج النفسي، كانت لطيفة ولكنّها تفتقر إلى نفاذ البصيرة. توقّفت عن أكل اللحم (لوقت قصير على أي حال) بعدما أخبرني أحدهم بأنني أكل مخوف الحيوان

لحظة موته. وأخبرني مدلك ينتمي إلى العهد الجديد أن عليّ ارتداء سراويل برتقالية اللون لإعادة التوازن إلى الشاكر الجنسسية لديّ، وقد قمت بذلك بالفعل. شربت من شاي عشبة القلب تلك ما يكفي لإضفاء البهجة على جيش روسي، ولكن من دون جدوى. مارست الرياضة، عرضت نفسي للفنون التي ترفع المعنويات، وتجنبت بعناية الأفلام والكتب والأغاني الحزينة (إن ذكر أحدهم كلمتي ليونارد وكوهين في جملة واحدة، غادرت الغرفة).

بذلت جهداً لمقاومة البكاء المستمر. أذكر أنني سألت نفسي في إحدى الليالي، فيما كنت مكورة في الزاوية القديمة نفسها، على الأريكة القديمة نفسها تراودي الأفكار القديمة نفسها: "هل ثمة ما يمكنك تغييره في هذا المشهد، ليز؟" وكلّ ما أمكنني التفكير فيه حينها هو الوقوف، وأنا لا أزال أبكي، على قدم واحدة بتوازن وسط غرفة المعيشة. فقط لأثبت أنني لم أفقد تماماً السيطرة على نفسي، على الرغم من عجزني عن إيقاف الدموع أو تغيير حوار الداخلي الكئيب. على الأقل، يمكنني أن أبكي بشكل هستيري وأنا واقفة بتوازن على قدم واحدة. كانت تلك بداية.

مشيت تحت أشعة الشمس. اعتمدت على شبكة الدعم المحيطة بي، فتعلقت بعائلي، وعززت صداقاتي الجيدة. وحين أصرت تلك المجالات النسائية على أن معنوياتي المنخفضة لا تساعد في مسائل الاكتئاب إطلاقاً، غيرت قصة شعري، واشترت مواد تجميل وفستاناً جديداً.

كان آخر ما جرّبه بعد سنتين من محاربة هذا الحزن هو الدواء. وإن كان لي أن أعطي رأيي هنا، أعتقد بأنّ الدواء هو آخر ما ينبغي تجربته دوماً. بالنسبة إليّ، أتى قرار استعمال الفيتامين النفسي بعد ليلة

كنت جالسة خلالها على الأرض في غرفة نومي لساعات طويلة أحاول إقناع نفسي بعدم قطع يدي بسكين. وقد كسبت الجدل ضدّ السكين تلك الليلة، ولكن بصعوبة. وكانت لديّ أيضاً أفكار أخرى جيّدة، كيف أنّ القفز من أحد المباني أو تفجير دماغي بواسطة مسدّس قد يضع حدّاً للعذاب. ولكنّ قضاء ليلة مع سكين في يدي دفعني إلى اتخاذ القرار.

في الصباح التالي، اتصلت بصديقتي سوزان عند شروق الشمس ورجوتها أن تساعدني. لا أعتقد بأنّ امرأة في تاريخ عائلتي كلّها قد فعلت ذلك من قبل، لا أعتقد بأنّ امرأة منهم قد جلست في وسط الطريق وقالت في منتصف حياتها: "لم أعد قادرة على القيام بخطوة أخرى، فليساعدني أحد". وما كنت لأتمكّن من مساعدة أولئك النساء في أزمتهم، ما كان لأحد أن يساعدهنّ. الشيء الوحيد الذي كان ليحدث هو أن يتصوّرن جوعاً هنّ وعائلتهنّ. لم أستطع التوقّف عن التفكير في هؤلاء النساء.

كما أنّي لن أنسى وجه سوزان حين اندفعت إلى شقّي بعد ساعة من اتصالي الطارئ، ووجدتني مكومة على الأريكة. فألمي الذي انعكس في خوفها الواضح على حياتي سيقى من أفضح ذكريات تلك السنوات المخيفة. بقيت منكمشة على نفسي في مكاني بينما قامت سوزان باتصالاتها، ووجدت لي طبيباً نفسياً أعطاني موعداً في اليوم نفسه لبحث إمكانية إعطائي مضادات اكتئاب. أصغيت إلى سوزان وهي تتحدّث مع الطبيب وسمعتها تقول: "أخشى أن تقوم صديقتي بإيذاء نفسها". فشعرت بالخوف أنا أيضاً.

حين ذهبت لرؤية الطبيب النفسي عصر ذلك اليوم، سألتني لم تأخّرت إلى هذا الحدّ في طلب المساعدة، وكأني لم أكن أحاول

مساعدة نفسي كلّ هذا الوقت. فأخبرته باعتراضاتي وتحفظاتي على استعمال مضادات الاكتئاب. ثمّ وضعت على مكتبه نسخات عن الكتب الثلاثة التي نشرتها وقلت له: "أنا كاتبة. أرجوك لا تفعل أيّ شيء يؤدي دماغى". قال: "لو كنت تعانين من مرض كلوي، ما كنت لتترددي في أخذ دواء، لم تترددين في هذه الحالة؟" ولكن، كما ترى، هذا يظهر مقدار جهله بعائلتي، فمن ينتمي إلى آل غيلبرت قد لا يعالج مرضاً كلوياً، على اعتبار أننا عائلة تنظر إلى أيّ مرض على أنه إشارة إلى فشل شخصي، أخلاقي.

وصف لي الطبيب بضعة أدوية مختلفة - زاناكس، زولوفت، ويلبوترين، بوسبار - إلى أن نجد التركيبة التي لا تسبب لي الغثيان أو تحول رغبتي الجنسية إلى ذكرى باهتة وبعيدة. وفي أقلّ من أسبوع، بدأت أشعر بقليل من النور في ذهني. كما تمكّنت أخيراً من النوم. وهذا تقدّم كبير، لأنك ما لم تنم، فلا يمكنك أن تخرج من الحفرة، لا أمل لك بذلك. أعادت لي الأقرص نعمة النوم ليلاً، كما أنها أوقفت ارتعاش يدي، وأزالت الانقباض الشديد عن صدري والذعر الذي كان يسيطر على قلبي.

مع ذلك، لم أشعر بالارتياح لاستعمال تلك الأدوية، مع أنها أعطت مفعولاً فورياً. لا يهمني من الذي قال إنّها فكرة جيّدة وآمنة تماماً، لظالما شعرت بعدم الاقتناع بذلك. لا شك بأنّ تلك الأدوية هي الجسر الذي سأعبر بواسطته إلى الضفّة الأخرى، ولكنني أردت التوقّف عن استعمالها بأسرع ما يمكن. بدأت أتناول الأدوية في كانون الثاني عام 2003، وبحلول شهر آيار، كنت قد خفضت الجرعة بقدر ملحوظ. وكانت تلك الشهور هي الأصعب على أي حال، الأشهر الأخيرة من الطلاق، والأشهر الأخيرة مع ديفيد. هل كان بإمكانني

تحمّل تلك الفترة من دون أدوية، هل كنت لأصمد أكثر؟ هل كنت لأبقى على قيد الحياة؟ لا أدري. تلك هي الحياة البشرية ما من طريقة لتعرف كيف كانت الأمور لتحدث لو تغيّرت بعض العناصر.

أعلم بأنّ تلك الأدوية جعلت بؤسي أقلّ وطأة. وأنا ممتنة لذلك. ولكنني ما زلت غير مرتاحة للأدوية التي تؤثر في المزاج. قوتها تخيفني ويقلقني انتشارها. وأعتقد أنّه ينبغي وضع قيود أكثر على وصفها واستعمالها في هذه البلاد، وأن تقترن دوماً بالعلاج والاستشارة النفسية. فمداواة أعراض أيّ مرض من دون البحث عن سببه الجذري هو طريقة غريبة كلاسيكية في التفكير في أنّ الشفاء ممكن. قد تكون تلك الأقرص قد أنقذت حياتي فعلاً، ولكن حدث ذلك بالاقتران مع عشرين طريقة أخرى كنت أحاول إنقاذ نفسي بواسطتها في الوقت نفسه. وآمل ألاّ أحتاج إلى تلك الأدوية ثانية، مع أنّ أحد الأطباء الملح إلى أنّني قد أضطرّ إلى استعمال مضادات الاكتئاب من وقت إلى آخر خلال حياتي نظراً إلى ميلي إلى الكتابة، وأدعو من الله أن يكون محطاً. وأنا أنوي فعل كلّ ما في وسعي لأثبت بأنّه على خطأ أو على الأقلّ لأحارب هذا الميل إلى الكتابة بجميع الوسائل. أمّا ما إذا كان هذا العناد يهزم الذات أم يحفظها، فأنا لا أدري.

ولكن ها أنا ذا.

18

ها أنا ذا في روما، وفي ورطة أيضاً. فالإكتئاب والوحدة اقتحما حياتي مجدداً، وقد تناولت آخر قرص ويلبوترين منذ ثلاثة أيام. لديّ المزيد منها في الدرج السفلي، ولكنني لا أريدها. أريد أن

أتحرّر منها نهائياً. ولكنني لا أريد الشعور بالاكتئاب والوحدة أيضاً، لذا لا أعرف ماذا أفعل. كنت أدور في الغرفة بقلق كعادتي حين لا أعرف ماذا أفعل. والليلة، تناولت دفترتي الخاص الذي أحفظ به قرب سريري للحالات الطارئة. فتحتة وكتبت على أوّل صفحة بيضاء:

"أحتاج إلى مساعدتك".

ثمّ انتظرت. وبعد برهة أتى الجواب بخطّ يدي:

أنا هنا. ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك؟

هنا يبدأ من جديد أعرب حديث قمت به وأكثره سرّية. هنا، في هذا الدفتر الأكثر خصوصية، أتحدّث مع نفسي. أتحدّث مع ذلك الصوت نفسه الذي التقيت به على أرض الحمام حين طلبت المساعدة وأنا أبكي، حين قال لي شيء (أو شخص) ما: "عودي إلى السرير، ليز". خلال السنوات التي تلت، وجدت ذلك الصوت في الأوقات الأكثر بؤساً وتعلّمت بأنّ أفضل طريقة للوصول إليه هي بالحديث المكتوب. وفوجئت لمعرفة أنّي أستطيع الوصول إليه دوماً، مهما بلغ منّي البؤس. حتى في أكثر الأوقات شدة، يكون ذلك الصوت الهادئ، المتعاطف، الحنون والحكيم إلى حدّ بعيد (والذي قد يكون أنا أو قد لا يكون أنا بالضبط) موجوداً دوماً للتحدّث على الورق في أيّ وقت من الليل أو النهار.

وقرّرت التوقّف عن القلق، مع أنّ التكلّم مع نفسي على الورق هو دليل انقصاص في الشخصية. قد يكون الصوت الذي يحدثني هو مرشدي الروحية، أو ذاتي الأسمى، أو ربّما هو مركّب من لاوعيمي، اخترعته لأحمي نفسي من العذاب. فالقديسة تيريزا أسمت الأصوات الداخلية عبارات؛ كلمات من خارج الطبيعة تدخل في الذهن تلقائياً،

ترجم بلغتك الخاصة فتواسيك وتبعث في نفسك البهجة. أعلم ما كان فرويد ليقوله عن تلك المواساة الروحية، بالطبع، إنها غير عقلانية ولا تستحق الثقة. فالتجربة تعلّمنا بأنّ العالم ليس دار حضانة. أوافق على أنّ العالم ليس دار حضانة. ولكنّ التحديّات التي يحفل بها هذا العالم هي السبب الذي يدفعك أحياناً إلى اللجوء إلى سلطة أعلى سعياً وراء الراحة.

في بداية تجربيّ الروحية، لم أعتقد دوماً بصوت الحكمة الداخليّ ذلك. أذكر أنّني فتحت دفترتي مرّة في فورة من الغضب والحزن والمرارة، وخريشت رسالة إلى صوتي الداخليّ - إلى مصدر المواساة في داخليّ - احتلّت صفحة كاملة من الأحرف الكبيرة.

...

بعد برهة، وكان تنفّسي لا يزال ثقيلاً، شعرت بومضة واضحة من النور تضيء فيّ، ثمّ وجدت نفسي أكتب هذا الجواب المرح، والهادئ أبداً:

مع من تتحدّثين إذًا؟

لم أشكّ بوجود مصدر المواساة ثانية منذ ذلك الحين. وأنا ألجأ إليه مجدداً الليلة، وأقوم بذلك للمرّة الأولى منذ وصولي إلى إيطاليا. وما كتبته الليلة هو أنّي ضعيفة وخائفة. شرحت كيف أنّ الاكتئاب والوحدة ظهرا ثانية وكيف أنّي خائفة من بقائهما إلى الأبد. قلت بأنني لا أريد تناول الأدوية بعد الآن، ولكنني خائفة من اضطراري لذلك. وترعبي فكرة ألاّ أتمكّن من الملمة شتات نفسي مجدداً.

فظهر من داخليّ وجود أصبح مألوفاً لديّ الآن، وأعطاني جميع التأكيدات التي تمنيت دوماً لو أنّ شخصاً آخر يقولها لي حين أكون مضطربة. وهذا ما وجدت نفسي أكتبه لنفسي على الصفحة:

أنا هنا. وأنا أحبك. لا آبه إن أردت البقاء مستيقظة تبكين طوال الليل، سوف أبقى إلى جانبك. وإن احتجت إلى الدواء ثانية، تناولييه؛ سوف أحبك في أثناء ذلك أيضاً. وإن كنت لا تحتاجين إلى الدواء، سأحبك كذلك. مهما فعلت، فلن تخسري حبي. سوف أحميك إلى أن تموتي. أنا أقوى من الاكتئاب ومن الوحدة وما من شيء يرهقني أبداً.

هذه اللفتة الغريبة من الصداقة التي نبعث تلك الليلة من داخلي - السيد الممدودة مني إلي في ظل غياب أي شخص ليقدم لي العزاء - ذكرتني بما حدث معي مرة في نيويورك. فقد كنت أمشي مسرعة في مبنى للمكاتب عصر أحد الأيام قبل أن أندفع إلى أحد المصاعد. وحين دخلته على عجل، وقع نظري على صورتي غير المتوقعة المنعكسة على المرآة. في تلك اللحظة، بعث دماغي برسالة غريبة سريعة جداً: "هاي! أنت تعرفينها! إنها صديقتك!" في الواقع، تقدّمت نحو صورتي المنعكسة أمامي تعلق وجهي ابتسامة ودودة، وكنت على وشك الترحيب بتلك الفتاة التي نسيت اسمها ولكن وجهها بدا مألوفاً جداً. وسرعان ما أدركت خطأي بالطبع، وضحكت محرّجة من ارتباكي أمام كيفية عمل المرآة. ولكن تلك الحادثة عادت إلى ذهني لسبب ما تلك الليلة في روما في أثناء إحساسي بالحزن، ووجدت نفسي أكتب هذه الجملة المريحة على آخر الصفحة:

لا تنسي أبداً أنك في يوم من الأيام تعرّفت على نفسك كصديقة. غرقت في النوم وأنا أضغط بدفتري على صدري، مفتوحاً عند ذلك التأكيد الأخير. وحين استيقظت في الصباح، كنت لا أزال أشعر برائحة الاكتئاب في الجو، إلا أنه لم يكن هو نفسه موجوداً. في وقت ما في أثناء الليل، نهض ورحل، هو وزميلته الوحدة.

الغريب أنني أبدو غير قادرة على ممارسة اليوغا منذ وصولي إلى روما. فقد مارستها بجدية وانتظام لسنوات، حتى إنني أحضرت معي سجادة اليوغا مرفقة بأفضل النوايا. ولكن الأمر لا يحدث هنا ببساطة. أعني متى أمارس تمارين اليوغا، قبل فطوري الإيطالي المؤلف من فطائر الشوكولاته والكابوتشينو المزدوج؟ أم بعد؟ في أيامي الأولى هنا، كنت أفرد سجادة اليوغا كل صباح، ثم أكتفي بالنظر إليها ضاحكة. حتى إنني قلت لنفسي يوماً بصوت عالٍ: "حسناً آنسة بيني أي كواترو فرومادجي... لنرَ ماذا لديك اليوم". فشعرت بالخجل وأخفيت سجادة اليوغا داخل الحقيبة (ولم تُفرد ثانية كما تبين إلا في الهند). ثم خرجت في نزهة، وتناولت مثلجات الفستق، وهو ما يعتبر مقبولاً تماماً لدى الإيطاليين عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً. وبصراحة، أجدني من رأيهم.

إن ثقافة روما لا تنسجم مع ثقافة اليوغا، حسبما أرى. في الواقع، لا أجد قاسماً مشتركاً بين روما واليوغا، باستثناء أن كليهما تذكّرناك بكلمة توغا.

كنت بحاجة إلى التعرف على بعض الأصدقاء. فانكبيت على ذلك، والآن حلّ تشرين الأوّل وأصبح لديّ مجموعة لطيفة منهم. صديقتان تدعيان إليزابيث في روما الآن، بالإضافة إليّ. كلتاها أميركيّتان وكاتبتان. الأولى روائية والثانية تكتب عن الطعام. مع شقة

في روما ومنزل في أمبريا، بالإضافة إلى زوج إيطالي ووظيفة تتطلب السفر حول إيطاليا وتذوق الأطعمة والكتابة عنها لمجلة Gourmet. لا عجب بالتالي أنها تعرف أفضل المطاعم في روما، بما في ذلك gelateria الذي يقدم بودينغ الأرز المجلد الرائع. اصطحبتني إلى الغداء منذ يومين، ولم يقتصر طعامنا على لحم الضأن والكمأة والكارباتشو الملفوف حول موس البندق بل بعض اللامباشوني.

بالطبع، أصبحت الآن صديقة جوفاني وداريو، هما توأما فانتازيا التبادل الثقافي اللغوي. ويرأي، لطافة جوفاني تجعل منه كنزاً وطنياً في إيطاليا. جعلني أحبه منذ الليلة الأولى للقائنا، حين انزعجت من عجزني عن إيجاد الكلمات التي أريدها باللغة الإيطالية، فوضع يده على ذراعي وقال: "ليز، عليك أن تكوني مهذبة مع نفسك حين تتعلمين شيئاً جديداً". أشعر أحياناً وكأنه أكبر مني سنّاً، أمام جبينه الوقور وفلسفته العالية وآرائه السياسية الجديّة. أحبّ محاولة إضحائه، ولكنّه لا يفهم الفكاهات دائماً. فمن الصعب التقاط الفكاهات بلغة ثانية، لا سيّما حين تكون شاباً جديداً مثل جوفاني. قال لي مرّة: "حين تكونين ساخرة، أنا خلفك دوماً. أنا أبطأ. أنت البرق وأنا الرعد".

وقلت بييني وبين نفسي، أجل حبيبي! وأنت المغناطيس وأنا الفولاذ! اقترب مني.

إلا أنّه لم يقبلني بعد.

أمّا داريو، فلم أكن أراه كثيراً، مع أنّه يمضي وقتاً طويلاً مع صوفي. صوفي هي صديقتي المفضّلة في صفّ اللغة، وأي شخص مثل داريو سيرغب بقضاء وقته معها بالتأكيد. فهي سويدية في أواخر العقد الثاني من عمرها، وجميلة إلى حدّ أنّه يمكن تعليقها على صنارة واستعمالها كطعم لاصطياد رجال من جميع الجنسيات والأعمار.

وكانت صوفي قد أخذت إجازة لمدة أربعة أشهر من وظيفة جيدة في مصرف سويدي، أمام ذهول عائلتها وحيرة زملائها، لمجرد أنها رغبت بالمجيء إلى روما وتعلم اللغة الإيطالية الجميلة. فكنا أنا وصوفي نجلس كل يوم بعد انتهاء الدروس على ضفة التير تناول المثلجات وندرس معاً. لا يمكن أن أسمي ما فعله دراسة بالضبط في الواقع، بل هو أقرب إلى استمتاع مشترك باللغة الإيطالية، ونعلم بعضنا دائماً عبارات جديدة. على سبيل المثال، تعلمنا للتو أن un'amica stretta تعني صديقة حميمة. ولكن المعنى الحرفي لكلمة stretta هو ضيقة، كما نصف الملابس، كالتنورة الضيقة. بالتالي، فإن الصديقة الحميمة بالإيطالية يمكن ارتداؤها كالسترة الضيقة المتصقة بالجسم، وهذا ما كانت صديقتي السويدية الصغيرة صوفي قد أخذت تصبح بالنسبة إليّ.

أحببت أن أفكر في البداية في أننا، أنا وصوفي، نبدو كالأختين. غير أننا في أحد الأيام، استقللنا التاكسي عبر روما، فسألنا السائق ما إذا كانت صوفي ابنتي. في الواقع، صوفي لا تصغرن سوى بسبع سنوات تقريباً. راح عقلي يخلل ما قاله. (مثلاً، ربما كان هذا السائق الإيطالي لا يتحدث الإيطالية بطلاقة، وكان يعني ما إذا كنا أختين). ولكن لا. قال ابنة وكان يعني ابنة. ماذا يمكنني أن أقول؟ فقد عانيت الكثير خلال السنوات الأخيرة، ولا بد أنني أبدو محطمة ومتقدمة في السن بعد هذا الطلاق. ولكن كما تقول الأغنية القديمة من تراث تكساس: "لقد حطمتوني، لاحتقوني، ووشمتوني، ولكنني ما زلت أفه هنا أمامك...".

تعرفت أيضاً بزوجين رائعين يدعيان ماريا وجوليو، من خلال صديقتي آن؛ رسامة أميركية عاشت في روما منذ بضع سنوات. ماريا هي من أميركا وجوليو من جنوب إيطاليا. هو مخرج أفلام وهي تعمل لحساب منظمة زراعية دولية. هو لا يتحدث الإنكليزية جيداً فيما

تتحدّث هي الإيطالية بطلاقة فضلاً عن الفرنسية والصينية. يرغب جوليو بتعلّم الإنكليزية، فسألني ما إذا كان يستطيع التمرّن على المحادثة معي، في تبادل ثقافي آخر. وفي حال كنت تتساءل لم لا يدرس الإنكليزية مع زوجته أميركية المنشأ، فالسبب هو أنّهما متزوّجان ويتشاجران كثيراً كلّما حاول أحدهما تعلّم الآخر شيئاً. هكذا، صرت أقابل جوليو وقت الغداء مرّتين في الأسبوع للتمرّن على الإيطالية والإنكليزية، وهي مهمّة جيّدة بالنسبة إلى شخصين لا يملكان ماضياً لإزعاج بعضهما.

يملك جوليو وماريا شقّة جميلة، أبرز ما فيها برأيي هو الجدار الذي كسسته ماريا يوماً بشتائم غاضبة موجهة لجوليو (مخربشة بقلم أسود عريض) وهما يتشاجران وكان يصرخ بصوت أعلى من صوتي فأرادت أن تكون لها الكلمة النهائية.

أعتقد بأنّ ماريا مثيرة جداً، وأنّ انفعالها الذي تفجّر بهذا الشكل ليس سوى دليل آخر على ذلك. ولكنّ المثير للاهتمام أنّ جوليو وجد في المخربشة على الجدار دليلاً أكيداً على كبت ماريا، لأنّها كتبت شتائمها بالإيطالية، والإيطالية هي لغتها الثانية، أي أنّها تتطلّب منها التفكير للحظة قبل اختيار كلماتها. وقال لو إنّ ماريا سمحت لغضبها بأن يتغلّب عليها - وهو أمر لا تسمح به أبداً، لأنّها أنغلو - بروتستانتية مخلصّة - لكتبت على الجدار بلغتها الأمّ. وبرأيي، إنّ جميع الأميركيين هم كذلك، يعانون من الكبت. وهذا ما يجعلهم خطيرين لا بل وميتين إن انفجروا.

وشخصّ الحالة قائلاً: "إنهم شعب همجي".

وما أحببته هو أنّنا أجرينا هذا الحديث نحن الثلاثة خلال عشاء لطيف، ونحن ننظر إلى الجدار نفسه.

سألته ماريّا: "هل تريد المزيد من الشراب حبيبي؟".

لكنّ أحدث وأفضل صديق لي في إيطاليا هو بالطبع لوكا سبّاغيتي. حتى في إيطاليا للمناسبة، من المثير للضحك أن يكون اسم عائلتك سبّاغيتي. في الواقع، أنا ممّتة للوكا لأنّه جعلني أتعدل مع صديقي براين، الذي كان محظوظاً لأنّه يملك صديقاً يدعى دينيس ها - ها، وكان يتفاخر دوماً بأنّ لديه صديقاً يملك الاسم الأروع. أخيراً، أصبحت أنا فسه.

يتحدّث لوكا الإنكليزية بطلاقة، وهو ذوّاقّة (بالإيطالية، una buona forchetta شوكة جيّدة)، وهو بالتالي مرافق عظيم للحائعين أمثالي. وغالباً ما يتصل بي في منتصف النهار ليقول: "اسمعي، أنا في الجوار، هل ترغيبين بأن نلتقي لاحساء فنجان من القهوة؟" كنا نمضي وقتاً طويلاً في تلك المطاعم الصغيرة القذرة في الشوارع الخلفية في روما. فنحن نحبّ المطاعم ذات الأضواء المشعّة والتي لا تحمل أيّ اسم في الخارج. طاولاتها مكسوّة بأغطية ذات مربّعات حمراء، تقدّم شراباً مصنوعاً في المنازل، ومعكرونة مقدّمة بكمّيّات لا تصدّق من قبل قياصرة صغار على حدّ قول لوكا؛ هم شباب محلّيون فخورون ولجوجون، أيديهم مكسوّة بالشعر وشعرهم مسرّح بعناية تسريحة بومبادور. قلت للوكا مرّة: "يبدو لي بأنّ هؤلاء الشباب يعتبرون أنفسهم رومان أوّلاً، إيطاليين ثانياً، وأوروبيين ثالثاً". فصحّح لي قائلاً: "بل رومان أوّلاً، ورومان ثانياً، ورومان ثالثاً. وكلّ واحد منهم هو إمبراطور".

يعمل لوكا محاسباً ضريبياً. والمحاسب الضريبي الإيطالي هو برأيه فنّان، نظراً لوجود بضع مئات من القوانين الضريبية في إيطاليا وكلّ منها يناقض الآخر. وأعتقد أنّه من المضحك أن يكون محاسباً ضريبياً، لأنّه عمل

جافاً جداً بالنسبة إلى شخص خفيف الظلّ مثله. من جهة ثانية، يعتقد لوكا أنه من المضحك أن يكون لي وجه آخر - وجه اليوغا - الذي لم يره أبداً. فهو لا يفهم سبب رغبتى بالذهاب إلى الهند - وإلى معتزل تحديداً! - فيما يمكنني البقاء في إيطاليا طيلة العام، وهو المكان الذي أنتمي إليه كما يبدو بوضوح. وكلّما رأني أمسح طبقي بقطعة من الخبز ثم ألعق أصابعي، يقول: "ماذا ستأكلين في الهند؟" وكان يدعوني غاندي أحياناً، بنيرة ساخرة جداً، وأنا أفتح زجاجة الشراب الثانية.

سافر لوكا كثيراً، مع أنه يدّعي أنه لا يستطيع العيش في مكان آخر غير روما، قرب أمه، بما أنه رجل إيطالي في النهاية؛ ماذا يمكنه أن يقول؟ ولكنّ ماما ليست هي وحدها سبب تعلقه بإيطاليا. فهو في أوائل العقد الثالث من عمره، ولديه الصديقة نفسها منذ كان مراهقاً (جوليانا الجميلة، التي يصفها لوكا بولع وحنان بأنها مثل *acqua e sapone* الماء والصابون ببراءة الحلوة). وجميع أصدقائه هم أنفسهم أصدقاء الطفولة، ومن الجوار نفسه. معاً يشاهدون مباريات كرة القدم كلّ يوم أحد - إمّا في الملعب أو في المقهى (إن كان الفريق الروماني يلعب في منطقة بعيدة) - ثمّ يذهب كلّ منهم إلى البيت الذي نشأ فيه لتناول وجبة عصر الأحد الكبيرة التي تعدّها أمهاتهم وجدّاتهم.

ولو كنت لوكا، لما غادرت إيطاليا أنا أيضاً.

مع ذلك، قام لوكا بزيارة أميركا بضع مرّات وأحبّها. وجد نيويورك ساحرة ولكنّه يعتقد بأنّ الناس يشقون هناك، وإن كان يقرّ بأنّهم يستمتعون بذلك. فيما يعمل أهل روما بكثّة ويستأثرون من ذلك. أمّا ما لم يعجب لوكا سباعيتي فهو الطعام الأميركي.

كنت مع لوكا في المرّة الأولى التي حاولت فيها تناول أمعاء حمل حديث الولادة، وهو طبق روماني. وبالنسبة إلى الطعام، تعتبر روما

مدينة خشنة، معروفة بأطباقها التقليدية المؤلفة من الأمعاء والألسن - أي جميع أجزاء الحيوان التي يرميها الأغنياء في الشمال. كان طعم طبقي مقبولاً، ما لم أفكر في ما أكل. كانت الأمعاء مقدّمة مع صلصة لذيدة دسمة وسميكة كانت رائعة بحدّ ذاتها، ولكنّ الأمعاء كانت في الواقع... معوية الشكل. شبيهة نوعاً ما بالكبد، ولكن أكثر طراوة. وكنت أبلّي حسناً، إلى أن بدأت أفكر في كيفية وصفي لهذا الطبق، وفكرت في أنّه لا يبدو مثل الأمعاء، بل مثل الدود الشريطي في الواقع. عندها أبعدت الطبق وطلبت السلطة.

"ألم يعجبك الطبق؟" سألتني لوكا الذي أحبه.

"أراهن بأنّ غاندي لم يذُق أمعاء الحمل في حياته".

"بل ربّما فعل".

"كلا، من غير الممكن، لوكا. فغاندي كان نباتياً".

أصرّ قائلاً: "ولكن بإمكان النباتيين أكل هذا، لأنّ الأمعاء ليست حتى باللحم يا ليز. إنّها مجرد قذارة".

21

أقرّ بأنّي أتساءل أحياناً ما الذي أفعله هنا.

أتيت إلى إيطاليا لكي أختبر المتعة، لكنني شعرت في الأسابيع الأولى من وجودي هنا بشيء من الذعر حول كيفية فعل ذلك. بصراحة، المتعة الخالصة ليست مثالي الثقافي. فأنا أنتمي إلى صفّ طويل من ذوي الضمائر الحيّة إلى حدّ بعيد. أما عائلة أمّي فتنتمي إلى طبقة المزارعين السوديين المهاجرين الذين يظهرون في صورهم وكأنّهم لو سبقت لهم رؤية شيء ممتع في حياتهم، لداسوا عليه بنعالهم. وكانت

عائلة والدي من البيوريتانيين الإنكليز الذين يحبون المرح الأحمق. ولو تفحصتُ شجرة عائلة والدي حتى القرن السابع عشر، لوقعتُ على أقارب بيوريتانيين يُدعون اجتهاداً وخنوعاً.

والدي نفسهما كانا يملكان مزرعة صغيرة، ونشأنا أنا وشقيقتي على العمل. تعلمنا أن نعتمد على نفسنا ونتحمل المسؤولية، وأن نكون الأوليين على صفنا والمريبتين الأكثر تنظيمًا ونجاحاً في البلدة. كنّا نسخة مصغرة عن أمنا المزارعة والمرمّضة المجتهدة، أشبه بزواج من السكاكين السويسرية الصغيرة متعدّدة الوظائف. كانت حياة عائلتنا مليئة بالمتعة والضحك، ولكنّ جدران المنزل كانت تحفل بلوائح الواجبات اليومية ولم أعرف أبداً معنى الكسل، ولو لمرة واحدة في حياتي.

مع ذلك، وبشكل عام، يعجز الأميركيون عن الاسترخاء والشعور بالمتعة الخالصة. فنحن أمة تسعى إلى اللهو، ولكن ليس إلى المتعة بالضرورة. إذ ينفق الأميركيون المليارات سعياً وراء التسلية بكلّ شيء، من الإباحية إلى الحدائق إلى الحروب، ولكنّ الأمر يختلف عن المتعة الهادئة. فهم يعملون بكثّة أكبر ولساعات أطول وأكثر إجهاداً من أيّ شخص آخر في العالم اليوم. ولكن، وكما قال لوكا سباغيتي، يبدو أنّنا نحبّ ذلك. وثمة إحصاءات مثيرة للقلق تدعم هذه الملاحظة وتُظهر أنّ الأميركيين يشعرون في مكاتبتهم بسعادة أكبر من تلك التي تمنحهم إياها منازلهم. بالطبع، يتحمّم علينا العمل بجهد كبير، فنشعر بالإرهاق وغمضي عطلة الأسبوع بملابس النوم، نأكل رقائق الحبوب من العلبة مباشرة، ونحدّق إلى التلفاز وكأنا في غيبوبة طفيفة (وهو عكس العمل ولكنّه ليس متعة بالضبط). فالأميركيون لا يعرفون كيف لا يفعلون شيئاً. وهذا سبب النموذج الأميركي الكبير الحزين، المدير التنفيذي المرهق، الذي يذهب في عطلة، ولكنّه لا يستطيع الاسترخاء.

سألت لوكا سباجيتي مرّة إن كان الإيطاليون يعانون من المشكلة نفسها في عطلاتهم. فانفجر ضاحكاً إلى حد أنّه أوشك على صدم درّاجته النارية بنافورة.

قال: "أوه، كلاً! نحن أساتذة في *il bel far niente*".

جميلة تلك العبارة: *il bel far niente* أي جمال عدم فعل شيء. في الواقع، لطالما كان الإيطاليون عمالاً مجتهدين، لا سيّما أولئك العمال الذين عانوا لوقت طويل، المعروفون باسم *braccianti* (لأنّهم لم يملكوا سوى قوّة أذرعهم - *braccie* - للعيش في هذا العالم). ولكن حتى في ظلّ هذا الكدّ، بقي *il bel far niente* مثلاً إيطالياً محبوباً. فجمال عدم فعل شيء هو هدف كلّ العمل، الإنجاز النهائي الذي يستحقّ التهنئة. وكلّما تفنّنت وابتهجت من عدم فعل شيء، كلما كانت إنجازات حياتك أكثر سموّاً. وليس من الضروري أن تكون غنياً لتختبر ذلك. فثمّة عبارة إيطالية أخرى رائعة: *l'arte d'arrangiarsi*، أي: فنّ صنع شيء من لا شيء. فنّ تحويل بعض المكونات البسيطة إلى وليمة، أو بضعة أصدقاء مجتمعين إلى مهرجان. كلّ من يملك المهبة أو السعادة يمكنه فعل ذلك، وليس الأغنياء وحسب.

مع ذلك، فإنّ العقبة الأساسية أمام بحثي عن المتعة هو شعوري المتأصل بالذنب البيوريتاني. هل أستحقّ فعلاً هذه المتعة؟ هذا الإحساس أميركي جداً أيضاً؛ الشعور بعدم الأمان حول ما إذا كنّا نستحقّ سعادتنا. فالإعلانات الأميركية تتمحور كلياً حول ضرورة إقناع المستهلك المتردّد بأنّه يستحقّ المكافأة. هذا لأجلك! أنت تستحقّ استراحة اليوم! لأنك تستحقّها! لقد مشيت طريقاً طويلاً! ويفكر المستهلك القلق في نفسه: أجل! شكراً! سأشتري رزمة الستّ قطع اللعنة! وربّما حتى رزمتين! وهنا يأتي ردّ فعل الإفراط في الاستهلاك،

يتبعه السندم. غير أن هذه الحملات الإعلانية ليست فعّالة في الثقافة الإيطالية على الأرجح، لأنّ الناس هناك يعرفون أساساً بأنّ لهم الحقّ بالاستمتاع بالحياة. فيجيب الإيطالي عن جملة: أنت تستحقّ استراحة اليوم كالتالي على الأرجح: أجل، أعرف ذلك. لهذا أحطط لأخذ استراحة عند الظهر والذهاب إلى بيتك والنوم مع زوجتك.

وربّما لهذا السبب، حين أخبرت أصدقائي الإيطاليين أنّي أتيت إلى بلادهم لعيش أربعة أشهر من المتعة الخالصة، لم يعارضوني بل قالوا: Complimenti! Vai avanti! تهانينا! هيا، استمتعي. كوني ضيفتنا. ولكنّ أحداً منهم لم يقل: "كم أنت غير مسؤولة" أو "يا لهذا التبذير". ولكن فيما أعطاني الإيطاليون الإذن التامّ للاستمتاع، كنت لا أزال غير قادرة على الاسترخاء. خلال الأسابيع الأولى من إقامتي في إيطاليا، كانت جميع نقاط الاشتباك العصبية البروتستانتية لديّ تنزّ بأسى، بحثاً عن عمل. أردت التعامل مع المتعة وكأنّها واجب منزلي أو مشروع لمعرض علمي هائل. ورحت أتساءل: كيف يمكن تفسير المتعة بمعناها الأوسع على النحو الأكثر فاعلية؟ وتساءلت ما إذا كان يجدر بي قضاء وقتي كلّه في إيطاليا في المكتبة، للقيام بأبحاث حول تاريخ المتعة. أو ربّما كان يجدر بي مقابلة إيطاليين عاشوا كثيراً من المتعة في حياتهم وسؤالهم كيف كان ذلك، ومن ثمّ كتابة مقال عن الموضوع. (وربّما مع مسافة مزدوجة بين السطور وستمترين ونصف من الهوامش، يطالعه القارئ صباح يوم الاثنين).

حين أدركت أنّ السؤال الوحيد المتوقّر هو: كيف أعرف المتعة؟ وآتني في بلد لن يمانع شعبه بأن أبحث عن الإجابة بحريّة، تبدّل كلّ شيء. أصبح كلّ شيء... لذيذاً. كان عليّ أن أسأل نفسي كلّ يوم، لأول مرّة في حياتي: لِمَ تريدين الاستمتاع اليوم، ليزي؟ ما الذي سيحلب

لك المتعة الآن؟ ومن دون التفكير بمداول أشخاص آخرين أو بواجبات أخرى ينبغي القيام بها، أصبح هذا السؤال مركزاً ومحدّداً.

كان من المثير للاهتمام أن أكتشف ما لم أرغب بالقيام به في إيطاليا، ما إن منحت نفسي السلطة التنفيذية للاستمتاع هناك. فمظاهر المتعة كثيرة في إيطاليا، ولم يكن الوقت يسمح بتجربتها جميعاً. عليك أن تعتمد مجالاً معيناً وإلاّ شعرت بالضيق. لذا، لم أتعاط الموضة أو الأوبرا أو السينما أو السيارات الجميلة أو التزلج على جبال الألب. حتى إنني لم أرغب باستكشاف هذا القدر من الفن. ومع أنني أحجل من الاعتراف بذلك، إلاّ أنني لم أزر متحفاً واحداً خلال الأشهر الأربعة من إقامتي في إيطاليا. (والأسوأ من ذلك، أعترف أنني زرت متحفاً واحداً: المتحف الوطني للمعكرونة، في روما). وجدت أن كلّ ما أردته فعلاً هو تناول طعام لذيذ وتحديث الإيطالية بأجمل شكل ممكن. هذا كلّ شيء. فاعتمدت مجالاً مزدوجاً، حقاً؛ التحدّث والأكل (مع التركيز على المتلحّجات).

جلب لي الطعام والكلام متعة تفوق الوصف، مع أنّها في غاية البساطة. أمضيت بضع ساعات في منتصف تشرين الأوّل قد لا تكون بذات أهمية بالنسبة إلى الآخرين، ولكنني سأعتبرها دوماً من بين أسعد اللحظات في حياتي. فقد عثرت على متجر قرب شقّتي، على بعد عدة شوارع، لم يسبق لي أن لاحظته من قبل. دنوت من كشك صغير للخضار لامرأة إيطالية وابنها يبيعان فيه بضائع من إنتاجهما، كأوراق السبانخ الغنية وشديدة الخضرة والطماطم الحمراء بلون الدم والعنب عسلي اللون ذي القشرة المشدودة مثل ثوب الراقصات.

اخترت باقة من المهليون الرقيق الزاهي. وكنت قادرة على أن أسأل المرأة بالإيطالية ومن دون صعوبة ما إذا كان بإمكانني شراء نصف باقة. لم

يكن نمة شخص آخر غيري، ولا أحتاج إلى كل هذه الكمية. فسارعت إلى أخذ باقة وقسمتها قسمين. ثم سألتها ما إذا كانت تتواجد في المكان نفسه كل يوم، وقالت أجل، هي هنا كل يوم، من الساعة السابعة صباحاً. فظنر إليّ ابنها ببحث وقال: "في الواقع، تحاول أن تكون هنا عند الساعة السابعة... فضحكنا جميعاً. كلّ الحديث تمّ بالإيطالية التي لم أكن أستطيع قول كلمة واحدة منها منذ عدّة أشهر. مشيت إلى المنزل، وسلقت بيضتين طازجتين لوجبة الغداء. قشرت البيضتين وربّتهما في الطبق مع سويقات الهليون السبع، التي كانت رقيقة وغضّة بحيث لا تحتاج إلى طبخ على الإطلاق. أضفت إلى الطبق بعض حبّات من الزيتون وأربع قطع من جبن الماعز الذي اشتريته في الليلة الفائتة من محلّ الأجبان في آخر الشارع، وشريحتين من السلمون الدهني ورديّ اللون. أمّا التحلية، فكانت عبارة عن حبة درّاق أعطتني إياها المرأة مجّاناً وكانت لا تزال دافئة من أثر الشمس الرومانية. بقيت لفترة عاجزة عن لمس الطبق لأنّه بدا رائعاً، كان تعبيراً حقيقياً عن فنّ صنع شيء من لا شيء. أخيراً حين تشرّبت تماماً جمال وجبتي، ذهبت للحلوس في بقعة مشمسة من أرض الشقة الخشبية النظيفة وأكلت طعام غدائي حتى آخر لقمة، بأصابعي، وأنا أقرأ مقالي اليومي بالإيطالية. سكنت السعادة كلّ ذرّة من جسدي.

إلى أن - كما حدث غالباً خلال تلك الأشهر الأولى من سفري، كلّما شعرت بتلك السعادة - تحرك فيّ الشعور بالذنب. فراح صوت زوجي السابق يتردّد في أذني وهو يتحدّث معي بازدراء قائلاً: إذاً هذا ما تركت كلّ شيء لأجله؟ لهذا أفسدت حياتنا معاً؟ لأجل بضع سويقات من الهليون وصحيفة إيطالية؟

فأجبت بصوت عالٍ. "أولاً: أنا آسفة جداً، ولكنّ هذا لم يعد من شأنك. ثانياً: وللإجابة عن سؤالك... أجل".

ثمة موضوع بديهي ينبغي التطرّق إليه في إطار بحثي عن المتعة في إيطاليا: ماذا عن الجنس؟

للإجابة عن هذا السؤال ببساطة: لا أريد أياً منه وأنا هنا. وللإجابة عنه بعمق وصراحة أكبر: بالطبع أشعر أحياناً بحاجة يائسة إلى وجود شخص في حياتي، ولكنني قررت وضع هذه اللعبة جانباً لفترة. لا أريد التورّط بعلاقة مع أحد. بالطبع أفتقد إلى شخص يقبلني لأنني أحبّ التقبيل. فأنا أتدّمّر من ذلك كثيراً أمام صوفي إلى حدّ أنّها قالت لي مرّة بسخط: "حباً بالله ليز، إن تأزّمت الأمور كثيراً، فأنا سأقبلك". ولكنني لن أقوم بشيء حيال ذلك في الوقت الحاضر. وحين أشعر بالوحدة هذه الأيام أقول لنفسني: كوني وحيدة ليز، تعرّفي إلى طريقك في الوحدة. ضعي لها خريطة. جالسيها لمرة واحدة في حياتك. عيشي هذه التجربة الإنسانية ولكن لا تستعملي أبداً جسد أو مشاعر شخص آخر كلوح تعلّقين عليه احتياجاتك.

كان هذا نوعاً ما سياسة إنقاذية طارئة، أكثر من أيّ شيء آخر. فقد بدأت أسعى وراء المتعة... والرومانسية في وقت مبكر من حياتي. بالكاد عشت مراهقة قبل صديقي الأوّل، وكان لديّ على الدوام رجل أو صديق (أو أحياناً الاثنان معاً) في حياتي منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري. كان هذا - أوه، ليز - منذ حوالي تسعة عشر عاماً. أي بقيت لعقدين من الزمن تقريباً أعيش نوعاً من الدراما مع شابّ ما. كلّ منهم يتلو الآخر من دون استراحة بينهم ولو لأسبوع واحد. ولم أستطع إلا أن أفكر في أنّ هذا النمط من الحياة كان عائقاً في طريق نضجي.

بالإضافة إلى ذلك، أنا أعاني من مشكلة الحدود مع الرجال. ربّما ليس من العدل قول ذلك. فكّي يعاني المرء من مشاكل مع الحدود، يجب أن يكون ثمة حدود في الأساس، أليس كذلك؟ أمّا أنا فأختفي في الشخص الذي أحبه. أنا غشاء نفيذ، إن أحببتك، تحصل على كلّ شيء. تحصل على وقتي وإخلاصي ومالي وعائلتي وكلبي ومال كلبي ووقت كلبي تحصل على كلّ شيء. إن أحببتك، أحمل عنك كلّ عذابك، وأتحمّل ديونك (بكلّ ما للكلمة من معنى)، أعطيك الحماية من مخاوفك، وأسقط عليك جميع أشكال المزايا الحسنة التي لم يسبق لك أن غذيتها فعلاً في نفسك، وأشتري هدايا لك ولعائلتك بأكملها. أعطيك الشمس والمطر، وإن لم يكونا متوفرين، أعطيك شيك شمس وشيك مطر. أعطيك كلّ هذا وأكثر، إلى أن أصبح منهكة ومستنفدة إلى حدّ أنّ الطريقة الوحيدة لاستعادة طاقتي هي بأن أتيم بشخص آخر.

في الواقع، أنا لا أروي هذه الحقائق عن نفسي بفخر، لكن هذا ما كنت عليه دوماً.

فبعدها تركت زوجي بفترة، ذهبت إلى إحدى الحفلات، وهناك التقيت بشابّ بالكاد أعرفه قال لي: "أتدرين، أنت تبدين شخصاً مختلفاً تماماً مع صديقك الجديد. كنت تبدين مثل زوجك، أمّا الآن فأنت مثل ديفيد. حتى إنك تلبسين مثله وتتحدّثين مثله. أتعرفين كيف يبدو الناس مثل كلاهم؟ أعتقد بأنك تبدين مثل رجالك".

يمكنني إذاً أخذ استراحة من هذه الدوامة وإعطاء نفسي بعض المجال لأكتشف كيف أبدو وأتحدّث وأنا لا أحاول الاندماج مع أحد. أيضاً، لأكون صادقة، فإنّي أقدم خدمة عامّة سخية إن تركت الحميمية لفترة من الزمن. فحين أراجع سجلّي الرومانسي، لا يبدو جيّداً في

الواقع. كان عبارة عن كارثة تلو الأخرى. إلى متى سأستمرّ بمحاولة حبّ أنواع مختلفة من الرجال والفتل في ذلك؟ فلننظر إلى الأمر من الزاوية التالية، إن تعرّضتَ لعشرة حوادث سير خطيرة متلاحقة، ألن تُسحب منك رخصة السير؟ ألن ترغب لو يحدث ذلك؟

ثمّة سبب أخير لترددي في التورط مع شخص آخر. فأنا لا أزال مغرمة بديفيد، ولا أعتقد أنّ هذا عادل في حقّ الشابّ التالي. حتى إتني لا أعرف ما إذا كنّا قد انفصلنا نهائياً أنا وديفيد. كنّا لا نزال قريين من بعضنا كثيراً قبل أن أغادر إلى إيطاليا، مع أنّنا لم نسم معاً منذ مدّة طويلة. غير أنّه كانت لدينا آمال أنّنا ربّما يوماً ما...

لا أدري.

هذا ما أعرفه؛ أنا مرهقة من العواقب المتراكمة للخيارات المتهورّة والأهواء الفوضوية التي سادت حياتي. وحين سافرت إلى إيطاليا، كان جسدي وروحي مستنزفين. شعرت وكأني تربة مزارع يائس، أجهدها فرط الاستغلال وتحتاج إلى موسم راحة. لهذا السبب، غادرت.

صداقاً، أنا أدرك مدى سخرية الذهاب إلى إيطاليا سعياً وراء المتعة، في فترة عزوبة مفروضة ذاتياً، ولكنني أعتقد فعلاً بأنّ الامتناع عن التورط في علاقات عاطفية في الوقت الحالي هو ما يناسبني. وكنت واثقة من ذلك الليلة التي سمعت فيها جارتني في الطابق العلوي (فتاة إيطالية جميلة جداً تملك مجموعة رائعة من الأحذية عالية الكعبين) تمارس الحبّ برفقة زائر محظوظ لشقتها.

بالطبع، تغلبني الرغبة في بعض الأحيان. فأنا ألتقي كلّ يوم بكثير من الرجال الإيطاليين الذين يمكنني تخيلهم في سريري. وبرأيي، رجال روما وسيمون على نحو مضحك، مؤلم، وأحمق. حتى إنّهم أكثر جمالاً

من النساء الرومانيات، بصراحة. فالرجال الإيطاليون جميلون مثل النساء الفرنسيات، أي أنه لا ينقصهم أيّ تفصيل ليكونوا كاملين. وفي بعض الأحيان أجدهم جميلين إلى حدّ أنني أرغب بالتصفيق. الرجال هنا يدفعونني بجمالهم إلى استحضار عبارات الروايات العاطفية لوصفهم. فهم يتمتّعون بجاذبية قاتلة أو بعضلات هائلة.

مع ذلك، أقرّ بأمر ليس فيه إطراء كبير لي، وهو أنّ هؤلاء الرومان الذين ألتقي بهم في الشارع لا يعيرونني انتباهاً كبيراً، أو حتى أيّ انتباه أحياناً. وقد وجدت الأمر مثيراً للقلق في البداية. فقد زرت إيطاليا من قبل حين كنت في التاسعة عشرة، وأذكر أنني تعرّضت للتحرش المستمر من الرجال في الشارع، وفي مطاعم البيتزا، وفي السينما... كان ذلك متواصلاً وفضيحاً. أمّا الآن، في سنّ الرابعة والثلاثين، أصبحت غير مرئية على ما يبدو. بالطبع، يحدث أحياناً أن يقول لي رجل بطريقة ودودة: "تبدين جميلة اليوم، سينيوريتا"، ولكن ليس غالباً، ولم يتخذ ذلك أبداً شكلاً عدوانياً. ومع أنّه من غير اللطيف التعرّض لمهاجمة غريب مثير للتقرّز في الباص، إلّا أنّه لا يمكن تجاهل الغرور الأنثوي، ما يدفع إلى التساؤل: ما الذي تغيّر هنا؟ أهو أنا؟ أم هم؟

فسألت، واتفق الجميع على أنّ تحوّلاً حقيقياً قد حدث في إيطاليا في السنوات الخمس عشرة الأخيرة. ربّما كان السبب انتصار قضية حرية المرأة، أو التطوّر الثقافي، أو الآثار التحديثية الحتمية لعملية الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. أو ربّما كان السبب ببساطة الإحراج الذي يشعر به الشباب أمام الفسق الذي ساد أخلاق آبائهم وأجدادهم. مهما كان السبب، يبدو أنّ المجتمع الإيطالي قد قرّر أنّ السلوك القائم على ملاحقة ومضايقاة النساء لم يعد مقبولاً. حتى

صديقتي الجميلة الشابة صوفي لا تتعرض للتحرش في الشوارع، علماً بأنّ الفتيات السويديات، ببشرتهنّ البيضاء بلون الحليب، كنّ ينلن القسط الأسوأ من تلك المضايقات.

باختصار، يبدو أنّ الرجال الإيطاليين يستحقّون جائزة الشعب الأكثر تحسّناً.

هذا ما أشعري بالارتياح، لأنني خشيت لفترة أن أكون أنا السبب. أعني خشيت ألاّ أحظى بالاهتمام لأنني لم أعد في سن التاسعة عشرة ولم أعد جميلة. وخشيت أن يكون صديقي سكوت على حقّ حين قال لي في الصيف الماضي: "آه، لا تقلقي ليز، هؤلاء الرجال الإيطاليون لن يسبّبوا لك الإزعاج بعد اليوم. فهم ليسوا كالفرنسيين، الذين يحبّون التحرش بالنساء المتقدّمات في السنّ".

23

عصرَ يوم أمس، ذهبت مع لوكا سباعيتي ورفاقه لمشاهدة مباراة لكرة القدم. كنّا ذاهبين لحضور مباراة فريق لاتسيو. ففي روما فريقا كرة قدم، لاتسيو وروما. والمنافسة بين الاثنتين حامية إلى حدّ أنّها تحوّل العائلات السعيدة والأحياء المسالمة إلى ساحات حروب أهلية. ومن الأهمية بمكان أن تختار منذ الصغر ما إذا كنت من مشجعي لاتسيو أم روما، لأنّ لهذا الخيار دوراً كبيراً في تحديد الأشخاص الذين ستمضي معهم عصر كلّ يوم أحد لبقية حياتك.

لدى لوكا مجموعة مؤلفة من عشرة أصدقاء تقريباً، يحبّون بعضهم كالأخوة. باستثناء أنّ نصفهم من مشجعي لاتسيو ونصفهم الآخر من مشجعي روما. ولا يستطيعون فعل شيء حيال ذلك، فجميعهم ولدوا

في عائلات حدّدت انتماءها مسبقاً. جدّ لوكا (وأظنه يُعرَف باسم نوّو سبأغيّتي) أهدها أوّل قميص له من قمصان فريق لاتسيو زرقاء اللون حين كان لا يزال طفلاً يَجِبُو. وهكذا، سيكون لوكا من مشجّعي لاتسيو لبقية حياته.

قال لي مرّة: "يمكننا تغيير زوجاتنا، وظائفنا، جنسياتنا، ولكننا لا نستطيع أبداً تغيير فريقنا".

وللمناسبة، كلمة مشجّع تعني بالإيطالية *tifoso*. وهي مشتقة من كلمة تيفوس. بتعبير آخر، شخص محموم إلى حدّ بالغ.

أوّل مباراة كرة قدم شاهدتها مع لوكا سبأغيّتي كانت عبارة عن وليمة حافلة بالعبارات الإيطالية المهتاجة. تعلّمت في ذاك المدرج كلمات جديدة ومثيرة للاهتمام لا يعلّمونها في المدرسة. كان ثمة رجل كبير في السنّ يجلس خلفي وينسّق مجموعة مختارة من الشتائم وهو يصرخ على اللاعبين في الملعب. وبما أنّي لا أعرف الكثير عن كرة القدم، لم أضع الوقت في طرح الأسئلة التافهة على لوكا حول ما يجري في الملعب. بل كنت أسأله: "لوكا، ماذا قال الرجل الجالس خلفي للتوّ؟" "ما معنى *cafone*؟" ومن دون أن يحوّل عينيه عن الملعب، كان يجيب: "أحمق. تعني أحمق".

فأكتبها. ثمّ أغلّق عينيّ وأستمع إلى المزيد من عبارات العجوز الصاخبة، التي استمرّت بالتدفّق على النحو التالي:

Dai, dai, dai, Albertini, dai... va bene, va bene, ragazzo mio, perfetto, bravo, bravo ... Dai! Dai! Via! Via! Nella porta! Eccola, eccola, eccola, mio bravo ragazzo, caro mio, eccola, eccola, ecco-AHHHHHHHHH!!! VAFFANCULO!!! FIGLIO DI MIGNOTTA!! STRONZO! CAFONE!

TRADITORE! Madonna... Ah, Dio mio, perché, perché, questo è stupido, è una vergogna, la vergogna... Che casino, che bordello... NON HAI UN CUORE, ALBERTINI! FAI FINTA! Guarda, non è successo niente... Dai, dai, ah... molto migliore, Albertini, molto migliore, sì, sì, sì, eccola, bello, bravo, anima mia, ah, ottimo, eccola adesso... nella porta, nella porta, nell - VAFFANCULO!!!!!!

وأحاول ترجمتها كما يلي:

هيا، هيا، هيا، ألبيرتيني، هيا... أجل، أجل ولدي، ممتاز، رائع، رائع... هيا! هيا! تقدّم! تقدّم! في المرمى! ها أنت، ها أنت، ها أنت، يا ولدي الرائع، عزيزي، ها أنت، ها أنت، ها...
 تَبّاً لك! نذل! أحمق! خائن!... يا الله، لماذا؟ لماذا؟
 لماذا؟ هذه حماقة، هذا مخز، يا للعار... ما هذه الفوضى؟...
 (ملاحظة الكاتبة: لسوء الحظ، ما من ترجمة دقيقة للتعبيرين الإيطاليين، الذين يعنيان حرفياً: يا له من كازينو ويا له من بيت هوى، إلا أنّ المعنى الأساسي هو يا لها من فوضى)... أنت بلا قلب، ألبيرتيني!!! أنت دجال! انظر، لم يحدث شيء... هيا، هيا، صه، نعم... هذا أفضل بكثير، ألبيرتيني، أفضل بكثير، أجل أجل أجل، ها أنت ذا، جميل، رائع، آه، ممتاز، ها أنت ذا الآن... في المرمى، في المرمى، في... تَبّاً لك!!!

آه، كان من حظّي أنّي جلست أمام ذاك الرجل تماماً. أحببت كلّ درة خرجت من فمه. أردت لو ألقى برأسي على ركبتيه العجوزتين وأدعه يصبّ شتائمه في أذني إلى الأبد. ولكن لم يكن هو الوحيد الذي تفوّه بالشتائم! كان المدرج مليئاً بهذا النوع من

المناجاة. وبحماسة عالية جداً. فكلّما وقع ظلم خطير على أرض الملعب، يهبّ المدرج بأكمله على قدميه، ويأخذ كلّ واحد منهم بالتلويح بذراعيه غاضباً وهو يشتم، وكأنّ العشرين ألف مشجّع دخلوا جميعاً في عراك في زحمة السير. ولم يكن لاعبو فريق لاتسيو أقلّ مأساوية من مشجعيهم، إذ كانوا يتدحرجون على الأرض بألم وكأنّهم يمثّلون مشاهد موت في فيلم يوليوس قيصر، يلعبون في الصفّ الأخير تماماً، ثمّ يقفزون على أقدامهم بعد ثانيتين ليقودوا هجوماً آخر على المرمى.

مع ذلك، خسر اللاتسيو.

كان لوكا سباغيتي بحاجة إلى الترويح عن نفسه بعد المباراة، فسأل رفاقه: "هل نخرج؟".

افترضت أنّ هذا يعني: "هل نخرج إلى المشرب؟" فهذا ما يفعله هواة الرياضة في أميركا حين يخسر فريقهم. يذهبون إلى المشرب للترويح عن أنفسهم. ليس الأميركيون وحدهم هم من يفعلون ذلك. بل الإنكليز أيضاً، والأستراليون والألمان... الجميع، أليس كذلك؟ ولكنّ لوكا ورفاقه لم يقصدوا المشرب للترويح عن أنفسهم، بل ذهبوا إلى فرن. فرن صغير قابع في الطابق السفلي لمبنى في أحد أحياء روما. كان المكان مكتظاً بالناس ليلة الأحد تلك. وهو يزدحم بالناس دوماً بعد المباريات. فمشجعو اللاتسيو يتوقّفون فيه دوماً في طريقهم من الملعب إلى بيوتهم ليقفوا في الشارع لساعات، حيث يتكئون على دراجاتهم النارية ويتحدّثون عن المباراة، وهم يأكلون فطائر القشدة.

كم أحبّ إيطاليا.

كنت أتعلّم حوالي عشرين كلمة إيطالية جديدة كلّ يوم. كنت أدرس باستمرار، أقلب بطاقات الملاحظات وأنا أسير في أرجاء المدينة، أتفادى الارتطام بالمشاة. لا أدري أين كنت أجد مكاناً لتخزين هذه الكلمات في دماغي. آمل أن يكون ذهني قد قرّر التخلص من بعض الأفكار السلبية القديمة واستبدالها بهذه الكلمات الجديدة المشرقة. كنت أعمل بجدّ على اللغة الإيطالية، ولكنني بقيت آمل أن تتحلّى لي يوماً ما كاملة، أن أفتح فمي يوماً ما، وأتحدّثها بطلاقة بشكل سحري. عندها أكون فتاة إيطالية حقيقية عوضاً عن كوني أميركية كاملة ما زالت تعجز عن سماع شخص ينادي صديقه ماركو عبر الشارع من دون أن ترغّب غريزياً بالصراخ له: "بولو!" أتمنى لو أنّ الإيطالية تسكن معي ببساطة، إلّا أنّها تحتوي على كثير من الأفخاخ. على سبيل المثال، لماذا توجد كلمات إيطالية متشابهة جداً مثل *albergo* و *albero*؟ ما يجعلني أكرّر للناس دوماً بأنني نشأت في مزرعة فندق ميلاد عوضاً عن الوصف الأكثر دقّة والأقلّ سريالية مزرعة شجرة ميلاد. وثمة أيضاً كلمات ذات معنيين أو حتى ثلاثة. مثلاً: *tasso* تعني معدّل فائدة، أو حيوان الغُريّر، أو شجرة الطّقوس وذلك حسب السياق. غير أنّ الأكثر إيجاباً بالنسبة إليّ هو حين أتلعثم بكلمات بشعة في الواقع، مع أنّي أكره قول ذلك، وأعتبر الأمر شخصياً. أنا آسفة في الواقع، ولكنني لم أقطع كلّ هذه المسافة إلى إيطاليا لأتعلّم كيف أقول كلمة مثل *schermo* (شاشة).

على الرغم من ذلك، كان الأمر يستحقّ التعب. فقد كان في معظمه عبارة عن متعة حالصة. كنّا نمضي أنا وجوفاني وقتاً رائعاً يعلم

أحدنا الآخر لغته الخاصة بتبادل عبارات إنكليزية وإيطالية. كُنَّا نتحدَّث في إحدى الأمسيات عن التعابير التي تقال عند مواساة شخص يمرّ في محنة. أخبرته بأننا نقول أحياناً بالإنكليزية لقد كنت هناك. لم يفهم العبارة في البداية: كنتُ أين؟ فشرحت له بأنّ الحزن العميق يشبه أحياناً موقعاً معيَّناً، على خريطة زمنية. وحين تقف في غابة الحزن تلك، لا يمكنك أن تتخيّل بأنك تستطيع إيجاد الطريق إلى مكان أفضل. ولكن إن أكّد لك شخص آخر بأنّه وقف في المكان نفسه وأنّه تمكّن من الخروج منه، تشعر بشيء من الأمل أحياناً.

فسألني جوفاني: "إذا الحزن هو مكان؟".

"يعيش الناس فيه لسنوات أحياناً".

بالمقابل، أخبرني جوفاني بأنّ الإيطاليين يقولون *l'ho provato sulla mia pelle*، أي: احتبرت ذلك على جلدي. ما يعني أنني حرقت أو لدغت بهذه الطريقة وأني أعرف تماماً ما تمرّ به. غير أن أكثر كلمة أحببتها بالإيطالية هي كلمة بسيطة وشائعة جداً:

Attraversiamo

وتعني لنعبّر الشارع. يقول الأصدقاء هذه الكلمة لبعضهم على الدوام وهم يمشون على الرصيف حين يقرّرون عبور الشارع إلى الجهة المقابلة. وهي بالتالي كلمة مخصّصة للمشاة، لا شيء مميّز فيها. مع ذلك، ولسبب ما، دخلت قلبي. حين قالها لي جوفاني للمرّة الأولى، كُنّا نسير قرب الكولوسيوم. فجأة سمعته يقول كلمة جميلة، فتوقّفت جامدة وسألته: "ما معنى ذلك؟ ماذا قلت للتو؟".

"Attraversiamo"

لم يفهم لِمَ أعجبتني إلى هذا الحدّ. لنعبّر الشارع؟ إلا أنّها كانت بالنسبة إليّ تشتمل على مزيج رائع للأصوات الإيطالية. الآه الحزينة في

السبداية، الحروف الساكنة المتدحرجة، السين اللطيفة والجزء الأخير المتباطئ، إي - اه - موه. أحببت هذه الكلمة، وصرت أرددها طيلة الوقت. كنت أبحث عن أيّ عذر لقولها، ما أثار جنون صوفي. فلنعبر الشارع! فلنعبر الشارع! كنت أجرحها طيلة الوقت ذهاباً وإياباً عبر زحمة السير الجنونية في روما. وإن استمررت على هذا المنوال، فسنقتل كلتانا بهذه الكلمة.

أما الكلمة الإنكليزية المفضّلة لدى جوفاني فهي half-assed، أي: أحمق.

وكلمة لو كا سباعيتي المفضّلة هي surrender، أي: استسلام.

25

ثمّة صراع قوّة دائر في أوروبا هذه الأيام. فبعض المدن تتبارى على مرتبة أعظم عاصمة أوروبية للقرن الحادي والعشرين. هل ستكون لندن؟ باريس؟ برلين؟ زوريخ؟ ربّما بروكسل، مركز اتحاد الشباب؟ جميعها تكافح لتتفوق على الأخرى ثقافياً، هندسياً، سياسياً، ضريبياً. ولكن يجب القول إنّ روما لم تحمّل نفسها عناء المشاركة في السباق. فروما لا تتنافس مع أحد. روما تفرّج على المرح والمرج من دون أيّ تأثر، وكأنّها تقول: مهما فعلتم، أبقى أنا روما. أنا مستوحاة من عسفوان هذه المدينة شديدة القدم والجمال، المليئة بالمرح والآثار، والتي تعرف بأنّ التاريخ يحتضنها بأمان بين كفيّه. أودّ لو أكون مثل روما حين أصبح امرأة عجوزاً.

خرجت اليوم في جولة على الأقدام امتدّت لستّ ساعات عبر شوارع المدينة. من السهل القيام بذلك، لا سيّما إن كنت تتوقّف غالباً

لتزوّد نفسك بالإسبرسو والمعجنات. بدأت من باب شقّي ثمّ تجوّلت في مركز التسوّق الكوزموبوليتاني الكائن في الجوار. (مع أنّي لا أستطيع أن أسميه جواراً بالمعنى التقليدي للكلمة، وإلاّ لكان جيراني أشخاصاً عاديين يحملون أسماء مثل فالينتينو، وغوتشي، وأرمان). لطالما كان هذا الحيّ راقياً في الواقع. ذلك أنّ روبنز وتينيسون وستندال وبالزرك وليزت وفاغنر وثاكيراى وبيرون وكتيس، كلّهم أقاموا هنا. فأنا أعيش في حيّ كان يطلق عليه اسم الحيّ الإنكليزي، توقف فيه الأرستقراطيون في جولاتهم عبر أوروبا.

توجّهت إلى بياتسا ديل بولو، بقنطرتها الكبيرة التي نحتها بيريني على شرف الزيارة التاريخية للملكة السويد كريستينا (التي كانت حقاً قنبلة تاريخية. إذ تصف صديقتي السويدية صوفي الملكة العظيمة على الشكل التالي: "تتقن ركوب الخيل، والصيد، كانت طالبة، وأصبحت كاثوليكية وأحدث ذلك فضيحة كبرى. يقول بعضهم إنّها كانت رجلاً، غير أنّها على الأقلّ شاذة على الأرجح. كانت ترتدي السراويل وتخرج في بعثات تنقيب عن الآثار. وقد جمعت القطع الفنية، ورفضت إنجاب وريث"). بالقرب من القنطرة تقع كنيسة يمكن زيارتها مجاناً ورؤية لوحاتين بريشة كارافادجو. واللوحتان تبعثان في نفسي دوماً الرغبة في البكاء، ولكنني أعيد إليها البهجة بالانتقال إلى الجهة الأخرى من الكنيسة لأمتّع نظري بلوحة أخرى.

توجّهت جنوباً من جديد. قطعت بالاتسو بورغيزي، الذي عرف العديد من النزلاء المشهورين، بمن فيهم بولين، شقيقة نابوليون التي كانت حياتها حافلة بالفضائح، والتي التقت بعدد لا يحصى من عشاقها فيها. كما أنّها كانت تحبّ استعمال خادماها كمسند للقدمين. (في الواقع، يأمل المرء دوماً بأن يكون قد قرأ هذه الجملة خطأً في دليل

روما السياحي، ولكن لا، الأمر صحيح. كما كانت بولين تحب أن تُحمَل إلى حمامها، بين ذراعي زنجي عملاق، كما قيل لنا). ثم تمشيت على ضفتي نهر التير العظيم قروي الطابع وصولاً إلى جزيرة التير، وهي من الأماكن الهادئة المفضلة لدي في روما. إذ لطالما اقترنت هذه الجزيرة بالشفاء. فقد شُيّد فيها معبد لإسكولابيوس بعد انتشار الطاعون عام 291 ق.م؛ وفي العصور الوسطى، تم بناء مستشفى فيها من قبل مجموعة من النسك يدعون Fatebenefratelli (وهي كلمة تترجم على النحو التالي: الأخوة فعلة الخير)؛ وثمة مستشفى على الجزيرة حتى اليوم. عسرت النهر إلى تراستافيري؛ المكان الذي يقطنه حسبما يُزعم الرومان الحقيقيون، العمال، الذين بنوا على مرّ العصور الأبنية الأثرية على الضفة الأخرى من التير. تناولت غدائي في تراتوريا هادئة هناك، وتمهّلت في الطعام والشراب لساعات لأنّ أحداً في تراستافيري لا يمنعك من التمهّل في تناول وجبتك لو رغبت بذلك. طلبت تشكيلة من البروشيتي، وقطعة صغيرة من الدجاج المشوي، الذي تقاسمته في النهاية مع الكلب المتشرّد الذي كان يراقبني وأنا أتناول طعامي بطريقة لا يفعلها سوى كلب متشرّد.

عدت شمالاً، مروراً ببياتسا نافونا التي تحتضن نافورة الماموث التي تصوّر الأهمار الأربعة العظمى لكوكب الأرض (والتي تضمّ بفخر، إن لم يكن بدقّة كبيرة، نهر التير المتكاسل). ثمّ ذهبت لإلقاء نظرة على البانتيون. فأنا أذهب للنظر إليه كلّما سنحت لي الفرصة، بما أنّني في روما. كما أنّه ثمة مثل قديم يقول إنّ من يذهب إلى روما من دون رؤية البانتيون، يذهب ويعود أحمق.

في طريق عودتي إلى البيت، انعطفت قليلاً، وتوقّفت عند عنوان أحده مؤثراً على نحو غريب؛ الأغوستيوم. فتلك الكومة الكبيرة

المستديرة من بقايا الآجر بدأت حياتها كضريح مهيب، بناه أوكتافيان أغوستوس ليرقد فيه هو وعائلته إلى الأبد. لا بدّ من أنّه كان يصعب على الإمبراطور أن يتخيّل روما شيئاً آخر غير إمبراطورية عظمت تبجل أغوستوس. كيف له أن يتوقع الهيار المملكة؟ أو أن يعرف أنّه مع تدمير البربريين لجميع الأقية وشبكة الطرقات الهائلة، ستخلو المدينة من مواطنيها وستستغرق روما قروناً لتستعيد السكّان الذين اعتزّت بهم في أوج عظمتها؟

سقط ضريح أغوستوس فريسة الدمار والنهب خلال عهد الظلمات. وسرق أحدهم رفات الإمبراطور. ولكن في القرن الثاني عشر، تمّ تجديد الضريح وتحويله إلى قلعة لعائلة كولونّا العظيمة، لحمايتها من هجمات مختلف الأمراء المتحاربين. ثمّ تحوّل الأغوستيوم إلى كرم عنب نوعاً ما، ثمّ إلى حلبة لمصارعة الثيران (وذلك في القرن الثامن عشر)، ثمّ إلى مستودع للألعاب النارية، ثمّ إلى قاعة للحفلات الموسيقية. في ثلاثينيات القرن العشرين، استولى موسوليني على المكان، وأعادته إلى أساسه الكلاسيكي ليكون مرقده الأخير يوماً ما. (هنا أيضاً، كان من المستحيل يومها تخيّل أن تكون روما غير إمبراطورية لتبجيل موسوليني). بالطبع، لم يدم حلم موسوليني، كما أنّه لم يحصل على القبر الفخم الذي أرادته.

اليوم، يعتبر الأغوستيوم من أكثر الأماكن هدوءاً ووحدة في روما، إذ إنّه مدفون عميقاً تحت التراب بعد أن نمت المدينة حوله على مرّ القرون. (فالبقايا التي يخلفها الزمن تتراكم حسب القاعدة العامّة بمقدار سنتمترين في السنة). حركة السير فوق النصب تدور بشكل محموم ولا أحد ينزل إلى هنا، حسبما أرى، إلّا لاستعمال المكان كحمام عامّ. غير أنّ البناء لا يزال موجوداً، يحتضن الأرض الرومانية بجلال.

أجد قوّة احتمال الأغوستيوم مطمئنة جداً، فمسار حياة ذلك البناء كان شاذّاً إلى حدّ كبير، إلّا أنّه كان يعدّل حسب الأهواء الجاححة للزمن. بالنسبة إليّ، أراه امرأة عاشت حياة جنونية تماماً؛ بدأت كسيدة منزل، ترمّلت بشكل غير متوقّع، فامتنت الرقص لتكسب قوتها، لينتهي بها الأمر كأول طيبة أسنان في الفضاء الخارجي، قبل أن تجرّب الدخول في معترك السياسة؛ غير أنّها تمكّنت من الحفاظ على روحها خلال كلّ ذلك.

أنظرُ إلى الأغوستيوم، وأفكّر في أنّ حياتي لم تكن بهذه الفوضى في النهاية. ربّما كان هذا العالم هو مكمن الفوضى، بحيث يجلب التغييرات لنا جميعاً على غير توقّع. يعلّمني الأغوستيوم ألاّ أتعلّق بفكرة مطلقة عمّن أنا، ما أمثّل، إلى من أنتمي، أو الوظيفة التي قرّرت يوماً تأديتها. ربّما كنت في ما مضى نصّباً رائعاً لشخص ما، هذا صحيح، إلّا أنّني قد أكون غداً مستودعاً للألعاب النارية. وحتى في المدينة الأبدية، على المرء، بحسب الأغوستيوم، أن يكون مستعدّاً لرياح التغيير الهائجة والمتواصلة.

26

كنت قد شحنت مسبقاً صندوقاً لي من الكتب قبل أن أغادر نيويورك إلى إيطاليا. وكان يفترض بالصندوق الوصول إلى شقّتي في روما ضمن مدّة تتراوح بين أربعة وستّة أيام. ولكن أظنّ بأنّ مكتب البريد قد قرأ المدّة خطأ: أربعة وستون يوماً، لأنّ شهرين انقضيا ولم أستلم صندوقي بعد. قال لي أصدّقائي الإيطاليون بأنّ أنسى أمر الصندوق تماماً. بحسب قولهم، قد يصل وقد لا يصل، إلّا أنّ الأمر ليس بين أيدينا.

سألت لوكا سباجيتي: "هل سرقه أحدهم؟ أو ربّما أضاعه مكتب البريد؟".

أجاب وهو يغطّي عينيه: "لا تطرحي الأسئلة، ستستائنين وحسب".

أحدث لغز صندوقي الضائع نقاشاً طويلاً في إحدى الليالي بيني وبين صديقتي الأميركية ماريا وزوجها جوليو. برأي ماريا، على المرء أن يتمكّن من الاعتماد على أشياء معيّنة، في بلد متمدّن، كالاطمئنان بأن يسلم مكتب البريد ما نرسله في الوقت المحدّد، إلّا أنّ جوليو يختلف معها. فهو يرى أنّ مكتب البريد ليس بيد البشر بل بيد القدر، وبأنّ إيصال البريد لا يمكن لأيّ كان أن يضمّنه. انزعجت ماريا وقالت إنّ هذا دليل إضافي على الانقسام البروتستانتي الكاثوليكي. والدليل على ذلك حسب قولها، إنّ الإيطاليين، بمن فيهم زوجها، لا يمكنهم وضع خطط للمستقبل، ولا حتى لأسبوع واحد مسبقاً. فلو سألت بروتستنتياً من وسط الغرب الأميركي لتحديد موعد عشاء للأسبوع المقبل، يقول ذاك البروتستانتيّ الذي يعتقد بأنّه سيّد قدره: "يناسبني مساء الخميس". أمّا لو سألت كاثوليكياً من كالابريا السؤال نفسه، سيرفع كتفيه وينظر إلى السماء ويسأل: "من منّا يعرف ما إن سيكون مشغولاً أم لا مساء الخميس القادم؟ فكلّ شيء بيد الله ولا أحد منّا يعرف قدره".

مع ذلك، قصدت مكتب البريد بضع مرّات بحثاً عن الصندوق، ولكن بلا جدوى. فموظفة البريد لم ترحّب بمقاطعتي لاتصالها بصديقها. كما أنّ لغتي الإيطالية، التي تحسّنت كثيراً بالفعل، تخونني في ظروف كتلك. فبينما أتحدّث بعقلانية عن صندوقي الضائع، تنظر إليّ المرأة وكأني أنفخ فقاعات في الهواء.

سألته بالإيطالية: "ربّما يصل في الأسبوع المقبل؟".

رفعت كتفيها قائلة: "Magari".

كلمة عامية إيطالية أخرى تصعب ترجمتها، تعني شيئاً ما بين إن شاء الله ولا تحلمي بذلك، آيتها البلهاء.

ولكن، ربّما كان هذا خير لي. حتى إنني نسيت ما وضعت فيه من كتب أساساً. بالطبع، كانت أشياء اعتقدت أنه ينبغي عليّ دراستها، لو أردت أن أفهم إيطاليا تماماً. كتب جادة ومفصلة، تبدو بلا أهمية الآن، وأنا هنا. أعتقد أنني وضعت في ذلك الصندوق النصّ الكامل لكتاب غيبون تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية. قد أكون أكثر سعادة من دونه. فيما أنّ الحياة قصيرة جداً، من غير المنطقي إمضاء جزء من أيامي المتبقية لي على الأرض في قراءة إدوارد غيبون.

27

التقيت بفتاة أسترالية في الأسبوع الماضي تقوم برحلة عبر أوروبا للمرة الأولى في حياتها. أرشدتها إلى محطة القطار. كانت ذاهبة إلى سلوفينيا لإلقاء نظرة. حين أخبرتني بخطتها، شعرت بالغيرة تكتسحي، وقلت لنفسني، أريد الذهاب إلى سلوفينيا! كيف حدث أنني لم أسافر إلى أيّ مكان؟

الآن، قد يبدو لك بأنني مسافرة أصلاً. والتوق إلى السفر وأنت مسافر هو نوع من الطمع الجنوبي، أقرّ بذلك. ولكنّ طلب تلك الفتاة معلومات منّي (وقد بدت لها مواطنة إيطالية) يوحي بأنني لست مسافرة في روما، بل أعيش فيها. ومهما بدت إقامتي مؤقتة، إلاّ أنني مواطنة فعلاً. فحين التقيت بالفتاة، كنت في طريقي لأدفع فاتورة

الكهرباء، وهو أمر لا يفعله المسافرون. فالسفر إلى مكان ما والعيش في مكان ما هما أمران مختلفان تماماً، وشيء ما في لقائي بتلك الفتاة الأسترالية المتوجهة إلى سلوفينيا جعلني أرغب بالسفر أيضاً.

لهذا السبب، اتصلت بصديقتي صوفي وقلت لها: "فلنذهب لقضاء يوم في نابولي ونتناول البيتزا!".

سرعان ما ركبنا القطار بعد بضع ساعات، وكالسكر، أصبحنا هناك. أحببت نابولي فوراً. نابولي الوحشية، الخشنة، الصاخبة، القدرة. بكلّ غرابة البازار الشرق أوسطي مع لمسة من سحر نيوأورليانز. إنَّها بيت مجانين خطير ومرح. فقد أتى صديقي وايد إلى نابولي في السبعينيات وتعرّض للاعتداء والسلب... في متحف. كانت المدينة مزينة بالغسيل المتدلّي من جميع النوافذ وفوق كلّ الشوارع. وكانت الملابس الداخلية المغسولة حديثاً لجميع السكّان تتمايل مع الهواء وكأنّها أعلام تيبتيّة. ما من شارع في نابولي يخلو من ولد صغير مشاكس يرتدي سروالاً قصيراً وجوربين غير متلائمين معه يصرخ من الرصيف لولد آخر مشاكس يقف على سطح أحد المنازل في الجوار. كما أنّه لا يخلو مبنى في هذه المدينة من امرأة عجوز واحدة على الأقلّ جالسة إلى النافذة، تراقب بحشرية ما يدور في الأسفل.

الناس هنا مأخوذون بكونهم من نابولي، وكيف لا يكونون كذلك، وهي المدينة التي أعطت للعالم البيتزا والآيس كريم؟ ونساء نابولي خصوصاً يتمتّعن بصوت خشن ومرتفع، كما أنّهم كريمات، صاخبات، ينزعن إلى السيطرة والغضب، تجدهنّ في وجهك دوماً يحاولن مساعدتك، وكأنّك مغفّل لم يرغبن بفعل كلّ شيء هنا؟ أمّا لكنة أهالي نابولي، فهي ودودة جداً وخفيفة الوقع على الأذن. وكأنّك تسير في مدينة من الطبّاخين، الكلّ فيها يتحدّث في الوقت نفسه. لا

يزال السكّان يحفظون بلهجتهم الخاصة هنا، ولسكان نابولي كلماتهم العامية المحلية دائمة التغيير، غير أنّي لسبب ما، أجد أهالي نابولي هم الأسهل فهماً عليّ في إيطاليا. لماذا؟ لأنهم يريدونك أن تفهم. فهم يتحدثون بصوت مرتفع ويشدّدون على ما يقولون، وإن لم تتمكّن من فهم ما يقولون بأفواههم، تحريك إشارات أيديهم عادة. كتلميذة المدرسة الصغيرة تلك التي كانت تركب الدراجة النارية خلف ابن عمّها الأكبر سنّاً، والتي رفعت لي إصبعها وابتسمت ابتسامة ساحرة، وكأثها تقول: "لا تحقدي عليّ أيّتها السيدة. أنا في السابعة فقط من عمري، ولكن يمكنني القول بأنك مغفلة تماماً، ولكن هذا رائع؛ أعتقد أنّك بخير تقريباً على الرغم من نفسك وأنا أحبّ وجهك الأحمق. كلانا يعرف بأنك تتمنّين لو كنت أنا، ولكنّ هذا غير ممكن مع الأسف. على أي حال، أرجو أن تستمتعي بإقامتك في نابولي، تشاؤوا!".

كما في جميع الأماكن العامّة في إيطاليا، ثمة دوماً صبيان وشباب ورجال يلعبون كرة القدم. على سبيل المثال، صادفت اليوم أولاداً - أعني مجموعة من الصبيان بسنّ الثامنة - تجمّعوا حول قفص دجاج قديم وصنعوا منه طاولة وكراسي مؤقتة وراحوا يلعبون الورق في الساحة بحدّة كبيرة، حتى إنّي خفت أن يُقتل أحدهم بالرصاص.

جوفاني وداريو هما من نابولي أساساً. غير أنّي أعجز عن تصوّر ذلك. أعجز عن تصوّر جوفاني الخجول، المجتهد، اللطيف ولدأ كهؤلاء السوقيين. إلاّ أنّه نابوليتاني من دون شكّ، لأنّه قبل مغادرتي روما، أعطاني اسم مطعم بيتزا لكي أحرّبه، لكونه حسب قول جوفاني يعدّ أطيب بيتزا في نابولي. وقد وجدت الأمر مثيراً، لأنّ أفضل بيتزا في إيطاليا هي من نابولي، وأفضل بيتزا في العالم هي إيطاليا، ما يعني بأنّ

مطعم البييتزا هذا... ما زلت أخشى قوله... يصنع أفضل بيتزا في العالم؟ في الواقع، أعطاني جوفاني اسم المكان بجديّة وحده بالغبين، حتى إنني شعرت وكأنه يعرفني على مجتمع سرّي. دسّ العنوان في كفيّ وقال بثقة وخطورة: "أرجوك اقصدي مطعم البييتزا هذا. اطلبي بيتزا مارغاريتا بجبن الموزاريلا المضاعف. إن لم تذوّقي هذه البييتزا وأنت في نابولي، أرجوك اكذبي عليّ لاحقاً وأخبريني بأنك فعلت".

هكذا ذهبنا أنا وصوفي إلى بيتزيريا دا ميكيلي، وفطيرتا البييتزا اللتان طلبناهما جعلتنا نفقد عقليتنا. أحبّ البييتزا كثيراً في الواقع، حتى إنني بدأت أعتقد بأنها ربّما كانت تحبّني هي أيضاً. أصبحت على علاقة بهذه البييتزا، علاقة عاطفية تقريباً. في تلك الأثناء، كانت صوفي تذرف الدموع فوق طبقها الذي ولّد لديها أزمة ميتافيزيقية، فقد كانت تتوسّلي قائلة: "لِمَ يكلفون أنفسهم صنع بيتزا في ستوكهولم؟ لِمَ تكلف أنفسنا حتى تناول الطعام في ستوكهولم؟".

بيتزيريا دا ميكيلي هو عبارة عن مكان صغير مؤلف من غرفتين فقط وفرن واحد لا يتوقّف عن العمل. يبعد عن محطة القطار خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام تحت المطر، ولكن لا تقلق بل توجه إليه مباشرة. عليك أن تصل باكراً قبل أن ينفد العجين، ما سيفطر قلبك. فبحلول الساعة الواحدة ظهراً، غصّت الشوارع خارج البييتزيريا بالنابوليتانيين الذين يحاولون الوصول إلى المكان، وراحوا يتدافعون وكأنّهم يحاولون إيجاد مكان على قارب نجاة. وليس لديهم قائمة طعام، ذلك أنّهم لا يعدّون سوى نوعين من البييتزا هنا عادية ومع جبن إضافي. وهي لا تشبه بشيء الهراء الذي يصنعونه في جنوب كاليفورنيا من الزيتون والطماطم المخففة تحت أشعة الشمس والذي يسمّونه بيتزا. أمّا العجينة، فلم أكتشف إلاّ في منتصف الوجبة بأنّ طعمها هو أقرب

إلى طعم النان الهندي منه إلى أي عجينة بيتزا سبق أن تذوّقتها. فهي طرية ليّنة ولكنها رقيقة على نحو لا يصدّق. لطالما اعتقدت أنّ لدينا خيارين وحسب في حياتنا حين يتعلّق الأمر بالبيتزا؛ عجينة رقيقة ومحمّصة أو سميكة وطريّة. كيف لي أن أتخيّل وجود عجينة رقيقة وطريّة على السواء؟ بيتزا رقيقة، طرية، قوية، طيبة، مالحة، تعلوها طبقة من صلصة الطماطم الحلوة التي ترغني على نحو قشدي حين تذوب مع جبن موزاريلا البقر الطازج. ويأتي غُصَيّن الحبق بين كلّ هذا ليضفيء البيتزا بأكملها بخصائصه العشبية، بنفس الطريقة التي تضيفي بها النجمة السينمائية في وسط الحفل شيئاً من السحر على كلّ من حولها. بالطبع، يستحيل أكل هذا الشيء عملياً. فما أن تتناول قضمة منه حتى تشني العجينة ويهرب الجبن الساخن، كالتربة على المنحدر، ويسبّب لك ولمن حولك الفوضى، ولكن حاول التعامل معه وحسب.

كان الشباب الذين يصنعون هذه الأعجوبة ينقلون البيتزا من وإلى الفرن المشتعل على الخطب، ويبدون مثل رجال مرجل في سفينة كبيرة، يضعون الفحم في الأفران المستعرة. أكمّاهم مرفوعة إلى أعلى أذرعهم متعرّقة ووجوههم ملتهمة من أثر الجهد، عين على حرارة النار وسيجارة تندلّي من أفواههم. طلبت وصوفي بيتزا إضافية لكلّ منّا، وحاولت صوفي استجماع قواها، ولكن البيتزا اللذيذة حقاً إلى حدّ يفوق الاحتمال.

أودّ الإشارة هنا إلى أنّي كنت أزداد وزناً يوماً بعد يوم. فأنا أقسو كثيراً على جسدي هنا في إيطاليا، أتناول كميات مروّعة من الجبن والباستا والخبز والشراب والشوكولاته والبيتزا. (قيل لي إنّ ثمة مكاناً آخر في نابولي يقدم بيتزا الشوكولاته. أي هراء هذا؟ في الواقع، ذهبت لتذوقها وكانت لذيذة، ولكن صدقاً؛ بيتزا الشوكولاته؟) لم أكن أمارس الرياضة أو أتناول كمية كافية من الألياف، كما أنّي لم أكن أتناول أي فيتامينات.

ففي حياتي المعتادة، كنت أشرب لبن الماعز العضوي المحتوي على بذور القمح للفظور. ولكنّ حياتي المعتادة أصبحت بعيدة. فصدقتي سوزان في أميركا تخبر الناس بأنني ذهبت في رحلة من دون عودة. ولكن جسدي يأخذ الموضوع بروح رياضية. فهو يغضّ البصر عن ذنوبي وتساهلي المفرط وكأنه يقول: "لا بأس يا عزيزتي، عيشي على هোক، أدرك بأنّ هذا مؤقت. ولكن أخبريني حين تنتهي تجربتك الصغيرة مع المتعة الخالصة لكي أرى ما يمكنني فعله لمعالجة الأضرار".

مع ذلك، حين أنظر إلى نفسي في مرآة أفضل بيتزيريا في نابولي، أرى وجهاً لامع العينين، صافي البشرة، سعيداً وناصباً بالصحة. لم أرَ وجهي كذلك منذ زمن طويل. همست: "شكراً". ثمّ هربنا أنا وصوفي تحت المطر بحثاً عن فطائر للتحلية.

28

أفترض بأنّ هذه السعادة التي بدأت منذ عدّة أشهر هي التي دفعتني إلى التفكير في طريق العودة إلى روما في ضرورة فعل شيء حيال ديفيد. لأنّه ربّما حان الوقت لإنهاء قصّتنا. فنحن منفصلان أساساً، كان انفصالنا رسمياً، ولكن كان لا يزال ثمة بارقة أمل أننا ربّما أعطينا لأنفسنا فرصة أخرى (ربّما بعد عودتي من أسفاري، ربّما بعد انفصالنا لعام). لقد أحببنا بعضنا، لم تكن تلك هي المشكلة. إلّا أننا لم نكن نعرف كيف لا نسبّب لبعضنا البؤس القاتل.

في الربيع الفائت، عرض ديفيد حلاً جنونياً لمشاكلنا، لم يكن يخلو من السخرية: "ماذا لو اعترفنا بأنّ علاقتنا سيّئة وتحملناها على أي

حال؟ ماذا لو أقرّينا بأننا نثير جنون بعضنا، نتشاجر باستمرار، ولكننا لا نستطيع العيش من دون بعضنا؟ ثمّ نمضي حياتنا معاً، في البؤس، ولكن سعداء لأننا لسنا منفصلين".

وقضائي الأشهر العشرة الفائتة وأنا أفكر بجديّة في هذا العرض ليس سوى شاهد على مدى حبي اليائس لذلك الشاب.

أمّا البديل الذي لم نُبح به فهو أن يتغيّر أحدنا. أن يصبح أكثر انفتاحاً وحناناً، ولا يبعد نفسه عن المرأة التي يحبّها خوفاً من أن تلتهم روحه. أو أن أتعلّم أنا كيف... أتوقّف عن التهام روحه.

لطالما تمّنت مع ديفيد لو أستطيع التصرف مثل أمّي في زواجها؛ مستقلّة، قوية، مكفّية ذاتياً، وقادرة على البقاء من دون جرعات الرومانسية أو الغزل المنتظمة من أبي المزارع الوحيد، وقادرة على زرع أزهار الربيع. ممرح في الحديقة بين جدران الصمت التي كان أبي يبنها أحياناً حول نفسه. في الواقع، أبي هو الشخص المفضّل بالنسبة إليّ في هذا العالم، ولكنّه يشكّل حالة غريبة بعض الشيء. وصفه أحد أصدقائي مرّة قائلاً: "والدك لا يضع سوى قدم واحدة في هذا العالم. وساقاه حقاً، حقاً طويلتان...".

كبرت وأنا أرى أمامي أمّاً تتلقّى حبّ وحنان زوجها كلّما فكرت في منحه، إلّا أنّها لا تتردّد في الابتعاد جانباً والعناية بنفسها كلّما انزلت في عالم النسيان والغفلة الخاصّ به. هكذا بدا لي على أي حال، علماً أنّ أحداً (لا سيّما الأطفال) لا يعرف أسرار الزواج. أعتقد أنّي كبرت وأنا أرى أمّاً لم تطلب شيئاً من أحد. فهذا ما كانت أمّي عليه، امرأة علّمت نفسها كيف تسبح بمفردها في بحيرة باردة في مينيسوتا، بواسطة كتاب استعارته من المكتبة المحلية بعنوان كيف تتعلّم السباحة. بنظري، لم تكن هذه المرأة تعجز عن فعل أي شيء بمفردها.

لكن كان لي حديث ممتع مع أمي قبل سفري إلى روما. فقد أتت إلى نيويورك لتناول طعام الغداء معي قبل رحيلي وسألتني بصراحة - مخالفةً جميع قوانين التخاطب في تاريخ عائلتنا - ما الذي حدث بيني وبين ديفيد. فغاضبت أكثر عن قانون معيار التخاطب في عائلة غيلبرت وأخبرتها. أخبرتها بكلّ شيء. كم أحببت ديفيد وكم أشعر بالوحدة والألم حين لا أكون مع هذا الشخص الذي يختفي دوماً من الغرفة ومن السرير ومن هذا الكوكب.

قالت: "يبدو شبيهاً بوالدك بعض الشيء". كان اعترافاً شجاعاً وكرماً.

أجبتها: "المشكلة هي أنني لست مثل أمي. أنا لست قوية مثلك، ماما. أحتاج فعلاً إلى مستوى ثابت من الحميمية مع الشخص الذي أحبه. أتمنى لو أستطيع أن أكون مثلك، لكنك تمكّنت من إنجاح قصة حبي مع ديفيد. ولكن معرفتي أنني لا أستطيع الاعتماد على تلك العاطفة حين أحتاج إليها تمزّقتي".

ثمّ صدمتني أمي حين قالت: "تريدين كلّ ذلك من علاقتك، ليز؟ أنا أيضاً رغبت بهذه الأشياء".

شعرت في تلك اللحظة وكأنّ أمي مدّت يدها عبر الطاولة وفتحت قبضتها وأرتني الجراح التي عضّت عليها على مرّ السنوات لكي تحافظ على زواجها السعيد من أبي (وقد كان سعيداً بالفعل، على الرغم من كلّ شيء). في الواقع، لم تسبق لي رؤية هذا الجانب منها من قبل. لم يسبق لي أن تخيلت ما الذي قد تكون رغبت به أو افنقدته، ما الذي قد تكون قررت عدم النضال لأجله في حياتها. أمام كلّ هذا، شعرت بأنّ تحوّلاً جذرياً طرأ على نظرتي إلى العالم.

إن كانت تريد ما أريد، إذًا...؟

تابعت أمي جلستها الحميمة غير المسبوقة وقالت: "عليك أن تفهمي بأنني تربيّت على عدم توقّع أنني أستحقّ الكثير في الحياة، حبيبي. تذكّري، أنا أتيت من زمان ومكان مختلفين".

أغمضت عينيّ، ورأيت أمي بسنّ العشر سنوات في مزرعة العائلة في مينيستوتا، تعمل مثل يد مأجورة، تربي إخوتها الأصغر سنّاً، ترتدي ملابس أخواتها الكبيرات وتوفّر كلّ قرش لتخرج نفسها من هناك...

وختمت قائلة: "كما ينبغي عليك أن تفهمي كم أحبّ أباك". قامت أمي بخياراتها في الحياة، كما ينبغي علينا جميعاً، وكانت على سلام معها. أستطيع أن أرى السلام الذي كانت تعيش فيه. فهي لم ترغم نفسها على ذلك، بل كانت منافع خياراتها هائلة؛ حياة زوجية طويلة ومستقرّة مع الرجل الذي ما زالت تدعوه صديقها المفضّل، عائلة امتدّت الآن إلى أحفاد تعشقهم، وثقة بقوّتها. ربّما ضحّت ببعض الأشياء، كما كان لوالدي تضحياته هو أيضاً، ولكن من منّا يعيش من دون تضحيات.

السؤال بالنسبة إليّ الآن، ما هي خياراتي؟ ماذا أعتقد بأنني أستحقّ في هذه الحياة. أين يمكنني أن أقبل بالتضحية وأين لا؟ فقد كان من الصعب عليّ جداً أن أتخيّل العيش من دون ديفيد في حياتي. حتى مجرد التخيل بأنني لن أقوم أبداً برحلة أخرى مع رفيقي المفضّل، ولن أتوقّف ثانية أمام منزله وأسمع أصدااء الموسيقى تتعالى من نوافذه المفتوحة، ولن نتبادل المزاح الدائم، ونتناول الوجبات الخفيفة معاً، ونقود السيارة على الطريق السريع نحو المحيط. ولكن كيف لي أن أعيش في هذا النعيم حين يأتي مرفقاً بذلك الجانب القاتم؛ عزلة ساحقة، إحساس قاتل بعدم الأمان، استياء دائم، وبالطبع، تفكّك تامّ للذات

يطراً حتماً حين يتوقف ديفيد عن العطاء ويبدأ بالأخذ. لم أعد قادرة على القيام بذلك. وثمة شيء ما في السعادة التي غمرتني في نابولي جعلني أشعر أنني لست قادرة على إيجاد السعادة من دون ديفيد وحسب، بل يتحسّم عليّ ذلك. مهما كنت أحبه (وأنا أحبه على نحو بالغ)، إلى حدّ الحمافة)، عليّ أن أقول وداعاً لهذا الرجل الآن.

هكذا أرسلت له رسالة عبر البريد الإلكتروني.

كنا في شهر تشرين الثاني، ولم يجر بيننا أيّ اتصال منذ تموز. كنت قد طلبت منه عدم الاتصال بي في أثناء سفري، لأنني كنت أعرف بأنّ تعلّقي به قوي إلى حدّ أنّه سيمنعني من التركيز على رحلتي إن كنت أتابع رحلته هو أيضاً. غير أنني أعود إلى حياته الآن بتلك الرسالة.

سألته عن أحواله وأخبرته بأنني بخير. أضفت بعض المزاح، لطالما مازحنا بعضنا. ثمّ شرحت له بأنني أحتاج إلى وضع حدّ لعلاقتنا نهائياً. لقد حان الوقت لنعترف بأنّها لن تنجح أبداً، بأنّها لا ينبغي أن تنجح أبداً. لم يكن الأسلوب دراماتيكياً جداً، فالله يعلم كم عانينا معاً. كانت رسالة قصيرة وبسيطة، إلّا أنّني أردت إضافة أمر واحد. حبست نفسي وطبعت الجملة التالي: "إن رغبت بالبحث عن شريكة أخرى لحياتك، فلا يمكنني بالطبع سوى أن أتمنّى لك السعادة". كانت يداي ترتجفان. وقّعت مع حبي، وحاولت أن تكون نبرتي مرحة قدر الإمكان.

شعرت وكأنّ سكّيناً قد غرز في صدري.

لم أتمكّن من النوم كثيراً تلك الليلة، وأنا أتخيّله يقرأ كلماتي. قصّدت مقهى الإنترنت عدّة مرات في اليوم التالي، لأتفقّد الجواب. وحاولت تجاهل ذلك الجزء منّي الذي كان يتوق لأن يجد منه هذا

الجواب: "عودي إلي! لا ترحلي! سأتغير!" حاولت التغاضي عن الفتاة بداخلي التي كانت لتتخلى بسرور عن فكرتها الكبيرة بالسفر حول العالم مقابل مفاتيح شقة ديفيد. ولكن في حوالى الساعة العاشرة من تلك الليلة، أتاني الجواب أخيراً. كان عبارة عن رسالة إلكترونية مكتوبة بأسلوب رائع بالطبع. فأسلوب ديفيد في الكتابة كان رائعاً دوماً. وافق على أن الوقت قد حان فعلاً لنودّع بعضنا للأبد. قال إن الأفكار نفسها كانت تراوده. ما كان له أن يكون أكثر لباقة في جوابه، كما عبّر عن مشاعر الخسارة والندم نفسها بدرجة كبيرة من الحنان المؤلم الذي كان قادراً على بلوغه أحياناً. أمل أن أكون على علم بمدى حبه لي الذي يفوق قدرته على التعبير. إلا أننا لسنا ما يحتاج إليه كل منا، على حدّ قوله. مع ذلك، كان واثقاً من أنني سأجد الحب الكبير في حياتي يوماً ما. كان أكيداً من ذلك. فبالنهاية الجمال يجذب الجمال، حسب قوله.

كان من اللطيف قول ذلك، حقاً. كان تقريباً من أطف الأمور التي تقال عوضاً عن: عودي إلي! لا ترحلي! سأتغير!

جلست هناك أهدق إلى شاشة الكومبيوتر بجزن لوقت طويل. أعلم أن كلّ هذا لخيري. كنت أفضل السعادة على العذاب. أعلم ذلك. كنت أفسح المجال أمام المستقبل المجهول ليملاً حياتي بمفاجآت في طريقها إلي. أعرف كلّ هذا. مع ذلك...

إنه ديفيد. وقد فقدته الآن.

دفنت وجهي بين يدي لوقت أطول وأكثر حزناً. أخيراً، رفعت رأسي لأرى إحدى النساء الألبانيات اللواتي يعملن في المقهى وقد توقفت عن مناوبتها الليلية في مسح الأرض لتستند على الجدار وتراقبني. نظرنا في أعين بعضنا المتعبة للحظة، ثم هزرت رأسي بيأس،

وقلت بصوت مرتفع: "هذا فظيع". فهزّت رأسها بتعاطف. لم تفهم ما قلت، ولكن بالطبع، فهمت تماماً على طريقتها.

رنّ هاتفي المحمول.

كان جوفاني. بدا مرتبكاً. قال إنّه ينتظري منذ أكثر من ساعة في ساحة فيومه، التي نلتقي فيها دوماً مساء كل يوم ثلاثاء للتبادل اللغوي. وقد شعر بالقلق لأنّه هو من يتأخّر عادة أو ينسى المحيء إلى مواعيدنا. إلّا أنّه وصل في الوقت المحدد تلك الليلة وكان واثقاً تماماً؛ ألسنا على موعد؟

كنت قد نسيت. أبحرته بمكاني، فقال إنّه سيأتي ليقبّلي بسيّارته. لم أكن بمزاج يسمح لي برؤية أحد، ولكن لم يكن من السهل شرح الأمر على التلفزيونيو، نظراً لقدراتنا اللغوية المحدودة. خرجت لانتظاره في الجوّ البارد، وبعد بضع دقائق، وصل بسيارته الحمراء، فركبتها. سألتني بالإيطالية العامية ما الخطب. ولكن ما إن فتحت فمي لأجيبه حتى انفرت باكياً - رحمت أنتحب - أعني ذاك الصباح الفظيع الممزق الذي تدعوه صديقتي سالي الضخّ المزروع، حين تبدأ بتنشّق نفسين يائسين من الأكسجين مع كلّ شهقة. حتى إنني لم أشعر بذلك الزلزال من الحزن قبل وصوله، بل أعمايني تماماً.

مسكين جوفاني! راح يسألني بإنكليزية غير واضحة ما إذا كان قد أخطأ بحقي. ما إذا كنت منزعجة منه، ربّما؟ هل جرح مشاعري؟ لم أتمكّن من الإجابة، بل اكتفيت بجزر رأسي ومتابعة النحيب. كنت حزينة على نفسي وآسفة على جوفاني، العالق في هذه السيارة مع عجوز ممزّقة تماماً - a pezzi - تنتحب.

أقنعت نفسي أخيراً بأنّ لا علاقة لأساي به. غمغمت اعتذاراً على حالتي. غير أنّ جوفاني عاجل الوضع بحالة تتجاوز سنّه. قال: "لا

تعذري على البكاء. فمن دون هذا الانفعال لكننا رجالاً آليين". أعطاني بعض المناديل الورقية من علبة موجودة على المقعد الخلفي للسيارة ثم قال: "فلنبتعد من هنا".

كان على حق. فواجهة مقهى الإنترنت هي مكان شديد الازدحام والإضاءة لأتجار أمامها. قاد السيارة قليلاً ثم توجه وسط بياتزا ديلا ريبوبليكا، أحد أفخم الأماكن المفتوحة في روما. ركن السيارة أمام تلك النافورة الرائعة للحوريتين اللتين تقفزان بشكل إباحي جداً مع سرب البجع العملاق بالأعناق الطويلة. كان قد تمّ بناء تلك النافورة مؤخراً، بمقاييس رومانية. واستناداً إلى دليلي السياحي، فإنّ المرأتين اللتين جسّدتا نموذجاً للحوريتين كانتا أختين، وراقصتين مشهورتين في زمانهما. كما تضاغت شهرتهما أكثر بعد انتهاء النافورة. وقد حاولت الكنيسة لأشهر منع إزاحة الستار عن النافورة لأنها كانت شديدة الإثارة بسبب مظهر الحوريتين. عاشت الأختان لوقت طويل وظلّتا حتى عشرينيات القرن الماضي تزوران الساحة كلّ يوم للنظر إلى نافورتهما. وكلّ عام، كان النحات الفرنسي الذي صوّرها في الرخام في ريعان شباهما يأتي إلى روما مرّة في السنة ويصطحب الأختين لتناول طعام الغداء حيث يسترجعون معاً تلك الأيام التي تمتعوا فيها بكلّ ذاك الشباب، والجمال، والجرأة.

هكذا ركن جوفاني سيارته هناك وانتظرتني لكي أمالك نفسي. لم أتمكن سوى من ضغط عينيّ بأسفل كفيّ محاولة منع دموعي من الالتهام. لم يسبق لنا أنا وجوفاني أن أجرينا حديثاً شخصياً من قبل. فخلال كلّ تلك الأشهر التي مرّت، ووجبات العشاء التي تناولناها معاً، لم نتحدّث سوى عن الفلسفة، والفنّ، والثقافة، والسياسة، والطعام.

ولا نعرف شيئاً عن الحياة الخاصة لكلّ منا. فهو لا يعرف بأنني مطلقة أو بأنني تركت خلفي حباً في أميركا. ولا أعرف عنه شيئاً سوى أنه يريد أن يصبح كاتباً وأنه ولد في نابولي. إلا أن بكائي سيحبرنا على نقل حديثنا إلى مستوى آخر. أتمنى لو أنني لم أفعل، ليس في ظلّ هذه الظروف المريعة.

قال: "أنا آسف، ولكنني لا أفهم. هل فقدت شيئاً اليوم؟".

ولكن ما زلت أجد صعوبة في إيجاد طريقة للتحدّث. فابتسم جوفاني وقال مشجعاً: "*Parla come magni*". كان يعرف بأنها من العبارات العامة الإيطالية المفضّلة لدي. وهي تعني تحدّث كما تأكل، أو بترجمتي الشخصية: قلها كما تأكلها. إنها تذكير - حين تجد صعوبة في شرح شيء ما وتبحث عن الكلمات المناسبة - لكي تُبقي لغتك بسيطة ومباشرة مثل الطعام الروماني. لا تصنع من الموضوع حكاية كبيرة، بل اطرحه على الطاولة وحسب.

أخذت نفساً عميقاً ورويت له نسخة إيطالية مختصرة جداً (ولكنها كاملة تماماً نوعاً ما) لما جرى:

"السبب هو قصة حبّ، جوفاني. كان عليّ وداع شخص ما

اليوم".

ثمّ غطّيت عينيّ بكفّيّ مجدّداً، وراحت الدموع تسيل من بين أصابعي. لم يحاول جوفاني، باركه الله، إحاطة كتفي بذراعه مطمئناً، ولم يُبدِ أيّ انزعاج من تعبيرتي عن حزني. بل اكتفى بالجلوس فيما اهمّرت دموعي بصمت، إلى أن هدأت. هنا تحدّث بتعاطف وهو يختار كلماته بعناية (وكأستاذته في اللغة الإنكليزية، شعرت بالفخر به تلك الليلة!)، إذ قال ببطء ووضوح ولطف: "أفهمك ليز. لقد كنت هناك".

ساعد وصول شقيقتي إلى روما بعد بضعة أيام على صرف انتباهي عن حزني المستمر على ديفيد، وأعاد حياتي إلى طبيعتها. فشقيقتي تقوم بكلّ شيء بسرعة والطاقة تدور حولها في زوايا صغيرة. هي تكبرني بثلاث سنوات، كما أنّها أطول منّي بسبعة سنتمترات ونصف. فهي رياضية، وطالبة، وأمّ، وكاتبة. وخلال إقامتها في روما، كانت تتدرّب من أجل ماراثون، ما يعني أنّها كانت تستيقظ عند الفجر وتعدو لمسافة 18 ميلاً خلال الوقت الذي تستغرقني فيه قراءة مقال في الصحيفة وشرب فنجان كابتشينو. في الواقع، هي تبدو كالغزال وهي تركض. حين كانت حاملاً بطفلها الأول، سبحت عبر بحيرة بأكملها في إحدى الليالي في الظلام. لم أنضمّ إليها، ولم أكن حتى حاملاً. فقد خفت كثيراً. ولكنّ شقيقتي لا تخاف من شيء إطلاقاً. فحين كانت حاملاً بطفلها الثاني، سألت القابلة كاترين ما إذا كانت لديها مخاوف لم تُبحّ لها حول أيّ خطب قد يحدث مع الطفل؛ كوجود عيوب جينية أو حدوث مضاعفات في أثناء الولادة. قالت شقيقتي: "خوفي الوحيد هو أن يكبر ليصبح جمهورياً".

هذا هو اسم شقيقتي، كاترين. ولا أملك أخوة أو أخوات غيرها. حين كنّا نعيش في أرياف كونكتيكت، كنا نحن فقط، في المزرعة مع أهلنا. ولم يكن ثمة أولاد آخرون في الجوار. كانت قوية ومسيطرة، تقود حياتي كلّها. عشت في رهبة وخوف منها، لم يكن يهمني رأي شخص آخر غيرها. كنت أعشّ حين ألعب الورق معها لكي أخسر، حتى لا تغضب منّي. لم تكن صديقتين دوماً، بل كانت تنزعج منّي وكنت أحشأها، على ما أعتقد، إلى أن بلغت الثامنة والعشرين من

عمري وستمت من ذلك. في تلك السنة وقفت في وجهها، وكان رد فعلها شيئاً من هذا القبيل: "لَمْ استغرقتِ كلَّ هذا الوقت؟".

كنا قد بدأنا بوضع البنود الجديدة لعلاقتنا حين انهار زواجي. وكان من السهل على كاثرين أن تكسب فوزاً من هزيمتي. فلطالما كنت الفتاة المحبوبة والمحظوظة المفضلة في العائلة والحياة. ولطالما كان العالم مكاناً أكثر راحة وسهولة بالنسبة إليّ منه إلى شقيقتي، التي كانت الحياة أكثر صعوبة بالنسبة إليها وأدقها مراراً. كان من السهل على كاثرين أن تواجه طلاقني واكتسابي باستهزاء وشماتة. إلا أنها عوضاً عن ذلك، وفرت لي دعماً كبيراً. كانت تجيب على اتصالاتي في منتصف الليل كلما شعرت بالأسى وتواسيني. وكانت ترافقني وأنا أبحث عن أسباب حزني. وكانت موجودة معي لوقت طويل في أثناء علاجي، إذ كنت أتصل بها بعد كل جلسة وأخبرها بكل ما أدركته في عيادة طبيبي النفسي، فتتوقف عما تقوم به وتقول: "آه... هذا يفسر الكثير". يفسر الكثير عنا نحن الاثنتين، في الواقع.

أصبحنا نتحدث مع بعضنا الآن يوماً تقريباً؛ أو كنا على الأقل قبل أن أنتقل إلى روما. وقبل أن تستقل إحدانا الطائرة الآن، تتصل بالأخرى وتقول لها: "أعلم كم هذا مروّع، ولكن أردت أن أخبرك كم أحببك. تعلمين... تحسباً فقط...". فتجيب الأخرى دوماً: "أعلم... تحسباً فقط".

وصلت إلى روما مستعدة كعادتها؟ أحضرت معها خمسة كتيبات سياحية، سبق أن قرأتها جميعاً، وأصبح لديها في رأسها خريطة مفصلة للمدينة حتى قبل أن تغادر فيلادلفيا. وهذا مثال كلاسيكي على الفوارق التي بيننا. أنا هي التي تمضي الأسابيع الأولى في روما وهي تميم على غير هدى، ضائعة 90 بالمئة وسعيدة 100 بالمئة، أعتبر كل ما أراه

لغزاً جميلاً لا يمكن تفسيره. ولكن هكذا يبدو لي العالم دائماً نوعاً ما. أما بالنسبة إلى شقيقتي، فلا شيء لا يمكن تفسيره عند توفر مكتبة مناسبة. إنها امرأة تحفظ بموسوعة كولومبيا في مطبخها قرب كتب الطبخ وتقرأها للمتعة.

كان ثمة لعبة أحب أن أعبها مع أصدقائي أحياناً اسمها انظروا فكلما تساءل أحدهم عن أمر غامض (مثلاً: من هو سان لويس؟) أقول: انظروا ثم أتناول أقرب هاتف وأتصل بشقيقتي. في بعض الأحيان تكون في السيارة، تعيد أولادها من المدرسة بالفولفو، فتجيب قائلة: "سان لويس... حسناً، كان ملكاً فرنسياً غزير الشعر يرتدي القمصان، وهو أمر مثير للاهتمام في الواقع لأنه...".

إذا أتت شقيقتي لتزورني في روما - مدينتي الجديدة - ثم راحت تربي إياها. إنها روما بأسلوب كاترين. مدينة حافلة بالوقائع والتواريخ والهندسة التي لا أراها لأن عقلي لا يعمل بهذه الطريقة. الشيء الوحيد الذي أحب معرفته عن أيّ مكان أو أيّ شخص هو القصّة، إنها الشيء الوحيد الذي أبحث عنه، وليس التفاصيل الجمالية. (أتت صوفي إلى شقيتي بعد شهر من انتقالها إليها وقالت: "يا له من حمام وردي جميل"، وكانت تلك المرة الأولى التي ألاحظ فيها بأنه كان وردي اللون. كان وردياً زاهياً من الأرض إلى السقف، كان مكسوّاً تماماً بالبلاط الوردي الزاهي الذي لم ألاحظه من قبل). غير أنّ عيني أختي معتادتان على التقاط التفاصيل القوطية أو الرومانسية أو البيزنطية للبناء، أو رسوم أرض دار العبادة أو اللوحة الحصية المعتمة غير المكتملة المخبأة خلف المذبح. كانت تجتاز شوارع روما بساقيها الطويلتين فيما أسرع خلفها، كما اعتدت أن أفعل منذ الصغر، وأقوم بخطوتين سريعتين مقابل كل خطوة منها.

قالت: "أرأيت ليز؟ انظري كيف جمعوا بين الواجهة العائدة إلى القرن التاسع عشر وبين هذا القرميد؟ أنا واثقة أننا لو التفننا إلى الجهة الأخرى سنجد... أجل!... أترين، لقد استعملوا فعلاً أعمدة المُنليث الرومانية الأصلية لدعم البناء، على الأرجح لم تكن لديهم يد عاملة لنقلها... أجل، أحبّ فعلاً الخليط الهندسي لهذه البازيليك...".

كانت كاثرين تحمل الخريطة ودليلها السياحي فيما أحمل أنا سلّة الغداء (كرتان كبيرتان من الخبز الطري، نقانق بالبهارات، سردين مكبوس ملفوف حول حبات زيتون دسمة، معجنات الفطر، كرات الموزاريلا المدخّنة، الأروغولا المشوية بالبهارات، الطماطم صغيرة الحجم، جبن البيكورينو، المياه المعدنية والعصير)، وبينما أتساءل متى سنأكل، تتساءل هي بصوت عالٍ: "لِمَ لا يتحدّث الناس أكثر عن مجلس ترينت؟".

اصطحبتي إلى عشرات الكنائس في روما، أعجز عن تذكّر أسمائها، ولكنّ عجزني عن تذكّر الأسماء أو التفاصيل المتعلقة بكلّ تلك الأعمدة والكورنيشات لا يعني بأنّي لم أستمتع بوجودي في تلك الأماكن مع أختي التي لا يفوت عينيها الفضيّتين شيء. لا أذكر اسم الكنيسة التي رأينا فيها تلك اللوحات الحصية التي بدت شبيهة بجداريات WPA البطولية، غير أنّي أذكر كاثرين تشير إليها قائلة: "ستحبّين باباوات فرانكلين روزفلت تلك...". كما أذكر الصباح الذي استيقظنا فيه باكراً وذهبت لحضور قدّاس سان سوزانا، وأمسكنا بيدي بعضنا ونحن نستمع إلى الراهبات وهنّ ينشدن الترتيلات الغريغورية عند الفجر. شقيقي ليست ملتزمة دينياً. في الواقع ما من أحد في عائلتنا كذلك. (كنت قد أخذت أسمي نفسي النعجة البيضاء في العائلة). ولكنها تهتمّ لأبحاثي الروحية من الناحية الثقافية وحسب. فقد همست

لي ونحن في الكنيسة: "أجد هذا النوع من الإيمان جميلاً جداً، ولكنني لا أستطيع القيام به، لا أستطيع...".

إليك مثال آخر عن الفرق بين نظرة كلِّ منا إلى العالم. فقد حدث مؤخراً أن منيت عائلة تعيش بجوار شقيقتي بمصيبة مزدوجة، وذلك حين أصيبت الأم الشابة وابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات بالسرطان. حين أخبرتني كاثرين بالأمر، ما كان مني سوى أن قلت، تحت تأثير الصدمة: "يا الله، تلك العائلة تحتاج إلى الرحمة". فأجابت بحزم: "تلك العائلة تحتاج إلى الطعام"، ثم عملت على تنظيم العائلات القاطنة في الجوار لإعداد العشاء لتلك العائلة دورياً، كلَّ ليلة، لمدة عام كامل. ولست أعرف ما إذا كانت أختي تعترف تماماً بأن تلك رحمة.

خرجنا من الكنيسة بعد انتهاء قدّاس سان سوزانا وقالت: "هل تعلمين لِمَ احتاج الناس إلى تخطيط مدني في العصور الوسطى؟ لأنّه كان ثمة مليوناً كاثوليكياً في العام الواحد يأتون من العالم الغربي ليسيروا من الفاتيكان إلى سان جون لا تيران - على ركبهم أحياناً - لذا، ينبغي تأمين تسهيلات لهؤلاء الناس".

لا تؤمن شقيقتي سوى بالتعلّم. كتابها الأعظم هو قاموس أكسفورد الإنكليزي. حين تحني رأسها للقراءة وتمرّر أصابعها بسرعة عبر الصفحات، تكون في ابتهال. رأيت أختي تبتهل مرّة أخرى في ذلك اليوم، حين ركعت على ركبتيها وسط سوق رومانية وأبعدت بعض القشّ عن سطح التربة (وكأنّها تمحو لوحاً)، ثم أخذت حجراً صغيراً ورسمت لي على سطح هذه التربة مخطّط بازيليكا رومانسية كلاسيكية. ثم أشارت إلى الآثار أمامها لكي أفهم كيف بدا ذلك البناء في ما مضى منذ ثمانية عشر قرناً تقريباً. فرسمت بإصبعها في الهواء القناطر الناقصة وصحن الكنيسة والنوافذ التي اختفت منذ زمن طويل.

ثمة زمن أفعال نادراً ما يستعمل باللغة الإيطالية يدعى passato remoto، أي الماضي البعيد. يستعمل هذا الزمن فقط عند الحديث عن أمور حدثت في الماضي البعيد جداً جداً، أمور وقعت منذ زمن بعيد إلى حد أنه لم يعد لها أي تأثير شخصي فيك، كالتاريخ القديم مثلاً. ولكن، لو تحدّثت شقيقي الإيطالية، لما استعملت هذا الزمن عند حديثها عن التاريخ القديم. ففي عالمها، السوق الرومانية ليست بعيدة، وليست من الماضي. إنها ليست أقلّ حضوراً وقرباً منّي إليها.

غادرت في اليوم التالي.

قلت لها: "اسمعي، احرصي على الاتصال بي عند وصول طائرتك بأمان، اتفقنا؟ لا أريد إفراغك، ولكن...".
قالت: "أعلم حبيبي. أنا أيضاً أحبّك".

30

أشعر أحياناً بعجب كبير حين ألاحظ بأن شقيقي هي زوجة وأم وأنا لست كذلك. لطالما ظننت أن العكس هو ما سيحدث. ظننت بأنني أنا من ستنتهي في منزل مليء بالأحذية الموحلة وصياح الأولاد، فيما تعيش كاثرتين بمفردها، وتقرأ ليلاً وحيدة في سريرها. فقد كبرنا لتتحول إلى راشدين مختلفتين تماماً عما كنا عليه ونحن صغيرتين. وهذا أفضل برأيي. فخلافاً لجميع التوقعات، كوَّنت كلّ منا حياة تنطبق عليها. فطبيعتها المنعزلة تجعلها بحاجة إلى عائلة تحميها من الوحدة. أما شخصيتي الاجتماعية فلا تدفعني إلى الخوف من الوحدة، حتى وأنا عزباء. وأنا سعيدة لأنها عائدة إلى عائلتها وسعيدة أيضاً لأنّ تسعة

أشهر من السفر ما زالت أمامي، لن يشغلني فيها سوى الأكل والقراءة والكتابة.

مع ذلك، ما زلت لا أعرف ما إذا كنت أرغب بإنجاب الأطفال. كنت مذهولة لاكتشاف أنني لا أريدهم وأنا بسنّ الثلاثين. وذكّرتي تلك المفاجأة حذّرتني من المراهنة على ما سأشعر به في سن الأربعين. لست واثقة سوى من شعوري في هذه اللحظة؛ ممتنة لكوبي بمفردتي. كما أعرف أنني لن أقدم على إنجاب الأطفال خوفاً من أن يفوتني ذلك لاحقاً. لا أظنّ بأنّه سبب وجيه لجلب مزيد من الأطفال إلى هذا الكوكب. علماً أنني أفترض بأنّ الناس ينجبون لهذا السبب أحياناً؛ ضماناً لعدم الندم لاحقاً. أعتقد بأنّ الناس ينجبون الأطفال لأسباب عديدة في الواقع، إمّا رغبة في رعاية الحياة ومراقبتها، أو لعدم امتلاكهم الخيار، أو للتمسك بالشريك وإنجاب وريث، أو من دون التفكير في الأمر بطريقة معينة. ليست جميع أسباب إنجاب الأطفال هي نفسها، وليست جميعها مجردة من الأنانية بالضرورة. وليست جميع أسباب عدم إنجاب الأطفال هي نفسها أيضاً، وليست جميعها أنانية بالضرورة.

أقول ذلك لأنني ما زلت أفكر في الاتهام الذي وجهه إليّ زوجي مراراً خلال الهيار زواجنا: الأنانية. كلّ مرّة قالها لي، وافقته تماماً وقبلت بتحمّل الذنب وابتعت كلّ ما وجدته في المتجر. يا الله، لم أكن قد أنجبت الأطفال بعد، وقد أصبحت متّهمة بإهمالمهم وتفضيل نفسي عليهم. كنت أمّاً سيّئة حتى قبل أن أصبح أمّاً. في الواقع، غالباً ما كنّا نذكر هؤلاء الأطفال - أشباح الأطفال - في شجاراتنا. من سيعتني بالأطفال؟ من سيقبلي مع الأطفال في المنزل؟ من سينفق على الأطفال؟ من سيطعم الأطفال في منتصف الليل؟ أذكر أنني قلت مرّة لصديقتي سوزان حين أصبح زوجي غير محتمل: "لا أريد لأطفالي أن

يَكْبُرُوا فِي جَوْ كَهَذَا". فقالت سوزان: "لِمَ لا تتركين أطفالك المزعومين خارج الحديث؟ إنهم غير موجودين حتى، ليز. لِمَ لا تقرّين بأنك أنت من لا يريد العيش بتعاسة بعد الآن؟ لا أحد منكما يريد ذلك. ومن الأفضل الإقرار بذلك الآن، للمناسبة، عوضاً عن اكتشافه في غرفة الولادة".

أذكر أنني ذهبت مرّة إلى حفلة في نيويورك، أقامها زوجان، فتانان ناجحان، أنجبا طفلاً للتوّ، لمناسبة افتتاح الزوجة معرضاً لرسوماتها الجديدة. أذكر أنني راقت تلك المرأة، الأم الجديدة، صديقتي، الفنانة، وهي تحاول القيام بواجبات الضيافة في ذلك الحفل (الذي أقيم في شقتها) والعناية في الوقت نفسه بطفلها الرضيع وهي تحاول مناقشة عملها مهنيّاً. لا أذكر أنني رأيت يوماً شخصاً محروماً من النوم بهذا الشكل. لا أستطيع نسيان صورتها وهي واقفة في مطبخها بعد منتصف الليل، غارقة حتى مرفقيها في حوض جلي الصحون، محاولة تنظيف المكان بعد انتهاء الحفل. أمّا زوجها (أسفُ لقول ذلك، وأدرك تماماً أنّه ليس نموذجاً عن جميع الأزواج إطلاقاً) فكان جالساً في الغرفة الأخرى، قدماه مرفوعتان على الطاولة، يشاهد التلفاز. سألته أخيراً ما إذا كان قادراً على مساعدتها على تنظيف المطبخ، إلّا أنّه أجاب: "اتركيه حبيبي، سننظّفه في الصباح". هنا بدأ الطفل يبكي مجدّداً، وكان الحليب يتسرّب من الثدي صديقتي عبر فستان السهرة.

لا شكّ بأنّ الأشخاص الآخرين الذين حضروا السهرة، خرجوا بصور مختلفة عن تلك التي خرجت أنا بها. وربّما شعر الضيوف الآخرون بالحسد إزاء تلك المرأة الجميلة وطفلها صحيح الجسم، ومهنتها الفنية الناجحة، وزوجها اللطيف، وشقتها الجميلة، وفستان السهرة الذي كانت ترتديه. وربّما كان ثمة نساء مستعدّات لتبادل

الأدوار معها على الفور، لو أتاحت لمنّ الفرصة. وعلى الأرجح، فإنّ تلك المرأة نفسها تتذكّر تلك الليلة - هذا إن كانت تفكّر فيها أصلاً - على أنّها ليلة متعبة ولكنها مميّزة في حياتها السعيدة كأمّ وزوجة وفنانة. ولكن، كلّ ما أستطيع قوله عن نفسي هو إنّني أمضيت تلك الليلة أرتجف من الخوف وأفكّر، إن لم تعترفني بأنّ هذا ما سيكون عليه مستقبلك، ليزر، تكوني قد فقدت عقلك. لا تدعي هذا الأمر يحدث.

لكن، هل يمكنني تحمّل مسؤولية العائلة؟ يا الله المسؤولية. تلك الكلمة تمعّنت بها وحلّتها طويلاً إلى أن توصلت إلى أنّها تعني القدرة على الإجابة. وما ينبغي عليّ الإجابة عنه هو حقيقة أنّ كلّ ذرّة من كياني كانت تأمرني بالخروج من زواجي. كان ثمة جهاز إنذار مبكر يتوقع أنّني إن استمررت بمحاولة مقاومة تلك العاصفة، فسأصاب بالسرطان. وأنّني إن أنجبت أطفالاً إلى هذا العالم لأنّني لا أريد مواجهة تحجلي من كشف بعض الأمور غير العملية عن نفسي، فسيكون هذا عملاً غير مسؤول إطلاقاً.

في النهاية، أخذت بنصيحة قدّمتها لي صديقتي شيريل في تلك الليلة خلال الحفل حين وجدّتي مخبّئة في حمام صديقتنا الجميل، أرتعد من الخوف، وأرشدّ وجهي بالماء. لم تكن شيريل تعرف ما يجري في زواجي، أحدّ لم يكن يعرف. كما أنّني لم أخبرها تلك الليلة. كلّ ما أمكنني قوله: "لا أعرف ماذا أفعل". أذكر أنّها أمسكت بكتفيّ، ونظرت إلى عينيّ، وقالت ببساطة وهي تبتسم ابتسامة هادئة: "قولي الحقيقة، قولي الحقيقة، قولي الحقيقة".

هذا ما حاولت فعله.

مع ذلك، فإنّ إتهام الزواج ليس بالأمر السهل، وليس فقط بسبب التعقيدات القانونية والمالية أو الفوضى الكبيرة التي تعمّ نط الحياة. فقد

نصحتني صديقتي ديورا مرّة بحكمة قائلة: "إنّ اقتسام الأثاث لم يقتل أحداً. بل الضغوطات العاطفية هي التي تقتلك، صدمة الخروج عن خطّ الحياة التقليدي وخسارة أسباب الرفاهية التي تبقي كثيراً من الناس على هذا الخطّ إلى الأبد. فبناء منزل مع زوج هو أحد أهم الوسائل لإيجاد الاستمرارية والمعنى للحياة في المجتمع الأمريكي أو أيّ مجتمع آخر". فأنا أكتشف تلك الحقيقة مجدداً في كلّ مرّة أجتمع فيها بعائلة أُمّي الكبيرة في مينيسوتا، وأرى كيف يحتلّ كلّ من أفرادها مراكزهم باطمئنان على مرّ السنوات. أولاً تكون طفلاً، ثمّ مراهقاً، ثمّ شاباً متزوجاً، إلى أن تصبح أباً، ثمّ تتقاعد، ثمّ تصبح جدّاً؛ في كلّ مرحلة تعرف من أنت، ما هي واجباتك، وتعرف أين تجلس بينهم. تجلس إمّا مع الأولاد، أو مع المراهقين، أو الآباء الشباب، أو المتقاعدين. إلى أن تجلس أخيراً مع أبناء التسعين في الظلّ تراقب ذريّتك برضى. لا مشكلة في مَنْ تكون، أنت الشخص الذي أتى بكلّ هؤلاء. فهذه السعادة فوريّة لا بل معترف بها في الكون كلّه. كم مرّة سمعت الناس يقولون إن أطفالهم هم أعظم إنجاز في حياتهم ومصدر سعادتهم؟ عليهم يعتمدون في أزماتهم المبتايفيزيقية أو في لحظات شكّهم بما حقّوه في الحياة؛ إن لم أحقق شيئاً آخر، على الأقلّ فقد ربّيت أطفالاً تربية حسنة.

لكن ماذا لو انتهى بك الأمر إلى عدم المشاركة في هذه الحلقة العائلية وفي الاستمرارية، إمّا باختيارك أو بحكم الضرورة؟ ماذا لو خرجت عن الخطّ؟ أين تجلس في اجتماع العائلة؟ كيف تراقب مرور الوقت من دون الخوف من إضاعة وقتك على الأرض من دون أن تحقّق شيئاً؟ عليك إيجاد هدف آخر، طريقة أخرى تحكّم بها ما إذا كنت إنساناً ناجحاً أم لا. أنا أحبّ الأطفال، ولكن ماذا لو لم أنجب؟ أيّ نوع من الأشخاص يجعل منّي ذلك؟

كتبت فيرجينيا وولف قائلة: "عبر القارّة الواسعة لحياة المرأة، يمتدّ ظلّ سيف. من إحدى جهات ذاك السيف، تسود الأعراف والتقاليد والنظام، كلّ ما فيه صحيح. أمّا من الجهة الأخرى، إن كنت مجنونة إلى حدّ العبور إليها واختيار الحياة التي لا تتبع الأعراف، فلن تجدي سوى الفوضى. لا شيء فيها يتبع نظاماً معيّناً". وحثّها أنّ عبور ظلّ ذاك السيف قد يجلب للمرأة حياة أكثر إثارة، ولكنّها من دون شكّ محفوفة بالمخاطر.

أعتقد بأنني محظوظة لأنّ لديّ موهبة الكتابة. فهذا أمر قد يفهمه الناس. آه، تخلّت عن زواجها لتكرّس نفسها لفنّها. هذا صحيح إلى حدّ ما، ولكن ليس تماماً. فكثير من الكاتبات لديهنّ عائلات. طوني موريسون مثلاً هي إحدى الأمثلة على ذلك. فترية ابنها لم تمنعها من نيل مكافأة صغيرة نسبيّاً جائزة نوبل. ولكنّ طوني موريسون شكّت طريقها الخاصّ بها، ويجدر بي أن أشقّ طريقي. يقول الباغافاد غيتا - وهو كتاب هندي يوغاني قديم - إنّه من الأفضل أن تعيش قدرك ناقصاً من أن تعيش تقليداً لحياة رائعة لشخص آخر. وقد بدأت أعيش حياتي. ومهما بدت مشوبة بالنواقص وخرقاء، إلّا أنّها صارت تشبهني تماماً.

على أي حال، قلت ما قلت لأقرّ فقط أنّه - مقارنة بحياة شقيقي، بمنزلها وزواجها الناجح وأطفالها - أبدو غير مستقرّة إطلاقاً هذه الأيام. حتى إنّني لا أملك عنواناً، وتلك جريمة ضدّ الحياة العادية في سنّ الرابعة والثلاثين المتقدّمة. وحتى في هذه اللحظة، جميع مقتنياتي محفوظة في منزل كاثرين التي أعطتني غرفة مؤقتة في الطابق العلوي من منزلها (نسبيّاً مسكن الخالة العزباء، لأنّها تحتوي على نافذة عليّة أستطيع من خلالها تأمل المستنقعات وأنا أرتدي ثوب زفاني

القديم، حزناً على شبابي الضائع). وقد بدت كاثرين مرتاحة لهذا الترتيب، وهو يلائمني بالتأكيد، ولكنني قلقة من انجرافي في هذه الحياة العشوائية لوقت طويل إلى أن أصبح غريبة الأطوار. ربّما قد أصبحت كذلك أساساً. ففي الصيف الماضي، أتت ابنة أختي ذات الخمس سنوات بصديقتها الصغيرة إلى منزل أختي للعب سوية. فسألت الطفلة عن تاريخ ميلادها. أجابت إنّه في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني.

"أوووه! أنت من برج مائيّ إذا! وأعدتُ ما يكفي من ذوي الأبراج المائة لأعرف أنّهم يجلبون المتاعب".

نظرت إلى الفتاتان بحيرة وشيء من الارتباب والخوف. فخيلت إليّ فجأة صورة مريعة للمرأة التي قد أصبح عليها إن لم أكن حذرة: الخالة ليز المجنونة. تلك المطلقة ذات الشعر المصبوغ باللون البرتقالي والتي لا تأكل الألبان بل تدخّن المتول، تكون عائدة دوماً من رحلة تنقيب أو منفصلة عن صديقها المعالج بالعطور، وتقول أشياء على غرار: "أحضري للخالة ليز كوباً آخر من الشراب، حبيبي، وسأسمح لك بارتداء خاتمي المهدئ للمزاج...".

عليّ أن أصبح من جديد مواطنة أكثر صلابة، أنا أدرك ذلك. ولكن ليس بعد... رجاءً. ليس بعد.

31

خلال الأسابيع الستة التالية، سافرت إلى بولونيا، وفلورنسا، والبندقية، وصقلية، وسردينيا، ومرة أخرى إلى نابولي، ومن ثمّ إلى كالابريا. كانت في معظمها رحلات قصيرة - أسبوع هنا، نهاية أسبوع

هناك - الوقت اللازم فقط للشعور بالمكان، والتحوّل فيه، وسؤال الناس في الشارع عن المكان الذي يقدم الطعام الأفضل، ثم الذهاب لتناوله. في تلك الفترة، توقّفت عن الذهاب إلى مدرسة اللغة الإيطالية لأنني بدأت أشعر بأنها تعيق جهودي لتعلّم الإيطالية. فهي تبقيني مقيدة في الصفّ عوضاً عن التحوّل في إيطاليا، والتمرّن على اللغة مع الناس شخصياً.

كانت تلك الأسابيع من السفر العفويّ فترة رائعة من حياتي، بعضاً من أكثر الأيام التي عشتها تحرراً، إذ كنت أركض إلى محطة القطار وأبتاع التذاكر هنا وهناك. إلى أن بدأت أشعر أخيراً بأنّ حريّتي أصبحت محصورة في قدرتي على الذهاب أينما أشاء. توقّفت عن رؤية أصدقائي في روما لفترة. قال لي جوفاني مرّة عبر الهاتف: "Sei una trottola" (أنت دوامة). في إحدى الليالي كنت نائمة في بلدة متوسطة في مكان ما، في غرفة فندق مطلّ على البحر، حين أيقظني صوت ضحكتي من نوم عميق. استيقظت مجفلة. من الذي يضحك في سريري؟ وإدراكي بأنّ الضحك كان صادراً عني دفعني إلى الضحك مجدداً. لم أعد أذكر الآن بماذا كنت أحلم، ولكنني أظنّ بأنّ لذلك الحلم علاقة بالمراكب.

32

ذهبت إلى فلورنسا في عطلة نهاية الأسبوع فقط، في رحلة سريعة بالقطار صباح يوم الجمعة للقاء عمّي تيري وعمّي ديب، اللذين أتيا من كونكتيكت لزيارة إيطاليا للمرّة الأولى في حياتهما، ورؤيتي بالطبع. وصلا في المساء، فاصطحبتهما في نزهة سيراً على الأقدام لرؤية الدوومو، الذي يشكّل دوماً مشهداً مؤثراً، كما يبدو من ردّ فعل عمّي:

"يا للروعة!" ثم توقف قليلاً قبل أن يضيف: "ولكن ربّما لا يجدر بي مدح دار عبادة كاثوليكي بهذا الشكل...".

شاهدنا نساء السابيين يختطفن هناك في وسط الحديقة ذات المنحوتة من دون أن يقوم أحد بأيّ شيء لإيقاف ذلك، ثم ألقينا التحية على مايكل أنجلو، وزرنا متحف العلوم، وتأمّلنا المناظر الرائعة من سفوح التلال المنتشرة حول المدينة. ثم تركت عمّي وعمّتي ليستمتعا ببقية عطلتهما من دوني، وتوجّهت بمفردي إلى لوكا، المتميّزة بثرائها ووفرّتها، تلك البلدة التوسكانية الصغيرة، الشهيرة بمتاجر اللحوم، التي تعرض عبر البلدة أرقّ شرائح اللحم التي رأيتها في إيطاليا على نحو شهيّ وكأنّها تقول: "أنت تعرف بأنك تريدها". كانت النقانق بجميع الأحجام والألوان والمشتقات التي يمكن تصوّرها محشوةً وكأنّها سيقان نساء في حوار مثير، تتدلى من أسقف متاجر الجزّارين. فيما علّقت الأفخاذ الشهية في الواجحات، تتمايل وكأنّها مراكب صيد أمستردامية. أمّا الدجاجات، فبدت شديدة الامتلاء والرضى حتى وهي ميتة حتى إنك لتظنّ بأنّها قدّمت نفسها قرباناً بفخر، بعد أن تنافست في ما بينها في حياتها حول من تكون الأكثر طراوةً وسمنة. ولكن ليست اللحوم وحدها هي الرائعة في لوكا، بل ثمة أيضاً الكستناء والدراق والأنواع العديدة من التين. يا الله، ما أطيب التين هناك...

تشتهر لوكا أيضاً بالطبع بكونها مسقط رأس بوتشيني. أعلم أنّه يجدر بهذا الأمر أن يثير اهتمامي، ولكنني كنت مهتمّة أكثر بالسّر الذي أفضى به إليّ البقال، وهو أنّ أفضل فطر في لوكا يقدمه مطعم إلى الجانب الآخر من مسقط رأس بوتشيني. فرحت أجوب لوكا أسأل الناس بالإيطالية: "هل لك أن تدلّني أين يقع منزل بوتشيني؟" أخيراً قادني إليه أحد المواطنين اللطفاء، ولا بدّ من أنّه فوجئ كثيراً حين قلت: "Grazie"، ثمّ التففت

على عقبي، وسرت بالاتجاه المعاكس تماماً لمدخل المتحف، لأدخل مطعماً وأنتظر تحت المطر طبق *risotto ai gunghi*.

لم أعد أذكر الآن ما إذا كنت قد زرت بولونيا قبل لو كاس أم بعدها. على كل حال، بولونيا مدينة جميلة جداً إلى حد أنني لم أتوقف عن الغناء طيلة وجودي هناك: "بولونيا اسم أول! إنه جميلة". كانت بولونيا تدعى تقليدياً - بقرميدها الأحمر وراثتها المعروف - "الحمراء، والغنية، والجميلة". (نعم، كان هذا عنواناً بديلاً للكتاب). الطعام هنا أفضل من روما بالتأكيد، أو ربما يستعملون الزبدة بكميات أكبر. حتى الجيلاتو في بولونيا أفضل (أشعر بشيء من عذاب الضمير لقول ذلك، ولكنه صحيح). أما الفطر فهو هنا كبير، ريان، وشهي، وشرائح اللحم تفرش البيتزا وكأنها وشاح رقيق يتدلّى فوق قبة نسائية أنيقة. وثمة بالطبع الصلصة البولونية، التي تضحك بازدراء من أي صلصة أخرى.

لاحظت وأنا في بولونيا أنه لا يوجد مقابل لعبارة *buon appetito* بالإنكليزية. هذا مؤسف. لاحظت أيضاً بأن محطات القطار في إيطاليا تحمل أسماء أشهر الأطعمة والمشروبات في العالم، بارما... المحطة التالية، بولونيا... المحطة التالية، اقتربنا من مونتسيوتشانو... وفي القطارات ثمة طعام أيضاً، بالطبع؛ شطائر صغيرة وشراب الشوكولاته الساخن الطيب. وإن كان المطر يهطل في الخارج، تكون الرحلة أجمل وأنت تأكل. في إحدى الرحلات الطويلة، سافرت في مقصورة قطار مع شاب إيطالي وسيم نام لأربع ساعات في أثناء هطول المطر وأنا أتناول سلطة الأخطبوط. حين استيقظ الشاب قبل وصولنا إلى البندقية بقليل، فرك عينيه ونظر إليّ بتمعن من قدمي إلى رأسي ثم قال: "Carina" أي: جميلة.

أجبت: "Grazie mille"، بتهذيب مبالغ فيه. أي: ألف شكر.

بدأت عليه الدهشة، فهو لم يتوقع أن أتحدث الإيطالية. ولا أنا في الواقع، إلا أننا تحدثنا لعشرين دقيقة تقريباً، وأدركت للمرة الأولى بأنني أتحدث الإيطالية بالفعل. لقد قطعت أشواطاً عدّة وأنا أتحدث الإيطالية الآن. لا أترجم بل أتحدث. بالطبع، ثمة خطأ في كل جملة، ولا أعرف استعمال سوى ثلاثة أزمنة، ولكنني قادرة على التواصل مع هذا الشاب من دون جهد كبير. Me la cavo، هذا ما تقوله بالإيطالية، ويعني أساساً أستطيع تدبير أمري، ولكنّه مشتقّ من الفعل نفسه الذي يستعمل للحديث عن نزع غطاء زجاجة شراب. ما أعنيه هو أنني قادرة على استعمال هذه اللغة في الحالات الحرجة.

كان الشابّ يحاول التعرّف بي، ذاك الطفل! غير أنّ الأمر لم يكن يخلو من الإطراء، فهو جذاب إلى حدّ ما. مع أنّه كان مغروراً ببعض الشيء. وبقصد مجاملتي بالطبع، قال لي: "أنت لست بدينة جداً بالنسبة إلى امرأة أميركية".

فأجبتّه بالإنكليزية: "وأنت لست مدهناً جداً، بالنسبة إلى رجل إيطالي".

"كيف؟"

كرّرت ما قلت، بإيطالية معدّلة بعض الشيء: "وأنت لطيف جداً، مثل جميع الرجال الإيطاليين".

أستطيع تحدّث هذه اللغة! يعتقد الشابّ أنّه يعجبني، إلا أنني كنت أغازل الكلمات. يا الله - أخيراً حلّت عقدة لساني، وصارت الإيطالية تتدفّق من فمي! يريدني أن أقابله في البندقية، ولكنني لست مهتمّة به. أنا مميّمة باللغة وحسب، فتركته يفلت من يدي. على أي حال، أنا على موعد مع شخص آخر في البندقية، سأقابل صديقتي ليندا هناك.

ليندا المجنونة، هكذا أسميتها مع أنها ليست كذلك، آتية إلى البندقية من سياتل، مدينة رطبة ورمادية أخرى. أرادت الجيء لرؤيتي في إيطاليا، فدعوتهما لمشاركتي في هذا الجزء من رحلتي، لأنني أرفض رفضاً قاطعاً الذهاب إلى المدينة الأكثر شاعرية على وجه الأرض بمفردي. لا ليس الآن، ليس في هذا العام. رحت أتخيل نفسي وحيدة، في طرف الجندول، يقودني الجناديلي عبر الضباب الرقيق وهو يدندن فيما... أقرأ مجلّة؟ إنها صورة حزينّة، شبيهة بصعود تلة على دراجة لشخصين. لذا، ستوقّر لي ليندا الرفقة، والرفقة الجيدة في هذه الرحلة.

قابلت ليندا (بمخصل شعرها الغربية وقرطبيها) في بالي منذ عامين تقريباً، حين ذهبت إلى مركز اليوغا. بعد ذلك، ذهبنا في رحلة إلى كوستاريكا معاً أيضاً. إنهما من الأشخاص المفضّلين لديّ للسفر معهم، فتاة مسلّية، منظمّة، لطيفة بسرّاويلها المخملية الحمراء. تملك ليندا روحاً شديدة المرح، يصعب عليها فهم الاكتئاب وتمتاز بتقدير رفيع للذات. قالت لي مرّة وهي تنظر إلى نفسها في المرآة: "أقرّ بأنني لست من النساء اللواتي يبدو رائفات في كلّ شيء، ولكنني أحبّ نفسي مع ذلك". وهي تملك تلك القدرة على إسكاتي حين أبدأ بطرح أسئلة ميتافيزيقية، على غرار: "ما هي طبيعة الكون؟" (تجيب ليندا: "السؤال الوحيد الذي أطرحه هو: لِمَ السؤال؟") تودّ ليندا إطالة شعرها كثيراً يوماً ما بحيث تنسجه حول هيكل من الأسلاك على قمة رأسها وتربسي بداخله عصفوراً ربّما. وحين لا تعتنى بالسحالي وحيوانات ابن مقرض التي تربّيها، تكون مشغولة بإدارة فريق تطوير برامج في سياتل وتكسب من المال أكثر من أيّ منّا.

هكذا التقينا هنا في البندقية، فقطّبت ليندا حاجبيها وهي تتفحص خريطة المدينة وتقلبها رأساً على عقب لتحديد موقع الفندق الذي

ننزل فيه ومكان وجودها، ثم أعلنت بتواضع مميّز: "أصبحنا نعرف المدينة ككفّ يدنا".

في الواقع، مرحُها وتفاؤلها لا يتناسبان إطلاقاً مع هذه المدينة المائية، والبطيئة، والغائرة، والغامضة، والساكنة، والغريبة. فالبنديقية تبدو مدينة مناسبة ليموت فيها المرء موتاً بطيئاً أو ليفقد فيها محبوبه أو يفقد فيها السلاح الذي قُتل المحبوب. حين رأيت البنديقية، سررت لأنني اخترت العيش في روما. إذ إنني لا أعتقد أنني كنت لأتوقف عن استعمال مضافات الاكتتاب بالسرعة نفسها هنا. فالبنديقية جميلة، مثل جمال أفلام برغمان؛ تعجبك ولكنك لا تتمنى العيش فيها.

كانت المدينة بأكملها تضمحلّ وتتلاشى مثل غرف القصور القديمة التي تقفلها العائلات التي كانت ثرية في ما مضى حين تصبح صيانتها مكلفة جداً، فتغلقها وتنسى أمر الكنوز المخضرة في الجهة الأخرى من المنزل؛ تلك هي البنديقية. بحار زلقة من مياه الأدرياتيكي تندفق عبر أسس المدينة التي عانت طويلاً، تختبر قوة احتمال تلك الأبنية العائدة إلى القرن الرابع عشر؛ ماذا لو بنينا مدينة عائمة على سطح الماء طيلة الوقت؟

تبدو البنديقية مدينة أشباح تحت سماءها الضبابية في شهر تشرين الثاني. فهي تصرّ وتتمايل كسارية قارب. وعلى الرغم من ثقة ليندا في البداية أننا نستطيع حكم المدينة، كنا نضيق كلّ يوم، لا سيّما ليلاً، فندخل في منعطفات خاطئة تقودنا إلى زوايا معتمة تنتهي مباشرة إلى المياه. وفي ليلة كثيفة الضباب، مررنا من أمام أحد الأبنية الذي بدا وكأنه يئنّ من الألم. فهمست ليندا: "لا تخافي، إنه صوت معدة شبح جائع". فعلمتها كلمتي الإيطالية المفضّلة - *attraversiamo* (فلنعبر الشارع) - وعدنا أدراجنا بأعصاب مشدودة.

كانت المرأة التي تملك مطعماً قرب مكان إقامتنا شابة جميلة ولكنها تعيسة. فهي تكره البندقية، مع أنها مدينتها. وتقسم بأن كل من يعيش في البندقية يعتبرها قبراً. ومع أنها أغرمت مرة بفنان سرديني وعدها بأخذها للعيش في عالم آخر من الشمس والنور، إلا أنه تركها مع ثلاثة أطفال، ولم يترك لها خياراً سوى العودة إلى البندقية وإدارة مطعم العائلة. كانت في مثل سنتي، ولكنها بدت أكبر مني، ولم أستطع أن أتخيل أي رجل كان هذا الذي تخلى عن امرأة بهذا الجمال. (قالت عنه: "كان قويا وقد أضناني حبه"). البندقية مدينة محافظة. مع ذلك، أقامت تلك المرأة علاقات عاطفية فيها، إلا أنها انتهت كلها بتعاسة. وكان الناس المقيمون في الجوار يتحدثون عنها، غير أنهم يصمتون حين تمر في الغرفة. لذا، كانت أمها ترجوها ارتداء خاتم زواج للحفاظ على المظاهر قائلة: حبيبي، أنت لست في روما، لا يمكنك العيش هنا على هوك. وكنا كل صباح نأتي أنا وليندا لتناول الفطور ونسأل المالكة الفينيسية الشابة/العجوز الحزينة عن الطقس، فترفع إهمام وسبابه يدها اليمنى على شكل مسدس وتضعها على صدغها قائلة: "المزيد من الأمطار".

مع ذلك، لم أشعر بالاكئاب هنا. تمكنت من العيش في المدينة، لا بل واستمتعت بكآبة البندقية لعدة أيام وحسب. فقد كان بإمكان التمييز بأن تلك الكآبة لم تكن تخصني، بل هي كآبة المدينة، وكنت سليمة بما يكفي هذه الأيام لأشعر بالفرق بيني وبينها. كما أنني لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنها كانت إشارة إلى شفائي، إلى تخثر ذاتي. فقد أضعت بضع سنوات في يأس بلا حدود، شعرت خلالها بحزن العالم كله على أنه حزني. غير أن كل الأحزان تسربت مني، وتركت آثاراً رطبة خلفها.

على أي حال، كان من الصعب الشعور بالاكْتِئاب بوجود ليندا وهي تثرثر بقربي، وتحاول إقناعي بشراء قبعة من الفراء عملاقة، وتسالني عن العشاء القدر الذي تناولناه في إحدى الليالي: "هل كان ذلك طبق السيدة بول من أعواد لحم العجل؟" ليندا تلك هي أشبه بالبراعة. في العصور الوسطى، كان ثمة مهنة للرجال في البندقية تدعى *codega* وهو شخص تستأجره ليسير أمامك ليلاً حاملاً مصباحاً لينير لك الطريق ويخيف اللصوص والأشباح ويؤمن لك الثقة والحماية وأنت تسير عبر الشوارع المظلمة. تلك هي ليندا، الكوديفا الفينيسي المؤقت الخاص بي.

33

ترجّلت من القطار بعد بضعة أيام ووجدت روما غارقة في الحرّ، والشمس، والفوضى الأبدية. ومجرّد نزولي إلى الشارع، أمكنتي سماع هتاف *manifestazione* شبيه بالهتاف المتعالي من ملعب كرة قدم، لا بدّ بأنها مظاهرة عمالية أخرى. أمّا سبب المظاهرة فلم يتمكن سائق التاكسي من إخباري به، لأنّه على ما يبدو، لا يابه بذلك. "Sti cazzi"، قال عن المضربين. (ما يعني حرفياً: تلك الكرات، أو كما نقول: لا آبه بهم). كنت سعيدة بعودتي. فبعد رصانة وهدوء البندقية، من الجميل العودة إلى هذه المدينة التي يمكن أن ترى فيها رجلاً في سترّة من جلد النمر يمرّ بمراهقين يقبلان بعضهما في وسط الشارع. كانت المدينة تضجّ بالحياة، مليئة بالجمال والإثارة تحت أشعة الشمس الساطعة.

أذكر قول زوج صديقتي ماريا، يوليو، مرّة، حين كنّا جالسَيْن في مقهى في الهواء الطلق، نتمرّن على المحادثة، وسألني عن رأيي بروما.

أحبته بأنني أحببتها كثيراً بالطبع، ولكنني أعرف بأنها ليست مدينتي، ولا يمكنني العيش فيها لبقية حياتي. فثمة جانب في روما لا ينتمي إليّ، ولم أتمكّن من التقاطه. ولكن، فيما كنّا نتحدّث، مرّ عنصر بصريّ ساعدني على التعبير. كانت امرأة رومانية نموذجية؛ سيّدة متأنّقة بشكل مذهل، ترتدي مجوهرات على نحو مفرط، وتبدو في العقد الرابع من العمر. كانت تنتعل حذاءً يبلغ ارتفاع كعبه عشرة سنتمترات، وترتدي تنورة ضيقة مع شقّ بطول ذراع، وتضع نظارة واقية من أشعة الشمس شبيهة بسيارات السباق (ولا تقلّ عنها كلفةً على الأرجح). كانت تنزّه كلبها الصغير الأنيق، تجرّه برسن مزين بالأحجار اللامعة، وكان الفراء الذي يغطّي ياقة سترتها الضيقة يبدو وكأنّه مصنوع من جلد كلبها الصغير الأنيق السابق. كانت تبتّ حولها جواً من السحر الهائل الذي يقول: "ستنظرون إليّ ولكنني سأرفض النظر إليكم". وكان من الصعب التخيل بأنها أزالّت المسكارا عن رموش عينيها، وإن لعشر دقائق في حياتها. كانت تلك المرأة نقيضي تماماً، أنا التي تصفّ أحيي ملابسني قائلة: "ستيفي نيكس ذاهبة إلى صفّ اليوغا بملابس النوم".

أشرت إلى المرأة وقلت لجوليو: "أترى، تلك امرأة رومانية. لا يمكن لروما أن تكون مدينتي ومدينتها على السواء. إحدانا فقط تنتمي إليها. وأعتقد أنّ كلينا نعرف منّ".

أجابني جوليو: "ربّما كنت أنت وروما تملكان كلمات مختلفة".
"ماذا تعني؟"

قال: "ألا تعرفين أنّ السرّ لفهم مدينة ما وشعبها هو تعلّم كلمة الشارع؟".

ثمّ راح يشرح لي، بمزيج من الإنكليزية والإيطالية والإشارات اليدوية قائلًا: "إنّ لكلّ مدينة كلمة واحدة تعرفّها، وتعرفّ معظم

الناس الذين يعيشون فيها. وإن تمكّنت من قراءة أفكار الناس وهم يمرّون بقربك في الشارع في أيّ مكان من الأمكنة، فستكتشفين بأنّ معظمهم تشغلهم الفكرة نفسها. ومهما كانت فكرة هؤلاء الأغلبية؛ تلك هي كلمة المدينة. وإن كانت كلمتك الشخصية لا تتلاءم مع كلمة المدينة، فأنت لا تنتمين إليها فعلاً".

سألته: "وما هي كلمة روما؟".

أعلن قائلاً: "جنس".

"ولكن ألا يضع ذلك روما في قالب أحادي النمط؟".

"كلا".

"ولكن بالطبع ثمة في روما بعض الأشخاص الذين يفكّرون في أمور أخرى غير الجنس؟".

أصرّ جوليو قائلاً: "كلاً. جميعهم لا يفكّرون طيلة النهار سوى في الجنس".

"حتى في الفاتيكان؟".

"الأمر يختلف. فالفاتيكان ليس جزءاً من روما...".

"اعتقدت أنها ستكون إيماناً".

كرّر قائلاً: "إنّها سلطة. ثقي بي. أمّا في روما، فهي جنس".

استناداً إلى كلام جوليو، فإن تلك الكلمة الصغيرة - جنس - تفتش شوارع روما تحت قدميك، وتجري في مياه النوافير، وتملأ الهواء مثل ضجيج حركة السير. فكل ما يفعله الجميع هو التفكير فيه، ارتداء الملابس لأجله، السعي إليه، قبوله، رفضه، تحويله إلى رياضة أو لعبة. لهذا السبب، لا أشعر بأنّ روما، على الرغم من جمالها، تصلح لأن تكون موطناً لي. ليس في هذه المرحلة من حياتي. لأنّ الجنس ليس كلمتي حالياً. كان كذلك في أوقات أخرى من حياتي، ولكن ليس

الآن. بالتالي، فإن كلمة روما التي تدور في الشوارع تصطدم بي وترتدّ على الأرض، من دون أن تترك أي أثر. أنا لا أشارك في الكلمة، وبالتالي لا أعيش تماماً هنا. إنها نظرية غريبة يصعب عليّ إثباتها ولكنها تعجبني.

سألني جوليو: "ما هي كلمة نيويورك؟".

فكرت للحظة ثم قلت: "أعتقد بأنها إنجاز".

(وهي تختلف قليلاً ولكنه اختلاف ملحوظ عن كلمة لوس أنجلوس، على ما أعتقد، والتي هي نجاح. لاحقاً، سأشارك هذه النظرية مع صديقتي السويدية صوفي، التي ستعطي رأيها بكلمة شوارع ستوكهولم تطابق، ما جعلنا نشعر كلتانا بالإحباط).

سألت جوليو: "ما هي كلمة نابولي؟" فهو يعرف جنوب إيطاليا جيداً.

قال: "قال. ما كانت كلمة عائلتك حين كنت صغيرة؟".

كان السؤال صعباً. كنت أحاول إيجاد كلمة تجمع بين اقتصاد ووقاحة. ولكن جوليو كان قد انتقل إلى السؤال التالي والأكثر بديهية: "ما هي كلمتك؟".

ليس هذا، لم أتمكن من الإجابة بالتأكيد.

وحتى بعد عدة أسابيع من التفكير، لم أتمكن من الإجابة. أعرف ما هي الكلمات التي ليست لي. فهي ليست زواجاً بالتأكيد. ولا عائلة (مع أنّها كانت كلمة المدينة التي عشت فيها لبضع سنوات مع زوجي، وبما أنّها لم تلامني، فكانت سبباً أساسياً لمعاناتي). وهي لم تعد اكتساباً، بفضل الله. كما أنّي غير مهتمة بكلمة ستوكهولم تطابق. ولا أشعر بأنني ما زلت أنتمي تماماً إلى كلمة نيويورك، إنجاز، مع أنّها كانت كلمتي خلال العقد الثاني من عمري. قد تكون كلمتي بحثاً. (ولكن

كسي أكون صادقة، يمكنها أن تكون بسهولة اختباءً). ففي الأشهر الأخيرة التي أمضيتها في إيطاليا، كانت كلمتي إلى حد كبير متعة. إلا أنها لا تتلاءم مع كل جزء من كياني، وإلا ما كنت لأتلهف إلى الذهاب إلى الهند. قد تكون كلمتي تفانياً، مع أن هذا يجعلني أبدو إنسانة صالحة أكثر مما أنا عليه ولا يأخذ في الاعتبار كمية الشراب الذي أتناوله.

لا أعرف الجواب في الواقع، وأفترض بأن هذا هو الهدف من رحلتي. إيجاد كلمتي. ولكن أستطيع القول بثقة إنها ليست جنساً.

أو هكذا أزعم على أي حال. وإلا فأخبرني إذا لم قادتني قدماي اليوم إلى متجر في طرف فيا كوندوتّي، أمضيت فيه، تحت إشراف البائعة الإيطالية الشابة، بضع ساعات حاملة (وما يعادل قيمة تذكرة جوية بالدرجة الأولى) لشراء ملابس داخلية تكفي لإلباس زوجة سلطان لألف ليلة وليلة. ابتعت صُدريات من مختلف الأشكال، وقمصاناً داخلية شفافة ورقيقة وسراويل من جميع الألوان، بما فيها الستان الأبيض والحرير الناعم والسراويل الضيقة يدوية الصنع وواحداً تلو الآخر من السراويل الحمراء المخرّمة المجنونة.

لم يسبق لي شراء أشياء كهذه من قبل. إذا لم الآن؟ وفيما كنت أسير خارج المتجر، أحمل مشترياتي الفاضحة تحت ذراعي، تذكرت السؤال المؤلم الذي صرخ به أحد هواة كرة القدم في مباراة اللاتسيو، حين قام النجم ألبرتيني في لحظة حاسمة بتمرير الكرة إلى مكان خال، من دون سبب، ما أفضل المباراة تماماً.

"Per chi???" صرخ الهاوي بجنون تقريباً. "Per chi???"

لمن؟؟؟ لمن مرّرت تلك الكرة ألبرتيني؟ ما من أحد هناك!

بعد الساعات التي قضيتها في شراء الملابس الداخلية، تذكرت تلك الجملة وأنا أسير في الشارع وهمست لنفسي بها: "Per chi???"
 لمن، ليز؟ لمن كل هذه الإثارة؟ ما من أحد هناك. لم يبق لي سوى بضعة أسابيع في إيطاليا وليست لدي أي نية على الإطلاق بالتورط مع أحد. أم أنني أنوي ذلك؟ هل تأثرت أخيراً بكلمة شوارع روما؟ أكانت تلك محاولة أخيرة لأصبح إيطالية؟ أهي هدية لي، أم هدية لعشيق لم يخطر في بالي بعد؟ أهي محاولة للبدء بعلاج شهوتي الجنسية بعد الكارثة التي تسببت بها علاقتي الأخيرة لثقتي الجنسية بنفسى؟ سألت نفسي: "هل ستأخذين كل هذا إلى الهند؟".

34

يصادف يوم ذكرى ميلاد لوكا سباجيتي هذا العام يوم ذكرى الشكر في أميركا. لذا، أراد إعداد ديك حبش لحفلة ذكرى ميلاده. فهو لم يسبق له أن تناول ديك حبش كبيراً، وسميناً، ومشوياً، مع أنه رآه في الصور. ويعتقد بأنه من السهل إعداد هذه الوليمة، لا سيما بمساعدتي، لكوني أميركية أصلية. قال بأنه يستطيع استعمال مطبخ صديقيه ماريو وريمونا اللذين يملكان منزلاً كبيراً في الجبال خارج روما، ولطالما استضافا حفلات ذكرى ميلاد لوكا.

أما خطة لوكا للاحتفال فتقوم على اصطحابي في حوالي الساعة السابعة مساءً بعد انتهاء عمله، لنسافر بالسيارة شمالاً خارج روما لساعة من الزمن تقريباً إلى منزل صديقيه (حيث سنلتقي ببقية المدعوين) فنتناول الشراب ونتعرّف ببعضنا، ثم نبدأ عند حوالي الساعة التاسعة بطهو ديك الحبش الذي يبلغ وزنه عشرة كيلوغرامات...

اضطرت إلى الشرح للوكا كم يستغرق طهو ديك من الحبش يبلغ وزنه عشرة كيلوغرامات. وقلت له بأننا لن نتمكن من تناول وليمة ذكرى ميلاده في تلك الحالة قبل فجر اليوم التالي. فأوشك على البكاء. "ولكن ماذا لو اشتريت ديك حبش صغيراً؟ حديث الولادة؟". قلت له: "الوكا، فلنبسّط الأمور ولتناول البيتزا، مثلما تحتفل أي عائلة أميركية طيبة بذكرى الشكر".

إلا أنه ظلّ تعيساً بسبب ذلك. علماً أنّ ثمة جواً من الحزن العام يسود روما الآن. فقد أصبح الجوّ بارداً. كما أنّ عمال النظافة، وموظفي القطار، والخطوط الجوية الوطنية أعلنوا الإضراب ليوم واحد. وكان قد تمّ للتوّ نشر دراسة تشير إلى أنّ 36 بالمئة من الأطفال الإيطاليين يعانون من الحساسية تجاه الغلوتين اللازم لصنع الباستا والبيتزا والخبز، أساس الثقافة الإيطالية. لا بل أسوأ من ذلك، فقد قرأت مؤخراً مقالة تحت هذا العنوان المروّع: "Insoddisfatte 6 Donne su 10" أي أنّ ستّاً من كلّ عشر نساء إيطاليات لا يشعرن بالرضى الجنسي. ناهيك عن أنّ 35 بالمئة من الرجال الإيطاليين يعانون من صعوبة في الحفاظ على *un'erezione* أي الانتصاب، ما يترك الباحثين *perplexi* حائرين في الواقع، ويجعلني أتساءل ما إذا كان يجب أن يُسمح بأن تبقى كلمة جنس هي كلمة روما الخاصة بعد اليوم.

وفي أنباء أكثر خطورة، تبين بأنّ تسعة عشر جندياً قد قتلوا في حرب الأميركيين (كما تسمّى هنا) على العراق، وهو أكبر عدد للوفيات العسكرية في إيطاليا منذ الحرب العالمية الثانية. وقد شعر أهل روما بالصدمة أمام تلك الوفيات، وأقفلت المدينة يوم دفن الجنود. فالأغلبية العظمى من الإيطاليين لا يريدون المشاركة في حرب جورج بوش. والتورط فيها كان بقرارٍ من سيلفيو برلوسكوني، رئيس وزراء

إيطاليا (والذي يدعى هنا عموماً *l'idiota*). فرجل الأعمال هذا، الذي يفتقد إلى الذكاء، والذي يملك نادياً لكرة القدم، والذي يخرج مواطنيه دوماً بالقيام بحركات خليعة في البرلمان الأوروبي، فضلاً عن تاريخه الحافل بالفساد، ذاك الرجل البارع في المراوغة والذي يتحكّم ببراعة بوسائل الإعلام (وهذا ليس بالأمر الصعب ما دام يملكها)، ولا يتصرّف عموماً كزعيم عالمي حقيقي بل كمخترار لقرية نائية، قد ورّط الإيطاليين الآن في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

"ماتوا في سبيل الحرية"، قال برلوسكوني خلال مأتم الجنود الإيطاليين التسعة عشر، ولكنّ رأي معظم أهالي روما كان مختلفاً: ماتوا في سبيل ثأر جورج بوش الشخصي. قد يبدو هذا الجوّ السياسيّ صعباً على الزائر الأميركي. في الواقع، توقّعت مواجهة شيء من الاستياء عند مجيئي إلى إيطاليا. ولكنني لم أجد عوضاً عن ذلك سوى التعاطف من معظم الإيطاليين. وعند أيّ ذكر لجورج بوش، كان الناس يهزّون برؤوسهم قائلين: "نفهم ذلك، لدينا واحد نحن أيضاً".

لقد كنّا هناك.

من الغريب بالتالي أن يرغب لوكا بالاحتفال بذكرى الشكر الأميركي في ذكرى ميلاده في ظلّ هذه الظروف، ولكن تعجبي الفكرة. فعطلة الشكر جميلة، يفتخر بها الأميركيون، إنّه احتفالنا الوطني الوحيد الذي لم يطرأ عليه أيّ تغيير نسبياً. إنّه يوم شكر واجتماع و- بالطبع - متعة. وربّما كان هذا ما نحتاج إليه كلنا الآن.

كانت صديقتي ديورا قد أتت إلى روما من فيلادلفيا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع والاحتفال معي. ديورا هي عالمة نفس ذات شهرة عالمية، فضلاً عن كونها كاتبة ومنظّرة في مجال حقوق المرأة، إلّا أنني ما زلت أذكرها كزبوني المفضّلة والمنظمة، حين كنت أعمل كنادلة في

مطعم فيللي وكانت تأتي لتناول الغداء مع الكوكا الخاصة بالحمية من دون ثلج وتقول لي أشياء ذكية وهي تبتاع طعامها. صداقتنا ترجع الآن إلى خمسة عشر عاماً. كما أنّ صوفي مدعوّة إلى حفلة لوكا أيضاً. ولكنّ صداقتنا أنا وصوفي ترجع إلى خمسة عشر أسبوعاً فقط. جميع الناس مرحّب بهم دوماً في ذكرى الشكر. لا سيّما إن صادف يوم ذكرى ميلاد لوكا سباعيني.

قدنا السيارة في ساعة متأخرة من المساء بعيداً عن جوّ التعب والتوتر الذي يسود روما وتوجّهنا نحو الجبال. كانت موسيقى فرقة الإيغلز تصدح طيلة الطريق، فلوكا يحبّ الموسيقى الأميركية، ما أضفى جواً كاليفورنياً على رحلتنا عبر كروم الزيتون والأقنية القديمة. وصلنا إلى منزل صديقي لوكا، ماريو وريمونا، أبويّ التوأمتين جوليا وسارا، البالغتين اثني عشر عاماً. كان باولو - صديق لوكا الذي سبق أن قابلته في مباريات كرة القدم - هناك أيضاً، مع صديقتة. وبالطبع، كانت صديقة لوكا، جوليانا، هناك أيضاً، وكانت قد وصلت في ساعة مبكرة من المساء. كان المنزل الأنيق قابلاً في كرم من أشجار الزيتون والبرتقال والليمون، فيه موقد مشتعل وزيت زيتون منزليّ الصنع.

لم يكن ثمة وقت لطهو ديك الحبش الذي يبلغ من الوزن عشرة كيلوغرامات، بالطبع، ولكن لوكا حضرّ بعض شرائح صدر الحبش، وأشرفت أنا على الجهود الجماعي لإعداد حشوة الحبش، محاولة قدر الإمكان تذكّر الوصفة المؤلفة من فئات الخبز الإيطالي مع البدائل الضرورية التي يفرضها الاختلاف الثقافي (التمر عوضاً عن المشمش والشُمرة عوضاً عن الكرفس). غير أنّ النتيجة أتت عظيمة. وكان لوكا قلقاً كيف سيتمّ الحديث بين الموجودين، نظراً لكون نصف المدعوّين لا يتحدثون الإنكليزية ونصفهم الآخر لا يتحدثون الإيطالية (وصوفي

وحدها تتحدّث السويدية)، ولكن تمكّن الجميع بأعجوبة من فهم بعضهم تماماً، أو على الأقلّ كان الجالس بقربك يسعفك بالترجمة حين يتعذّر عليك فهم كلمة ما.

لا أذكر كم زجاجة من الشراب تناولنا قبل أن تقترح ديورا أتباع التقليد الأميركي اللطيف الليلة عبر جمع أيدينا والتعبير عن شكرنا لله على أمر معيّن، بثلاث لغات.

بدأت ديورا بالتعبير عن امتنانها لأنّ أميركا ستحصل قريباً على فرصة انتخاب رئيس جديد. ثمّ قالت صوفي (أولاً بالسويدية، ثمّ بالإيطالية، ومن ثمّ بالإنكليزية) إنّها تشكر الله على القلوب الخيرة التي التقتها في إيطاليا وعلى الأشهر الأربعة التي أنعم الله عليها بما لتستمتع في هذا البلد. بدأت الدموع بالانهيار حين تحدّث ماريو - مضيفنا - وبكى بشكر صادق على عمله الذي مكّنه من امتلاك هذا المنزل الجميل لكي تستمتع به عائلته وأصدقائه. وأوضحنا بولو حين قال إنّهُ هو أيضاً ممتنّ لأنّ أميركا ستتمكّن تقريباً من انتخاب رئيس جديد للجمهورية. ثمّ سكننا جميعاً احتراماً لسارا الصغيرة، إحدى التوأمتين، حين أخبرتنا بشجاعة أنّها تشكر الله لوجودها هنا الليلة مع أناس لطفاء لأنّها كانت تواجه وقتاً صعباً في المدرسة مؤخراً بسبب بعض الطلاب الخبيثين، "لذا أشكركم لأنكم كنتم لطفاء معي الليلة وغير خبيثين، مثلهم". أمّا صديقة لوكا فشكرت الله على إخلاص لوكا لها كلّ تلك السنوات وعنايته بعائلتها بكلّ حنان في الأوقات الصعبة. ثمّ بكت ريمونا، مضيفتنا، أكثر من زوجها وهي تعبّر عن امتنانها لإدخال هؤلاء الغرباء القادمين من أميركا عادة احتفال وشكر جديدة إلى بيتها، مع أنّهم ليسوا غرباء إطلاقاً، بل أصدقاء لوكا وبالتالي أصدقاء السلام.

عندما حان دوري للتكلّم، بدأت قائلة: "Son grata..." ولكنني لم أتمكّن من البوح بأفكاري الحقيقية. لاسيّما امتناني لكوني قد تحلّصت من الاكتئاب الذي كان يفرضني كالجرذ على مرّ السنوات، والذي أحدث ثقباً في روحي جعلتني عاجزة في ما مضى عن الاستمتاع حتى بأمسية لطيفة كهذه. ولكنني لم أذكر أياً من ذلك أمام الطفلتين. بل قلت عوضاً عن ذلك حقيقة أكثر بساطة، إنني ممتنة لأصدقائي القدامى والجدد. وممتنة، لا سيّما الليلة، للوكا سباعيتي. وإنني أمتنى له ذكرى ميلاد سعيدة، ببلوغه الثالثة والثلاثين، وحياة طويلة ويكون مثلاً للكرم، والوفاء، والحبّ. وإنني أمل ألاّ يمانع أحد بكائي وأنا أقول ذلك، مع أنني لا أظنهم يمانعون لأنّ الجميع كانوا يكون أيضاً. كان لوكا منفِعاً إلى حدّ أنّه لم يتمكّن من قول شيء سوى: "دموعكم هي دعائي".

استمرّ الشراب بالتدفّق في كؤوسنا. وفيما قام باولو لغسل الأطباق، وماريو ليضع ابنتيه المتعبتين في السرير، ولوكا ليعزف على الغيتار، والجميع يغني أغنية أميركية بلهجات مختلفة، قالت لي ديورا، عالمة النفس الأميركية المناصرة لحقوق المرأة، بصوت منخفض: "انظري إلى هؤلاء الرجال الإيطاليين الطيّبين. انظري كيف يعبرون عن مشاعرهم بانفتاح وكيف يشاركون بحبّ في صنع سعادة عائلاتهم. انظري إلى التقدير والاحترام الذي يكتونه لنسائهم وأطفالهم. لا تصدّقي كلّ ما تقرأينه في الصحف، ليز. هذا البلد بألف خير".

لم تنته حفلتنا قبل الفجر تقريباً. لكننا تمكّنا في النهاية من طهو ديك الحبش وتناوله كإفطار. أعادنا لوكا سباعيتي أنا وديورا وصوفي إلى المنزل. حاولنا مساعدته ليبقى مستيقظاً عبر إنشاد أغان ردّناها مراراً وتكراراً بكلّ اللغات التي نعرفها في طريق عودتنا إلى روماً معاً.

لم أعد أقوى على التحمّل. فبعد أربعة أشهر تقريباً من إقامتي في إيطاليا، لم يعد أيّ من سراويلي يناسب مقاسي. ولا حتى الملابس الجديدة التي اشتريتها الشهر الماضي (حين ضاقت سراويل شهري الثاني في إيطاليا). لا أستطيع تجديدها ملاسني كلّ بضعة أسابيع، وأدرك أنّي سأكون في الهند تقريباً، حيث ستذوب الكيلوغرامات الإضافية، ولكن، مع ذلك، لم أعد أستطيع السير بهذه السراويل.

في الواقع، هذا طبيعي ذلك أنّي وقفت على ميزان في فندق إيطالي جميل، واكتشفت بأنّني كسبت أحد عشر كيلوغراماً في الأشهر الأربعة التي أمضيتها في إيطاليا، وهي زيادة كبيرة حقاً. في الواقع، كنت بحاجة إلى نصف هذه الزيادة لأنّني خسرت كثيراً من وزني خلال سنوات الطلاق والاكئاب. والكيلوغرامات الأخرى كسبتها لمجرد المتعة.

هكذا ذهبت لشراء ملابس سأحتفظ بها طيلة حياتي كذكرى لسروال آخر شهري لي في إيطاليا. كانت البائعة الشابة بالغة اللطف، إذ استمرّت بإعطائي مقاسات أكبر، مرّتها لي عبر الستارة واحداً تلو الآخر من دون أيّ تعليق، بل اكتفت بالسؤال باهتمام في كلّ مرّة ما إذا كان هذا أنسب. وقد أطلت من خلف الستارة عدّة مرّات وسألته: "عذراً، هل لديك سروال أكبر بقليل؟" إلى أن ناولتني أخيراً سروال جينز ذا مقاس آذى نظري حقاً. خرجت من حجرة قياس الملابس، ووقفت أمام البائعة.

لم تُطرف عينها، بل نظرت إليّ كالخبير الفنّي الذي يقيّم مزهريّة. مزهريّة كبيرة بالأحرى.

قالت أخيراً: "Carina". جميلة.
سألتها بالإيطالية أن تخبرني ما إذا كنت أبداً بهذا الجينز
كالبقرة.

أجابتنى: "كلّاً، سينيورينا. لا تشبهين البقرة".
"ربّما الثور؟".

تحوّل الحديث إلى تمرين جيّد على المفردات. كنت أحاول أيضاً
أن أنتزع منها ابتسامة، ولكنها صمّمت على الحفاظ على جدّيتها.
حاولت مرّة أخرى: "ربّما كنت أشبه موزاريللا الثيران؟".
"حسناً، ربّما،" أقرّت أخيراً، مع ابتسامة صغيرة. "ربّما كنت
تشبهين موزاريللا الثيران قليلاً...".

36

بقي لي أسبوع واحد هنا. كنت أخطّط لقضاء ذكرى الميلاد
في أميركا قبل السفر إلى الهند، ليس لأنني لا أحتمل فكرة تمضية
بعيداً عن عائلتي، ولكن لأنّ الأشهر التالية من رحلتي - في الهند
وإندونيسيا - تحتاج إلى حزم أغراض مختلفة. فقليل من الأشياء التي
يحتاج إليها المرء للعيش في إيطاليا هي نفس تلك التي تلزمه للتحوّل
في الهند.

وربّما استعداداً لرحلتي إلى الهند، قرّرت تمضية هذا الأسبوع
الأخير في التطواف في صقلية، الجزء الأكثر فقراً في إيطاليا. وهي تصلح
بالتالي لأعدّ نفسي فيها للعيش في بلد يسوده الفقر المدقع. أو ربّما
كنت أودّ الذهاب إلى صقلية بسبب ما قاله غوته: "من دون رؤية
صقلية، لا يمكن للمرء أن يكون فكرة واضحة عن إيطاليا".

بيد أنه ليس من السهل الوصول إلى صقلية أو التحول فيها. كان عليّ استعمال جميع مهاراتي الاستكشافية لأجد قطاراً يعمل يوم الأحد على طول الطريق الساحلي ومن ثمّ إيجاد المركب الصحيح إلى ميسينا (وهو ميناء صقليّ مخيف ومثير للريبة، يبدو وكأنه ينوح من خلف الأبواب الموصدة: "ليس الخطأ خطأي إن كنت مدينة قبيحة! فقد دمّرتني زلزال وقُصفت بالمدافع وهبّتي عصابات المافيا، أيضاً!") حين وصلت إلى ميسينا، كان عليّ العثور على محطة باصات (قائمة مثل رثتي مدخن) والعثور على الرجل المسؤول عن الجلوس في حجرة التذاكر، ليندب حظّه، وأرى ما إذا كان يسمح بإعطائي تذكرة إلى بلدة تاورمينا الساحلية. ثمّ عبرت جروف وشواطئ صقلية الرائعة وساحلها الشرقي الصخري إلى أن وصلت إلى تاورمينا، حيث كان عليّ إيجاد سيارة أجرة ومن ثمّ فندق. ورحت أبحث بعد ذلك عن الشخص المناسب لكي أطرح عليه سؤال المفضّل بالإيطالية: "أين أجد أفضل طعام في هذه البلدة؟" في تاورمينا، تبين بأنّ ذلك الشخص هو شرطيّ نعيسان. وقد أعطاني أعظم شيء تلقّيته في حياتي؛ ورقة صغيرة كتبت عليها اسم مطعم غامض وخريطة مرسومة باليد تبين كيفية الوصول إليه.

تبين بأنّ المطعم هو عبارة عن مقهى رصيف، تستعدّ صاحبتة الودود المتقدّمة في السنّ لاستقبال زبائنها في المساء عبر الوقوف على إحدى الطاولات بجوربيها، محاولة عدم الاصطدام بشجرة العيد وهي تلمّع نوافذ المطعم. أخبرتها بأنني لا أحتاج إلى قائمة الطعام، وطلبت منها أفضل طعام ممكن لأنّها ليلتي الأولى في صقلية. ففركت كفّهما بحماس وقالت شيئاً باللهجة الصقلية بصوت عالٍ لأمتها الأكثر تقدّماً في السنّ في المطبخ. وفي غضون عشرين دقيقة، أتمّكت في تناول أطيب

وجبة لي في إيطاليا على الإطلاق. كانت عبارة عن باستا ذات شكل لم أره من قبل؛ شرائح كبيرة وطازجة من الباستا المثنية على شكل قبة البابا (وإن ليس بحجمها) ومحمّوة ببوريه ساخن ولذيذ الرائحة مصنوع من القشريات والأخطبوط والحبار، تعلوها وكأنها سلطة ساخنة، أصداق الكوكل وقطع الخضار، وتسبح جميعها في مرق زيتوني اللون. تبعها لحم الأرنب المطهو بالصعتر.

ولكن سيراكوز التي قصدتها في اليوم التالي كانت أفضل. فقد أنزلني الباص عند ناصية أحد الشوارع تحت البرد والمطر، في آخر النهار. أحبيت البلدة على الفور. فتاريخها يمتد إلى ثلاثة آلاف سنة. وهي بالتالي مهد حضارة قديمة إلى حد أن روما تبدو إلى جانبها أشبه بدالاس. وتقول الأسطورة إن دايدالوس طار إلى هنا من كريت وبأن هرقل نام فيها مرّة. كانت سيراكوز مستعمرة يونانية وصفها ثوسيديديس بأنها مدينة لا تقل أهمية عن أثينا نفسها. فهي تربط بين اليونان وروما القديمتين. وقد عاش فيها كثير من كتاب المسرحيات وعلماء العصور القديمة. وبرأي أفلاطون، فهي تشكّل موقعاً مثالياً لتجربة المدينة الفاضلة حيث يمكن للحكام أن يتحوّلوا إلى فلاسفة والفلاسفة إلى حكماء. ويقول المؤرخون بأن علم البلاغة قد ولد في سيراكوز، وكذلك الرواية.

مشيت في أسواق تلك البلدة المتداعية، وذاب قلبي حباً لا يمكنني تفسيره وأنا أراقب عجوزاً يعتمر قبة من الصوف يُخرج أحشاء سمكة لأحد الزبائن (كان قد حشر سيجارته بين شفتيه، كما تضع الخياطة الدبايس بين شفتيها وهي تعمل، فيما استخدم السكين براءة وتفان لإنجاز عمله). سألت الصياد بحياء أين يمكنني أن أكل الليلة، ورحت أُخربش مجدداً على ورقة أخرى أسجّل فيها عنوان مطعم صغير

بلا اسم. ما إن دخلته، تلك الليلة، حتى أحضر لي النادل بعض الريكوتا الخفيفة كالغيوم والمزينة بالفستق المطحون، قطع من الخبز العائم فوق زيوت معطرة، أطباق صغيرة من شرائح اللحم والزيتون، سلطة البرتقال المثلى تعلوها صلصة من البقدونس والبصل النيء. هذا قبل أن أسمع عن طبق الكالاماري المميز لديهم.

قال أفلاطون: "لا يمكن لأي مدينة أن تعيش بسلام، أيًا تكن قوانينها، إن كان مواطنوها... لا يفعلون شيئاً سوى الاستمتاع بالطعام، والشراب، والحب".

ولكن هل من الخطأ العيش كذلك لفترة من الوقت؟ مجرد بضعة أشهر من حياة المرء، يسافر فيها عبر الزمن ولا يرجو منها سوى العثور على الوجبة الشهية التالية؟ أو تعلم تحدث لغة مجرد أنها تطرب أذنيه؟ أو أخذ غفوة في حديقة، في بقعة مشمسة في منتصف النهار، بقرب نافورته المفضلة؟ والقيام بالأمر نفسه في اليوم التالي؟

بالطبع، لا يمكن للمرء أن يحيا كذلك إلى الأبد. فواقع الحياة، والحروب، والصدمات، والفضيلة تتعارض معها لاحقاً. هنا في صقلية مثلاً، التي يسودها فقر فظيع، لا يغيب واقع الحياة عن ذهن أحد. فقد كانت المافيا هي العمل الناجح الوحيد في صقلية لعقود من الزمن (وعملها هو حماية الأهالي منها)، وما زالت تهيمن على الجميع. أمّا باليرمو - وهي مدينة قال عنها غوته مرّة بأنها تحلّت يوماً بجمال يصعب وصفه - فقد تكون المدينة الوحيدة في أوروبا الغربية التي تسير فيها بين أنقاض الحرب العالمية الثانية، مجرد إبراز التطور الذي شهده المكان. فقد أصبحت المدينة قبيحة بشكل يفوق الوصف بفعل الأبنية البشعة وغير الآمنة التي بنتها المافيا في الثمانينيات، كوسيلة لتبييض الأموال. سألت أحد الصقليين ما إذا كانت الأبنية مصنوعة من

الإسمنت زهيد الثمن، فأجابني: "أوه، كلاً، هذا الإسمنت غال جداً. فكلّ دفعة منه تحتوي على بضع جثث للأرواح التي قتلها المافيا، وهذا مكلف. إلاّ أنّه يجعل الإسمنت أقوى لأنّه مدعّم بكلّ تلك العظام والأسنان".

في هذا الجوّ، من المخجل قليلاً ربّما ألاّ تفكّر سوى في وجبتك الشهية التالية. بل إنّ أفضل ما يمكنك القيام به أمام هذا الواقع الرهيب. حاول لويجي بارزيني، في تحفته التي صدرت عام 1964 الإيطاليون (التي كتبها بعد أن ملّ أخيراً من الغرباء الذين يكتبون عن إيطاليا، فهم إمّا يغرمون بها أو يكرهونها تماماً) تحليل ثقافة بلده. فقد حاول الإجابة عن أسباب كون الإيطاليين قد أنتجوا أعظم العقول الفنية، والسياسية، والعلمية في التاريخ ولكنهم لم يصبحوا أبداً قوّة عظمى. لم يعتبرون أساتذة في الدبلوماسية الشفهية، ولكنهم غير ناجحين في الحكم الداخلي؟ لم يتمتّعون بشجاعة فردية كبيرة، إلاّ أنّهم فاشلون جداً كجيش جماعي؟ لم هم تجارّ بارعون على المستوى الشخصي ولكنهم رأسماليون غير أكفّاء كامّة؟

إجاباته عن هذه الأسئلة معقّدة جداً وليس من السهل إنجازها هنا، إلاّ أنّها تتعلّق بالتاريخ الإيطالي الحزين الحافل بالقادة المحليين الفاسدين وباستغلال من قبل المهيمنين الأجانب، ما حدا بالإيطاليين إلى استنتاج صحيح على ما يبدو، وهو أنّه لا يمكن الثقة بأيّ شخص أو بأيّ شيء في هذا العالم. وبما أنّ العالم مليء بالفساد وعدم الاستقرار والمبالغة والظلم، ينبغي على المرء ألاّ يثق إلاّ بما يدركه بجواسه، وهذا ما يجعل الحواسّ في إيطاليا أقوى منها في أيّ بلد أوروبي آخر. لهذا السبب، بحسب بارزيني، يتقبّل الإيطاليون الجنرالات والطغاة والأساتذة والبيروقراطيين والصحفيين ورؤساء الصناعة غير الأكفّاء على نحو

شائن، ولكنهم لا يقبلون إطلاقاً بمغني أوبرا، قادة فرق موسيقية، راقصات باليه، موسسات، ممثلين، مخرجي أفلام، طبّاحين، خياطين... غير أكفاء. ففي عالم من الفوضى والخراب والخداع، لا يمكن الوثوق أحياناً سوى بالجمال. فالكمال الفتي غير قابل للفساد، ولا يمكن المساومة على المتعة. وفي بعض الأحيان تكون الوجبة هي العملة الوحيدة الحقيقية.

بالتالي، فإنّ تكريس النفس لإنتاج الجمال والاستمتاع به، من شأنه أن يكون عملاً جدياً، وهو ليس وسيلة للهرب من الواقع بالضرورة بل يمثل أحياناً وسيلة للتمسك بما هو حقيقي في عالم ينهار فيه كلّ شيء ويتحوّل إلى... بلاغة ورواية. فمنذ مدّة غير بعيدة، قبضت السلطات على رهبان كاثوليك في صقلية متآمرين مع المافيا، كيف لك بالتالي أن تثق بأحد؟ ماذا تصدّق؟ فالعالم قاس وظالم. وإنّ تجرّأت على الحديث ضدّ هذا الظلم في صقلية، على الأقلّ، فسينتهي بك الأمر أساساً في مبنّى قبيح آخر. ماذا تفعل إذاً في ظلّ هذه الظروف لتحافظ على كرامتك ككائن بشريّ. لا شيء ربّما. لا شيء، باستثناء أن تتباهى بمهارتك في تشريح السمك، أو بأنك تحضّر أحفّ ريكوتا في البلدة كلّها؟

لا أريد إهانة أيّ شخص بالمقارنة كثيراً بيني وبين الشعب الصقلي الذي تعذّب طويلاً. فما سيّ حياتي تمتاز بطبيعة فردية ذاتية المصدر بمعظمها، وليست ناتجة عن ظلم دام لعهود. فقد واجهت الطلاق والإحباط وليس قروناً من الاستبداد الدامي. عانيت من أزمة هوية، ولكن، كانت لديّ الموارد المادية، والفنية، والعاطفية في الوقت نفسه، وبها استعنت لتجاوز المحنة. مع ذلك، أظن بأنّ ما ساعد أجيالاً من الصقليين على الحفاظ على كرامتهم قد ساعدني على استعادة كرامتي،

لا سيّما فكرة أنّ تقدير اللذة من شأنه أن يكون مرسةً لإنسانية المرء. وأعتقد أنّ هذا ما عناه غوته حين قال إنّ عليك زيارة صقلية لكي تفهم إيطاليا. وأفترض أنّ هذا ما شعرت غريزياً به حين قرّرت أنّي أحتاج إلى المحييء إلى هنا، إلى إيطاليا، لكي أفهم نفسي.

كنت في نيويورك، في حوض الاستحمام، أقرأ كلمات إيطالية في قاموس بصوت مرتفع، حين بدأت ألملم شتات روحي الممزقة. كانت حياتي قد تحوّلت إلى دمار وما عدت أتعرف على نفسي. غير أنّي شعرت بومضات من السعادة حين بدأت أتعلّم الإيطالية، وعندما يشعر المرء باحتمال ضئيل للسعادة بعد فترات قائمة من حياته، يتشبّث بما يديه وأسنانه ولا يفلتها حتى تنتشله من الوحول؛ وهذا ليس بالأناثية، بل هو واجب. فعندما يمنحك الله الحياة، من واجبك (ومن حقك ككائن بشري) أن تجد شيئاً جميلاً فيها، مهما كان ضئيلاً.

أتيت إلى إيطاليا ذابلة ونخيلة. كنت أجهل ما أستحقّ، وربّما لا أزال. ولكنني أعرف بأنني انتشلت نفسي من الموت - عبر الاستمتاع بالملذّات غير المؤذية - لأصبح امرأة أكثر سلاماً. والطريقة الأسهل والأكثر إنسانية لقول ذلك هي أنّي ازددت وزناً. أصبحت الآن موجودة أكثر ممّا كنت عليه منذ أربعة أشهر. وسأغادر إيطاليا وأنا أكبر حجماً بشكل ملحوظ ممّا كنت عليه حين وصلت. وسأغادر آملّة بأنّ تمثّد شخص ما - تضخّم حياته - هو في الواقع أمر يستحقّ العناء في هذا العالم. حتى وإن صدف، هذه المرّة وحسب، أنّ تلك الحياة ليست حياة أحد سواي.

الهند

أو

"تهانيّ بلقائك"

أو

36 حكاية

عن السعي إلى التأمل



حين كنت صغيرة، كانت عائلتي تربي الدجاج. كان لدينا دوماً ما يقارب الدزينة منها، وكلّما ماتت إحداها - اختطفها أحد الصقور أو الثعالب أو مرض دجاج غامض - يستبدل أبي الدجاجة المفقودة. فيقصد بسيّارته مزرعة دجاج قريية ويعود بكيس فيه دجاجة. المشكلة هي أنّه ينبغي عليك أن تكون شديد الحذر وأنت تُدخل دجاجة جديدة إلى القفص. لا يمكنك الاكتفاء بقذفها هناك مع الدجاجات القدامى، وإلاّ اعتبرت دخيلة. عوضاً عن ذلك، ينبغي دسّ الطير الجديد في القفص في منتصف الليل، حين تكون بقية الطيور نائمة. فتضعه على مجثم بقرب البقية. وفي الصباح، حين تستفيق الدجاجات، لن تلاحظ القادمة الجديدة، بل ستفكر: "لا بدّ بأنّها كانت هنا بما أنّني لم أرها حين وصلت". لا بل إنّ الدجاجة الجديدة نفسها، حين تستيقظ مع بقية السرب، لن تتذكّر حتى بأنّها جديدة، بل ستفكر: "لا بدّ بأنني كنت هنا طيلة الوقت...".

هكذا تماماً وصلت إلى الهند.

حطّ طائرتي في مومباي حوالي الساعة 1:30 بعد منتصف الليل في 30 كانون الأوّل. عثرت على حقائبي، ثمّ وجدت سيارة أجرة أقلّنتني خارج المدينة، إلى المعتزل الواقع في قرية نائية في الأرياف. رحّت أتأمل خلال الرحلة الهند ليلاً، وأستيقظ أحياناً للنظر من النافذة، فأشاهد ظلالاً غريبة لنساء نحيلات يرتدين الساري، ويتهادين على الطريق حاملات رزم الخطب على رؤوسهنّ. في تلك الساعة؟ باصات من دون مصابيح كانت تتجاوزنا، فيما نحن نمرّ بقرب أشجار الأتّاب التي مدّت جذورها على طول الأقبية.

وصلنا إلى البوابة الأمامية للمعتزل عند الساعة الثالثة والنصف، وتوقفنا أمام المعبد تماماً. وأنا أترجل من السيارة، خرج شاب بملابس غريبة وقبعة صوفية من بين الظلال وقدم نفسه - إنه أرتورو، صحفي يبلغ الرابعة والعشرين من العمر من مكسيكو، وهو أحد أتباع الغورو، وقد أتى لاستقبالي. فيما كنا نقوم بالتحارف همساً، تناهت إليّ الكلمات الأولى المألوفة من ترنيمي السنسكريتية المفضلة المتصاعدة من الداخل. إنها الأراتي الصباحية، دعاء الصباح التي يتم إنشاده كل يوم عند الساعة الثالثة والنصف عند استيقاظ سكان المعتزل. أشرت بإصبعي إلى المعبد وسألت أرتورو: "هل لي...؟" فأشار لي بالفضل. دفعت أجرة السائق ووضعت حقيبة الظهر خلف إحدى الأشجار. خلعت حذائي وسجدت على درجة المعبد قبل أن أدخل وأنضمّ إلى المجموعة الصغيرة المؤلفة بمعظمها من نساء هنديات ينشدن تلك الترنيمة الجميلة.

كانت تلك هي الترنيمة التي أسميها "مئة السنسكريتية المدهشة"، الحافلة بالشوق والتعبّد. إنها الترنيمة الوحيدة التي حفظتها عن ظهر قلب، لأنني أحببتها، لا لأنني بذلت جهداً في سبيل ذلك. بدأت بترداد الكلمات المألوفة بالسنسكريتية، من المقدمة البسيطة عن تعاليم اليوغا حتى نبرات التأمل الأكثر ارتفاعاً، انتهاءً بالخلاصة الأشبه بجوهرة الإيمان كلّها ("هذا كامل، ذاك كامل، إن أخذت الكمال من الكمال، يبقى الكمال").

انتهت النساء من الغناء. فأنحنين بصمت ثم خرجن من باب جانبي عبر قاعة معتمة وصولاً إلى معبد أصغر حجماً، بالكاد يضيئه مصباح زيت معطرّ بالبحور. فتبعتهنّ. كانت الغرفة مليئة بالأتباع - الهنود والغربون - الذين يلفّون أنفسهم بالأوشحة الصوفية اتقاءً لبرد

الفجر. كان الجميع جالسين متأملين، يمكنك القول إنهم كانوا جاثمين هناك، فاندست بقربهم، كالطائر الجديد في السرب، من دون أن يلاحظني أحد إطلاقاً. تربعت ووضعت يدي على ركبتي وأغمضت عيني.

لم أمارس التأمل منذ أربعة أشهر. حتى إنني لم أفكر بالتأمل منذ أربعة أشهر. جلست هناك، ورحت أتففس بهدوء، ثم قلت المانترا لنفسي ببطء وتأن، مقطعاً تلو الآخر.

أوم.

نا.

ماه.

شي.

فا.

يا.

أوم ناماه شيفايا

أجل... التي تسكن بداخلي

ثم كررتها مرة تلو الأخرى. لم أكن أتأمل بقدر ما كنت أخرج المانترا بحذر، كما يخرج المرء الطقم الخزي المفضل لدى جدته بعد أن احتفظ به في صندوق لوقت طويل، من دون استعماله. لا أدري ما إذا كنت قد غرقت في النوم أم في نوع من السحر أو حتى كم مضى من الوقت. ولكن حين أشرقت الشمس أخيراً على الهند ذاك الصباح، وفتح الجميع أعينهم ونظروا حولهم، شعرت بأن إيطاليا أصبحت على بعد آلاف الأميال مني، وأحسست وكأني كنت مع هذا السرب منذ القدم أو منذ البدء إن صح التعبير.

"لِمَ نمارس اليوغا؟".

طرح علينا أحد المعلمين هذا السؤال خلال صفّ يوغا صعب حين كنت في نيويورك. كنّا جميعاً منحنين في وضعية المثلث المنحرف الصعبة وكان المعلم يجعلنا نحافظ على تلك الوضعية لمدة أطول مما نرغب.

سألنا مجدداً: "لِمَ نمارس اليوغا؟ لنصبح أكثر ليونة من جيراننا؟ أم ثمّة هدف أسمى؟" يمكن ترجمة كلمة *Yoga* السنسكريتية باتحاد. وهي مشتقة أساساً من الجذر *Yuj*، أي يصل، يربط نفسه بمهمّة في متناوله بانضباط بالغ. والمهمّة التي في متناولك في اليوغا هي إيجاد الاتحاد - بين العقل والجسد، بين الفرد والخالق، بين أفكارك ومصدر أفكارك، بين المعلم والتلميذ، وحتى بين أنفسنا وجيراننا المتصلّين أحياناً. في الغرب، تعرّفنا إلى اليوغا بشكل رئيسي من خلال التمارين الجسدية الشبيهة بأعواد البرتزل، ولكنّ تلك ليست سوى المهاتا يوغا، أحد فروع الفلسفة. ولم يطرّ القدمات تلك التمارين الجسدية سعياً وراء اللياقة البدنية، بل لتلين عضلاتهم وأذهارهم استعداداً للتأمل. فمن الصعب الجلوس بسكون لساعات طويلة إن كنت تشعر بألم في وركك يمنعك من تأمل الجوهر، لأنك ستكون مشغولاً بفكرة واحدة: "آه... وركي يؤلمني حقاً".

ولكن من شأن اليوغا أن تعني أيضاً محاولة إيجاد السبب... من خلال التأمل، والدراسة، وممارسة الصمت، والخدمة التعبدية أو المانتر؛ تكرار كلمات دينية سنسكريتية. وفيما تبدو بعض هذه الممارسات هندوسية المصدر، إلّا أنّ اليوغا تختلف عن الهندوسية، كما أنّ ليس

جميع الهندوس ممارسين لليوغا. فبإمكانك استعمال اليوغا - ممارساتك المنتظمة للاتحاد - سواء أكنت نصرانياً أو هندوسياً أو يهودياً. فخلال الفترة التي قضيتها في المعتزل، قابلت أشخاصاً قالوا إنهم نصارى، ويهود، وبوذيون، وهندوس، وغير ذلك. كما تعرّفت على آخرين فضّلوا عدم ذكر انتمائهم الديني على الإطلاق، وفي هذا العالم المليء بالنزاعات، لا ألومهم على ذلك.

يقوم طريق اليوغا على تفكيك مكامن الخلل المتحدّرة في الحالة الإنسانية، والتي سأعرّفها هنا بشكل بالغ البساطة على أنّها عجز مخزن عن تحقيق الرضى. في الواقع، أعطت المدارس الفكرية على مرّ العصور تفسيرات مختلفة لحالة النقص المتأصّلة على ما يبدو في الإنسان. فسماها التايون انعدام توازن، والبوذيون جهلاً، فيما أرجعت المعتقدات اليهودية - المسيحية كلّ عذابنا إلى الخطيئة الأصلية. ويقول الفرويديون إنّ التعاسة هي النتيجة المحتومة للتضارب بين رغباتنا الطبيعية والضرورات الحضارية. (وتفسّر صديقتي ديورا، العاملة النفسية، ذلك قائلة: "الرغبة هي عيب التصميم"). أمّا اليوغاني فيقول إنّ الاستياء البشري هو حالة بسيطة من الخطأ في الهوية. فنحن نشعر باليأس لأننا نعتقد أنّنا مجرد أشخاص وحيدين مع مخاوفنا، وعيوبنا، وأحزاننا، وأخلاقياتنا. ونعتقد خطأً أنّ ذواتنا الصغيرة المحدودة تمثّل كلّ طبيعتنا، وتفوتنا صفاتنا... العميقة. فنحن لا ندرك أنّ في داخلنا جميعاً توجد ذات أسمى تنعم بسلام أبديّ. وتلك الذات الأسمى هي هويتنا الحقيقية، الكونية... وبحسب تعاليم اليوغا، ما لم تدرك هذه الحقيقة، فسيلازمك اليأس...

تقوم اليوغا على السيطرة على النفس وبذل جهد لتصرف انتباهك عن الاجترار المستمر للماضي، والقلق المستمر على المستقبل،

بحيث تبحث عوضاً عن ذلك عن مكان في الوجود الأزلي الذي تنظر منه إلى نفسك ومحيطك بآتران. من هذه الزاوية فقط ستنكشف لك طبيعة العالم (وطبيعة نفسك). ومزاوولي اليوغا الحقيقيون، بوضعية التوازن التي يتخذونها، يرون كل هذا العالم على أنه تجلُّ لطاقة الله الخالقة.

...

من المسلم به في الهند أن يحتاج المرء إلى معلّم ليمارس اليوغا. فما لم تكن قد ولدت كأحد هؤلاء النادرين الذين يتمتّعون أساساً بالتنوير كامل، يحتاج المرء إلى شيء من الإرشاد في رحلته إلى التنوير. وإن كنت محظوظاً بما يكفي، ستعثر على غورو على قيد الحياة. وهذا ما سعى وراءه الآتون إلى الهند منذ أقدم العصور. فقد أرسل الإسكندر الأكبر مبعوثاً إلى الهند في القرن الرابع ق.م. وكلفه بمهمة العثور على أحد مزاوولي اليوغا المشهورين والعودة به إلى البلاط. (وأفاد المبعوث أنه عثر على يوغاني ولكنّه لم ينجح في إقناعه بالسفر معه). وفي القرن الأوّل ق.م، كتب أبولونيوس تيرانا، مبعوث إغريقي آخر، عن رحلته إلى الهند قائلاً: "رأيت براهما هنوداً يعيشون على الأرض ولكنهم ليسوا عليها، محصّنين من دون حصون، لا يملكون شيئاً ولكنهم مع ذلك أغني من جميع البشر". حتى غاندي نفسه لظالماً أراد أن يتعلّم مع غورو، ولكن لم تتح له الفرصة أبداً لإيجاد مرشد، مع الأسف. وقد كتب قائلاً: "أعتقد بأنّ العقيدة القائلة بأنّ المعرفة مستحيلة من دون مرشد، هي صحيحة إلى حدّ بعيد".

مزاوولي اليوغا العظيم هو من بلغ حالة التنوير الدائم. أمّا الغورو فهو مزاوولي يوغا عظيم قادر على نقل تلك الحالة إلى الآخرين. وتتألف كلمة غورو من مقطعين سنسكريتيين. الأوّل يعني الظلام والثاني النور.

من الظلام إلى النور. وما ينتقل من المعلم إلى التلميذ يدعى *مانترا* تعبيرياً: "قوة الوعي المنار". بالتالي، أنت تقصد الغورو ليس لتعلم الدروس فحسب، كما هو الحال مع أيّ معلّم، بل لتلقّي حالته الروحية.

ومن شأن هذا الانتقال أن يحدث حتى خلال اللقاءات السريعة جداً مع كائن عظيم. فقد ذهبت مرّة لرؤية الراهب الفييتنامي العظيم، الشاعر وصانع السلام، تيش نات هان وهو يتحدث في نيويورك. كانت ليلة من ليالي الأسبوع المحمومة، وفيما كان الجمهور يتدافع لشقّ طريقه نحو القاعة، أصبح الهواء نفسه مشبعاً بالتوتر الجماعي الذي يشدّ أعصاب الموجودين. ثمّ اعتلى الراهب المسرح، وجلس ساكناً لمدة من الوقت قبل أن يبدأ بالتكلّم، وكان من الممكن أن تشعر بسكونه يسيطر على الموجودين، من النيويوركيين المتوترين، مرّة واحدة. ولم تمضِ لحظات حتى عمّ السكون المكان. وفي غضون عشر دقائق ربّما، شدّ ذلك الفييتنامي قصير القامة كلاً منّا إلّا صمته. أو ربّما من الأدقّ القول إنّه شدّ كلاً منّا إلّا صمته الخاص، إلى ذلك السلام الذي تملكه فطرياً، ولكننا لم نكتشفه بعد. وقدرته على نشر حالته فينا جميعاً بمجرد وجوده في الغرفة. ولهذا السبب بالذات تقصد الغورو: أملاً في أن تكشف لك قدرات الغورو عظمتك الخافية عنك.

واستناداً إلى الحكماء الهنود القدماء، ثمة ثلاثة عوامل تشير إلى ما إذا كانت الروح تتمتع بالحظ الأكثر سموّاً وسعادة في الكون:

1. أن تكون قد وُلدت ككائن بشريّ قادر على البحث الواعي.
2. أن تملك منذ الولادة - أو تطوّر لاحقاً - شوقاً إلى فهم طبيعة الكون.

3. أن تعثر على مرشد على قيد الحياة.

ثمة نظرية تشير إلى أنك إن كنت قد شعرت بتوق صادق لاتباع غورو، ستجد واحداً. فالكون سيتحوّل، وذرات قدرك ستتنظّم نفسها بحيث يتقاطع طريقك مع طريق المعلّم الذي تحتاج إليه. وقد عثرت على معلّمي بعد شهر واحد فقط من ليلتي الأولى على أرض الحمّام؛ ليلة قضيتها وأنا أذرف الدموع متوسّلة الإجابات، وذلك حين دخلت شقّة ديفيد، ووجدت صورة لتلك المرأة الهندية المدهشة. بالطبع، لم يكن مفهوم امتلاك غورو واضحاً لديّ حينها. فبشكل عامّ، لا يرتاح الغربيون لتلك الكلمة، بسبب حادثة وقعت في وقت ليس ببعيد. ففي سبعينيات القرن الفائت، التقى عدد من الغربيين الشباب الأغنياء والمثلهفين للتعلّم بزمرة من الغورو الهنود الطماعين. ومع أنّ الضحّة التي أحدثها هؤلاء قد هدأت الآن، إلّا أنّ أصداءها لا زالت تتردّد. وحتى بالنسبة إليّ، بعد مرور كلّ هذا الوقت، لا زلت أجد نفسي متردّدة أمام كلمة غورو. علماً أنّ أصدقائي في الهند لا يعانون من تلك المشكلة. فقد نشأوا على مبدأ الغورو وهم مرتاحون إليه. وكما قالت لي شابة هندية يوماً: "كلّ الناس في الهند لديهم غورو تقريباً!" أعلم ما أرادت قوله (إنّ كلّ الناس في الهند تقريباً لديهم غورو) إلّا أنّي استعملت تعبيرها غير المقصود لأنّ هذا ما أشعر به أحياناً، وكأنّه لديّ غورو تقريباً. ففي بعض الأحيان، لا أجرؤ على الإقرار بذلك لأنّ التشكّك والبراغماتية يشكّلان جزءاً من إرثي الوطني. على أي حال، أنا لم أذهب للبحث عن غورو عن سابق تصوّر وتصميم، بل أتت إليّ من تلقاء نفسها. وفي المرّة الأولى التي رأيتها فيها، شعرت وكأنّها نظرت إليّ من صورتها - بعينيها القامتين المشفقتين - وقالت: "ناديتني وها أنا ذا. هل تريدان القيام بذلك أم لا؟".

لو وضعت جانباً جميع النكسات العصبية والقلق الناتج عن الاختلاف الحضاري، عليّ أن أتذكر دوماً بأنني أجبث تلك الليلة بنعم مباشرة ولا أساس لها.

39

كانت إحدى أولى زميلاتي في الغرفة في المعتزل معمدانية ومعلمة تأمل أميركية من أصول أفريقية من جنوب كاليفورنيا. أمّا زميلاتي الأخريات، اللواتي تعاقبن على الغرفة على مرّ الأشهر، فكان من بينهنّ راقصة أرجنتينية، طبيبة سويسرية، سكرتيرة مكسيكية، أمّ أسترالية لخمسة أولاد، مبرجة كومبيوتر بنغلادشية شابة، طبيبة أطفال من ماين، ومحاسبة فلبينية. وكان ثمة أخريات يأتين ويذهبن أيضاً، مع تعاقب الأتباع على مساكنهن.

لم يكن هذا المعتزل من الأمكنة التي يمكنك التوقّف عندها للزيارة. أولاً، ليس الوصول إليه سهلاً. فهو يقع بعيداً جداً عن مومباي، على طريق موحل في وادٍ نهر في الأرياف، قرب قرية صغيرة جميلة وعشوائية البناء (مؤلفة من شارع، ومعبد، وزمرة من المتاجر، وعدد كبير من الأبقار التي تتجول بحرية وتدخل أحياناً محلّ الخياط لتستلقي هناك على الأرض). لفت نظري مرّة مصباح غير محميّ بإطار زجاجيّ بقوة ستين وات، يتدلّى من سلك معلق على إحدى الأشجار في وسط البلدة. كان ذاك مصباح الشارع الوحيد في البلدة. يشكّل المعتزل مفخرة البلدة. فخارج جدرانها يسود الفقر والغبار. أمّا في الداخل، فتنتشر الحدائق المروية ومساحات الأزهار وأزهار السحلية المخبّأة بين الأعشاب وأشجار المانغا، والكاجو، والنخيل، والمانيوليا،

والأثأب. كان البناء جميلاً ولكن من دون إسراف، يشتمل على قاعة عشاء بسيطة على طراز الكافيتيريا ومكتبة شاملة للمكتب الروحية من مختلف المعتقدات الدينية في العالم. كما يحتوي على عدّة معابد لمختلف أنواع الاجتماعات وكهفنين للتأمل، مفتوحين ليل نهار، لا يستعملان سوى لممارسة التأمل. فضلاً عن شرفة مسقوفة لدروس اليوغا الصباحية وحديقة يحيط بها طريق بيضاوي لممارسة الهرولة. وأنا، كنت أنام في مهجع إسمنتي.

خلال إقامتي في المعتزل، لم يكن ثمة أكثر من بضعة مئات من المقيمين فيه في الوقت نفسه. ولو كانت الغورو مقيمة هناك، لتضاعف عدد المقيمين بشكل كبير، ولكنها لم تأت أبداً إلى الهند خلال وجودي هناك. وقد توقعت ذلك نوعاً ما، فهي تمضي كثيراً من الوقت في أميركا مؤخرًا، ولكن لا أحد يعرف متى تأتي فجأة. وفي الواقع، ليس من الضروري أن تكون حاضرة فعلاً لكي تتابع دروسك معها. هنالك بالطبع السمو الذي لا يمكن تعويضه، بأن تكون بقرب معلّم يوغا حيّ، وقد جرّبت ذلك من قبل. غير أنّ كثيراً من أتباع القدماء يتفقون على أنّ من شأن ذلك أن يشتت انتباهك أحياناً، حين تؤخذ بريق شهرة الغورو والحماس الذي يحيط بها وتفقد التركيز على هدفك الحقيقي. أمّا لو ذهبت إلى أحد معتزلاتها ودرّبت نفسك على الالتزام بالبرنامج الصارم المتبع فيه، سوف تجد أحياناً أنّه من الأسهل التواصل مع معلّمك من خلال جلسات التأمل الخاصة عوضاً عن شقّ طريقك بين الحشود الملهّفة لسماع الحكمة منها مباشرة.

يعمل في المعتزل عدد من الموظّفين، إلّا أنّ معظم العمل يقوم به التلاميذ أنفسهم. كما يعمل فيه بعض القرويين مقابل راتب معيّن. وثمة أشخاص آخرون من المنطقة، هم من أتباع الغورو ويعيشون في المعتزل

كتلاميذ. غير أنه كان ثمة صبي مراهق في أرجاء المعتزل سحري على نحو خاص. شيء في (أعتذر على الكلمة، ولكن...) حالته جذبتني إليه كثيراً. فهو أولاً نخيل إلى حدّ لا يصدّق (علماً أنّ هذا المشهد شائع جداً هنا؛ ولا أصدّق أنّ ثمة شيئاً في هذا العالم أكثر نحولاً من صبي هندي). ملابسه تشبه ملابس الصبيان المهتمّين بالكمبيوتر في المدرسة حين يذهبون للمشاركة في الحفلات الموسيقية؛ سروال داكن وقميص أبيض مفتوح على الصدر مكويّ بعناية وأكبر بكثير من مقاسه، يبرز عنقه النحيل من قَبْته وكأنّه زهرة ربيع وحيدة نابته في حوض أزهار عملاق. شعره مسرّح دوماً بعناية، ويلفّ خصره، الذي لا يتجاوز الأربعين سنماً، مرتين تقريباً بحزام شخص أكبر سنّاً. كان يرتدي الملابس نفسها كلّ يوم، ثم أدركت أنّه لا يملك سواها. لا بدّ من أنّه يغسل قميصه بيديه ليلاً ويكويه في الصباح. (علماً أنّ تلك العناية باللباس شائعة هنا أيضاً. لا بل سرعان ما شعرت بالخجل من ملابسي القروية المغصّنة أمام ملابس المراهقين الهنود البيضاء، لذا، استبدلتها بملابس أكثر نظافة وتواضعاً). ما الغريب إذاً في هذا الصبي؟ لم أتأثّر كلّما وقع نظري على وجهه المشيع بالنور، وكأنّه أتى للتوّ من عطلة طويلة من مجرة درب اللبّانة؟ أخيراً سألت مراهقة هندية أخرى عمّن يكون. فأجابت: "إنّه ابن أحد أصحاب الحوانيت المحليّين. عائلته فقيرة جداً، لذا دعت الغورو للعيش هنا. حين يقرع على الطبول، يمكنك أن تسمعي صوت التأمل".

ثمة معبد واحد في المعتزل مفتوح للعمامة، يمكن فيه للهنود المحيي خلال النهار وتقديم القرابين لتمثال سيدا يوغوي (أو المعلم الكامل) الذي أسّس هذا الخطّ التعليمي في عشرينيات القرن الفائت ولا يزال يعتبر في الهند عظيماً. إلا أنّ باقي المعتزل مخصّص للتلاميذ وحسب.

فهو ليس فندقاً أو معلماً سياحياً، بل هو أقرب إلى الجامعة. عليك أن تقدّم طلباً لدخول المكان، ولكي يتمّ قبولك للإقامة، عليك أن تثبت بأنك كنت تدرس اليوغا بجديّة لمدة طويلة من الزمن. وعليك الإقامة فيه لمدة شهر على الأقلّ. (قررت البقاء فيه لستّة أسابيع، ومن ثمّ السفر في أرجاء الهند بمفردي، أستكشف المعابد، والمعتزلات، وأماكن العبادة).

يتوزّع التلاميذ هنا بالتساوي بين غربيين وهنود (والغربيون يتوزعون بالتساوي بين أوروبيين وأميركيين). وتعطى الدروس بالهندية والإنكليزية. وينبغي أن تكتب في الطلب مقالة وتذكر مراجع، وتجيب عن أسئلة عن صحّتك الذهنية والجسدية، وإن كنت قد عانيت في السابق من إدمان، فضلاً عن وضعك المالي.

فالغورو لا تريد للناس استعمال معتزلها كمهرب من القوضى التي سببها في حياتهم، لأنّ ذلك لن ينفع أحداً. كما أنّ لديها سياسة عامّة تنصّ على أنّه في حال اعترضت العائلة أو المقرّبون على أتباع غورو والعيش في معتزل لسبب من الأسباب، ينبغي عليك التخلّي عن الفكرة، لأنّها لن تستحقّ العناء. ابقَ عوضاً عن ذلك في البيت وكن شخصاً طيباً. يجب عدم افتعال مشكلة كبيرة بسبب ذلك.

إنّ مستوى الحساسية الذي تتمتع به تلك المرأة يرحبني دوماً. إذاً، لكي تتمكن من المحيء إلى هنا، عليك أن تظهر بأنك أيضاً شخص حسّاس وعملي. عليك أن تثبت أنّك تستطيع العمل لأنّه يُنتظر منك المساهمة في الأعمال العامة في المكان بخمس ساعات في اليوم تقريباً من *seva*، أو الخدمة غير الذاتية. كما تسأل إدارة المعتزل عمّا إذا كنت قد تعرّضت لصدمة عاطفية كبيرة خلال الأشهر الستّة الماضية (طلاق، وفاة في العائلة)، ويطلبون منك تأجيل الزيارة لوقت آخر

لأنك لن تتمكن من التركيز على دراستك، وقد تشتت انتباه زملائك. فقمتم بهذا التأجيل بنفسي. وحين أفكر الآن بالألم الذي كنت أمر به بعدما وضعت حداً لزواجي، لا أشك للحظة واحدة بأنني كنت سأشكّل عبئاً كبيراً على كل من في هذا المعتزل لو أتيت إلى هنا في ذلك الوقت. وكان من الجيد أن استرحت أولاً في إيطاليا، واستعدت قواي وصحتي قبل المجيء إلى الهند. فأنا بحاجة إلى تلك القوة الآن.

يريدونك أن تأتي إلى هنا وأنت تتمتع بالقوة لأن حياة المعتزل صعبة. ليس جسدياً وحسب، مع بداية اليوم عند الثالثة بعد منتصف الليل وانتهائه عند التاسعة مساءً، بل ونفسياً أيضاً. فأنت تمضي ساعات طويلة من اليوم في التأمل الصامت، من دون السماح للذهن بكثير من اللهو أو الراحة. ستعيش في غرف صغيرة مع أغراب، في أرياف الهند حيث الحشرات، والأفاعي، والقوارض. ومن شأن الطقس أن يكون قاسياً: وابل من المطر الغزير ينهمر لأسابيع بلا توقّف، وارتفاع في الحرارة يبلغ 100 درجة فهرنهايت في الظلّ قبل الفطور. سرعان ما تصبح الحياة حقيقية جداً هنا.

تقول مرشدتي دوماً أنّ شيئاً واحداً سيحصل حين تأتي إلى المعتزل؛ ستكتشف من أنت فعلاً. لذا، إن كنت تتأرجح أساساً على حافة الجنون، يستحسن ألا تأتي على الإطلاق. فبصراحة، لا أحد يرغب بمملك خارج هذا المكان مع ملعقة خشبية بين أسنانك.

40

صادف وصولي إلى الهند مع بداية العام الجديد. فبالكاد حصلت على يوم واحد لأتعرّف إلى المكان قبل حلول ليلة رأس السنة. هكذا، وبعدها تناولنا العشاء، بدأت الباحة الصغيرة تمتلئ بالناس. جلسنا جميعاً

على الأرض، بعضنا على الأرض الرخامية الباردة وبعضنا الآخر على حصيرة. كانت النساء الهنديات يرتدين أثواباً وكأتهن ذاهبات إلى حفل زفاف. كان شعرهنّ مدهوناً بالزيت ومجموعاً في صغيرة تتدلّى على ظهورهنّ. وكنّ يرتدين الساري الحريري الأنيق ويضعن الأساور الذهبية، فيما تدلّت البيندي في جوهرة لامعة وسط جبينهنّ، وكأتهنّ تعكس ضوء النجوم التي تير السماء فوقنا. كانت الخطّة هي أن نشد في الهواء الطلق، في هذه الباحة، حتى منتصف الليل، إلى أن يحلّ العام الجديد.

في الواقع، لا أعتبر كلمة إنشاد عزيزة على قلبي. فهي توحى لي بأزير رتيب ومخيف، كذلك الذي يصدر عن الكهنة الإنكليز القدماء حول نار القربان. ولكنّ غناءنا في المعتزل، كان أشبه بالغناء السامي. إذ إنّه يتمّ عادة على شكل نداء وردّ. فتقوم مجموعة من الرجال والنساء ذوي الأصوات الجميلة بغناء جملة واحدة متناغمة، فيما يردها الباقون. إنّه نشاط تأمّلي، ويقوم المجهود فيه على تركيز الانتباه على تقدّم الموسيقى ومزج الصوت مع صوت جيرانك بحيث يغني الجميع بعد ذلك وكأنهم واحد. كنت أخشى ألاّ أتمكّن من مجاراتهم ومن البقاء مستيقظة حتى منتصف الليل، ومن إيجاد الطاقة للغناء طيلة هذا الوقت. ولكن، بدأت تلك الليلة الموسيقية مع نغمة طويلة توافة عزفها كمان واحد في الظلال، تبعه الهارمونيكا، والطبول البطيئة، ومن ثمّ الأصوات...

كنت أجلس في الجزء الخلفي من الباحة مع جميع الأمّهات والنساء الهنديات المتربّعات بارتياح، فيما ينام أطفالهنّ في حجورهنّ وكأنّهم بطانيات بشرية صغيرة. كانت أغنية الليلة عبارة عن هويدة، رثاء، محاولة تعبير عن الامتنان، مكتوبة بنغمة (raga) توحى بالتعاطف

والتفاني. كنّا نغنيّ بالسنسكريتيّة، كالعادة (وهي لغة هندية قديمة اندثرت ولم تعد تستعمل سوى للتأمل والدراسة الدينية)، وكنت أحاول أن أكون مرآة صوتية لأصوات المغنّين الرئيسيين، ألتقط نغماتهم وكأنّها خيوط صغيرة من الضوء الأزرق. راحوا يمرّرون لي الكلمات...، فأحملها لبرهة، ثمّ أمّرها لهم، وهكذا تمكّنا من الغناء لساعات وساعات من دون تعب. كنّا جميعاً نتمايل مثل الأعشاب في بحر الليل المظلم. وكان الأطفال حولي ملفوفين بالحزير، كالهدايا.

تملّكني التعب، ولكنني لم أشأ التخلّي عن خيطي الأزرق الصغير. بحلول الساعة الحادية عشرة والنصف، غيّرت الأوركسترا وتيرة الغناء لتصبح أكثر بهجة. وقامت النساء بأثوابهنّ الجميلة وأساورهنّ المخشخشة يصفقن ويرقصن ويحاولن العزف على الدفّ بكامل أجسادهنّ. كانت الطبول تضرب بوتيرة إيقاعية مثيرة. ومع مرور الوقت، بدا لي وكأنّنا نسحب العام 2004 نحونا. وكأنّنا طوّقناه بموسيقانا ورحنا نجذبه عبر سماء الليل كشبكة صيد كبيرة، تضمّ بين خيوطها أقدارنا المجهولة. ويا لها من شبكة ثقيلة في الواقع، تحمل كلّ الولادات، والوفيات، والمآسي، والحروب، وقصص الحبّ، والاختراعات، والتحوّلات، والكوارث المقدّرة لنا جميعاً في هذا العام. استمررنا بالغناء وبالسحب يداً بيد، صوتاً بعد آخر، أقرب فأقرب. ومع دنوّ منتصف الليل، رحنا نغنيّ بكلّ قوانا، إلى أن تمكّنا أخيراً بهذا الجهد العظيم من شدّ شبكة العام الجديد فوقنا، لتغطّي السماء وتغطّيّنا. الله وحده يعلم ماذا يجتبي لنا هذا العام، ولكن ها هو ذا وها نحن جميعاً تحته.

للمرّة الأولى في حياتي، احتفلت بليلة رأس السنة في مكان لا أعرف فيه أحداً من الحاضرين. وبين كلّ هذا الرقص والغناء، لم يكن

ثمة من أقبّله عند منتصف الليل. ولكن، لا يمكنني القول إنني شعرت
ولو للحظة بالوحدة في تلك الليلة.
لا، ما كنت لأقول ذلك إطلاقاً.

41

كلّ منّا مكلف بعمل معيّن هنا. وقد تبين بأنّ وظيفتي هي حفّ
الأرض. هناك إذاً، يمكنك أن تجدي الآن، لعدّة ساعات في اليوم، جاثية
على ركبتيّ على الرخام البارد مع فرشاة ودلو كبير، أعمل مثل
سندريلاً.

كان زملائي في حفّ الأرض مجموعة من المراهقين الهنود. فهم
يوكلون دوماً هذا العمل للمراهقين لأنّه يحتاج إلى طاقة جسدية كبيرة
من دون أن يحملهم مسؤوليات هامة، فيكون حجم الضرر محدوداً في
حال حدوث فوضى. أحببت زملائي. كانت الفتيات يرفرفن مثل
الفراشات ويبدون أصغر بكثير من بنات الثمانية عشر عاماً
الأميركيات، فيما كان الصبيان مستبدّين صغاراً جدّين يبدوون أكبر
بكثير من أبناء الثمانية عشر عاماً الأميركيين. ومع أنّه لا يفترض بأحد
التحدّث داخل المعابد، إلّا أنّهم مراهقون، فكانت الثرثرة متواصلة في
أثناء العمل، ولم يكن الحديث محصوراً بالنميمة والمواضيع التافهة. فأحد
الصبيان كان يمضي النهار يحفّ الأرض بقربي ويحاضرني بكلّ جدية
عن الطريقة الفضلى لتأدية العمل هنا: "كوبي جدّية ودقيقة في مراعاة
المواعيد. حافظي على برودة أعصابك وكوبي مرتاحة".

كان العمل يحتاج إلى مجهود جسدي كبير، ولكنّ ساعات العمل
اليومية كانت أسهل بكثير من ساعات التأمّل اليومية. وفي الحقيقة، لا

أظنتي ماهرة في التأمل. أعلم أنني لم أمارسه منذ مدة طويلة، ولكن صدقاً، لم أكن ماهرة فيه أبداً. لا يبدو لي أنني أستطيع إبقاء ذهني ساكناً. وقد ذكرت الأمر مرّة لراهب هندي، فقال لي: "من المثير للشفقة أن تكوني الشخص الوحيد في التاريخ الذي واجه هذه المشكلة." ثمّ ذكر لي جملة من الباغافاد غيتا، من أقدم النصوص المقدّسة لليوغا: "أوه كريشنا، العقل قلق، هائج، قوي وعنيد. وإخضاعه لا يقلّ صعوبة عن إخضاع الريح".

على غرار معظم البشر، أحمل ما يسمّيه البوذيون عقل القرد. فأفكاري تتأرجح من غصن إلى غصن، لا تتوقّف سوى لحكّ نفسها، والبصق. من الماضي البعيد إلى المستقبل المجهول، يتنقل فكري بحريّة عبر الزمن، يلامس عشرات الأفكار في الدقيقة، بلا سرج ولا قيد. وتلك ليست بالضرورة مشكلة بحدّ ذاتها، بل التآثر العاطفي الذي يرافق عملية التفكير. فالأفكار السعيدة تضيء عليّ البهجة، ولكن سرعان ما أنتقل إلى القلق المفرط، فيسوء مزاجي. ثمّ أتذكر لحظة غضب فينتابني الغضب مجدداً، قبل أن يقرّر ذهني أنّه حان الوقت لبدأ بالشعور بالأسف على نفسه، فيتبعه الإحساس بالوحدة على الفور. في النهاية، أنت لست سوى ما تفكّر فيه. وأحاسيسك هي عبد لأفكارك، وأنت عبد لعواطفك.

المشكلة الأخرى لهذا التآرجح عبر كروم الفكر هي أنك لست أبداً حيث أنت. أنت إما تنبش الماضي أو تبحث بفضول في المستقبل، ونادراً ما ترتاح في اللحظة الحاضرة. وهذا ما يشبه قليلاً عادة صديقتي سوزان التي - كلّما رأت مكاناً جميلاً - هتفت بشيء من الذعر تقريباً: "يا له من مكان جميل! أودّ العودة إلى هنا يوماً ما!" وأحتاج عندها إلى كلّ مهاراتي لإقناعها بأنّها هنا أساساً...

لكنّ البقاء في اللحظة الحاضرة يحتاج إلى التركيز على شيء واحد. وتعلّم مختلف تقنيات التأمل التركيزَ بطرق مختلفة، كتركيز العينين على نقطة ضوئية واحدة أو مراقبة ارتفاع وانخفاض النفس. أمّا مرشدتي، فتعلّم التأمل بواسطة المانترا، وهي كلمات أو مقاطع يتمّ تكرارها مع التركيز. وللمانترا وظيفة مزدوجة. فهي أولاً تعطي الفكر شيئاً ليفعله. وكأنتك تعطي القرد كومة من 10.000 زراً قائلاً: "انقل هذه الأزرار، واحداً تلو الآخر، إلى كومة أخرى". وتلك مهمّة أسهل بكثير من أن تحشر القرد في زاوية وتطلب منه عدم الحراك. أمّا الهدف الآخر للمانترا فهو نقلك إلى حالة أخرى، كالمركب، عبر أمواج الفكر التي لا تهدأ. وكلّما انجرف انتباهك في تيار معاكس، عد إلى المانترا، واصعد إلى المركب من جديد، وتابع المسير. وعبارات المانترا السنسكريتية العظيمة تقال لاحتواء قوى لا يمكن تحيّلها، ولديها القدرة للتجذيف بك، إن تمكّنت من البقاء معها، لحملك إلى برّ الأمان.

من بين مشاكلي الكثيرة مع التأمل هو أنني لا أرتاح مع المانترا التي أعطيت لي - أوم ناما شيفايا. فأنا أحبّ موسيقاها وأحبّ معناها ولكنها لا تنقلني إلى حالة التأمل. لم يحدث ذلك أبداً خلال السنتين اللتين مارست فيهما اليوغا. فحين أحاول ترداد المانترا في رأسي، تعلق في حنجرتي ويُطبّق صدري وينتابني التوتر. أعجز دوماً عن ملاءمة مقاطع العبارة مع تنفّسي.

أخيراً، قررت سؤال زميلتي في الغرفة كوريلاً عن ذلك في إحدى الليالي. كنت أحجل من الاعتراف بمدى الصعوبة التي أواجهها للتركيز على تكرار المانترا، إلاّ أنها معلّمة تأمل. ربّما أمكنها مساعدتي. فأخبرتني بأنّها كانت تعاني من تشبّت الفكر في أثناء التأمل هي أيضاً ولكنّ التأمل بالنسبة إليها الآن هو متعة عظيمة، سهلة، ونقطة تحولية في حياتها.

قالت: "أجلس وأغمض عينيّ وكلّ ما أفعله هو التفكير بالمانترا لأتلاشى على الفور...".

حين سمعت كلامها، تملكني الحسد. ولكنّ كوريلاً تمارس اليوغا منذ مدّة طويلة تعادل عدد سنوات حياتي. فسألتها كيف تستعمل بالضبط أوم ناماه شيفايا في جلسات التأمل. هل تأخذ نفساً مع كلّ مقطع؟ (حين أفعل ذلك، أجدها طويلة ومزعجة). أم كلمة مع كلّ نفس؟ (ولكنّ كلمات المانترا ليست بالطول نفسه! فكيف تساوي بينها؟) أم أنّها تقول المانترا كلّها مرّة مع الشهيق ومرّة مع الزفير؟ (لأتني حين أحاول القيام بذلك، يتسارع نفسي وينتابني القلق).

قالت كوريلاً: "لا أعرف، أنا أقولها وحسب".

فأصررت بيأس: "ولكن هل تغنيها؟ هل تنعمينها؟".

"أقولها وحسب".

"هل يمكنك قولها بصوت مرتفع كما تقولينها بذهنك وأنت

تتأملين؟".

فأغلقت عينيها بصبر، وبدأت تقول المانترا بصوت عالٍ. وفي الواقع، كانت تقولها وحسب. قالتها بهدوء، بطريقة عادية، وهي تبتسم بعض الشيء. ردّدتها عدّة مرات إلى أن أحسست بالضجر وأوقفتها.

سألتها: "ألا تشعرين بالملل؟".

قالت وهي تفتح عينيها مبتسمة وتنظر إلى ساعتها: "آه، لم تمضِ

سوى عشر ثوانٍ ليز. أمّن الممكن أن نخلّ منذ الآن؟".

في صباح اليوم التالي، وصلت في الوقت المحدد لجلسة التأمل الممتدة على أربع ساعات والتي نبدأ فيها يومنا هنا. ينبغي علينا الجلوس لساعة من الوقت صامتين، ولكنني أعدت الثواني وكأنها أميال - ستون ميلاً صعباً عليّ تحملها. في الميل/الثانية الرابع والعشرين، بدأت أعصابي تتوتر وركبتي تؤلمني ويتملكني الغضب. ولن تستغرب ذلك لو عرفت أنّ الحديث بيني وبين عقلي في أثناء التأمل يجري على الشكل التالي:

أنا: حسناً، سنبدأ بالتأمل الآن. فلننتبه إلى نفسنا ولنركز على الماترا. أوم ناماه شيفايا. أوم ناماه شي.

عقلي: بوسعي مساعدتك على ذلك!

أنا: حسناً، هذا جيد، لأنني أحتاج إلى مساعدتك. فلنبدأ. أوم ناماه شيفايا. أوم ناماه شي.

عقلي: يمكنني مساعدتك على التفكير في صور تأملية جميلة. مثلاً؛ اسمعي، هذه صورة جيدة. تخيلي أنك معبد. معبد على جزيرة! والجزيرة في بحر!

أنا: آه، هذه صورة جميلة فعلاً.

عقلي: شكراً. فكّرت فيها بنفسي.

أنا: ولكن أيّ بحر تخيل هنا؟

عقلي: البحر الأبيض المتوسط. تخيلي أنك إحدى الجزر اليونانية التي تحتوي على معبد يوناني قديم. كلاً، هذا يجذب كثيراً من السياح. أتعلمين؟ انسي أمر البحر. فالبحر خطيرة جداً. لديّ فكرة أفضل؛ تخيلي بأنك جزيرة في بحيرة، عوضاً عن ذلك.

أنا: هل يمكننا البدء بالتأمل الآن، من فضلك؟ أوم ناماه شي.
عقلي: أجل! بالتأكيد! ولكن حاولي ألا تتخيلي البحيرة مليئة
بالد... ماذا تدعى تلك الآلات؟

أنا: الدراجات المائية؟

عقلي: أجل! الدراجات المائية! فتللك الآلات تستهلك كثيراً من
الوقود! وتشكل تهديداً كبيراً للبيئة. هل تعلمين ما الذي
يستهلك الكثير من الوقود أيضاً؟ آلات نفخ أوراق الشجر. قد
تستغربين الأمر، ولكن...

أنا: حسناً، ولكن فلنتأمل الآن، من فضلك. أوم ناماه شيفايا.
أوم ناماه شي.

عقلي: صحيح! أنا أرغب حتماً بمساعدتك على التأمل! لذا
سنتخلى عن صورة الجزيرة في البحيرة أو البحر، لأنها غير فعالة
كما يبدو. فلنتخيل بأنك جزيرة في... نهر!

أنا: أوه، أعني مثل جزيرة بانرمان، في نهر هدسن؟

عقلي: أجل! تماماً! هذا ممتاز. فلنتأمل إذاً مع هذه الصورة؛
تخيلي بأنك جزيرة في نهر. وجميع الأفكار التي تطوف بقربك
وأنت تتأملين، ليست سوى تيارات طبيعية يمكنك تجاهلها لأنك
جزيرة.

أنا: انتظر، ظننتك قلت بأنني معبد.

عقلي: هذا صحيح، آسف. أنت معبد على جزيرة. في الواقع،
أنت الاثنان، المعبد والجزيرة على السواء.

أنا: وهل أنا النهر أيضاً؟

عقلي: كلاً، النهر هو الأفكار وحسب.

أنا: توقّف! أرجوك توقّف! أنت تثير جنوني!!!

العقل (مجروحاً): آسف، كنت أحاول المساعدة وحسب.

أنا: أوم ناماه شيفايا... أوم ناماه شيفايا... أوم ناماه شيفايا...

هنا تمرّ ثماني ثوانٍ واعدة من هدوء الأفكار. ولكن...

عقلي: هل أنت غاضبة منّي الآن؟

أخيراً، آخذ نفساً عميقاً وكأني كنت أسبح تحت الماء، فيربح عقلي وأفتح عيني وأتوقّف عن التأمل. دامعة العينين. يفترض بالمعتزل أن يكون مكاناً تُعمقُ فيه تجربتك التأملية، ولكن ما يحدث كارثة. لا يمكنني القيام بذلك. ماذا أفعل؟ أخرج من المبدع وأنا أبكي بعد أربع عشرة دقيقة كلّ يوم؟

غير أنني هذا الصباح، عوضاً عن قتاله، توقّفت وحسب. استسلمت. أسندت ظهري إلى الجدار خلفي. كان ظهري يولمني، ومنهكة القوى، وعقلي يرتجف. انهارت وضعيتي وكأنها جسر. نزعت المانترا عن قمة رأسي (حيث كانت تضغط بثقل وكأنها سندان حدّاد) ووضعتها بقربي على الأرض. ثمّ قلت...: "أنا آسفة حقاً، ولكن هذا أبعد ما يمكنني بلوغه اليوم للاقتراب منك".

يقول لاكوتا سيوكس إنّ الطفل الذي يعجز على الجلوس ساكناً هو طفل غير مكتمل النمو. واستناداً إلى أحد النصوص السنسكريتية القديمة، "ثمة علامات تشير إلى أنّ التأمل يتمّ بالطريقة الصحيحة. منها أن يجلس طائر على رأسك معتقداً أنّك شيء جامد". هذا لم يحدث لي بالضبط. ولكنني حاولت خلال الدقائق الأربعين التالية الجلوس هادئة قدر الإمكان، بعد أن علقت في قاعة التأمل وسيطر عليّ الشعور بالعار

والعجز وأنا أتأمل بقية الأتباع حولي وهم يجلسون في وضعية ممتازة، أعينهم مغمضة، تشعّ وجوههم الواثقة بالهدوء وهم ينقلون أنفسهم بالتأكيد إلى... رائعة. عمري حزن كبير ورغبت بأن أنشد الراحة في البكاء، ولكنني قاومت ذلك جاهدة، وتذكّرت ما قالته مرشدتي يوماً بأنه ينبغي عليك ألاّ تعطي نفسك الفرصة للاختيار لأنك حين تفعلين ذلك يتحوّل الأمر إلى نزعة لديك تتكرّر مراراً. عليك أن تعود نفسك على أن تبقى قويا عوضاً عن ذلك.

ولكنني لم أشعر بأنني قوية. بل كانت الخيبة تأكلني. ورحت أتساءل من هو أنا ومن هو عقلي. فكّرت في عملية التفكير التي لا تهدأ وفي دماغني الذي يلتهم روحي، وتساءلت كيف لي أن أسيطر عليه يوماً. وهنا تذكّرت جملة لأحدكم ولم أتمالك نفسي فابتسمت:

"سنحتاج إلى مركب أكبر".

43

حان وقت العشاء. جلست وحيدة أحاول تناول الطعام ببطء. فالغورو تشجّعنا دوماً على الانضباط في أثناء تناول الطعام. ينبغي علينا أن نأكل باعتدال من دون ازدراد الطعام بيأس، ومن دون أن نطفئ النيران في أجسادنا عبر إلقاء كميات كبيرة من الطعام في جهازنا الهضمي بسرعة كبيرة. (أنا أكيدة بأن مرشدتي لم يسبق لها أن كانت في نابولي). وحين يقصدها تلاميذها يتذمّرون من المشاكل التي يواجهونها في القدرة على التأمل، تسألهم دوماً عن حالتهم الهضمية مؤخّراً. فمن المنطقي أن تواجه صعوبة في الانزلاق بخفّة إلى حالة التجاوز إن كانت أمعاؤك تصارع وجبة من النقانق، كيلوغراماً من لحم

العجل ونصف فطيرة من قشدة جوز الهند. لهذا السبب، هم لا يقدمون هذا النوع من الأطعمة هنا. طعام المعتزل نباتي، وخفيف، وصحي. إلاّ أنّه شهّيّ مع ذلك. ولهذا السبب يصعب عليّ التهامه مثل يتيّم جائع. أضف إلى أنّ الوجبات في بوفيه، ولم يكن من السهل عليّ أبداً مقاومة صبّ حصة إضافية وأنا أرى الطعام الجميل ممدوداً هناك في متناولي، برائحته الشهية ومقابل لا شيء.

جلسست إلى طاولة العشاء بمفردتي، أبذل جهدي للسيطرة على شوكتي، حين رأيت رجلاً يسير حاملاً صينية طعام عشائه ويبحث عن كرسيّ خالٍ. فهزرت رأسي مشيرة إليه بأنني أرحّب بانضمامه إليّ. لم يسبق لي رؤية هذا الرجل هنا من قبل. لا بدّ من أنّه وصل حديثاً. كانت مشيته رائعة، غير متعجّلة، يسير وكأنّه عمدة بلدة حدودية، أو لاعب بوكر قديم. كان يبدو في العقد الخامس من عمره، ولكنّ مشيته تدلّ على أنّه يتجاوز تلك السنّ بقرون. كان شعره أشيب، وكذلك لحيته ويرتدي قميصاً قطنياً مربّع النقش. توحى كتفاه العريضتان وحجم يديه بأنّه قادر على التسبّب بالأذى، ولكنّ وجهه كان مسترخياً تماماً.

جلس أمامي وتشدّق قائلاً: "يا الله، البرغش في هذا المكان كبير".
سيّداتي سادتي، أقدم لكم ريتشارد، من تكساس.

44

من بين الوظائف الكثيرة التي شغلها ريتشارد من تكساس في حياته - وأعرف أنّي أغفل ذكر عدد كبير منها - عامل في حقل للنفط، سائق شاحنة من ثماني عشرة عجلة، التاجر القانوني الأوّل

لبير كينستوكس في الداكوتا، خصّاض شراب في الوسط الغربي (آسفة، ولكنني لا أملك الوقت لشرح معنى خصّاض شراب)، عامل بناء على الطريق السريع، بائع سيارات مستعملة، جندي في فيتنام، سمسار بضائع (تلك البضائع كانت عموماً مخدّرات مكسيكية)، مدمن مخدّرات وشراب (إن أمكن اعتبارها مهنة)، ثمّ مدمن مخدّرات، ومزارع هيببي، مُعلن في الراديو، وأخيراً، تاجر ناجح في مجال المعدّات الطبية (إلى أن انفار زواجه وأعطى العمل كله لطليقته وغادر وهو يحكّ مؤخرته البيضاء المُفلسة مجدّداً). وهو يعمل الآن في تجديد المنازل القديمة في أوستن.

قال: "لم أملك يوماً طريقاً مهنيّاً مجدّداً. ولم أنجح يوماً في فعل أي شيء".

ريتشارد من تكساس ليس من الأشخاص الذين يقلقون على كل شيء. لا يمكنني اعتباره عُصائباً على الإطلاق. أنا عُصائية بعض الشيء، ولهذا السبب أحببته كثيراً. أصبح وجود ريتشارد في هذا المعتزل مصدراً عظيماً وممتعاً لشعوري بالأمان. فثقتة العظيمة والثابتة كانت تهدئ قلقي الفطري وتذكّرني بأنّ كلّ شيء سيسير حقاً على ما يرام (وإلاّ فعلى نحو كوميدي). وبحسب ما قاله ريتشارد حرفياً: "أنا وبُقول نقضي كلّ وقتنا في الضحك".

هذا هو اللقب الذي أطلقه عليّ ريتشارد، وذلك في أوّل ليلة التقينا فيها، حين لاحظ كم أكثر من الأكل. حاولت الدفاع عن نفسي (كنت أتعمد الأكل بانضباط واعتدال!) ولكنّ اللقب لازمني. قد لا يبدو ريتشارد من تكساس ممارس يوغا نموذجياً، مع أنّ إقامتي في المند علمتني ألاّ أقرّر من هو ممارس اليوغا النموذجي. (لا

أريد أن أبدأ بالحديث عن صاحبة مزرعة الألبان الإيرلندية التي التقيت بها هنا منذ يومين، أو الراهبة السابقة من جنوب أفريقيا). تعرّف ريتشارد إلى اليوغا من خلال صديقته السابقة التي أقلته من تكساس إلى المعتزل في نيويورك لسماع الغورو وهي تحدّث. يقول ريتشارد: "اعتقدت يومها بأنّ المعتزل كان أغرب شيء رأيته على الإطلاق وتساءلت أين تقع الغرفة التي ينهبون فيها نقودك ويستولون على منزلك وسيارتك، ولكنّ ذلك لم يحدث أبداً...".

بعد تلك التجربة التي مرّ عليها عشر سنوات، أصبح ريتشارد يتأمل طيلة الوقت.

سألته يوماً وهو يراقبني أحفّ أرض المعبد: "ماذا عليّ أن أفعل مع جلسات التأمل؟" (كان محظوظاً، فهو يعمل في المطبخ، وليس عليه المجيء إلى هنا إلاّ قبل ساعة من موعد العشاء. ولكنه يحبّ مشاهدتي وأنا أحفّ أرض المعبد. فهو يجد ذلك مضحكاً).

"ولمّ تظنّين أنّ عليك القيام بشيء حيال ذلك؟"

"لأنّه مقرف".

"من؟"

"أعجز عن إبقاء عقلي ساكناً".

"تذكّري ما تعلّمنا إياه الغورو، إن جلست بنية التأمل الصافية، فما يحدث بعد ذلك ليس من شأنك. إذًا، لمّ تحكمين على تجربتك؟"

"لأنّ ما يحدث في تأملاتي لا يمكن أن يكون هو الهدف من اليوغا".

"بقول، عزيزتي، ليست لديك أي فكرة عمّا يحدث هناك".

"أنا لا أرى أي رؤى، ليست لديّ تجارب سامية".

"تريدين رؤية ألوان جميلة؟ أم تريدين معرفة حقيقتك؟ ما هو هدفك بالتحديد؟"

"كلّ ما أفعله حين أحاول التأمّل هو الجدل مع نفسي".
"إنّها ذاتك، تحاول التأكّد من أنّها ما زالت تملك السيطرة عليك.
هذا ما تفعله الأنا. تجعلك تشعرين بأنك منفصلة، تحافظ على حسن
الازدواجية لديك، وتحاول إقناعك بأنك ناقصة، ومقطّعة، ووحيدة
ولست كاملة".

"ولكن كيف يساعدني ذلك؟".

"لا يساعدك. مهمّة الأنا لا تقوم على مساعدتك، بل على أن تبقى
في السلطة. والأنا لديك مدعورة الآن لأنّ الوقت حان لتقليصها. استمرّي
في هذا الطريق الروحي يا عزيزتي، فأيامها أصبحت معدودة. سرعان ما
ستصبح ذاتك عاطلة عن العمل، ليّتخذ قلبك جميع القرارات بنفسه. ذاتك
تحارب دفاعاً عن حياتها، تلعب بعقلك وتحاول تعزيز سلطتها، وتحاول
إبقاءك في الزاوية بعيداً عن بقية الكون. لا تصغي إليها".

"وكيف لا تصغي إليها؟".

"هل حاولت يوماً أخذ لعبة من طفل صغير؟ هم لا يحبّون ذلك، بل
يبدأون بالركل والصراخ. وأفضل طريقة لأخذها هي بإلقاء الطفل وإعطائه
شيئاً آخر يلعب به. اصرفي انتباهه عنها. عوضاً عن أخذ الأفكار من
عقلك بالقوّة، أعط عقلك شيئاً أفضل يلعب به. شيئاً صحياً أكثر".

"مثل ماذا؟".

"مثل الحبّ، يا بقول. الحبّ الطاهر".

45

يفترض بذهابني إلى كهف التأمّل يوماً أن يكون وقتاً من
التقارب، ولكنني كنت أسير إلى هناك مؤخّراً وأنا خائفة، مثلما تدخل

كلبتي عيادة الطبيب البيطري (وهي تعرف أنه مهما كان الجميع ودوداً معها ستنتهي الزيارة بإبرة حادة). ولكن بعد حديثي الأخير مع ريتشارد من تكساس، قرّرت تجربة مقاربة جديدة هذا الصباح. جلست للتأمل وقلت لعقلي: "اسمع، أفهم أنك خائف قليلاً. ولكن أعدك أنني لا أحاول إبادتك. كل ما أريده هو إيجاد مكان لك لترتاح. أنا أحبك".

قال لي أحد النساك منذ مدة: "مكان استراحة العقل هو القلب. فكل ما يسمعه العقل طيلة النهار هو قرع الأجراس والضجيج والجدل، وكل ما يحتاج إليه هو السكون. والمكان الوحيد الذي يجد فيه العقل السلام هو داخل هدوء القلب. ذاك هو المكان الذي تحتاجين إلى الذهاب إليه".

كما أنني أحرّب مانترا مختلفة، كنت محظوظة معها في الماضي. وهي بسيطة، تتألف من مقطعين وحسب:

Ham-sa

وتعني بالسنسكريتية: أنا ذاك.

استناداً إلى اليوغانيين، هام - سا هي المانترا الأكثر طبيعية، فهي تعطي لنا قبل الولادة. إنها صوت تنفسنا. هام مع الشهيق، سا مع الزفير. (وللمناسبة، تلفظ هام بنعومة، مفتوحة مثل هاههمهم. وسا مع "آه ه ه...") وكلّ حياتنا، نكرّر هذه المانترا مع كلّ نفس. ولطالما وجدت هام - سا سهلة وباعثة على الاسترخاء، أسهل على التأمل من أوم ناماه شيفايا، المانترا الرسمية لليوغا هنا. وحين تحدّثت مع ذاك الناسك منذ يومين قال لي أن استعمل هام - سا إن كانت تساعدني على التأمل. قال: "تأملني بأيّ شيء يسبّب ثورة في عقلك".

هكذا جلست هناك اليوم.

هام - سا.

أنا ذاك.

أنت الأفكار، ولكنني لم أعرها انتباهاً كبيراً، بل قلت لها بخنان الأمومة تقريباً: "أوه، أنا أعرفكم أيها المشاغبين... اذهبوا للعب في الخارج الآن...".

هام - سا.

أنا ذاك.

استغرقت في النوم لبرهة. (أو أياً كان ما حدث. ففي التأمل، لا يمكنك أن تكون واثقاً من أن ما تعتقده نوماً هو نوم بالفعل، ففي بعض الأحيان، يكون مستوى آخر من الوعي). حين استفتقت، أو أياً كان ما حدث، شعرت بتلك الطاقة الكهربائية الزرقاء الناعمة تنبض في جسدي، في موجات. كان الشعور مخيفاً ورائعاً في الوقت نفسه. لم أعرف ماذا أفعل، فاكتفيت بالتحدّث مع تلك الطاقة الداخلية. قلت: "أنا أعتقد بك"، فراحت تتعاطم وتكبر. كان الأمر مخيفاً وقوياً جداً الآن، وكأني أتعرض لاختطاف للحواس. كانت تمهم متصاعدة من أسفل عمودي الفقري. شعرت بأنّ عنقي يرغب بالتمدّد والالتفات، فتركته، وبقيت جالسة هناك في وضعية غريبة، جائمة مثل يوغاني متمرس، ولكنّ أذني اليسرى مضغوطة على كتفي الأيسر. لا أعرف لماذا أراد رأسي وعنقي فعل ذلك، ولكنني لن أجادلها، فقد كانا شديدي الإلحاح. ظلّت الطاقة الزرقاء الخافقة تتصاعد في جسدي وأمكنتني سمع صوت شبيه بمداعة أوتار موسيقية في أذني، وكان الشعور قد أصبح عظيماً الآن إلى حدّ أنني أصبحت عاجزة عن التعامل معه. أخافني كثيراً حتى إنني قلت: "لست جاهزة بعد!" وفتحت عيني

فجأة. فزال كل شيء. عدت إلى الغرفة وإلى ما يحيط بي. نظرت إلى ساعتني، واكتشفت بأنني بقيت هناك - أو في مكان ما - لساعة تقريباً. كنت ألث، بكل ما للكلمة من معنى.

46

إن فهم ما حدث معي هناك، أعني في كهف التأمل وفي أنا، يثير موضوعاً خفياً وجامحاً، وهو موضوع كونداليني شاكتي. لكل مذهب في العالم عدد من الأتباع الذين يسعون إلى تجربة مباشرة وسامية. والمثير للاهتمام لدى هؤلاء أنهم حين يصفون تجاربهم، ينتهون بوصف الأحداث نفسها تماماً.

...

في المعتقدات اليوغانية الهندية، يُصوّر كونداليني شاكتي أي السر على أنه ثعبان ملتف حول نفسه قابلاً في أسفل العمود الفقري إلى أن يتم تحريره بلمسة معلّم أو بمعجزة، ليصعد بعد ذلك عبر سبع شاكرات، أو عجالات (ويمكن تسميتها أيضاً بالمقامات السبعة)، وأخيراً عبر الرأس لينفجر في اتحاد... وهذه الشاكرات غير موجودة في الجسد الفظ، بحسب اليوغانيين، فلا تبحث عنها فيه، بل ابحث عنها فقط في الجسد اللطيف المهذب، الجسد الذي يتحدث عنه المعلمون البوذيين وهم يشجعون تلاميذهم على استلال ذات جديدة من أجسادهم كما يستلون سيفاً من غمده. وقد أحررتني صديقي بوب، وهو تلميذ يوغا وعالم أعصاب على السواء، أن فكرة الشاكرات لظالما شغلته إلى حد أنه أراد رؤيتها في جسد مشرّح لكي يعتقد بوجودها. ولكن بعد مروره بتجربة تأمل سامية، تمكّن من فهمها على نحو جديد.

قال لي: "مثلما يوجد في الكتابة حقيقة حرفية وحقيقة شعرية، ثمة تشريح حرفي وتشريح شعري. أحدهما يمكن رؤيته، أما الآخر فلا. أحدهما مكوّن من العظام والأسنان واللحم، والآخر من الطاقة والذاكرة والإيمان. والاثنان حقيقيان على السواء".

أحبّ أن يجد العلم والعبادة نقطة تلاق. فقد قرأت مؤخراً مقالاً في نيويورك تايمز عن فريق من علماء الأعصاب أجرى اختباراً على كاهن تيبّي لفحص دماغه. فقد أرادوا معرفة ما يحدث علمياً للعقل حين يمرّ في حالة الاتصال... أو التجاوز، خلال لحظات التنوير. ففي عقل الشخص الذي يفكر بشكل عاديّ، ثمة عواصف كهربائية من الأفكار التي تدور باستمرار، مسجّلة في الصورة الدماغية ومضات صفراء وحمراء. وكلّما ازداد غضب الشخص أو اتّقاده العاطفي، أصبحت الومضات الحمراء أكثر حدّة وعمقاً. إلا أنّ المتصوّفين في جميع الأزمنة والحضارات تحدّثوا جميعاً عن سكون الذهن في أثناء التأمل وقالوا بأنّ الاتحاد الأقصى... هو عبارة عن ضوء أزرق يشعرون بأنّه يشعّ من وسط جمجمتهم. يدعى ذلك في المعتقدات اليوغانية اللؤلؤة الزرقاء، وهي الهدف الذي يسعى إليه كلّ مزاول لليوغا. بالطبع، تمكّن الكاهن التيبّي الذي أخضع للمراقبة في أثناء التأمل من تسكين دماغه تماماً بحيث لم تظهر أي ومضات حمراء أو صفراء. في الواقع، تجمّعت كلّ الطاقة العصبية لذلك السيّد في النهاية في وسط دماغه - وأمكن رؤيتها على الشاشة - في لؤلؤة زرقاء باردة وصغيرة من الضوء. تماماً كما وصفها اليوغانيون دوماً.

ذاك هو مقصد الكونداليني شاكتي.

في التصوّف الهندي، كما هو الحال مع كثير من المعتقدات الشامانية، تعتبر الكونداليني شاكتي قوّة خطيرة لا ينبغي اللعب بها من

دون إشراف معلّم، فمن شأن اليوغاني غير المتمرس أن يفجّر دماغه فعلياً بما. أنت بحاجة إلى معلّم - غورو - ليقودك في هذا الطريق، وإلى مكان آمن، في الحالات المثالية - معتزل - لتمارس فيه التأمل. ويقال بأنّ لمسة الغورو (التي تحدث إمّا فعلياً أو عبر لقاء خارق للطبيعة، كالحلم مثلاً) هي التي تحرّر طاقة الكونداليني من نومها في أسفل العمود الفقري لتبدأ رحلتها إلى الأعلى. وتسمّى لحظة التحرير تلك شاكتيات، أيّ السلقين...، وهي الهدية العظمى التي يقدمها معلّم متنوّر. بعد تلك اللمسة، يحتاج التلميذ إلى سنوات من العمل نحو التنوير، ولكن تكون رحلته قد بدأت على الأقلّ. تمّ تحرير الطاقة.

تلقّيت الشاكتيات منذ عامين، حين التقيت بمرشدتي للمرّة الأولى، في نيويورك. كان ذلك خلال عطلة أسبوع قضيتها في معتزلها في كاتسكيلز. وللصراحة، ولم أشعر بشيء مميّز بعد ذلك. كنت أتوقّع لقاءً باهراً، ربّما ضوءاً أزرق أو رؤية، ولكنني بحثت في جسدي عن التأثيرات الخاصة ولم أشعر سوى بشيء من الجوع، كالعادة. وأذكر أنّي فكّرت يومها في أنّي لا أملك على الأرجح الإيمان الكافي لأعرف تجربة قوية مثل إطلاق العنان للكونداليني شاكتي. واعتقدت أنّي أعتمد كثيراً على عقلي، ولا أستعمل حدسي بما يكفي، وبأنّ طريقي التعبدي سيكون فكرياً أكثر منه سرّياً. قد أقرأ الكتب وأفكّر في أمور مثيرة للاهتمام ولكنني لن أبلغ على الأرجح تلك الحالة التأملية السامية. ولكن لا بأس في ذلك. ما زلت أحبّ ممارسة التأمل. كلّ ما في الأمر أنّ الكونداليني شاكتي ليست لي.

غير أنّ أمراً مثيراً حدث في اليوم التالي. اجتمعنا كلّنا بالغورو مرّة أخرى. فقادتنا إلى التأمل، وفي وسط كلّ ذلك، استغرقت في النوم (أو مهمما كانت تلك الحالة) ورأيت حلمًا. كنت على شاطئ البحر،

وكانت الأمواج العاتية والمخيفة تتسارع نحوِي. فجأة، ظهر رجل إلى جانبي. كان معلّم مرشدتي يوغانياً عظيماً يتمتع بقدرات خارقة، وسأقتصر على تسميته هنا سواميجي (وتعني بالسنسكريتية الكاهن المحبوب). توفي سواميجي عام 1982. وقد عرفته من صورته المنتشرة في المعتزل. وحتى في تلك الصور، أقرّ بأنني وجدت الرجل مخيفاً بعض الشيء، وشديد الالتهاب بالنسبة إليّ. وقد تفاديت التفكير فيه لمدة طويلة كما تجنّبت عموماً نظراته التي تحدّق إليّ من صورته على الجدران. بدا شديد القوّة. ولم يكن من نوع الغورو الذي يناسبني. لطالما فضّلت معلّمتي الحيّة، الأثنى اللطيفة والمتعاطفة على تلك الشخصية الميتة (والتي ما زالت تحتفظ بضاوتها).

ولكنّ سواميجي كان في حلمي، يقف بقربي على الشاطئ بكلّ سطوته. شعرت بالرعب. أشار إلى الأمواج المقترية وقال بتجهّم: "أريدك أن تجدي طريقة لمنع حدوث ذلك". شعرت بالذعر فأخرجت دفتراً صغيراً، وحاولت رسم اختراعات لإيقاف أمواج البحر من التقدّم. رسمت أسواراً ضخمة، وقنوات، وسدوداً. مع ذلك، كانت كلّ تصاميمي حمقاء تافهة. عرفت أنّي لا أتمتّع بالخبرة في هذا المجال (فأنا لست مهندسة!) ولكنّ سواميجي كان يراقبني بنفاد صبر. استسلمت أخيراً. فأبي من اختراعاتي لم يكن ذكياً أو قوياً بما يكفي لصدّ تلك الأمواج.

هنا سمعت سواميجي يضحك. نظرت إلى ذاك الرجل الهندي الصغير في ثوبه البرتقالي ورأيت غارقاً في الضحك، مكوراً على نفسه من شدّة البهجة، يمسح دموع الفرح من عينيه.

قال لي وهو يشير إلى البحر الهائل بأمواجه اللامتناهية: "أخبريني يا عزيزتي، كيف كنت تخططين بالضبط لإيقاف ذلك؟".

مضت ليلتان متاليتان حلمت فيهما بشعبان يدخل غرفتي. وقد قرأت أن هذه الأحلام تبشّر بالخير ولكنّ هذا لا يجعل الثعابين أقلّ ترويعاً. فقد كنت أستيقظ وأنا أتصّبب عرقاً. لا بل استيقظت مرّة وشعرت بأنّ عقلي يعيدني إلى حالة من الذعر الذي لم أشعر به طيلة سنوات طلاقي. كانت أفكارني تعود مجدداً إلى زواجي الفاشل وكلّ العار والغضب اللذين رافقا تلك الحادثة. والأسوأ أنّي عدت أفكّر في ديفيد، أجادله بذهني، وأشعر بالغضب والوحدة وأتذكّر كلّ الأمور المؤذية التي قالها أو ارتكبتها بحقي. كما أنّني لم أستطع التوقّف عن التفكير في سعادتنا معاً، السعادة الغامرة التي سادت في أوقات اتفاقنا. كنت على استعداد للقفز من السرير والاتصال به من الهند في منتصف الليل و - لا أدري - ربّما إقفال الخطّ في وجهه. أو التوسّل إليه ليحبّني من جديد. أو لومه بشراسة على عيوبه.

لماذا تعود كلّ هذه الأمور الآن؟

أعلم ما سيقال لي، عن المواجهس القديمة في هذا المعتزل. بأنّ كلّ ذلك طبيعي، الكلّ يمرّ به، فالتأمّل العميق يخرج كلّ شيء، وبأنّني أتخلّص من مواجهسي القديمة... غير أنّني في حالة نفسية تجعلني عاجزة عن الاحتمال وعن سماع أيّ نظريّات في هذا الخصوص. أدرك بأنّ كلّ شيء يخرج إلى السطح، شكراً جزيلاً. يخرج كالثقيؤ.

تمكّنت نوعاً ما من العودة إلى النوم، لحسن حظّي، ورأيت حلماً آخر. لا ثعابين هذه المرّة بل رأيت كلباً شرّيراً ومسعوراً يلاحقني قائلاً: "سأقتلك. سأقتلك وألتهمك!".

استيقظت وأنا أبكي وأرتجف. لم أشأ إزعاج زميلاتي في الغرفة، فذهبت للاختباء في الحمام. الحمام، الحمام دائماً! ها أنا في الحمام

بجدّداً، في منتصف الليل، أبكي على الأرض وحيدة. آه، أيها العالم البارد، تعبت منك ومن حمّاماتك الرهيبة.

وحين تواصل البكاء، ذهبت لإحضار دفتر وقلم (ملجأَي الأخير) وجلست مرّة أخرى بقرب المراض. فتحت صفحة بيضاء وكتبت توتوتلاً أصبح مألوفاً الآن:

"أحتاج إلى مساعدتك".

ثمّ زفرت نفساً طويلاً من الراحة فيما هبّ صديقي الدائم (من يكون؟) لنحديتي بإخلاص وكتب بخطّ يدي:

"أنا هنا. لا بأس. أنا أحبّك. لن أتخلّى عنك أبداً...".

48

كانت جلسة التأمّل في صباح اليوم التالي كارثة. توتوتلت عقلي بيأس للجلوس جانباً، إلاّ أنّه حدّق إليّ بقوة قائلاً: "لن أسمح لك أبداً بتجاوزي".

في الواقع، سيطر عليّ ذاك الصباح حقد و غضب شديدين إلى حدّ أنّني خفت على حياة كلّ من يمرّ أمامي. وجهت ردّاً لاذعاً للمرأة الألمانية المسكينة لأنّها لا تتقن الإنكليزية ولا تفهم ما أقوله وأنا أدلّها على المكتبة. أحجلني غضبي إلى حدّ أنّني ذهبت للاختباء في حمّام (آخر!) والبكاء، ثمّ غضبت من نفسي لأنّني أبكي حين تذكّرت نصيحة الغورو ألاّ ننهار دائماً وإلاّ تحوّل الأمر إلى عادة... ولكن ماذا تعرف هي عن ذلك؟ فهي مستنيرة. لا يمكنها مساعدتي، فهي لا تفهمني.

لم أشأ التحدّث مع أحد. لم أتحمّل رؤية أحد في تلك اللحظة. حتى إنني تجنّبت ريتشارد من تكساس لفترة، ولكنّه عثر عليّ أخيراً عند العشاء، وجلس بشجاعة أمام دخان الكره الذاتي المتصاعد منّي.

سألني قائلاً، وعود أسنان في فمه كالعادة: "ما الذي يثير غضبك بهذا الشكل؟".

أجبتة: "لا تسأل". ثم رحلت أخيره بكل شيء، وخلصت إلى القول: "والأسوأ من هذا كله أنني أعجز عن التوقف عن التفكير في ديفيد. اعتقدت بأنني تخطت تلك التجربة، ولكن كل شيء يعود مجددًا".

قال: "أعطي نفسك ستة أشهر أخرى، وستشعرين بالتحسن".
"سبق أن أعطيت نفسي اثني عشرة شهراً، ريتشارد".
"أعطي نفسك ستة أشهر إضافية. استمري برمي ستة أشهر إلى أن يزول كل شيء. هذه الأمور تستغرق وقتاً".
زفرت بقوة من أنفي، وقد سئمته.

قال: "أصغي إلي يا بقول، يوماً ما سنتنظرين إلى هذه المرحلة من حياتك على أنها فترة حزن جميلة. سترين بأنك كنت في حداد وكان قلبك مفطوراً ولكن حياتك كانت تتغير وكنت في أفضل مكان في العالم لحدوث ذلك؛ مكان تبعد جميل، محاط بالنعيم. استغلي كل دقيقة من هذه الفترة. دعي الأشياء تأخذ وقتها هنا في الهند".
"ولكنني أحببته حقاً".

"مشكلة كبيرة. وقعت في حب شخص إذاً. ألا ترين ما يحدث؟ ذاك الشاب لمس مكاناً عميقاً في قلبك لم تظني يوماً أنك قادرة على بلوغه. أعني أنك فوجئت. ولكن ذاك الحب الذي شعرت به ليس سوى البداية. لقد تذوقت الحب وحسب. ولم يكن ذاك سوى حباً دنيوياً محدوداً. انتظري لثري كم يمكنك أن تحبسي أعمق من ذلك. ستكتشفين أن لديك القدرة لحب العالم بأسره يوماً ما. إنه قدرك. لا تضحكي".

"أنا لا أضحك". كنت أبكي في الواقع. "ولا تضحك عليّ رجاءً، ولكن أعتقد بأنّ السبب الذي يجعل من الصعب عليّ نسيان هذا الشابّ هو أنّني اعتقدت بجدّيّة أنّ ديفيد هو توأم روحي".

"ربّما كان كذلك. ولكنك لا تفهمين معنى تلك الكلمة. يعتقد المرء بأنّ توأم الروح هو الشخص الأنسب له، وهذا ما يريده الجميع. ولكنّ توأم الروح الحقيقي ليس سوى مرآة، إنّه الشخص الذي يريك كلّ ما يعيقك، الشخص الذي يلفت انتباهك إلى نفسك لكي تتغيّر حياتك. توأم الروح الحقيقي هو أهمّ شخص تلتقين به على الأرجح، لأنّه يمزق جدرانك ويهزّك بقوة لكي تستفيقي. ولكن أن تعيش مع توأم روحك إلى الأبد؟ كلا. هذا مؤلم جداً. فتوائم الروح يدخلون حياتك فقط ليكشفوا لك طبقة أخرى من ذاتك، ثمّ يرحلون. وشكراً لله على ذلك. غير أنّ مشكلتك هي أنّك لا تسمحين لتوأم روحك بالرحيل. الأمر انتهى يا بقول. مهمّة ديفيد كانت هزّك، تمزيق ذاتك قليلاً، إظهار العوائق والإدمانات في حياتك، فطر قلبك، وفتح لك يمدخل إليه نور جديد، جعلك تشعرين بالبؤس وفقدان السيطرة على حياتك إلى حدّ أن ترغبي بتغييرها، ومن ثمّ تعريفك على معلّمك الروحي وبدء حياة جديدة. تلك كانت مهمته، وقد قام بما على أحسن وجه، والآن انتهى كلّ شيء. المشكلة هي أنّك لا تتقبّلين أنّ حياة تلك العلاقة كانت قصيرة. حبيبي، أنت تتصرّفين مثل كلب في مكبّ للنفايات، تلعقين عبوة فارغة محاولة الحصول على مزيد من الغذاء منها. وإن لم تكوني حذرة، ستعلق العبوة في خطمك إلى الأبد وتجعل حياتك بائسة. لذا، اتركيها".

"ولكنني أحبه".

"إذاً، أحبيه".

"ولكنني أشتاق إليه".

"إذاً، اشتاقي إليه. أرسلني إليه قليلاً من الحبّ والنور كلّما فكّرت فيه، ثمّ واصلي حياتك. أنت خائفة من التخلّي عن آخر بقايا ديفيد لأنك ستكونين وحيدة حقاً، وليز غيلبرت تخشى حتى الموت ما سيحدث لو ظلّت وحيدة. ولكن عليك أن تفهمي يا بقول أنك لو أخليت كلّ تلك المساحة من ذهنك التي تستعملينها للتفكير في ذاك الشابّ، سيكون لديك فراغ، بقعة مفتوحة؛ باب. واحزري ماذا سيفعل الكون بهذا الباب؟ سيدخل فيه... وبملاك بكمّ من الحبّ لم تحلمي به في حياتك. إذاً، توقّفي عن استعمال ديفيد لسدّ ذاك الباب. دعيه يرحل.

"ولكن أتمنى لو كنّا نستطيع أنا وديفيد أن...".

قاطعي قائلاً: "أترين، تلك مشكلتك. تتمنين كثيراً، يا عزيزتي.

ما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً".

منحني هذا البيت أوّل ضحكة في ذلك اليوم.

ثمّ سألت ريتشارد: "إذاً، كم سأحتاج من الوقت قبل أن ينتهي

كلّ هذا الحزن؟".

"تريدين تاريخاً محدداً؟".

"أجل".

"رقماً ترسمين دائرة حوله على الروزنامة؟".

"أجل".

"دعيني أخبرك شيئاً يا بقول، أنت تعانين من حبّ السيطرة".

شعرت بغضبي ينفجر كالبركان في تلك اللحظة. حبّ

السيطرة؟ أنا؟ فكّرت في الواقع بصفع ريتشارد على هذه الإهانة. ثمّ

بانّت الحقيقة من أعماق غضبي واستيائي. الحقيقة المباشرة، الواضحة

والباعثة على الضحك.

هو محقّ تماماً.

زال غضبي بالسرعة التي اشتعل بها.
قلت: "أنت محقّ تماماً".

"أعرف يا حبيبتي. اسمعي، أنت امرأة قوية معتادة على الحصول على ما تريدته من الحياة ولم تحصلي على ما أردت في علاقاتك الأخيرة، وهذا ما يثير جنونك. لم يتصرف زوجك كما أردت، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ديفيد. عاكستك الحياة لفترة من الزمن، وما من شيء يثير غضب محبي السيطرة أكثر من أن تعاكسهم الأقدار".
"لا تسمّي محبة للسيطرة، أرجوك".

"ولكنك تعانين من مشاكل مع حبّ السيطرة، يا بقول. ألم يخبرك أحد بذلك من قبل؟".

(حسناً... بلى. ولكن المشكلة مع الطلاق من شخص ما هي أنّه يجعلك تتوقّف بعد فترة عن الإصغاء إلى الكلام الذي ينعتك به).
هكذا تراجع و اعترفت بالأمر. "حسناً، أظنك على حقّ على الأرجح. ربّما كنت أعاني من حبّ السيطرة. ولكن من الغريب أن تلاحظ ذلك. فأنا لم أعتقد أنّ الأمر واضح إلى هذا الحدّ. أعني، أنا واثقة من أنّ الناس لا يمكنهم ملاحظة هذه المشكلة حين ينظرون إليّ للمرّة الأولى".

انفجر ريتشارد من تكساس بالضحك إلى حدّ أنّه أوشك أن يُفلتَ عود الأسنان من فمه.

"حقاً؟ يا عزيزتي، بإمكان رأي تشارلز أن يرى حبّك للسيطرة!".
"حسناً. أعتقد أنّ الوقت قد حان لوضع حدّ لهذا الحديث، شكراً".

"عليك أن تتعلّمي إطلاق سراح المسائل القديمة، بقول. وإلاّ، ستمرضين ولن تنعمي بالنوم أبداً. ستتقلّبين في فراشك إلى الأبد،

وتلومين نفسك على فشلك الذريع في الحياة. ما خطبسي؟ لِمَ أفسدت جميع علاقاتي؟ لِمَ أنا فاشلة؟ دعيني أحمّن، أليس هذا ما شغل فكري في ساعات أرقك في الليلة الفائتة؟".

"حسناً، ريتشارد، هذا يكفي. لا أريدك أن تتجول في رأسي بعد اليوم".

أجابني صديقي اليوغاني الكبير الآتي من تكساس: "إذاً، أفضلي الباب".

49

حين كنت في التاسعة من عمري، وقد أوشكت أن أبلغ سنّ العاشرة، عانيت من أزمة ميتافيزيقية حقيقية. قد يبدو ذلك مبكراً، ولكنني كنت طفلة ناضجة قبل الأوان. حدث ذلك صيفاً، بين الصفّ الرابع والخامس الابتدائي. كنت سأبلغ العاشرة في تموز، وكان ثمة شيء ما في الانتقال من الرقم تسعة إلى عشرة - من رقم واحد إلى رقمين - صدمني وسبّب لي ذعراً وجودياً فعلياً، يشعر به الناس عادة عند بلوغ الخمسين. أذكر أنني فكّرت بأنّ حياتي تمضي بسرعة. وبدا لي وكأنني كنت البارحة في صفّ الحضانة، وها أنا الآن على وشك أن أبلغ العاشرة. قريباً سأصبح مراهقة، كهلة، عجوزاً، ثمّ أموت. وكان الجميع يستقدمون في السنّ بسرعة هائلة أيضاً. وسرعان ما سيموت الجميع. أبوامي، أصدقائي، قطّي. شقيقتي الكبرى أصبحت في الثانوية. بدا لي وكأنّها كانت تذهب إلى الصفّ الأوّل منذ لحظات، بجوارها الصغيرة الطويلة حتى الركبتين، وها هي الآن في الثانوية! من الواضح أنّها سرعان ما ستموت هي أيضاً. ما الهدف من كلّ هذا؟

والغريب في تلك الأزمة أن شيئاً لم يتسبب بها. لم يمت أحد الأصدقاء أو الأقارب، ليعطيني الفكرة الأولى عن الموت، كما أنني لم أقرأ أو أر شيئاً معيناً عن الموت. كان الذعر الذي شعرت به في سنّ العاشرة إدراكاً تلقائياً وكاملاً للفناء المحتم، من دون أن أملك مفردات روحية تساعدني على تدبّر أمري. كنا بروتستانتيين، وغير متديّنين حتى. كان والدي يفضل البقاء في البيت صباح الأحد ويكرّس نفسه لأعمال المزرعة. وكنت أغتني في الكورس لأنني أحبّ الغناء.

كان إحساسي بالعجز طاغياً. أردت لو أمكنني الضغط على فرامل طوارئ كونية، كذلك التي رأيتها على الطريق السريع خلال رحلتنا المدرسية إلى نيويورك. أردت الدعوة إلى تعليق سير الكون والطلب من الجميع التوقف إلى أن أفهم كل شيء. وأفترض أن تلك الرغبة الملحة بإجبار الكون بأكمله على إيقاف مسيرته إلى أن أتمالك نفسي قد تكون بداية ما سمّاه صديقي العزيز ريتشارد من تكساس حبي للسيطرة. بالطبع، ذهبت جهودي ومخاوفي أدراج الرياح. فكلّما راقبت الوقت أكثر، مرّ بسرعة أكبر، حتى إنّ ذاك الصيف انقضى بسرعة فطرت قلبي، وأذكر أنني كنت أفكر في نهاية كلّ يوم: "ها قد مرّ واحد آخر"، ثمّ أنفجر باكياً.

كان لديّ صديق في الثانوية يعمل الآن مع المتخلفين عقلياً، ويقول إنّ مرضاه الذين يعانون من التوحّد لديهم وعي مؤلم لمرور الوقت، وكأنّهم يفتقدون إلى المصفاة العقلية التي تسمح لبقية الناس بالاسترخاء ونسيان موضوع الفناء من وقت إلى آخر والاكتفاء بالعيش. أحد مرضى روب يسأله دائماً عن التاريخ صباح كلّ يوم، ثمّ يسأله في نهاية النهار: "روب، متى يحلّ الرابع من شباط مرّة أخرى؟".

وقبل أن يجيبه روب، بهزّ الشابّ رأسه بحزن قائلاً: "أعرف، أعرف، لا بأس... ليس قبل العام القادم، أليس كذلك؟".

أعرف جيّداً هذا الشعور. أعرف تلك الرغبة الحزينة بتأخير انقضاء رابع آخر من شباط. وذاك الحزن هو واحد من أعظم محن التجربة الإنسانية. فنحن نُعتبر، على حدّ علمنا، النوع الوحيد على هذا الكوكب الذي أعطي نعمة - أو ربّما نقمة - الوعي لفنائنا. فكلّ شيء هنا سينتهي إلى الفناء، غير أنّنا المحظوظون الذين يمكنهم التفكير في ذلك كلّ يوم. كيف ستتعامل مع هذه المعلومات؟ حين كنت في التاسعة، لم يكن في وسعي سوى البكاء. لاحقاً، مع مرور الأعوام، دفعني إحساسي المفرط بمرور الوقت إلى عيش الحياة بالسرعة القصوى. إن كنت هنا في زيارة قصيرة، عليّ القيام بكلّ ما هو ممكن الآن. ومن هنا أتت كلّ الأسفار، والعلاقات الرومانسية، والطموح، والباستا. حتى إنّ إحدى صديقات أختي كانت تعتقد بأنّ لكأثرين شقيقتين أو ثلاث، لأنّها كانت تسمع دوماً قصصاً عن أختها في أفريقيا، أختها التي تعمل في مزرعة في يومينغ، أختها النادلة في نيويورك، أختها التي تكتب رواية، أختها التي ستزوج، وبالطبع ليس من الممكن أن تكون الشخص ذاته. في الواقع، لو أمكنتني تقسيم نفسي إلى عدّة نساء اسمهنّ ليز غيلبرت، فلما تردّدت، لكي لا أفوت لحظة واحدة من هذه الحياة. غير أنّي قسّمت نفسي بالفعل إلى عدّة نساء اسمهنّ ليز غيلبرت، سقطن منهكات جميعاً في الوقت نفسه على أرض حمام في الضواحي في إحدى الليالي، قريباً من سنّ الثلاثين.

ينبغي عليّ القول هنا إنّني أدرك أنّ هذا النوع من الأزمات الميتافيزيقية لا يصيب جميع الناس. فبعض الأشخاص يتمتعون بالمناعة ضدّ القلق الناجم عن التفكير في الفناء، فيما يبدو البعض الآخر

مرتاحون أكثر للفكرة بأكملها. فهذا العالم حافل بالأشخاص اللامبالين بالطبع، إلا أنه يشتمل أيضاً على أشخاص يبدون قادرين على قبول القوانين التي يعمل الكون على أساسها ولا يعكّر صفوهم ما فيه من تناقض وظلم. كانت لدى إحدى صديقاتي جدّة تقول لها دوماً: "ما من مشاكل في هذا العالم لا يمكن علاجها بحمام ساخن، كأس شراب وكتاب للدعاء". بالنسبة إلى البعض، هذا كافٍ بالفعل، فيما يحتاج آخرون إلى اتخاذ إجراءات أكثر خطورة.

سأذكر في هذا السياق صديقي صاحب مزرعة الألبان من إيرلندا، الذي لا يبدو من الأشخاص الذين يمكن لقاؤهم في معتزل هندي. ولكنّ شون مثلي، وُلد مع رغبة ملحة ومجنونة لفهم كيفية عمل هذا الكون. وبما أن رعيته الصغيرة في كاونتي كورك لم تعطه أي إجابات عن تساؤلاته، غادر المزرعة في الثمانينيات متوجّهاً نحو الهند، التي بحث فيها عن السلام الداخلي من خلال اليوغا. وبعد بضع سنوات، عاد إلى بيته، إلى مزرعة الألبان في إيرلندا. كان يجلس في مطبخ المنزل الحجري القديم مع والده - مزارع قديم يتمتّع بشيء من الحكمة - يخبره بكلّ اكتشافاته الروحية في الشرق الأقصى. ولكنّ الوالد أصغى إليه باهتمام طفيف، وهو يراقب النار تستعر في الموقد ويدخّن غليونه. لم ينيس بينت شفة إلى أن قال شون: "أبي، التأمّل ضروري لتعليم السكينة. بإمكانه فعلاً أن ينقذ حياتك. فهو يعلمك كيف تسكّن عقلك".

فالتفت إليه والده قائلاً بلطف: "ولكنّ عقلي ساكن أساساً، يا بني"، قبل أن يستأنف التحديق إلى النار.

لكنّ عقلي ليس كذلك، ولا عقل شون. كثير منّا ليسوا كذلك. كثير منّا ينظرون إلى النار ولا يرون سوى الجحيم. أحتاج إلى تعلّم

كيفية فعل ما يبدو بأن والد شون وُلد وهو يعرفه؛ كيف، بحسب قول والْت وِيتمان، أقف بعيداً عن الشدّ والجذب... مستمتعة، راضية، متعاطفة، مرتاحة، متكاملة... داخل وخارج اللعبة على السواء أنتفّج وأتعجّب من كلّ شيء. ولكن عوضاً عن التسلية، أنا لا أشعر سوى بالقلق. وعوضاً عن التفرّج، أنا أدقّق وأتدخّل.

في العلم البوذي قصّة عن اللحظات التي أعقبت تجاوز بوذا إلى الاستنارة. فحين سقط حجاب الوهم - بعد تسعة وثلاثين يوماً من التأمل - وانكشفت الحقيقة للمعلّم العظيم، قيل إنّه فتح عينيه وقال على الفور: "لا يمكن تعليم هذا". ولكنّه غيّر رأيه لاحقاً، وقرّر أن يحاول تعليم التأمل لزمرّة صغيرة من التلاميذ. فقد عرف أنّ نسبة ضئيلة من الناس ستهمّ بتعاليمه. فبحسب قوله، معظم البشر أعينهم مغلقة بغبار الخيبة إلى حدّ يمنعهم من رؤية الحقيقة، أيّاً كان من يحاول مساعدتهم. وثمة قلة آخرون، مثل والد شون، أعينهم صافية بشكل طبيعي ولا يحتاجون إلى معلّم أو مساعدة من أيّ نوع. ولكن، ثمة أشخاص أعينهم مغلقة قليلاً بالغبار، ويمكن مساعدتهم على الرؤية بشكل أوضح يوماً ما، بمساعدة المعلّم المناسب. فقرّر بوذا أن يصبح معلماً لتلك القلّة؛ التي تملك قليلاً من الغبار.

أتمنى حقاً أن أكون واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين يملكون القليل من الغبار، ولكنني لست واثقة. كلّ ما أعرفه أنّي أبحث عن السلام الداخلي بوسائل قد تبدو متطرّفة لعامة الناس. (مثلاً، حين قلت لأحد أصدقائي في نيويورك إنني ذاهبة إلى الهند لأعيش في معتزل...، تنهّد قائلاً: "آه، ثمة جزء منّي يتمنى حقاً لو أرغب بالقيام بذلك... ولكن ليست لديّ أيّ رغبة على الإطلاق"). لا أدري ما إذا كنت أملك الخيار. فقد بحثت عن الرضى بجنون لسنوات طويلة وبوسائل

عديدة، وكلّ تلك المكتسبات والإنجازات أرهقتني في النهاية. فحين تطارد الحياة بشدّة، تقودك إلى الموت. والوقت - حين تطارده كاللص الهارب - يتصرّف كذلك. فيظلّ دوماً على مسافة مدينة أو غرفة منك، يغيّر اسمه ولون شعره ليضللّك، ينسلّ من الباب الخلفي للفندق لحظة اندفاعك إلى صالة الاستقبال بمذكرة التفتيش الأحدث، ولا يترك خلفه سوى سيجارة مشتعلة في المنفضة للسخرية منك. وعند نقطة معينة، عليك التوقّف لأنّه لن يفعل. عليك الاعتراف أنّك لن تلحق به، ليس من المفترض بك أن تلحق به. عند نقطة معيّنة، وكما يقول لي ريتشارد دائماً، عليك أن تستسلم وتجلس ساكناً وترك الرضى يأتي إليك. الاستسلام هو بالطبع تجربة مخيفة بالنسبة إلى أولئك الأشخاص الذين يعتقدون أنّ العالم يدور لأنّ لديه مقبض على قمّته نديره نحن شخصياً وأننا لو أفلتنا المقبض ولو للحظة، ستكون نهاية العالم. ولكن حاولي إفلاته يا بقول. تلك هي الرسالة التي حصلت عليها. اجلسي بهدوء الآن، وتوقّفي عن المشاركة، وراقبي ما يحدث. ففي النهاية، لن تسقط الطيور من السماء ميتة في أثناء طيرانها. ولن تذبل الأشجار وتموت أو تتحوّل الأنهار إلى سيل من الدم. ستستمرّ الحياة في مسيرها. حتى مكتب البريد الإيطالي سيبقى على حاله، ويقوم بعمله على طريقته، من دونك. لم أنت أكيدة بأنّ تدبيرك لكلّ صغيرة وكبيرة من لحظات هذا العالم بأسره هو أمر أساسي؟ لم لا تتركين الأمور على طبيعتها؟

سمعت هذه الحجّة وشدّتي. آمنت بها، فكرياً. حقاً فعلت. ولكنني تساءلت بعد ذلك - بكلّ توقّي الذي لا يهدأ وحماسي المتقد وطبيعتي الجائعة على نحو أحرق - ماذا أفعل بطاقتي إذا؟
أتى الجواب عن هذا السؤال أيضاً:

قالت مرشدتي الروحية. ابثني عما تبثين عنه كمن يبحث عن الماء لإخماد النار المشتعلة في رأسه.

50

صباح اليوم التالي في أثناء جلسة التأمل، عادت جميع أفكارى القديمة الكاوية لتحرقني مجدداً. بدأت أحدها مثل إعلانات التلفاز التي تعرض دوماً في الأوقات غير المناسبة. وما أروعني أنني اكتشفت في أثناء التأمل أن عقلي ليس مكاناً جذاباً في النهاية. فأنا لا أفكر سوى في بضعة أشياء، وأفكر فيها باستمرار. أعتقد بأن الكلمة المناسبة هنا هي إطالة التفكير. فأنا أطيل التفكير في طلاقى، في كلّ آلام زواجى، في جميع الأخطاء التي ارتكبتها، وتلك التي ارتكبتها زوجى، ثمّ أبدأ بإطالة التفكير في ديفيد (موضوع قائم لا أعود منه)...

وهذا ما بدأ يشعرني بالخرج، بصراحة. أعني، أنا هنا في مكان دراسة في وسط الهند، وكلّ ما أفكر فيه هو صديقى السابق؟ من أنا، ابنة الأربعة عشر ربيعاً؟".

هنا تذكّرت قصة روثا لي مرّة صديقتي ديورا، عالمة النفسية. ففي الثمانينيات، طلبت منها مدينة فيلادلفيا التطوُّع لتقديم المشورة النفسية لمجموعة من اللاجئين الكمبوديين الهاربين بالقوارب الذين وصلوا حديثاً إلى المدينة. ومع أنّ ديورا هي عالمة نفس مميّزة، إلا أنّ تلك المهمة أثارت رعبها. فهؤلاء الكمبوديون قد تعرّضوا لأسوأ الشرور التي يمكن أن يتسبّب بها البشر لبعضهم: قتل، اغتصاب، تعذيب، مجاعة، قتل أقاربهم تحت أنظارهم، ومن ثمّ سنوات طويلة في مخيمات اللاجئين ورحلات القوارب الخطيرة إلى الغرب حيث مات

الناس وأطعمت الجثث لأسماك القرش. أيّ مساعدة يمكن لديورا تقديمها هؤلاء؟ كيف يمكنها تخفيف عذاباتهم؟
أخبرتني قائلة: "ولكن هل تعرفين ما أراد هؤلاء التحدّث عنه، حين أمكنهم رؤية مستشار نفسي؟".

التقيت بذلك الشابّ حين كنت أعيش في مخيم اللاجئين، فأغرمننا ببعضنا. ظننته أحببني فعلاً، ولكننا افرقنا واستقلّ كلّ منا قارباً مختلفاً، فأعجب بابنة عمّي. وهو متزوّج بها الآن، ولكنّه يقول بأنّه يحبّني حقاً، وما زال يتصل بي. أعرف أنّه ينبغي عليّ أن أطلب منه تركي وشأني، ولكنني ما زلت أحبه ولا يمكنني التوقّف عن التفكير فيه. ولا أعرف ماذا أفعل...

هذا ما نحن عليه. فبشكل جماعي، كنوع بشريّ، ذلك هو وضعنا العاطفي. التقيت مرّة بامرأة عجوز، تبلغ مئة عام تقريباً، قالت لي: "لّمّة مسألتان تحاربّ البشر بسببهما عبر التاريخ: كم تحبّني؟ ومن يملك زمام القيادة؟". كلّ الباقي يمكن تدبّره. ولكنّ مسألتي الحبّ والسلطة تشغلاننا جميعاً، توقعاننا في الخطأ وتسببان الحرب والحزن والعذاب. وكلاهما، لسوء الحظّ (وكما هو واضح) أعاني منهما في هذا المعتزل. فحين أجلس بصمت وأنظر إلى عقلي، أجد أنّ ما يشغلني فقد هو الشوق والسلطة، وهذا القلق هو الذي يعيق تقدّمي.

حين حاولت هذا الصباح، بعد ساعة تقريباً من الأفكار المحزنة، معاودة الاستغراق في التأمل، أخذت معي فكرة جديدة: التعاطف. سألت قلبي إن كان بإمكانه أن يفضّل على روعي بنظرة أكثر كرمًا إلى طريقة عمل عقلي. أيمكنني، عوضاً عن التفكير في أنّي فاشلة، ربّما يمكنني أن أتقبّل أنّني لست سوى كائن بشري عادي؟ أتت الأفكار المعتادة - حسناً، هذا ما سيحدث - ثمّ هلّت المشاعر

المصاحبة لها هي أيضاً. بدأت أشعر بالإحباط والوحدة والغضب. ولكنّ استجابة عنيفة بدأت تغلي في مكان ما في أعماق قلبي، وقلت لنفسني: "لن أحكم عليك بسبب هذه الأفكار". حاول عقلي الاعتراض قائلاً: "أجل، ولكنك فاشلة جداً، أنت فاشلة، لن تحققي شيئاً".

ولكن فجأة، شعرت بشيء يشبه زئير الأسد يعلو في صدري ويدفع كلّ ذلك الهراء إلى الخارج. ودوّى في داخلي صوت لا يشبه شيئاً سمعته من قبل. كان قويا إلى حدّ أنّي وضعت يدي على فمي لأنني خفت لو فتحتة وخرج ذلك الصوت من أن يهزّ أسس الأبنية من هنا حتى ديترويت. أمّا الجملة التي زار بها فكانت:

ليست لديك فكرة عن مدى قوّة حبي!!!!!!!!!!!!!!

تلاشت الأفكار السلبية من ذهني مع رياح تلك الجملة مثل العاصفير والأرانب والظباء التي تفرّ مذعورة. تبعها الصمت. صمت قوي، نابض، مروّع. راقب الأسد القابع في السافانا الهائلة التي تحتل قلبي مملكته الهادئة برضى. لعق فمه الكبير مرّة، ثمّ أغمض عينيه الصفراوين ثمّ عاد إلى النوم.

عندها، وفي ظلّ ذلك الصمت الملكي، أخيراً، بدأت بالتأمّل.

51

لدى ريتشارد من تكساس بعض العادات اللطيفة. فكلّما مرّ بي في المعتزل ولاحظ وجهي ذاهلاً وأفكاراً على بعد ملايين الأميال، قال لي: "كيف حال ديفيد؟".

وكنت أحييه دوماً: "ليس هذا من شأنك. أنت لا تعرف في ما أفكر أيها السيد". وبالطبع، كان علي حقّ دائماً.

كانت لديه عادة أخرى أيضاً. إذ كان ينتظري حتى أخرج من قاعة التأمل لأنه يحبّ رؤيتي غاضبة ومنهكة وأنا أزحف من هناك. وكأنني كنت أصارع الوحوش والأشباح. يقول بآته لم يسبق له أبداً رؤية شخص يقاوم نفسه بتلك الشدّة. لا أدري، ولكنّ ما يحدث في قاعة التأمل المظلمة تلك، يصبح أحياناً قوياً فعلاً. وتأتي أكثر التجارب عنفاً حين أنخّلي عن بعض التحفّظ والخوف وأسمح لشيء من الطاقة الفعلية أن تحرّر نفسها عبر عمودي الفقري. ويضحكني اليوم أنّي اعتبرت يوماً أفكار الكونداليني شاكتي مجرد أساطير. وحين تجري تلك الطاقة في داخلي، تدمدم مثل محرّك ديزل بطيء السرعة، ولا تطلب منّي سوى هذا الطلب: هل لك أن تقلبي نفسك من الداخل إلى الخارج، بحيث تصبح رتاك وقلبك وأحشاؤك في الخارج والكون بأكمله في الداخل؟ وهلاً فعلت الأمر نفسه عاطفياً؟ يزول الإحساس بالوقت في ذلك المكان الصاحب، وأؤخذ مخدّرة ومذهولة إلى جميع أنواع العوالم، حيث أختبر جميع أنواع الأحاسيس: النار، البرد، الكره، الرغبة، الخوف... حين ينتهي كلّ ذلك، أقف مترنّحة على قدمي، وأخرج إلى ضوء النهار أتصوّر جوعاً وعطشاً ومنهكة أكثر من بحار جال لثلاثة أيام في البحر. ويكون ريتشارد بانتظاري عادة، جاهزاً للبدء بالضحك ولمضايقتي بالجملة نفسها حين يرى وجهي المرتبك والمنهك: "أتظنّين بأنك ستحقّقين شيئاً يوماً ما، يا بقول؟".

ولكن هذا الصباح، حين سمعت الأسد يزأر ليست لديك فكرة عن مدى قوّة جبي، خرجت من كهف التأمل كملكة منتصرة. حتى

إن ريتشارد لم يجد الوقت لي طرح سؤاله المعتاد قبل أن أنظر إلى عينيه وأقول: "سبق ووصلت، أيها السيد".

قال: "لا أصدّق. هذا يدعو للاحتفال. هيّا بنا يا صغيرتي، سأصطحبك إلى البلدة وأشتري لك شرابنا المفضّل".

شرابنا المفضّل هو عبارة عن شراب هندي غير كحولي، شبيه نوعاً ما بالكوكا كولا ولكنه يحتوي على تسعة أضعاف محتواها من عصير الذرة وثلاثة أضعاف كمية الكافيين. وأعتقد أنّه ربّما يحتوي على الميتامفيتامين أيضاً، لأنّه يجعل نظري يزوغ. ولكننا نقصد البلدة أنا وريتشارد عدة مرات في الأسبوع، نطوف في أزقتها ونتقاسم زجاجة صغيرة من الشراب - تجربة متطرّفة نوعاً ما بعد نقاء طعام المعتزل النباتي - ونحرص دوماً على عدم ملامسة شفاهنا للزجاجة. فقاعدة ريتشارد للمسافر في الهند منطقية: "لا تلمس شيئاً عدا نفسك". (نعم، كان هذا عنواناً بديلاً للكتاب).

ولدينا زيارتنا المفضّلة في البلدة، بحيث نتوقّف دوماً لتحية المعبّد، ولتحية السيد بانيكار، الخياط، الذي يُلاقينا قائلاً: "هائيّ للقائك!" في كلّ مرّة. فنشاهد الأبقار مستمتعة بمنزلتها العالية (أعتقد بأنّها تستغلّ الامتياز الذي تتمتع به، فتستلقي في وسط الطريق لمجرّد لفت النظر إلى منزلتها العالية)، ونرى الكلاب تحكّ نفسها وكأنّها تتساءل ما الذي أتى بها إلى هنا. ونرى النساء يعملن على الطرقات، يرفعن الصخور تحت أشعة الشمس الحارقة ويؤرجحن المطارق، حافيات، ويدون جميلات على نحو غريب بأثواب الساري الملوّنة بألوان الأحجار الكريمة وبقلائدهنّ وأساورهنّ. كنّ بيتسمن لنا عند مرورنا ما دفعني إلى التساؤل كيف يمكنهنّ الشعور بهذه السعادة وهنّ يقمن بهذا العمل الشاقّ في ظلّ تلك الظروف الرهيبة؟ لمّ لا يغمى عليهنّ ويسقطن

ميتات بعد ربع ساعة من العمل بالمطارق في هذا الطقس الحارق؟ سألت السيد باننيكار الخياط عن ذلك وقال إن تلك هي حياة القرويات، وإن الناس في هذا الجزء من العالم يولدون لهذا النوع من العمل الشاق، وهذا كل ما هم معتادون على القيام به. وأضاف قائلاً: "كما أننا لا نعيش طويلاً هنا".

كانت القرية فقيرة بالطبع، ولكن ليس إلى حدّ يائس نسبة إلى المقاييس الهندية، فوجود المعتزل (والصدقات التي يقدمها)، فضلاً عن العملة الغربية التي يتم تداولها هنا، تجعل الأوضاع أفضل بكثير. صحيح أنه لا يوجد الكثير لشرائه هنا، إلا أننا نحبّ أنا وريتشارد التفرّج على جميع المتاجر التي تباع المسابح والتمائيل الصغيرة. ثمّة أيضاً بائعو الكشمير - وهم بائعون أذكاء في الواقع - الذين يحاولون دوماً بيعك بضاعتهم. فقد لحق بي أحدهم اليوم، وسأل ما إذا كانت السيدة تودّ ربّما شراء سجّادة جميلة من الكشمير لمنزلها؟

وهذا ما أضحك ريتشارد. فهو يستمتع، من بين هواياته الأخرى، بالسخرية منّي لأنني بلا مأوى. ثمّ قال للبائع: "لا تتعب نفسك، أيها الأخ، فهذه السيدة لا تملك أرضاً تضع عليها السجّادة".

ولكنّ بائع الكشمير المثابر اقترح قائلاً: "إذا ربّما ترغب السيدة بتعليق السجّادة على جدارها؟".

قال ريتشارد: "تلك هي المشكلة، جدارها متداعية قليلاً هذه الأيام، أيضاً".

فقلت دفاعاً عن نفسي: "ولكنني أملك قلباً شجاعاً!". وأضاف ريتشارد مؤيداً إياي لمرة في حياته: "وبعض الصفات الأصيلة الأخرى".

في الواقع، لم يكن التأمل هو العقبة الكبرى خلال إقامتي في المعتزل. كان صعباً بالطبع، ولكنه لم يكن مهلكاً. ما كان أصعب بالنسبة إليّ هو ما نقوم به كل يوم بعد التأمل وقبل الإفطار (يا الله ما أطول ساعات الصباح)؛ أنشودة تدعى غوروجيتا. يسميها ريتشارد المجيت. وأنا أعاني من مشكلة كبيرة مع الجيت. فأنا لا أحبها على الإطلاق، ولم أحبها أبداً، حتى منذ أن سمعتها للمرة الأولى في المعتزل في نيويورك. ومع أنني أحب جميع الأغاني والأناشيد في اليوغا، إلا أنّ غوروجيتا تبدو طويلة، مملة، طنانة ولا تحتل. وهذا رأيي الخاص بالطبع، فبعض الناس يزعمون بأنهم يحبونها، مع أنني أعجز عن فهم السبب.

تتألف الغوروجيتا من 182 بيتاً، للبكاء بصوت عالٍ (وهذا ما أفعله أحياناً)، وكل بيت هو عبارة عن فقرة سنسكريتية غير مفهومة. وتستغرق تأدية أغنية المقدمة والكورس والطقس ساعة ونصف تقريباً. تذكر، هذا قبل الإفطار، وبعد أن نكون قد تأملنا لساعة، وأدينا أنشودة الصباح الأولى الممتدة على عشرين دقيقة. والغوروجيتا هي السبب الأساسي للنهوض عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل هنا. لا أحبّ النعمة ولا أحبّ الكلمات. وكلّما أخبرت أحداً من سكّان المعتزل بذلك قال لي: "آه، ولكنّها معتبرة جداً!" أجل، ... ولكن لا تؤذيها بصوت عالٍ كل يوم قبل الإفطار.

للغوروجيتا نسب روحي رفيع، فهي مقتطفة من كتاب قدم معتبر لليوغا يدعى سكاندا بورانا، ضاع معظمه وقليل منه تُرجم عن السنسكريتية. وعلى غرار معظم الكتب اليوغانية، هو موضوع على

شكل حديث، كالحوار السقراطي تقريباً. بارفاتي وشيفا هما التجسيد السامي للإبداع (الأنتي) والوعي (الذكر). هي الطاقة المولدة وهو حكمتها عديمة الشكل. كل ما يتخيله شيفا، تأتي به بارفاتي إلى الوجود. هو يحلم به وهي تجسده. رقصهما، اتحادهما (ممارستها لليوغا) هي سبب الكون وتجليه على السواء.

في المعتزل، يجب أن أتعلّم كيف أحبّ الغوروجيتا حين توضع في سياق هندي. ولكن حدث العكس في الواقع. فخلال الأسابيع القليلة من وجودي هنا، تحوّلت مشاعري إزاءها من مجرد كره بسيط إلى رعب حقيقي. أصبحت أفوّتها وأقوم بأشياء أخرى في الصباح أجدها أفضل بكثير لنموّي الروحي، ككتابة يومياتي أو الاستحمام أو الاتصال بشقيقي في بنسلفانيا والاطمئنان عن أولادها.

ولا يتردّد ريتشارد عن تنبيهي حين أفوّت حضور التريمية. "لاحظت بأنك كنت غائبة عن الجيت هذا الصباح". فأجيبه: "أنا أتواصل... بوسائل أخرى". فيقول: "أتعنين بالنوم؟".

ولكن حين أحاول الذهاب لحضور التريمية، أشعر بالاهتياج، أعني الجسدي. لا أشعر بأنني أغنيها بل بأنني مجرورة خلفها. إذ تسبّب لي التعرق، وهذا غريب جداً لأنني من الأشخاص الميالين إلى البرودة، والجو بارد في هذا الجزء من الهند في كانون الثاني قبل أن تشرق الشمس. فالجميع يجلسون ملتفين بالبطانيات والقبعات الصوفية التماساً للدفء، فيما أخلع طبقات من ملابسني مع تقدّم التريمية وأتعرق مثل جواد مزرعة منهك. وأخرج من المعبد بعد انتهائها والعرق يتصبّب مني في هواء الصباح البارد. غير أنّ ردّ الفعل الجسدي بسيط مقارنة بالموجات العاطفية الساخنة التي تعصف في داخلي وأنا أحاول المشاركة بالغناء. حتى إنني لا أغني بل أنعق وحسب، باستياء.

هل ذكرت أنها تتألف من 182 بيتاً؟

هكذا قررت منذ بضعة أيام، بعد جلسة ترنيم سيئة بشكل خاص، طلب نصيحة معلمي المفضل هنا، وهو ناسك يملك اسماً سنسكريتياً طويلاً جداً. هذا الناسك أميركي، في العقد السادس من عمره، ذكي ومتقف. وقد كان أستاذ مسرح كلاسيكي في ما مضى، وما زال يمشي بوقار. تنسك منذ ثلاثين عاماً تقريباً. وأنا أحبه لأنه مضحك ويأخذ الأمور ببساطة. ففي لحظة قائمة من لحظات الارتباك التي يسببها لي ديفيد، اعترفت له بألمي. فأصغى إليّ باحترام، وقدم لي النصيحة الأكثر تعاطفاً التي تمكّن من إيجادها ثم قال: "وأنا سأقبل ثوبي". فرفع زاوية ثوبه زعفراني اللون وطبع عليه قبلة طنانة. اعتقدتها إحدى العادات الدينية على الأرجح وسألته عما يفعل، فقال: "هذا ما أفعله دوماً حين يطلب مني أحدهم نصيحة عاطفية. أنا أشكر الله وحسب لأنني ناسك ولست مضطراً لعيش هذه الأمور بعد الآن".

فعلمت حينها أنني أستطيع الوثوق به والتحدّث بصراحة عن مشاكلتي مع الغوروجيتا. فرحنا نمشي في الحديقة معاً في إحدى الليالي بعد العشاء، وأخبرته كم أكره الترنيمة، وسألته ما إذا كان ممكناً إعفائي من غنائها. فبدأ يضحك على الفور. ثم قال: "ليس عليك غناؤها إن كنت لا ترغبين بذلك. لا أحد هنا سيجبرك يوماً على فعل أي شيء ضد إرادتك".

"ولكنّ الناس هنا يعتبرونها ممارسة روحية حيوية".

"وهي كذلك بالفعل. ولكنني لن أقول لك أنه سيلقى بك في النار إن لم تشارك فيها. كل ما سأقوله لك أنّ الغورو كانت واضحة تماماً بخصوص ذلك؛ الغوروجيتا هي النصّ الأساسي في هذه السيوغا، وربّما الممارسة الأكثر أهمية التي تقومين بها، إلى جانب

التأمل. إن كنت ستقيمين في المعتزل، فإنها تتوقع منك النهوض للإنشاد كل صباح".

"أنا لا أمانع في النهوض باكراً...".

"ما المشكلة إذاً؟".

فشرحت له لِمَ أصبحت أحشى الغوروجيتا، وكم أتعذّب بها. قال: "يا الله! انظري إلى نفسك. تغيّر لونك لمجرد التحدّث عنها". كان هذا صحيحاً. أمكنني الشعور بالعرق البارد الرطب يتجمّع تحت إبطي. فسألته: "ألا يمكنني استغلال الوقت بممارسات أخرى؟ أجد أحياناً أنّي لو ذهبت إلى كهف التأمل خلال الغوروجيتا يمكنني القيام بجلسة تأمل جيّدة".

"آه؛ لكان سواميجي وبّخك على ذلك. لكان اعتبرك لصّة الترنيم لأنك تستغلين طاقة العمل الشاقّ الذي يقوم به الجميع. اسمعي، لا يفترض بالغوروجيتا أن تكون ممتعة. فوظيفتها مختلفة تماماً. إنّها نصّ ذو قسوة لا يمكن تخيلها، وهي ممارسة تطهيرية جبارة. ذلك أنّها تحرق كلّ عواطفك السلبية التافهة. وأعتقد بأنّها تؤدي مفعولاً إيجابياً عليك لأنك تعانين من تلك الأحاسيس القوية وردود الفعل الجسدية وأنت تغنينها. ومن شأن ذلك أن يكون مؤلماً، ولكنه مفيد إلى حدّ كبير".

"كيف تحفز نفسك على المواظبة عليها؟".

"ما البديل عنها؟ الانصراف كلّما أصبح الوضع صعباً؟ أن تعيش حياتك بائسة وغير مكتملة؟".

"وماذا يفترض بي أن أفعل؟".

"القرار يعود إليك. ولكن نصيحتي - بما أنّك تسألين - هي المواظبة على الغوروجيتا وأنت هنا، لا سيما وأنك تعانين من رد فعل قوي عليها. فإن أزعجك شيء ما إلى هذا الحدّ، هذا لأنّه يؤدي مفعوله

بالتأكيد. وهذا ما تفعله الغوروجيتا، تحرق الأنا وتحولك إلى رماد نقيّ. من المفترض بذلك أن يكون كاويًا يا ليز. وقوّته تتجاوز فهمنا العقلي. أنت باقية في المعتزل لأسبوع آخر، أليس كذلك؟ بعدها، أنت حرّة في السفر والاستمتاع. إذا، غنّي التريمة سبع مرات بعد، ولن يكون عليك غناؤها بعد ذلك. تذكّري ما تقوله الغورو: كن عالمًا في تجربتك الروحية الخاصة بك. أنت لست هنا كسائحة أو صحفية، أنت هنا كساعية. استكشفي، بالتالي".

"إذا، أنت لن تتركي أفلت؟".

"يمكنك الإفلات ساعة تشائين، ليز. هذا هو العقد لشيء صغير نسبيّة الإرادة الحرّة".

53

هكذا ذهبت للترنيم في الصباح التالي، وكنت شديدة التصميم، ولكنّ الغوروجيتا رفتني في الهواء وسقطت عن ارتفاع عشرين قدمًا أو هكذا شعرت. وكان اليوم التالي أسوأ. فحضت بغضب وبدأت بالتعرق قبل الوصول حتى إلى المعبد. وظللت أفكّر: "إنها ساعة ونصف وحسب؛ يمكنك القيام بأيّ شيء في وقت قصير كهذا. حبًا بالله، بعض صديقاتك استمرّ محاضهنّ لأربع عشرة ساعة..." مع ذلك، ما كنت لأكون أكثر انزعاجًا وأنا جالسة على ذاك الكرسي. ظلّت الهبات السخنة تكتسحني، وشعرت وكأني سأغيب عن الوعي أو أعرضّ شخصاً ما من شدّة غضبي.

كان غضبي هائلًا. كان موجّهًا ضدّ جميع من في هذا العالم، لا سيما سواميجي؛ معلّم مرشدتي، الذي أسس هذا الطقس. ولم تكن

تلك مواجهة الوحيدة مع اليوغاني العظيم المتوفى. فهو الذي زارني في منام شاطئ البحر، وطلب مني أن أجد طريقة لإيقاف المد، وشعرت دوماً وكأنه يستحوذ عليّ.

كان سواميجي خلال حياته جمرة روحية متقدة لا تهدأ. شأنه شأن فرنوا الأسيزي، هو ابن عائلة ثرية وكان متوقفاً أن يشارك في أعمال العائلة. ولكنه التقى في صباه برجل تقيّ في قرية صغيرة مجاورة لقريته، فكانت تجربة غيرت حياته بعمق. وكان ما زال في سنّ المراهقة حين غادر بيته بقليل من الملابس، وأمضى سنوات وهو يزور جميع الأماكن المعتيرة في الهند، بحثاً عن معلّم روحاني حقيقي. ويقال بأنّه التقى بأكثر من ستين غورو، ولم يعثر بينهم على المعلّم الذي أراده. تضور جوعاً، هام حافي القدمين، نام في العراء في عواصف الثلج في الهيمالايا، أصيب بالمalaria، الديدنطيريا - وقال بأنها أسعدت سنوات حياته تلك التي بحث فيها عمّن يقوده إلى الله. خلال تلك السنوات أصبح سواميجي هذا يوغانياً، خبيراً في الطب والطبخ الأيورفيديين، مهندساً معمارياً، جنائياً، عازف موسيقى، محارباً بالسيوف (أحببت هذا). وفي أواسط عمره، لم يكن قد عثر على غورو بعد، إلى أن التقى يوماً بحكيم عار مجنون، قال له بأن يعود إلى البيت والقرية التي التقى فيها بالرجل التقيّ وهو طفل، وبأن يدرس مع ذلك الرجل العظيم.

أطاعه سواميجي وعاد إلى بيته، وأصبح تلميذ الرجل التقيّ الأكثر إخلاصاً، وتوصّل إلى التنوير من خلاله. ثمّ أصبح سواميجي غورو هو نفسه. ومع مرور الوقت، اتسع معتزله من مجرد ثلاث غرف في مزرعة قاحلة، إلى الحديقة التي هو عليها اليوم. ثمّ أتاه إلهام السفر والتحريض على ثورة تأملية في العالم كلّه. فأتى إلى أميركا عام 1970 وأحدث ثورة في عقول الجميع. فأعطى تلقين الشاكتيات لمئات وآلاف

الأشخاص في اليوم. كانت قوته مباشرة وتحويلية. ويذكر المحترم أوجين كالسندر (زعيم له مكانته في الحقوق المدنية، وزميل لمارتن لوثر كينغ الصغير ولا يزال قساً في كنيسة باتيست في هارلم) لقاءه بسواميجي في السبعينيات، وكيف خرّ على ركبتيه أمام الرجل الهندي مذهولاً وهو يفكر بينه وبين نفسه: "لا وقت لشيء آخر الآن... هذا الرجل يعرف كل شيء عنك".

طلب سواميجي الحماس، والالتزام، والسيطرة على النفس. ولطالما لام الناس على كونهم جامد، وهي كلمة هندية تعني كسالى. وأتى بمفاهيم انضباط قديمة في حياة أتباعه الغربيين المتمردين وأمرهم بالتوقف عن إضاعة وقتهم وطاقاتهم (ووقت وطاقاة الآخرين) بهرائهم الهيسي الذي لا يهدف إلى شيء. فكان يضربك بعصاه ساعة ثم يعانقك ساعة. كان معقداً ومثيراً للجدل ولكنه غير العالم بحق. والفضل في وجود كثير من الكتب اليوغانية القديمة بين أيدي الغربيين اليوم يرجع إلى أن سواميجي أشرف على ترجمة وإعادة إحياء النصوص الفلسفية التي كان مصيرها النسيان، حتى في كثير من أنحاء الهند.

مرشدتي كانت أكثر تلاميذ سواميجي إخلاصاً. فقد ولدت فعلاً لتكون خليفته، وأبواها الهنديان كانا من أوائل أتباعه. حين كانت لا تزال طفلة، كانت ترنم لثمانية عشرة ساعة في اليوم، ولا تتعب من التأمل. وقد أدرك سواميجي قدراتها وجعلها مترجمته حين كانت لا تزال فتاة مراهقة. فجابت معه العالم، وكانت تولي انتباهاً كبيراً لمعلمها الروحي، كما قالت لاحقاً، إلى حد أنها كانت تشعر به يحدثها من ركبتيه. وأصبحت خليفته عام 1982، وكانت لا تزال في عقدها الثاني من العمر.

يتشابه جميع المعلمين الروحيين الحقيقيين في كونهم موجودين في حالة دائمة من الإدراك الذاتي ولكن صفاتهم الخارجية تتفاوت.

والفروقات الظاهرية بين مرشدتي الروحية ومعلمها شاسعة؛ فهي أنثوية، متعددة اللغات، خريجة جامعية، وامرأة مهنية. أما هو فكان أسداً هندياً جنوبياً عجوزاً متقلباً أحياناً وملكياً أحياناً أخرى. بالنسبة إلى فتاة لطيفة مثلي آتية من نيوانغلاند، من السهل اتباع معلمتي الحية المطمئنة جداً في لياقتها؛ ذاك النوع من الغورو الذي يمكنك اصطحابه إلى البيت للقاء أبويك. أما سواميجي، فيبدو شخصية جاحمة. ومنذ أن مشيت في هذا الطريق اليوغاني ورأيت صورته، وسمعت القصص عنه، قررت البقاء بعيدة عن طريقه. فهو كبير جداً، ويثير أعصابي.

لكن، في أثناء وجودي هنا في المعتزل، في بيته، أجد بأن سواميجي هو كل ما أريده وكل ما أشعر به. إنه الشخص الوحيد الذي أتحدث معه في تأملاتي. هو حاضر بقوة حتى خلال موته. إنه المعلم الذي أحتاج إليه لأنني أستطيع شتمه وإظهار كل عيوبي وفشلي له، ولا يقابلني سوى بالضحك. الضحك والحب. فضحكه يضاعف غضبي والغضب يدفعني إلى التحرك. وأقرب ما يكون إليّ وأنا أناضل لغناء الغوروجيتا، بمعانيها السنسكريتية التي أعجز عن سر غورها. فأحاوره في ذهني طيلة الوقت بنبرة غاضبة مثل: "من الأفضل لك أن تفعل شيئاً لأجلي لأنني أقوم بهذا لأجلك! أريد أن أرى بعض النتائج هنا! فليكن هذا مطهراً على الأقل!". البارحة بلغ مني الغضب مبلغاً حين نظرت إلى كتاب الترنيم واكتشفت بأننا لم نزل في البيت الرابع والعشرين، وقد بدأت أنزعج وأتعرق (ليس كما يتعرق الناس، بل كما يذوب الجبن)، فصرخت بصوت عالٍ: "لا شك بأنك تمزح!" فالتفت إليّ بعض النساء مذعورات، وقد توقعن على الأرجح بأنني فقدت عقلي.

أتذكر من وقت لآخر بأنني كنت أعيش في روما، وأمضي ساعات الصباح بتناول المعجنات، وشرب الكابوتشينو، وقراءة الصحيفة.

كانت أياماً جميلة بالطبع.
مع أنّها تبدو بعيدة جداً الآن.

54

استغرقت في النوم هذا الصباح. وهذا يعني أنني نمت بكسل حتى الساعة الرابعة والربع صباحاً. ولم أستيقظ سوى قبل دقائق من بدء الغوروجيتا، فأقنعت نفسي بالنهوض من السرير على مضض، ثمّ غسلت وجهي، وارتديت ملابسني، وغادرت غرفتي قبل طلوع الفجر بقلق واستياء... لأكتشف بأنّ زميلتي في الغرفة قد خرجت قبلي وأقفلت الباب عليّ.

في الواقع، من الصعب عليها القيام بذلك. فالغرفة ليست كبيرة إلى حدّ ألاّ تلاحظ بأنّ شخصاً آخر لا يزال نائماً في السرير الآخر. وهي امرأة أسترالية مسؤولة حقاً وعملية، أمّ لخمسة أولاد. ومع أنّ هذا ليس أسلوبها، إلاّ أنّها قامت به، وحبستني في الغرفة.

ففكرت بيني وبين نفسي، أنّها حجّة ملائمة جداً لعدم الذهاب إلى الغوروجيتا. أمّا فكري الثانية، فلم تكن فكرة، بل عملاً.

فقد قفزت من النافذة.

وتحديداً، زحفت على الدرابزين وأنا أتشبّث به بيدي المتعرّقتين، ثمّ تدليت للحظة عن ارتفاع طابقيين في الظلام، وأنا أسأل نفسي سؤالاً وجيهاً: "لِمَ تقفزين من المبنى؟" فأنت الإجابة بتصميم عنيف وغير شخصي: عليّ الذهاب لحضور الغوروجيتا. ثمّ تركت نفسي أسقط إلى الخلف عن ارتفاع اثنتي عشرة إلى خمس عشرة قدماً عبر هواء الليل لارتطم بالأرض الإسمنتية وأصطدم بشيء ما في طريقي، خلّف جرحاً

طويلاً في ساقبي. ولكنني لم آبه، بل نهضت، وركضت حافية ونبضي يكاد يصمّ أذني حتى وصلت إلى المعبد. فبحثت عن مقعد، ثمّ فتحت كتاب الصلاة مع بدء الترنيمة، وبدأت أنشد الغروروجيتا فيما كانت ساقبي تنزف طيلة الوقت.

لم ألتقط أنفاسي سوى بعد بضعة أبيات، حيث رحت أفكّر كعادتي كلّ صباح: لا أريد أن أكون هنا. ولكنني ما لبثت أن سمعت سواميجي ينفجر ضاحكاً في رأسي قائلاً: هذا مضحك، أنت تتصرّفين من دون شكّ مثل شخص يريد أن يكون هنا. فأجبت: حسناً، أنت على حقّ.

جلست هناك أغني، أنزف، وأفكّر في أنّه عليّ أن أغير موقفي من هذه الممارسة الروحية. إذ يفترض بالغوروجيتا أن تكون ترنيمة حبّ صاف، ولكنّ شيئاً ما يعني من تقديم هذا الحب بصدق. لذا، رحت أفكر وأنا أغني، في أنّه عليّ إيجاد شيء أو شخص أقدم له هذه الترنيمة، لكي أجد مكاناً للحب الخالص في داخلي. ومع البيت العشرين، عثرت عليه: نيك.

نيك هو ابن أختي. يبلغ الثامنة من العمر، نحيل جداً بالنسبة إلى سنّه، ولكنّه ذكي بشكل محيف، شديد الحساسية والتعقيد. حتى بعد دقائق من ولادته، وبين جميع الأطفال حديثي الولادة الذين كانوا يبكون في غرفة الحضّانة، كان هو الوحيد الذي لا يبكي، بل ينظر حوله نظرة مليئة بالنضج والقلق، وكأنّه قام بهذا الأمر مرات عديدة من قبل وليس واثقاً من رغبته بالقيام به مجدداً. حياة هذا الطفل ليست سهلة على الإطلاق. فهو يسمع ويرى ويشعر بكلّ شيء بحدّة كبيرة، وتغلبه عواطفه بسرعة أحياناً إلى حدّ يثير أعصابنا جميعاً. أحبّ هذا الصبي بعمق وأحب حمايته. وأدركت حين حسبت فرق التوقيت،

بأنه وقت خلوده إلى السرير. فرحت أغتني لأجله لأساعده على النوم. فففي بعض الأحيان، يعاني نيك من صعوبة في النوم لأنه يعجز عن تسكين عقله. فأهديته كلّ كلمه في الترنيمه. ملأت الأغنية بكلّ ما وددت تعليمه إياه عن الحياة. حاولت طمأنته بأنّ العالم صعب وشاقّ في بعض الأحيان، ولكن، لا بأس في ذلك لأنّه محبوب جداً، ومحاط بالناس المستعدين للقيام بأيّ شيء لأجله. إنه يملك حكمة وصبراً في داخله سيكتشفهما مع الوقت وسيساعدانه على تجاوز مصاعب الحياة. ليس هذا وحسب، بل هو هبة من الله لنا جميعاً. أخبرته بذلك من خلال هذه الترنيمه السنسكريتية القديمة وسرعان ما رحّت أذرف الدموع الباردة. ولكن، قبل أن أمكّن من مسحها، انتهت الغوروجيتا. انتهت الساعة والنصف. شعرت وكأنّ عشر دقائق مرّت وحسب. ثمّ أدركت ما حدث. لقد حملني نيك عبرها. الروح الصغيرة التي كنت أغني لها لأساعدها كانت هي التي ساعدتني في الواقع.

خرجت من المعبد، وسجدت على وجهي شاكرة، لقوة الحبّ الثورية، لنفسي، لمرشدتي ولابن أخي؛ وفهمت للحظة وجيزة على مستوى الذرّة (لا العقل) أنّه لا فرق على الإطلاق بين أيّ من تلك الكلمات أو تلك الأفكار أو أولئك الأشخاص. ثمّ دخلت كهف التأمل، وجلست فيه لساعتين تقريباً أهمهم بسكون، من دون أن أتناول الفطور.

لا حاجة للقول بأنني لم أفوتّ حضور الغوروجيتا بعد ذلك اليوم، وبأنها أصبحت الممارسة الأكثر أهمية بالنسبة إليّ في المعتزل. وبالطبع، لم يتردّد ريتشارد من مضايقتي حول قفزي من المهجع، بل كان يقول لي كلّ مساء بعد العشاء: "أراك في الجيت غداً، يا بقول. حاولي استعمال السلام هذه المرة". وبالطبع، اتصلت بشقيقتي في الأسبوع التالي وقالت

إنه، ولأسباب لا يفهمها أحد، لم يعد نيك يعاني من مشاكل في النوم. وبعد بضعة أيام، كنت أقرأ في المكتبة كتاباً عن سري رامكريشنا، حين وقعت على قصة عن ساعية أتت مرةً لرؤية المعلم سري رامكريشنا وأحيرته بأنها تخشى عدم كونها تحب الكريشنا بما يكفي. فقال لها: "أليس ثمة ما تحبينه؟" فأقرت المرأة بأنها تحب ابن أخيها الصغير أكثر من أي شيء في العالم. فقال لها: "هذا هو إذاً الكريشنا الخاص بك، محبوبك. في خدمتك لابن أخيك، أنت تخدمين الكريشنا". لكن الأمر المذهل فعلاً هو ما حدث في اليوم نفسه الذي قفزت فيه من المبني. فعصر ذلك اليوم، التقيت بداليا، زميلتي في الغرفة. وحين أخبرتها بأنها حبستني في الغرفة، بدت مذعورة. قالت: "لا أتخيل لم أفعل أمراً مماثلاً! لا سيما وأنت كنت تشغلين بالي طوال الصباح. فقد رأيت حلماً قوياً حقاً عنك في الليلة الفائتة. ولم تفارقي ذهني طيلة النهار".

أخبريني عنه".

"حلمت بأنك كنت تحترقين، وسريرك كان يشتعل أيضاً. قفزت محاولة المساعدة، ولكن حين وصلت، لم يتبق منك سوى رماد أبيض".

55

كانت تلك هي اللحظة التي قررت فيها البقاء هنا في المعتزل. لم تكن تلك خطتي الأساسية، بل كنت أنوي المكوث هنا لستة أسابيع وحسب، لأعيش تجربة روحية تتجاوزية، ومن ثم أتابع السفر عبر الهند... أحضرت معي خرائط وأدلة سياحية وأحذية مشي، كل شيء!

لديّ معابد معينة وجوامع ورجال دين لمقابلتهم. أعني، إنها الهند! ثمّة الكثير لرؤيته وتجربته هنا، مناطق لزيارتها، معابد لاستكشافها، أفيال وجمال لركوبها. وسأحزن كثيراً لعدم رؤية الغانج وصحراء راجاستاني الكبيرة وصالات سينما بومباي الغربية والهيمالايا ومزارع الشاي القديمة وعربات جنركشة كالكوتا تتسابق مع بعضها مثل مشهد العربة في بين-هور. وكنت أخطط للقاء الدايلاما في آذار، في دارامسالا، كنت أمل أن يعلمني...

أما البقاء في معتزل صغير في قرية صغيرة في مجاهل الهند فلم يكن من ضمن مخططاتي.

من جهة أخرى، يقول معلّمو الزن إنّه لا يمكن للإنسان رؤية انعكاس صورته في المياه الجارية، بل في المياه الساكنة وحسب. وبالتالي، لم يكن من الصحيح برأيي الجري الآن، وكلّ هذه الأمور تحدث معي هنا، في هذا المكان الصغير النائي، حيث تم تنظيم كلّ لحظة من اليوم لتسهيل اكتشاف الذات والممارسة الروحية. هل احتاج حقاً إلى ركوب القطارات والسير في أزقة الهند الآن؟ ألا يمكنني القيام بذلك لاحقاً؟ ألا يمكنني لقاء الدايلاما في وقت آخر؟ ألن يكون الدايلاما موجوداً دوماً؟ (ولو مات، لا سمح الله، ألن يجدوا آخر؟) ألا يبدو جواز سفري أصلاً أشبه بامرأة سيرك موشومة؟ هل سيعطيني السفر حقاً تجربة أكثر قرباً...؟

لم أعرف ماذا أفعل. أمضيت اليوم وأنا أفكّر في الموضوع. وكالعادة، كانت لريتشارد من تكساس الكلمة الأخيرة.

"ابقي يا بقول. انسي أمر رؤية الآثار، لديك بقية حياتك لفعل ذلك. أنت في رحلة روحية يا عزيزتي. لا تتوقّفي في منتصف الطريق. لا تديري ظهرك للفرص المتاحة لك هنا".

سألته: "ولكن ماذا عن كل الأشياء الجميلة التي أودّ رؤيتها في الهند. أليس من المثير للشفقة أن تقطع نصف العالم لتبقى في معتزل صغير طيلة الوقت؟".

"بقول يا عزيزتي، أصغي إلى صديقك ريتشارد. اجلسي كل يوم في كهف التأمل للأشهر الثلاثة القادمة وأعدك بأنك ستبدأين برؤية أشياء جميلة إلى حدّ أنك سترغبين برمي الطماطم على تاج محلّ".

56

إليك ما فكّرت فيه هذا الصباح في أثناء التأمل.
رحت أتساءل أين سأعيش بعد انتهاء عام السفر هذا. لا أريد العودة إلى نيويورك. ربّما أعيش في مدينة جديدة. يفترض بأوسن أن تكون جميلة. كما أنّ هندسة شيكاغو جذّابة، ولكنّ شتاءها رهيب. أو ربّما أعيش في الخارج. فقد سمعت الكثير عن سيدني... إن عشت في مكان معيشة أقلّ غلاء من نيويورك، فربّما أمكنني استئجار منزل بغرفة نوم إضافية، وتحويلها إلى قاعة تأمل! سيكون هذا لطيفاً. أستطيع طلاءها باللون الذهبي. أو ربّما الأزرق الفخم. لا، الذهبي. لا، الأزرق...

أخيراً ذعرت حين لاحظت اتجاه أفكارني. ها أنت هنا في الهند، في معتزل، وعضواً عن التواصل مع الله، تحاولين التخطيط للمكان الذي ستمارسين فيه التأمل بعد عام من الآن، في منزل غير موجود بعد، في مدينة لم تحدديها. ماذا لو حاولت أيتها الحمقاء التأمل هنا، الآن، حيث أنت؟

عدت للتركيز على المانترا.

وبعد لحظات، توقفت للتفكير في كلمة حمقاء التي نعت نفسي بها. وقررت بأن ما قلته ليس حنوناً جداً.

مع ذلك، فكرت في اللحظة التالية في أن غرفة التأمل الذهبية ستكون جميلة.

فتحت عيني وتنهّدت. أهذا أفضل ما يمكنني القيام به حقاً؟

هكذا جرّبت ذاك المساء شيئاً جديداً. فقد التقيت مؤخراً في المعتزل بامرأة كانت تدرس تأمل فيياسانا. والفياسانا هي تقنية تأمل بوذية تقليدية جداً وبالغة الحدة. وتعتمد أساساً على الجلوس وحسب. تدوم دروس الفيياسانا التمهيديّة لعشرة أيام، يجلس خلالها التلميذ عشر ساعات في اليوم في أوضاع تمدّد ساكنة تدوم لساعتين أو ثلاث متواصلة. حتى إنّ معلّم الفيياسانا لا يعطيك مائترا، بل يعتبر ذلك نوعاً من الغشّ. ذلك أنّ الفيياسانا تقوم على مجرّد النظر إلى العقل ومشاهدته والتأمل التام في نماذج تفكيرك، من دون السماح لشيء أن يحركك من جلستك.

هي متعبة جسدياً أيضاً. فمن المنوع تحريك الجسد فثائياً متى جلست، مهما كان انزعاجك كبيراً. بل ينبغي عليك أن تجلس وتقول: "لا داعي لأن أحتاج إلى التحرك على الإطلاق في الساعتين التاليتين". وإن شعرت بالانزعاج، عليك أن تتأمل في هذا الانزعاج وتراقب أثر الألم الجسدي عليك. ففي حياتنا اليومية، نحن نتحرك باستمرار لتجنّب الانزعاج - الجسدي والعاطفي والنفسي - هرباً من الواقع المليء بالحزن والأذى. ولكنّ تأمل الفيياسانا يعلمنا بأنّ الحزن والأذى لا يمكن تجنبهما في هذه الحياة، ولو وقفت بسكون لمدة طويلة بما يكفي، ستكتشف مع الوقت حقيقة أنّ كلّ شيء (أكان مزعجاً أم مريحاً) يمرّ في النهاية.

تقول التعاليم البوذية القديمة: "العالم مبتلى بالموت والفناء، لذا، فإن الحكيم لا يحزن، لأنه يعرف قوانين العالم". بتعبير آخر: عليك الاعتقاد على ذلك.

لا أظنّ بأنّ الفيلاسانا هي الطريق المناسب لي بالضرورة. فهي جديدة كثيراً بالنسبة إلى أفكاري عن الممارسة التعبدية التي تتمحور عموماً حول التعاطف، والحب، والفرشات، والنعيم... في الحقيقة، لديّ مشاكل الشخصية الخاصة مع كلمة استقلال بحدّ ذاتها، بعد أن التقيت بسعاة روحيين يعيشون كما يبدو في حالة من الانفصال العاطفي التام عن بقية البشر. وحين يتحدثون عن السعي إلى الاستقلال، أشعر بأنني أودّ هزهم بعنف والصراخ: "هذا آخر ما تحتاجون إلى ممارسته!".

مع ذلك، أرى بأنّ شيئاً من الاستقلال الذكي في الحياة يشكّل أداة قيمة لبلوغ السلام. وبعد أن قرأت عن تأمل الفيلاسانا في المكتبة عصر أحد الأيام، رحت أفكر كم قضيت من الوقت في حياتي وأنا أهدأ مثل سمكة كبيرة خارج المياه، إمّا أتلوّى من الحزن والأسى أو أتحبّب توقاً إلى مزيد من اللذة. وتساءلت ما إذا كان سيُفيدني (ويُفيد الأشخاص المبتلين بجيبي) لو تعلمت أن أهدأ وأتحمل أكثر بقليل من دون الانجرار طيلة الوقت مع سير الأحداث.

راودتني كلّ تلك الأفكار مجدداً هذا المساء حين عثرت على مقعد في بقعة هادئة في إحدى حدائق المعتزل وقررت الجلوس والتأمل لساعة من الزمن على طريقة الفيلاسانا. بلا حراك أو احتياج أو حتى مانترا، بل النظر وحسب. فلنر ما سيحدث. لسوء الحظ، نسيت ما يحدث في أثناء غروب شمس الهند: البعوض. فما إن جلست على ذاك المقعد في شمس الغسق الجميلة، حتى سمعت أفواج البعوض تتوجه نحوي، تلامس وجهي

وتحطّ في هجوم جماعي على رأسي، كاحليّ وذراعيّ. تبعت ذلك لساعتها الحارقة. لم أحبّ الأمر، بل فكّرت: هذا الوقت من النهار غير مناسب لممارسة الفياسانا.

ولكن متى هو الوقت المناسب من اليوم أو الحياة للجلوس بسكون تام؟ متى لا يكون ثمة ما يحوم حولك ويحاول إلهائك والتغلب عليك؟ فاتخذت قراراً (استوحيته مجدداً من تعليمات الغورو وهو أن نصبح علماء في تجربتنا الداخلية الخاصة بنا). فقدمت نفسي للتجربة، ماذا لو جلست على الرغم من ذلك لمرة في حياتي؟ عوضاً عن صفع الحشرات والتقاطها، ماذا لو جلست على الرغم من هذا الانزعاج لساعة واحدة وحسب في حياتي؟

وهكذا كان. جلست ساكنة أشاهد نفسي تلتهمني أفواج البعوض. وللصراحة، كان جزء مني يتساءل إلى ماذا تُهدف تجربة تعذيب النفس هذه، ولكن جزءاً آخر كان يعرف تماماً أنّها محاولة أولى للسيطرة على النفس. إن تمكّنت من تحمل هذا الانزعاج الجسدي غير القاتل، أيّ أنواع من الانزعاج سأتمكن من تحملها في المستقبل؟ ماذا عن العذابات العاطفية التي أعتبر احتمالها أكثر صعوبة؟ ماذا عن الغيرة، والغضب، والخوف، والخيبة، والوحدة، والعار، والملل؟

كان الحكاك مثيراً للجنون في البداية، ولكنه ذوى لاحقاً وتحول إلى شعور عام بالحرقة، فحوّلت تلك الحرارة إلى شعور طفيف بالخفة. سمحت للألم بأن يفقد معانيه المحددة ويتحول إلى إحساس صافٍ - لا جيد ولا سيئ، بل حادّ وحسب - وتلك الحدة هي التي حملتني من نفسي وأخذتني إلى التأمل. جلست هناك لساعتين. ولو أنّ طيراً حطّ بالفعل على رأسي، ما كنت لألاحظ.

أودّ توضيح أمر هنا. أعترف بأنّ هذه التجربة ليست رمزاً للصبر في تاريخ الإنسانية، ولست أطلب ميدالية شرف عليها. ولكنني شعرت بشيء من الإثارة وأنا أدرك بأنني لم أتردد يوماً خلال سنواتي الأربع والثلاثين بصفع بعوضة حين تلسعني. فقد كنت ضعيفة أمام جميع أشكال الألم والمتعة الصغيرة والكبيرة خلال حياتي. أتفاعل مع كلّ ما يحدث لي. ولكن، ها أنا ذا أكبت ردّ فعلي الطبيعي. أفعل ما لم أفعله من قبل. هو شيء صغير، هذا صحيح، ولكن ما الذي أستطيع فعله غداً وأعجز عنه اليوم؟

حين أنهيت، وقفت ومشيت نحو غرفتي، ورحت أقيّم الأضرار. أصبت بجوالي عشرين لسعة بعوض. ولكن في غضون ساعة ونصف، خفّت حدّة جميع اللسعات، وتلاشت كلها. في النهاية، كلّ شيء يمضي.

57

...

58

أصبح سجودي أكثر تفكيراً ودقّة. إذ وجدت أنّه لا جدوى من السجود الكسول. لذا صرت أسجد كلّ صباح في المعبّد قبل جلسة التأمل لبضع دقائق. فقد وجدت في بداية إقامتي في المعتزل بأنّ سجودي كان في أغلب الأحيان غير نابع من القلب. بدت جميعها متعبة، مربكة، ومضجرة. أذكر أنّي سجدت في صباح أحد الأيام

وقلت: "آه، لا أعرف ماذا أريد... ولكن لا بدّ من أنّه هناك بعض الأفكار... لذا، هل من الممكن فعل شيء بهذا الشأن؟".

هذا يشبه الطريقة التي أتحدّث بها غالباً إلى مزّين الشعر.

في السجود هناك علاقة، ونصف العمل يقع على عاتقي. إن أردت التغيير من دون أن أتكبد عناء قول ما أريده بالضبط، كيف لذلك أن يحدث؟ فنصف فائدة السجود تتمثّل في الطلب بحدّ ذاته، في النية السليمة الواضحة. وإن لم تتوفّر لديك، تذهب كلّ توسلاتك ورغباتك هباء. تتساقط عند قدميك كالضباب البارد ولا تصل أبداً. هكذا صرت آخذ الوقت كلّ صباح للبحث عمّا أريده بالتحديد. فأسجد على أرض المعبد، جبهتي على الرخام البارد، ولا أقوم إلى أن أصوغ دعاءً حقيقياً. وإن لم أشعر بأنني صادقة، أبقى ساجدة إلى أن أدعو بصدق. وما ساعدني البارحة، لن يساعدي بالضرورة اليوم. فمن شأن السجود أن يصبح بارداً ويغرق في الملل المألوف إن تركت انتباهك يشتّ عنه. ولكن إن حافظت على تركيزك، فإنك تتحمّل بذلك مسؤولية الحفاظ على روحك.

لقد لفت ريتشارد نظري حين كنت أذمّر من عجزني عن التوقّف عن التفكير في الأمور المزعجة نفسها. قال لي: "عليك أن تتعلّمي كيف تختارين أفكارك تماماً كما تختارين ملابسك كلّ يوم. إنّها قوّة يمكنك تطويرها. إن كنت ترغبين كثيراً بالسيطرة على أمور حياتك، ابدأي بعقلك. إنّ الشيء الوحيد الذي ينبغي السيطرة عليه. تخلّسي عن كلّ ما تبقى، في ما عداه. لأنك إن عجزت عن أن تكوني سيدة تفكيرك، فأنت في ورطة كبيرة لن تخرجي منها أبداً".

تبدو هذه المهمة للوهلة الأولى مستحيلة تقريباً. السيطرة على الأفكار؟ ولكن تخيّل لو أمكنك ذلك. وهذا لا يعني قمع الأفكار أو

إنكارها. فالقمع والإنكار يقومان على الادعاء بأن الأفكار والمشاعر السلبية غير موجودة. بيد أن ما يعنيه ريتشارد هو الإقرار بوجود الأفكار السلبية، لقد فهم مصدرها وسبب مجيئها، ومن ثمَّ صرفها، بكثير من التسامح والثبات. يمكنك استخدام عيادة المستشار النفسي لفهم سبب الأفكار السلبية، واستعمال التمارين الروحية للتغلب عليها. ولا شكَّ في أنَّ التحلّي عنها هو من باب التضحية. فأنت تتخلّى عن عاداتك القديمة، عن الأحقاد القديمة والضغائن المألوفة المريحة. ولا شكَّ بأنَّ كلَّ هذا يتطلّب الممارسة والجهد. ليس علماً تتقنه على الفور، بل يحتاج إلى المثابرة، وأريد القيام بذلك، لا بل أحتاج إليه، لاستعادة قوّتي. *Devo farmi le ossa*، هكذا تقال بالإيطالية. "عليّ أن أبنى عظامي".

فبدأت أحرص على مراقبة أفكاري طيلة النهار. رحت أكرّر هذا العهد مئات المرات في اليوم: "لن أكون مرسّى للأفكار الضارّة بعد اليوم". وأكرّره كلّما طرأت لي فكرة سلبية. في المرة الأولى التي قلت فيها ذلك، لفتتني كلمة مرسّى. فالمرسى هو المكان الذي تأوي إليه السفن، ميناء الدخول. تحمّلت ميناء عقلي، فهو على الأرجح ميناء متهالك، مزقته العواصف، ولكنّ موقعه جيّد وعمقه مناسب. ميناء عقلي هو خليج مفتوح، إنّه المدخل الوحيد للجزيرة ذاتي (وهي جزيرة شابة وبركانية، أجل، ولكنها خصبة وواعدة). وقد خاضت هذه الجزيرة بعض الحروب، هذا صحيح، ولكنها التزمت الآن بالسلام، بقيادة زعيم جديد (أنا) وضع سياسات جديدة لحماية المكان. والآن، ثمة قوانين أكثر صرامة بكثير بخصوص من يدخل هذا الميناء.

لا يمكن لأحد الدخول بعد الآن بأفكاره القاسية المؤذية، بسفن أفكاره المعدّبة، بسفن أفكاره المستعبدة، بسفن أفكاره الحربية، كلّها

سُتُرد. كذلك، لن يتم بعد الآن استقبال الأفكار المليئة بالغضب والسخط، بالمتمردين والقتلة القساة، بالمومسات اليائسات، بالقوادين والمحرضين المتخفين على متن السفن. ولن يتم أيضاً استقبال الأفكار آكلة لحوم البشر، لأسباب بديهية. حتى المبشرون سيتمّ التحقق بعناية من صدقهم. هذا ميناء هادئ ومسلم، مدخل جزيرة جميلة وفخورة بنفسها، بدأت للتوّ بتشجيع الهدوء. فإن أمكنك يا أفكاري العزيزة الالتزام بهذه القوانين الجديدة، أهلاً وسهلاً، وإلا، فلترجعي إلى البحر، من حيث أتيت.

هذه هي رسالتي المستمرة أبداً.

59

نشأت صداقة قوية بيني وبين تلك الفتاة الهندية تولسي، التي تبلغ سبعة عشر عاماً. فهي تعمل معي في حفّ أرض المعبد كلّ يوم. وكلّ مساء، تنتزّه معاً في حدائق المعتزل وتحدث عن موسيقى الهيب هوب، وهو موضوع يثير حماس تولسي. وتولسي هي من الفتيات الهنديات الأكثر جاذبية، لا سيما بعد أن انكسرت إحدى عدسات نظارتها الأسبوع الماضي بشكل عنكبوتي، وتوقّفت عن وضعها. وتمثّل تولسي بالنسبة إليّ كثيراً من الأشياء المثيرة والغريبة بالنسبة إليّ - مراهقة، صيبانية، فتاة هندية، متمرّدة في عائلتها، روح مجنونة... وكأنّها فتاة مدرسة مغرمة. كما أنّها تحدّثت إنكليزية جميلة سارة - لا تجدها سوى في الهند - تحتوي على كلمات استعمارية على غرار "عظيم!" و"هراء!" وتصوغ في بعض الأحيان جملاً فصيحة مثل: "من المفيد السير على العشب في الصباح، حين يكون الندى قد تراكم، لأنّه

يخفض حرارة الجسم على نحو طبيعي ولطيف". حين أخبرتُها مرّة أنّني ذاهبة إلى مومباي لقضاء اليوم، قالت: "أرجوك كوني حذرة، فثمّة كثير من الباصات السريعة في كلّ مكان".

سنّها نصف سنّي تماماً، كما أنّها بنصف حمي.

تحدّثنا كثيراً أنا وتولسي عن الزواج مؤخراً خلال نزهاتنا. فهي ستبلغ الثامنة عشرة تقريباً، ما يجعلها مؤهلة للزواج. والأمور تحدث على الشكل التالي: بعد ذكرى ميلادها الثامنة عشرة، سيطلب منها حضور حفلات زفاف العائلة وهي ترتدي الساري، كإشارة إلى بلوغها سنّ الزواج. فتأتي أمة (عمة) لطيفة لتجلس بجانبها وتبدأ بطرح الأسئلة للتعرفّ بها: "كم عمرك؟ ما هو أصل عائلتك؟ ماذا يعمل والدك؟ في أيّ جامعة ستدرسين؟ ما هي اهتماماتك؟ متى ذكرى ميلادك؟" بعد ذلك، يتلقّى والد تولسي مغلّفاً بريدياً يحتوي على صورة حفيد المرأة الذي يدرس الكمبيوتر في دلهي مع الخرائط التنجيمية للشبابّ وعلاماته الجامعية، إضافة إلى السؤال المحتوم: "هل تودّ ابنتك الزواج به؟".

قالت تولسي: "هذا مقرف".

ولكنّ العائلة الهندية هتمّ كثيراً لتزويج أولادها زيجات ناجحة. فأحدى عمّات تولسي حلقت رأسها امتناناً لله لأنّ ابنتها الكبرى، التي بلغت سنّ الثامنة والعشرين، قد تزوّجت أخيراً. لا سيّما أنّ زواج تلك الفتاة كان صعباً، فقد كان لديها كثير من الأمور ضدّها. سألت تولسي ما الذي يجعل زواج الفتاة الهندية صعباً، فقالت كثير من الأسباب.

"إن كان طالها سيّماً. إن كانت كبيرة في السنّ، إن كانت بشرتها داكنة جداً. إن كانت متعلّمة إلى حدّ يصعب إيجاد رجل أعلى

مركزاً منها، وتلك مشكلة شائعة هذه الأيام لأنه لا ينبغي على المرأة أن تكون متعلّمة أكثر من زوجها. أو إن أقامت علاقة مع شخص ما وعرف بها الجميع، آه، يصبح من الصعب عليها جداً إيجاد زوج بعد ذلك...".

رحت أفكّر على الفور إن كان من السهل عليّ إيجاد زوج في المجتمع الهندي. لا أدري ما إذا كان طالعي جيّداً، ولكنني بالتأكيد كبيرة جداً ومتعلّمة جداً وأخلاقي ملطّخة علناً... أنا لا أشكّل عروساً محتملة. على الأقلّ بشرتي فاتحة، هذا كلّ ما لديّ في رصيدي.

كان على تولسي الذهاب إلى حفل زواج إحدى قريباتها الأسبوع الماضي، وكانت تقول (على نحو مخالف تماماً للموضة الهندية) كم تكره حضور الأعراس. الرقص والنميمة والملابس الفاخرة. كانت تفضّل البقاء في المعتزل لحفّ الأرض والتأمّل. ليس هناك أحد في عائلتها يتفهم ذلك. فإخلاصها لله يتجاوز الحدّ بنظرهم. تقول تولسي: "الجميع في عائلتي يعتبرني مختلفة. فأنا من الأشخاص الذين إن طلبت منهم فعل شيء، يقومون بشيء آخر. كما أنّ مزاجي حادّ ولم أكن أحبّ الدراسة، باستثناء الآن فأنا ذاهبة إلى الجامعة وسأحدّد بنفسني المجال الذي يثير اهتمامي. أريد دراسة علم النفس، تماماً مثل معلّمتنا الروحية حين كانت تتراد الجامعة. فأنا أعتبر فتاة صعبة، وحسب سمعتي، عليك أن تعطيني سبباً وجيهاً لكي أقوم بأمر ما. والديّ تفهّم ذلك، وتحاول دوماً إعطائي أسباباً وجيهاً لما تطلبه منّي، بعكس أبي. فهو يعطي أسباباً، ولكنني لا أجدّها مقنعة. أتساءل في بعض الأحيان ماذا أفعل بينهم، فأنا لا أشبههم على الإطلاق".

قريبة تولسي التي تزوجت الأسبوع الماضي تبلغ الحادية والعشرين من عمرها، وشقيقتها الكبرى هي التالية على اللائحة وتبلغ العشرين

يبدو. فأشعر بشيء من الحسد إزاء ذلك، وأنا أتخيل كم هو محظوظ لأن الصداقة لا زالت تجمع بينهما، حتى بعد الانفصال. وهذا الشعور هو نتيجة غريبة لطلاقي الرهيب. فكلما سمعت بزوجين ينفصلان حياً، تتملّكني الغيرة. لا بل أسوأ من ذلك. بدأت أجد الزواج الذي ينتهي على نحو متمدّن رومانسيًا جداً. "آه... كم هذا لطيف... لا بدّ بأنهما أحبّ بعضهما حقاً...".

فسألت ريتشارد عن ذلك يوماً. قلت له: "يبدو وكأنك تشعر بالحنان تجاه طلبقتك. أما زلتما مقرّبين؟".

أجابني بلا تأثر: "كلّاً، فهي تظنّ بأنني غيرت اسمي إلى نذل".
عدم اهتمام ريتشارد لذلك أثار إعجابي. فطريقي هو أيضاً يعتقد بأنني غيرت اسمي، وهذا يفطر قلبي. فمن أصعب الأمور في هذا الطلاق هو أنّ زوجي لم يسأحني على الرحيل، على الرغم من كلّ الاعتذارات والشروحات التي طرحتها عند قدميه، وكل اللوم الذي تحمّله وكلّ الأملاك ومظاهر الندم والأسف التي كنت على استعداد لتقديمها له مقابل الرحيل. بالتأكيد، ما كان ليهنّني قائلاً: "أنا معجب جداً بكرمك وصدقك وأودّ أن أخبرك كم يسرّني أنني طلّقت من قبلك". ولكن لا، خطأي لا يغتفر، وهذا ما ترك فجوة سوداء في داخلي. وحتى، لا بل لا سيّما في أكثر أوقات السعادة والإثارة، لا يمكنني نسيانها بسهولة. ما زال يكرهني. وبدا أنّ ذلك لن يتغيّر أبداً، لن يعتقني أبداً.

كنت أتحدّث عن هذا الأمر في أحد الأيام مع أصدقائي في المعتزل؛ آخرهم كان سبّاكاً من نيوزيلندا، هو شابّ التقيت به لأنّه سمع أنّني كاتبة وبحث عني ليخبرني بأنّه كاتب هو الآخر. هو كاتب نشر مؤخراً رسالة رائعة في نيوزيلندا تحت عنوان تقدّم سبّاك عن رحلته

الروحانية. السبّاك/الشاعر من نيوزيلندا، ريتشارد من تكساس، صاحب مزرعة الألبان الإيرلندي، تولسي المراهقة الهندية وفيبيان، امرأة مسنة ذات شعر أبيض وعينين مازحتين براقيتين (كانت راهبة في جنوب أفريقيا). تلك كانت دائرة أصدقائي هنا، مجموعة نابضة بالحياة من الشخصيات التي ما كنت لأتوقع لقاءها في معتزل في الهند.

هكذا، كنا نتحدّث ذات يوم معاً عن الزواج، فقال السبّاك/الشاعر: "أرى الزواج وكأنه عملية خياطة لشخصين معاً، والطلاق أشبه بقطع أحد الأوصال، لذا يستغرق شفاؤه وقتاً طويلاً. وكلّما طال الزواج أو كان الاستئصال أقسى، استغرق الشفاء وقتاً أطول".

هذا ما يفسّر العذاب الذي مررت به طيلة تلك السنوات، إذ كنت لا أزال أحرّ ورائي شبح العضو المستأصل وأتعثّر به. تساءل ريتشارد ما إذا كنت أنوي ترك زوجي يملي عليّ نظرتي إلى نفسي لبقية حياتي، وقلت له إنني لست واثقة من ذلك، في الواقع، بدا أنّ زوجي ما زال يتمتّع بصوت قوي حتى الآن، ولأكون صادقة، ما زلت أنتظر منه أن يسامحني، أن يحرّري ويتركني أعيش حياتي بسلام. قال صاحب مزرعة الألبان: "إنّ انتظار مجيء هذا اليوم ليس عملاً حكيماً تستغلّين به وقتك".

"ماذا أفعل يا أصدقاء؟ أنا أكثر من الشعور بالذنب، كما تكثّر النساء الأخريات من استعمال لون البيج".

لم يعجب كلامي الراهبة الكاثوليكية السابقة (التي ينبغي أن تعرف الكثير عن الشعور بالذنب في النهاية): "شعور الذنب ليس سوى خدعة من الأنا لجعلك تعتقدين بأنك تحرزين تقدماً أخلاقياً. لا تقعي في هذا الفخ يا عزيزتي".

قلت: "ما أكرهه في الطريقة التي انتهى بها زواجي هو أنه لم يحلّ لها شيئاً. إنه كالجرح المفتوح الذي لا يجتم أبداً".

قال ريتشارد: "إن كنت مصرة على ذلك، إن كان هذا هو قرارك، فليكن".

قلت له: "ينبغي أن ينتهي هذا في يوم من الأيام. أتمنى لو أنني أعرف كيف".

حين انتهى الغداء، دسّ السبّاك/الشاعر القادم من نيوزيلندا ورقة في يدي يطلب مني فيها لقاءه بعد العشاء. أراد أن يريني شيئاً. هكذا قابلته تلك الليلة قرب كهوف التأمل، فطلب منّي أن أتبعه لأنه أراد أن يقدم لي هدية. مشينا عبر المعتزل ثمّ قادي إلى أحد الأبنية التي لم يسبق لي دخولها، فتح أحد الأبواب وصعدنا سلماً خلفياً. اعتقد بأنه يعرف هذا المكان لأنه هو من يصلح جميع وحدات التكييف، وبعضها يقع هناك. في أعلى السلم كان ثمة باب قام بفتح مزاجه بسهولة، من ذاكرته. عندها وصلنا إلى سطح جميل، مبلط بقطع السيراميك التي كانت تلمع تحت ضوء المغيّب مثل قعر بركة. قادي عبر السطح إلى برج صغير، هو في الواقع منارة، وأراني سلماً ضيقاً آخر يؤدي إلى قمة البرج. أشار إلى البرج قائلاً: "سأتركك الآن. ستصعدين إلى هناك وتبقين إلى أن ينتهي".

سألته: "إلى أن ينتهي ماذا؟".

ابتسم السبّاك وأعطاني كشافاً: "هذا لكي تنزلي بأمان حين ينتهي". كما أعطاني ورقة مطوية ثمّ رحل.

صعدت الأدراج إلى أعلى البرج. كنت أقف الآن في أعلى مكان في المعتزل، يشرف على منظر يضمّ هذا الوادي الهندي بأكمله. امتدّت الجبال والمزارع على مدّ ناظري، وشعرت بأنه لا يسمح عادة للطلاب

بالتسكّع في هذا المكان، إلا أنّ المنظر كان رائعاً. ربّما كانت الغورو
تراقب غروب الشمس من هنا، حين تكون مقيمة في المعتزل. والشمس
كانت تغيب في تلك اللحظة، وكان النسيم دافئاً. فتحت الورقة التي
أعطاني إياها السباك/ الشاعر.
كان قد طبع عليها:

تعليمات للحرية

1. عبارات الحياة المجازية هي تعليمات...
2. لقد صعّدت للتوّ إلى السطح وفوقه. لم يعد يفصلك شيء
عن اللاهوائي. الآن، أطلقني سراحه.
3. النهار بلغ نهايته. حان الوقت لكي ينتهي شيء جميل إلى
شيء جميل. الآن، أطلقني سراحه.
4. أمّنتك بالثبات كانت دعاء. ووجودك هنا هو استجابة...
له. أطلقني سراحه، وراقبي النجوم وهي تسطع؛ في
الخارج والداخل.
5. اطلبني الفضل من كلّ قلبك، وأطلقني سراحه.
6. سامحيه، من كلّ قلبك، سامحي نفسك، وأطلقني سراحه.
7. حرّري نيتك من العذاب الذي لا طائل منه، ثمّ أطلقني
سراحه.
8. راقبي حرارة النهار تذوب في برودة الليل. أطلقني
سراحه.
9. حين تزول كارما علاقة ما، لا يبقى سوى الحبّ. إنّه آمن.
أطلقني سراحه.
10. حين يرحل عنك الماضي أخيراً، أطلقني سراحه. ثمّ اصعدني
وتابعي حياتك. بفرح عظيم.

لم أستطع التوقف عن الضحك في الدقائق الأولى. كنت أشرف على الوادي بأكمله، على مظلة شجر المانغا، وكان شعري يرفرف في الهواء كالعلم. راقبت الشمس تغيب، ثم تمددت على ظهري ورحت أرقب النجوم وهي تشرق في السماء. أنشدت ترنيمة قصيرة بالنسكريتية، ورحت أكررها كلما سطعت نجمة جديدة في السماء، وكأني كنت أناديها، ولكنها راحت تظهر بسرعة كبيرة ولم أعد قادرة على مجاراتها. وسرعان ما تحولت السماء إلى مسرح للنجوم المتألقة. فأغمضت عيني وقلت: "يا الله، أرجوك أربي ما أحتاج إلى فهمه عن الغفران والاستسلام".

كنت أرغب منذ وقت طويل بإجراء حديث فعلي مع زوجي السابق، ولكن من الواضح بأن هذا لن يحدث أبداً. ما أردته بقوة كان قراراً، قمة صلح، مع فهم مشترك لما حدث في زواجنا، وغفران متبادل لبشاعة طلاقنا. ولكن شهوراً بين المحامين والوسطاء لم تردنا سوى انقساماً وعناداً، وحوالتنا إلى شخصين عاجزين تماماً عن تحرير واحدهما الآخر. مع ذلك، هذا ما كنا بحاجة إليه، أنا واثقة من ذلك. كما أنني واثقة من أمر آخر، أنك لا يمكن أن تتقرب إنشأ واحداً من الله ما دمت متمسكاً بخيط واحد من خيوط اللوم. فكما يضر التدخين بالرئتين، كذلك يفعل الاستياء بالروح، حتى نفخة واحدة منه، تضر بالإنسان. فأني دعاء هذا الذي يقول: "أعطينا حقننا كفاف يومنا؟" لذا، ما طلبته من الله تلك الليلة على سطح المعتزل كان - نظراً إلى أنني لن أتمكن على الأرجح من التحدث مع طليقي أبداً - أن أجد مستوى يمكننا التواصل معاً عبره. مستوى يمكننا أن نغفر لبعضنا عبره.

تمدت هناك، فوق العالم، وكنت وحيدة تماماً. غرقت في التأمل، وانتظرت ليقال لي ماذا أفعل. لا أعرف عدد الدقائق أو الساعات التي

مرّت قبل أن أعرف ماذا أفعل. أدركت أنّي كنت أفكّر في كلّ ذلك على نحو حربي جداً. إن كان التحدّث مع طليقي هو ما أريده، فلا أتحدّث معه. فلا أتحدّث معه الآن. كنت أنتظر الحصول على الغفران؟ لم لا أقدمه بنفسي إذا؟ الآن. فكّرت كم من الأشخاص يغادرون هذه الحياة من دون أن يسامحوا أو يسامحوا، كم من الأشخاص الذين يملكون أقارب أو أصدقاء أو أولاداً أو أحبّاء، يحتفون من حياتهم من دون أن تقال بينهم كلمات الرحمة أو الغفران الثمينة. كيف يتحمّل الأطراف الذين يقون على قيد الحياة بعد انتهاء العلاقات ألم ما كان يجب أن يقال؟ غير أنّي وجدت الإجابة من مكاني: يمكنك قول ما ينبغي أن يقال بنفسك، من داخلك. ليس هذا ممكناً فحسب، بل وضروري أيضاً.

عندها، فوجئت بأنني أقوم بأمر غريب وأنا ما زلت في التأمل. فقد دعوت طليقي للانضمام إلي على هذا السقف في الهند. سألته ما إذا كان بإمكانه لقائي هنا لتوديعه. ثمّ انتظرت وشعرت به يصل. حتى إنّه أمكنني اشتمام رائحته.

قلت: "مرحباً عزيزي".

وبدأت تقريباً بالبكاء، ولكن سرعان ما أدركت أنّي لا أحتاج إلى ذلك. فالدموع هي جزء من حياتنا الجسدية، ومكان لقاء هاتين الروحين تلك الليلة على ذاك السطح في الهند لا علاقة له بالجسد. فالشخصان اللذان يحتاجان إلى التحدّث معاً لم يعودا شخصين حتى. حتى إنهما لن يتكلّما، ولم يكونا زوجين أيضاً. ليس امرأة من الوسط الغربي ويانكي فخوراً بنفسه. ليس شاباً في العقد الرابع من عمره وامرأة في عقدها الثالث، ليس شخصين محدودين تجادلا لسنوات حول الجنس والمال والأثاث؛ أيّ من هذا لا علاقة له بهما. فعلى مستوى هذا

الاجتماع، كانا مجرد روحين زرقاوين باردتين تفهمان كل شيء أساساً. فبعد أن تحرّرا من جسديهما ومن التاريخ المعقد لعلاقتهما السابقة، أتيا فوق السطح (وفوقى أنا) بحكمة متناهية. كنت لا أزال في التأمّل حين رحت أراقب الروحين الزرقاوين الباردتين تدوران حول بعضهما، تمتزجان ثم تنقسمان مجدداً، وتنظران إلى كمال وتشابه كل منهما. كانتا تعرفان كل شيء. تعرفان كل شيء منذ زمن طويل وستظلّان كذلك دائماً.

لم تكونا بحاجة إلى مسامحة بعضهما، فقد ولدتا على السماح والغفران بينهما.

كان الدرس الذي تعلّماني إياه في دوراهما الجميل: "ابقي بعيدة عن هذا، ليز. فدورك في هذه العلاقة قد انتهى. دعينا نحن ننهى هذا الأمر لأجلك الآن. أمّا أنت، فتابعي حياتك".

فتحت عينيّ لاحقاً، وأدركت أنّ الأمر قد انتهى. ليس زواجي وحسب، ولا طلاقى وحسب، بل كلّ فجوة الحزن والكآبة المستمرة التي نتجت عنه... لقد انتهت. كنت قادرة على الشعور بأنني تحرّرت. هذا لا يعني أنني لن أفكرّ في طريقي بعد الآن ولن تكون لديّ أيّ عواطف مرتبطة بذكراه. ولكنّ الطقس الذي شهدته على السطح أعطاني مكاناً أبيت فيه تلك الأفكار والمشاعر حين تتحرّك في المستقبل - وستفعل دوماً. ولكن حين تظهر مجدداً سأرسلها إلى هنا، إلى هذا السطح، لتعتني بها الروحان الزرقاوان الباردتان اللتان تفهمان أساساً كل شيء.

لهذا وُجدت الطقوس. فنحن كبشر نقوم بالطقوس الروحانية لإيجاد مكان آمن ترتاح فيه أحاسيسنا الأكثر تعقيداً للفرح أو الحزن، لكي لا نجرحها معنا إلى الأبد، ونثقل كاهلنا بها. وكلّنا بحاجة إلى أماكن

كهذه. وأعتقد أنه إن كانت ثقافتنا أو تقاليدنا تفتقر إلى الطقس الذي نحتاج إليه، لنا الحقّ بالتأكيد بإيجاد طقس بأنفسنا وعلاج جهازنا العاطفي المصاب بواسطة تدابير ذاتية من ابتكار سبّاك/شاعر كريم.

ثمّ نهضت، ووقفت على يدي على سطح مرشدتي للاحتفال بمفهوم التحرّر. كنت أشعر بالبلاط المغبرّ تحت راحتي وبقوّتي وتوازني. فيما راحت نسيمات الليل تداعب أخصّص قدمي الحافيتين. وهذا النوع من الإحساس - الوقوف العفوي على اليدين - ليس بأمر تقدر عليه الروح الزرقاء الباردة، بل الكائن البشري. نحن نملك يدين، يمكننا الوقوف عليهما لو أردنا. هذا امتيازنا.

61

رحل ريتشارد الآتي من تكساس اليوم، سافر عائداً إلى أوستن. رافقته إلى المطار وكنا حزنين. وقفنا لوقت طويل على الرصيف قبل أن يختفي في الداخل.

تنهّد قائلاً: "ماذا أفعل من دون ليز غيلبرت لأغبطها؟" ثمّ أضاف: "كانت تجربتك في المعتزل جيّدة، أليس كذلك؟ تبدين مختلفة عمّا كنت عليه منذ عدّة أشهر، وكأنّك تخلّصت من بعض الحزن الذي كنت تجرّينه خلفك".

"أشعر بأنّي سعيدة حقاً هذه الأيام، ريتشارد".
"تذكّري إذاً، ستجدين كلّ بؤسك بانتظارك وأنت خارجة، هل ستحملينه معك في طريق العودة؟".

"كلا لن أحمله مجدّد".

"فتاة طيّبة".

قلت له: "لقد ساعدتني كثيراً. سأتحيلك يوماً كحارس أمين يداه مكسوتان بالشعر وأظافر قدميه مشوّهة".

"أجل، أظافر قدمي المسكينة لم تتعاف تماماً بعد فييتنام".

"الحمد لله أنك لم تصب بأذى أكبر".

"كثير من الشبان أصيبوا بأذى أكبر. على الأقل، احتفظت بساقي. حياتي لم تكن سهلة عزيزتي، وأنت أيضاً، لا تنسي ذلك. في حياتك القادمة، قد تكونين واحدة من أولئك النساء الهنديات الفقيرات اللواتي يدفعن الصخور على جانب الطريق، وتكتشفين أنّ الحياة ليست ممتعة كثيراً. لذا، قدري ما أنت فيه الآن. كوني يوماً ممتة على ما أنت فيه، وستعيشين حياة أطول. وأسدي لي خدمة يا بقول، تقدّمي بحياتك، هلاً فعلت؟".

"أنا أفعل".

"أعني، اعثري على شخص جديد تحبّينه يوماً ما. خذي الوقت الذي تحتاجينه للشفاء ولكن لا تنسي بأن تشاركي قلبك مع شخص آخر لاحقاً. لا تجعل حياتك نصباً تذكاريّاً لديفيد أو لطليقك".

أجبت: "لن أفعل". وعرفت فجأة أنني لن أفعل فعلاً. كنت أشعر بكلّ ألمي القدم الناتج عن حبي الضائع وأخطائي السابقة يذوي أمام عيني، يخفّ أخيراً بقدرة الوقت الشهيرة على الشفاء وبالصر وفضل الله.

ثمّ تكلم ريتشارد مجدداً ليعيد أفكارني بسرعة إلى الواقع: "في النهاية، عزيزتي، تذكّري أنّ أفضل طريقة لنسيان حبّ ما هي بالوقوع في حبّ جديد".

ضحكت قائلة: "حسناً ريتشارد، هذا ما سأفعله. والآن يمكنك العودة إلى تكساس".

أجاب وهو يحيط بنظره موقف السيارات الكثيب لذلك المطار الهندي: "معك حق. لأنني لن أزداد جمالاً بالوقوف هنا".

62

خلال عودتي إلى المعتزل، بعد أن انتظرت إقلاع طائرة ريتشارد، قررت أنني كنت أتكلّم كثيراً. وللصراحة، كنت كثيرة الكلام طيلة حياتي، ولكنني كنت قد أكثرت من الكلام حقاً خلال إقامتي في المعتزل. ما زال لديّ شهران هنا، ولا أريد أن أضيع أعظم فرصة روحانية لي في حياتي بالثرثرة والعلاقات الاجتماعية. وقد أذهلني اكتشاف أنني حتى هنا، حتى في هذه البيئة الروحانية المعزولة الواقعة في المقلب الآخر من العالم، تمكّنت من تكوين دائرة اجتماعية حيوية من حولي. لم يكن ريتشارد هو من كنت أتحدّث معه طيلة الوقت، ولكن كان ثمة دوماً من أثرثر معه. حتى إنني وجدت نفسي - في معتزل، من بعد إذنك! - أضرب مواعيد لرؤية معارفي وأنا أقول لأحدهم: "أنا آسفة، لا يمكنني الخروج للغداء معك اليوم لأنني وعدت ساكشي بأن أتناول معها الطعام... ربّما يمكننا الخروج يوم الثلاثاء القادم".

تلك كانت قصة حياتي، فهذا ما أنا عليه. ولكنني بدأت أعتقد مؤخّراً أنها قد تكون عائفاً روحانياً. فالصمت والوحدة هما من الممارسات الروحية المعترف بهما عالمياً، ولأسباب وجيهة. فضبط الحديث هو طريقة لمنع الطاقات من الانسكاب من الإنسان عبر فمه، فتنهكه وتملأ العالم بالكلمات والكلمات والكلمات عوضاً عن السكون والسلام والصفاء. وسواميجي كان شديد التمسك بالصمت في المعتزل، يفرضه بقوة كتمارسة تعبدية. وقد سمّي الصمت المذهب

الروحاني الأسمى الحقيقي الوحيد. ومن المضحك كم كنت أتكلّم في هذا المعتزل، المكان الوحيد في العالم الذي يجب - ويمكن - أن يسود فيه الصمت.

لذا، قرّرت ألا أكون الوجه الاجتماعي الأبرز في المعتزل بعد الآن. لا مزيد من الجري والنميمة والمزاح. لا مزيد من المحادثات والتعليقات والتأكيدات. حان الوقت للتغيير. فرحيل ريتشارد، سأجعل إقامتي في المعتزل تجربة هادئة تماماً. سيكون هذا صعباً، ولكنه ليس مستحيلاً، لأنّ الصمت محترم من قبل الجميع هنا. فالكلّ يدعمه ويعترف به كعامل يساعد على ضبط النفس. حتى إنهم يبيعون في المكتبة شارات كتب عليها: "أنا في حالة صمت".

سأشتري خمسة من تلك الشارات الصغيرة.

خلال رحلة العودة إلى المعتزل، رحت أتخيّل مدى التزامي بالصمت. سألتزم به إلى حدّ أنني سأصبح مشهورة. تخيلت أنني أصبحت أسمى تلك الفتاة الصامتة. سألتزم بدوام المعتزل وأتناول وجباتي وحيدة، سأتأمل لساعات طويلة كلّ يوم، وأحفّ أرض المعبد من دون أن أنبس ببنت شفة. واتصالي الوحيد بالآخرين سيكون بابتسامة سعيدة من داخل عالم السكون والتقوى الذي أعيش فيه. وستحدّث الناس عنّي. سيسألون: "من هي تلك الفتاة الصامتة في الجزء الخلفي من المعبد التي تمضي الوقت جاثية على ركبتيها تحفّ الأرض؟ إنها لا تتكلّم أبداً. بل هي منعزلة دوماً وغامضة. لا نعرف حتى كيف هو صوتها. كما أنك لا تشعر بها وهي تسير خلفك في الحديقة حين تخرج للمشى... فهي تسير بهدوء، كالنسيم. لا بدّ من أنهما في حالة تأمل دائم. إنها أكثر فتاة هادئة رأيتها في حياتي".

في الصباح التالي، كنت جاثية على أرض المعبد، أحفّ الرخام مجدّداً، تشعّ متّي (كما تخيلت) هالة من الصمت، حين أتى صبي هندي يحمل لي رسالة بأن أحضر إلى مكتب سيفا على الفور. سيفا هي كلمة سنسكريتية تعني الممارسة الروحية للخدمة الذاتية (كحفّ أرض المعبد، مثلاً). ومكتب سيفا هو الذي يدير الوظائف الموكلة إلى كلّ من في المعتزل. فتوجّهت إلى هناك وأنا أتساءل عن سبب استدعائي، فسألني السيّدة اللطيفة الجالسة خلف المكتب: "هل أنت إليزابيث غيلبرت؟".

ابتسمت لها بدفء وتقوى وهزرت برأسي. بصمت.
فأخبرتني بأن عملي قد تغيّر. وأنّي، بناء على طلب خاصّ من المدير، لم أعد أنتمي إلى فريق حفّ الأرض. لديهم وظيفة أخرى لي في المعتزل.

كان اسم وظيفتي الجديدة "مضيّفة المفتاح".

كانت تلك من دون شكّ مزحة أخرى من مزحات سواميجي.
أردت أن تكوني الفتاة الهادئة في المعتزل؟ حسناً، احزري ماذا نجّبات لك...

لكن هذا ما يحدث دائماً في المعتزل. تتخذ قرارات خطيرة ومضحكة عمّا تحتاج إلى فعله، أو تحتاج إلى أن تكون عليه، فتأتي الظروف لتكشف لك على الفور بأنك لا تفهم سوى القليل عن

نفسك. لا أعرف كم مرّة قالها سواميجي في حياته، وكم مرّة كرّرتها مرشدتي من بعده.

كان سواميجي يقول إنّه في كلّ يوم يتخلّى المتزهدون عن شيء جديد، ولكنهم لا يصلون بذلك إلى السلام، بل إلى الإحباط. وكان يعلم دوماً أنّ القسوة والتزهد ليسا ما نحتاج إليه. علينا التخلّي عن شيء واحد، ألا وهو إحساسنا بالانفصال عن الله. وفي ما عدا ذلك، ابق كما أنت، بشخصيتك الطبيعية.

ما هي شخصيتي الطبيعية إذا؟ أحبّ الدراسة في هذا المعتزل، وأحلم بمعرفة الله وأنا أتقلّب في المكان بصمت بابتسامة لطيفة؛ من هو هذا الشخص؟ إنّه على الأرجح شخصية تلفزيونية. في الحقيقة، يجزني قليلاً الإقرار أنّي لن أكون أبداً تلك الشخصية. فلطالما أعجبت بتلك الأرواح الرقيقة الشبيهة بالأطياف. لطالما أردت أن أكون الفتاة الهادئة، وربّما كان ذلك بالتحديد لأنّني لست كذلك. ولهذا السبب نفسه، أعتقد أنّ الشعر الغزير الأسود جميل جداً؛ لأنّني لا أملك شعراً كهذا، ولا أستطيع أن أملكه. ولكن في مرحلة معيّنة، عليك أن تتقبل ما أعطيت إياه. فلو أراد الله أن أكون فتاة هادئة ذات شعر غزير أسود، لجعلني كذلك. قد يكون من المفيد إذاً أن أقبل ما أنا عليه وأن أندمج فيه تماماً.

أو كما قال سيكستوس، الفيلسوف البيتاغوري القديم: "الرجل الحكيم الذي لا يشبهه إلاّ نفسه".

ولا يعني ذلك أنّي لا أستطيع أن أكون متعبّدة، ولا يعني ذلك أنّني لا أستطيع أن أخدم الإنسانية وأحسّن نفسي ككائن بشريّ، فأشحن فضائلي وأعمل يومياً على تقليص عيوبِي. مثلاً، صحيح أنّي لسن أكون زهرة منثورة، ولكن هذا لا يعني أنّي لا أستطيع أن أفحص

بجدية عاداتي في التكلم وتغيير بعضها نحو الأحسن؛ فأعمل من داخل شخصيتي. صحيح أنني أحب الكلام، ولكن لا يفترض بي ربّما أن أكثر من الشتائم وأن أضحك بشكل رخيص أو أن أتحدّث باستمرار عن نفسي. وربّما يمكنني التوقّف عن مقاطعة الآخرين وهم يتحدّثون؛ هذا مفهوم جذري. لأنني مهما كنت متسامحة في هذه العادة، لا يمكن رؤيتها إلاّ على هذا النحو: "أعتقد بأنّ ما أقوله أهمّ ممّا تقوله". وهذا يعني ببساطة: "أنا أهمّ منك". وينبغي عليّ أن أضع حدّاً لذلك.

من المفيد إحداث جميع تلك التغييرات. ولكن حتى مع ذلك، وعلى الرغم من التغييرات المنطقية لعاداتي في الحديث، لن أكون أبداً تلك الفتاة الهادئة، مهما كانت الصورة جميلة ومهما حاولت. لأنّ المرأة في مركز سيفاً قالت لي حين أوكلت إليّ مهمّتي الجديدة: "لدينا لقب خاص لهذا المنصب، كما تعلمين. نحن نسمّيه "قشدة الصغيرة سوزي" لأنّ من يقوم بهذا العمل ينبغي أن يكون اجتماعياً وكثير الكلام وأن يتسم طيلة الوقت".

ماذا يمكنني أن أقول.

اكتفيت بمصافحتها وودّعت بصمت أوهامي السابقة وأنا أقول:
"سيدتي، أنا في خدمتك".

65

ما سأستضيفه تحديداً هو سلسلة من الخلوات التي ستُعقد في المعتزل هذا الربيع. خلال كلّ خلوة، سيحضر مئات المتعبدين لمُدّة أسبوع إلى عشرة أيام لتعميق ممارستهم التأملية. ويقوم دوري على العناية بأولئك الأشخاص خلال إقامتهم هنا. سيكون المشاركون في

معظم الخلوات في حالة صمت. وبالنسبة إلى معظمهم، ستكون المرّة الأولى التي يلتزمون فيها بالصمت كممارسة تعبدية، ومن شأن ذلك أن يكون صعباً. بيد أنني الشخص الوحيد في المعتزل الذي سيسمح لهم بالتحدّث إليه إن طرأ خطب ما.

هذا صحيح، عملي يفرض عليّ رسمياً أن أكون كثيرة الكلام. عليّ الإصغاء لمشاكل المشاركين ومحاولة إيجاد الحلول لهم. ربّما رغّبوا بتغيير زملائهم في السكن بسبب مشكلة شخير مثلاً، أو أرادوا استشارة الطبيب في مشكلة هضمية شائعة في الهند، وهنا أحاول مساعدتهم. أحتاج في سبيل ذلك إلى معرفة أسماء الجميع، والأماكن التي أتوا منها، وسأسير وأنا أحمل دفترأ أدوّن عليه الملاحظات وأتابع جميع المشاركين.

مع بدء المعتزلات، بدا واضحاً كم أنا مناسبة لهذه الوظيفة. فأنا أجلس هناك على طاولة الاستقبال مع شارة كتب عليها "مرحباً، اسمي...". ويتوافد الناس من ثلاثين دولة مختلفة، بعضهم سبق له المحيء وكثير منهم لم تطأ أقدامهم الهند من قبل. كانت الحرارة قد بلغت المئة درجة فهرنهايت عند العاشرة صباحاً ومعظمهم قضى الليل في العربة. وبدا بعض الوافدين وكأنّهم استيقظوا للتوّ في صندوق إحدى السيارات، ولا يملكون أيّ فكرة عمّا أتى بهم إلى هنا. مهما كان الدافع الذي حدا بهم إلى الانتساب إلى هذا المعتزل قويا، فقد نسوه منذ وقت طويل، ربّما حين ضاعت حقائبهم في كوالالمبور. كانوا يشعرون بالعطش ولا يعلمون ما إذا كان بإمكانهم شرب الماء. كما كانوا جياعاً ولا يعلمون متى وقت الغداء ولا مكان الكافيتيريا. كانوا يرتدون ملابس صناعية وغير مناسبة إطلاقاً وأحذية ثقيلة في تلك الحرارة الاستوائية. ولا يعلمون أيضاً ما إذا كان ثمة من يتكلّم الروسية.

يمكنني أن أتكلّم الروسية قليلاً...

يمكنني مساعدتهم. فأنا مجهزة لذلك. جميع المستشعرات التي طورتها خلال حياتي لقراءة أحاسيس الناس، كلّ الحدس الذي نما معي منذ أن كنت طفلة شديدة الحساسية، جميع مواهبي في الإصغاء التي اكتسبتها في أثناء عملي كنادلة متعاطفة وصحفية تحقّيق، كلّ أساليب العناية التي اكتسبتها بعد سنوات من كوني زوجة أو صديقة شخص ما، كلّها تراكمت لكي أوفّر الراحة لهؤلاء الناس خلال تأديتهم المهمة الصعبة التي اختاروها. أراهم قادمين من المكسيك والفليبين وأفريقيا والدانمارك وديترويت وأتذكّر ذاك المشهد من فيلم Close Encounters of the 3rd Kind وفيه يُدفع ريتشارد دريفوس وجميع السعاة الآخرين إلى وسط يومينغ لأسباب لم يفهموها إطلاقاً، يشدهم وصول السفينة الفضائية. في الواقع، شجاعتهم تثير إعجابي. فقد ترك هؤلاء الناس عائلاتهم وحياتهم خلفهم لبضعة أسابيع وذهبوا لممارسة الصمت بين مجموعة من الغرباء في الهند. لا يفعل الجميع ذلك في حياتهم.

أحببتهم جميعاً على الفور. حتى إنني أحببت المزرعجين بينهم. استطعت أن أفهم عصبيتهم وأن أدرك أنّهم مذعورون وحسب ممّا سيحدث حين يدخلون في الصمت والتأمّل لسبعة أيام. أحببت الرجل الهندي الذي أتاني حانقاً ليخبرني أنّ لديه في غرفته تمثالاً بطول عشرة سنتمترات لغانيش وقد فقد إحدى قدميه. كان غاضباً على اعتبار أنّه نذير شؤم فظيع حسب اعتقاده وأراد أن تتمّ إزالة ذاك التمثال، ويستحسن أن يقوم بذلك كاهن براهماني، خلال مراسم تنظيف تقليدية مناسبة. فهدأته وأصغيت إلى شكواه، ثمّ أرسلت الصبية تولسي إلى غرفته للتخلّص من التمثال في أثناء تناوله وجبة الغداء. في اليوم التالي، أعطيته رسالة تقول إنني آمل أن يكون بحال أفضل بعد أن تمّت إزالة

التمثال المكسور وتذكره أنني جاهزة للمساعدة إن احتاج إلى أي شيء آخر. فشكرني بابتسامة عريضة مرتاحة. كان خائفاً وحسب. وكذلك المرأة الفرنسية التي كانت على وشك الإصابة بنوبة ذعر، كانت خائفة هي أيضاً. والرجل الأرجنتيني الذي أراد إجراء اجتماع خاص مع فريق قسم الهاذا يوغا بكامله لاستشارتهم حول أفضل طريقة للجلوس في أثناء التأمّل لكي لا يشعر بألم في كاحله، كان خائفاً وحسب. كانوا جميعهم خائفين. فهم سيدخلون في الصمت، عميقاً في عقولهم وأرواحهم. حتى بالنسبة إلى المتأمّل المتمرس، تبقى هذه الأرض مجهولة. فمن شأن أي شيء أن يحدث هناك. ومع أنّ مرشدكم خلال هذه الخلوة ستكون ناسكة رائعة في العقد الخامس من عمرها، فكلّ حركة وكلمة تصدر عنها هي تجسيد للعاطف، إلاّ أنّهم لا زالوا خائفين، لأنّها مهما كانت محبّة، لن تتمكن من مرافقتهم إلى حيث يذهبون. لا يمكن لأحد مرافقتهم.

مع بدء الخلوة، واصلتني رسالة من صديق لي في أميركا، هو مخرج أفلام عن الحياة البرية لمحطة ناشيونال جيوغرافيك. أخبرني فيها أنّه كان في حفل عشاء في نيويورك أقيم على شرف أعضاء نادي المستكشفين. وقال إنّّه من المثير لقاء أشخاص يتمتعون بتلك الشجاعة، جميعهم خاطروا بحياتهم عدة مرات لاكتشاف الأماكن النائية والخطرة في العالم، من سلاسل جبال ووديان وأنهار حتى أعماق المحيطات والحقول الجليدية والبراكين. وقال إنّ كثيراً منهم فقدوا أجزاء صغيرة من أجسادهم: أصابع وأنوف خسروها على مرّ السنوات في مواجهات مع أسماك القرش والجليد وغيرها من المخاطر.

كتب قائلاً: "لم يسبق لك أن رأيت هذا العدد من الأشخاص الشجعان مجتمعين في مكان واحد في الوقت نفسه".

فقلت لنفسني، أنت لم ترّ شيئاً، مايك.

كان عنوان الخلوة وهدفها هو حالة توريا (*turiya*)، المستوى الرابع للوعي البشري. فاستناداً إلى اليوغانيين، معظمنا يتنقل خلال التجربة البشرية النموذجية بين ثلاثة مستويات مختلفة للوعي: اليقظة، الحلم أو النوم بلا أحلام. ولكن ثمة مستوى رابع للوعي، وهو الشاهد على جميع الحالات الأخرى، إنه الإدراك الكامل الذي يربط المستويات الأخرى ببعضها. إنه الوعي الصافي، إدراك ذكي يمكنه مثلاً أن يحرك بأحلامك حين تستيقظ في الصباح. فأنت كنت غائباً، نائماً، ولكن أحداً ما كان يراقب أحلامك وأنت نائم، من كان ذلك الشاهد؟ هذا الوعي والإحساس المتواصل لا يمكن أن يحدث سوى على المستوى الرابع للوعي البشري، الذي يسمّى توريا.

كيف تعرف إن كنت قد بلغت حالة التوريا أم لا؟ ينبغي أن تكون في حالة من السعادة المستمرة. فمن يعيش في حالة التوريا لا يتأثر بتقلبات مزاج العقل ولا يخيفه الوقت أو تؤذيه الخسارة. "نقي، نظيف، خال، هادئ، لا يتنفس، غير أناني، لا متناه، لا يفسد، ثابت، أبدي، مُستقل، إنه يسكن في عظمته الخاصة". كما يقول الكتاب اليوغاني القديم اليوبانيشاد، وهو يصف من بلغ حالة التوريا. فالمعلمون الروحانيون العظماء عبر التاريخ كانوا يعيشون في حالة التوريا طيلة الوقت. أمّا بالنسبة إلى بقية البشر، فمعظمنا بلغناها أيضاً، وإن في لحظات عابرة. كما أنّ معظمنا انتابه في وقت من الأوقات، وإن لدقيقتين في حياته فقط، إحساس عابر ولا مبرر له بالسعادة الكاملة، لا يرتبط أبداً بما يحدث في العالم الخارجي. ففي لحظة تكون إنساناً عادياً تكافح عبر حياتك الدنيوية، ثم فجأة، ومع أنّ شيئاً لم يتغير، إلا أنك

تشعر بالسعادة الغامرة وبأنّ كلّ ما يحيط بك رائع، من دون أيّ سبب كان.

بالطبع، تمرّ هذه الحالة على معظمنا بسرعة خاطفة. وكأنّ كمالك الداخلي يظهر لك قليلاً لمضايقتك لتعود بعدها إلى الواقع بسرعة وهوي فوق جميع همومك ورغباتك القديمة مجدّداً. وقد حاول الناس عبر العصور التمسك بشعور الكمال ذاك بواسطة وسائل خارجية، من مخدرات وجنس وسلطة وأدرينالين وجمع الأشياء الجميلة، ولكنها لا تدوم. فنحن نبحث عن السعادة في كلّ مكان، ولكننا مثل متسوّل تولستوي الذي قضى حياته جالساً على قدر من الذهب، يستجدي القروش من المارة، غير مدرك بأنّ ثروته كانت تحته طيلة الوقت. فكنزك - كمالك - هو بداخلك أساساً. ولكن لكي تحصل عليه، ينبغي عليك أن تترك ثورة العقل المشغول دوماً وتتخلى عن رغبات الذات لتدخل في صمت القلب. والكونداليني شاكتي هي التي تأخذك إلى هناك.

هذا هو السبب الذي دفع الكل إلى المجيء إلى هنا. حين كتبت هذه الجملة أساساً عنيت بما: "هذا هو السبب الذي دفع مئة مشارك في الخلوة من جميع أنحاء العالم إلى المجيء إلى هذا المعتزل في الهند". ولكن اليوغانيين والفلاسفة كانوا ليوافقوني على التعبير الضيق الذي اختصرتها فيه. فبالنسبة إلى الصوفيين، البحث عن السعادة هو هدف الحياة البشرية. لهذا السبب اخترنا أن نولد، وهذا السبب هو الذي يجعل عذاب وآلام الحياة تستحقّ الاحتمال، لمجرّد فرصة الشعور بهذا الحبّ اللاهوائي. وحين نعرث على هذه الحالة في داخلك، أمكنك أن تتمسك بها؟ لأنك إن فعلت... تكون قد وجدت السعادة.

أمضيت فترة المعتزل بكاملها في الجزء الخلفي من المعبد، أراقب المشاركين خلال إقامتهم في هذا المكان نصف المظلم والغارق في الصمت التام. إذ يقوم عملي على الاهتمام براحتهم وحلّ مشاكلهم وتأمين احتياجاتهم. فقد نذروا الصمت خلال فترة الخلوة وكنت أشعر بهم وهم يهبطون أعماق في ذاك الصمت إلى أن أصبح المعتزل بكامله مشبعاً بسكوئهم. واحتراماً للمشاركين، كنا نسير على رؤوس أصابعنا وتتناول طعامنا بصمت. فالأحاديث اختفت. حتى أنا كنت هادئة.

في أثناء انغماس تلك الأرواح في التأمل، لم أكن أعرف ما يفكرون فيه أو يشعرون به، ولكنني أعرف ما يودّون الشعور به. وكنت أدعو باستمرار لأجلهم، وأطلب أشياء غريبة مثل، أرجوك امنح هؤلاء الأشخاص الرائعين أي نعمة احتفظت بها لأجلي. فأنا لا أنوي ممارسة التأمل الآن، بل يفترض بي الاهتمام بالمشاركين لا التفكير في رحلتي الروحانية. بيد أنني أجد نفسي أرتفع كلّ يوم على أمواج نيتهم التعبدي الجماعية، تماماً كما تركب بعض الطيور الأمواج الحرارية التي تخرج من الأرض لترتفع في الهواء أعلى مما كان لها أن تفعل بمفردها. فبعد ظهيرة أحد أيام الخميس، كنت جالسة في الجزء الخلفي للمعبد، أقوم بواجباتي كالعادة حين شعرت فجأة بأنني حُملت عبر بوابة الكون.

67

بصفتي قارئة وساعية، أشعر دوماً بالإحباط وأنا أقرأ المذكرات الروحية لشخص آخر. فعالباً ما تصادف تعبيراً لا يوصف، ما يثير الجنون عند وصف الحدث. وحتى أكثرهم فصاحة في التعبير عن

التجربة الروحانية لم يرضوني. فقد اعتاد الغورو الهندي المحبوب سري رامانا ماهارشي التحدّث طويلاً عن تجربته الروحانية لتلامذته، ليختتمها قائلاً: "والآن اذهبوا واكتشفوا بأنفسكم".

وها قد اكتشفت بنفسي الآن. ولا أريد القول إنّ ما حدث معي بعد ظهيرة ذاك اليوم في الهند كان يفوق الوصف، مع أنّه كذلك. بل سأحاول أن أشرحه بأيّ حال. ببساطة، شعرت بأنّي دُفعت عبر الفجوة الدودية للمطلق، وفهمت فجأة في أثناء ذلك طريقة عمل الكون تماماً. غادرت جسدي، غادرت الغرفة، غادرت الكوكب، عبرت الزمن ودخلت الفراغ. كنت داخل الفراغ، وكنت أنا الفراغ وأنظر إلى الفراغ في آن. كان الفراغ عبارة عن مكان غير محدود من السلام والحكمة. كان واعياً وذكياً.

ما شعرت به لم يكن هلوسة، بل حدث أساسي. نعم. كان أعمق حب شعرت به على الإطلاق يفوق كلّ ما تخيلته ولكّنه لم يكن مشيراً. لم يكن قد تبقى لديّ بقية من الذات أو الشغف لتوليد الإثارة. كان واضحاً وحسب. تماماً كما يحدث حين تحدق إلى خدعة بصرية لمدة طويلة محاولاً اكتشاف ما تنطوي عليه، وفجأة تتمكن من رؤيتها بوضوح! الوعاءين ليسا سوى وجهين. ومتى انكشفت لك، فلا يمكنك ألا تراها مجدداً...

...

لا يمكن وصف المكان الذي كنت أقف فيه بأنّه موقع أرضي. فهو لم يكن لا مظلماً ولا مضيئاً، ولا كبيراً ولا صغيراً. في الواقع، لم يكن مكاناً، ولم أكن أقف فيه، كما أنّي لم أكن أنا بالضبط. ما زالت لسديّ أفكار، ولكنّها كانت متواضعة جداً، هادئة ومراقبة. لم أكن أشعر بالتعاطف والانسجام مع كلّ شيء وكل شخص وحسب، بل

كان ثمة شيء من الغرابة والمتعة في التساؤل كيف يمكن لأي شخص أن يشعر بشيء آخر غير هذا. كما شعرت بشيء من السحر في أفكار القديمة حول من أكون وما أنا عليه. أنا امرأة، أميركية، كثيرة الكلام، كاتبة، كل هذا بدا لطيفاً وبعيداً. تخيل بأتك تحشر نفسك في علبة هوية تافهة حين يمكنك عوضاً عن ذلك الشعور بلا تناهيك.

تساءلت: "لماذا كنت أطارد سعادتي كل حياتي فيما النعيم هنا طيلة الوقت؟".

لا أعرف كم بقيت أحوم في أثير الاتحاد الرائع هذا قبل أن تخطر لي فكرة مفاجئة: "أريد البقاء هكذا إلى الأبد!" وهنا بدأت أخرج منه. مجرد كلمة صغيرة - أريد! - وبدأت أنزل مجدداً إلى الأرض. ثم بدأ عقلي يعترض بشدة - كلا! لا أريد الرحيل عن هذا المكان! - وانزلت أكثر.

أريد!

لا أريد!

أريد!

لا أريد!

كلّما كررت تلك الأفكار اليائسة، شعرت بأنني أسقط عبر طبقات الوهم. كان هذا التوق يعيدني إلى حدودي الدنيوية الصغيرة وعالمي المحدود. رحت أراقب ذاتي وهي تعود كما تشاهد صورة بولارويد وهي تظهر، وتصبح أوضح لحظة بعد أخرى - ها هو الوجه، تلك هي الخطوط المحيطة بالفم، وبالحاجبين - الآن انتهت: هذه صورتي القديمة العادية. شعرت برعشة دعر وبشيء من الحزن لأنني فقدت تلك التجربة. ولكن إلى جانب هذا الذعر، أحسست بوجود شاهدة، هي أنا ولكن بشكل أكثر حكمة وأكبر سناً، اكتفت بمنز

رأسها مبتسمة وهي تعرف التالي: إن اعتقدت بأن حالة النعيم هذه يمكن أن تسلب مني، فمن الواضح أنني لم أفهمها بعد. بالتالي، أنا لست جاهزة بعد للسكن فيها تماماً، بل عليّ ممارستها أكثر.

...

68

انتهت الخلوة بعد يومين، وخرج الجميع عن صمتهم. وشكروني كثيرون على مساعدتي لهم.

فكنت أجيّب: "كلا! الشكر لكم"، عاجزة عن التعبير عن امتناني الكبير لأنهم حملوني إلى هذا العلوّ الشاهق.

وصلت مئة ساعة جديد بعد أسبوع لخلوة أخرى، وتكرّرت التعاليم والمحاولات الشجاعة والصمت المتعاطف، مع أرواح مشاركة جديدة. قمت بمراقبتهم أيضاً وحاولت مساعدتهم وانزلت إلى التوريات عدة مرات معهم هم أيضاً. واكتفيت بالضحك حين خرج كثير منهم من تأملاتهم لإخباري أنني بدوت لهم خلال المعتزل مثل وجود أثري صامت يتنقل انزلاقاً. إذاً تلك هي مزحة المعتزل الأخيرة معي؟ ما إن توصلت إلى تقبّل طبيعتي الصاخبة، الثرثارة، الاجتماعية واكتشاف مضيئة المفتاح الكاملة بداخلي؛ عندها فقط أصبحت الفتاة المادئة في الجزء الخلفي من المعبد؟

خلال الأسابيع الأخيرة لي هنا، كان جوّ المعتزل مشبعاً بالكآبة التي تسود آخر أيام المخيم الصيفي. فمع كلّ صباح، بدا بأنّ مزيداً من الأشخاص يستقلّون الباص ويرحلون مع حقائبهم، من دون أيّ قادمين جدد. كان شهر آيار على الأبواب، معلناً بداية فصل الحرّ في الهند، ما

يعني أن الحركة ستكون أكثر بطئاً هنا لمدة من الزمن. لن يكون ثمة خلوات أخرى، لذا تمّ تغيير وظيفتي مجدداً. فعيّنت في مكتب التسجيل، وكنت مسؤولة عن العمل الحلو المرّ المتمثّل في ترحيل أصدقائي عن الكمبيوتر بعد مغادرتهم المعتزل.

تشاركت المكتب مع مصفّف شعر سابق من شارع ماديسون.

أصبح لديّ وقت طويل لي وحدي. فأنا أمضي أربع إلى خمس ساعات كلّ يوم في كهوف التأمل. أجلس برفقتي لأربع ساعات متواصلة، مرتاحة بحضور، من دون أن يزعجني وجودي على الكوكب. في بعض الأحيان، تكون تأملاتي سرّية، عبارة عن تجارب جسدية للشاكي. وكنت أحاول الاستسلام لها بأقلّ مقاومة ممكنة. وفي أحيان أخرى، كنت أشعر برضى هادئ ولطيف، وهذا جيّد أيضاً. ما زالت الجمّل تتكوّن في رأسي وما زالت الأفكار تتراقص أحياناً أمامي، ولكنني أصبحت أعرف أفكارى جيّداً ولم تعد تزعجني. فقد أصبحت أفكارى أشبه بجيران قدامى، مزعجين ولكنهم أصبحوا عزيزين. فثمة متّسع لنا جميعاً في هذا الجوار.

أمّا بالنسبة إلى التغييرات الأخرى التي طرأت عليّ خلال هذه الأشهر القليلة الأخيرة، ما زلت غير قادرة على الشعور بها. فاستناداً إلى أصدقائي الذين درسوا اليوغا لوقت طويل، لا يمكن رؤية تأثير المعتزل على المرء فعلاً إلاّ بعد أن يغادر المكان ويعود إلى حياته الطبيعية. عندها فقط، تبدأين بالملاحظة كيف أعيد ترتيب خزائنك الداخلية، بحسب الراهبة السابقة الآتية من جنوب أفريقيا. بالطبع، لم أكن واثقة في تلك اللحظة كيف هي حياتي الطبيعية. أعني، أنا على وشك الانتقال للعيش مع عرّاف عجوز في إندونيسيا - أهذه حياة طبيعية؟ ربّما، من يعلم؟ على أي حال، يقول أصدقائي بأنّ التغييرات لا تحدث إلاّ لاحقاً. فقد

يشعر المرء بأنّ الهواجس التي رافقته طيلة حياته قد زالت أو أنّ النماذج الكريهة قد تغيرت أخيراً. فمصادر الإزعاج الصغيرة التي كانت تثير جنونك لم تعد بمشكلة فيما أنّ الأحران التي كنت تتحملها من باب العادة لم تعد مسموحة الآن وإنّ لدقائق. كما تتخلص من العلاقات السامة ويبدأ أشخاص أكثر إشراقاً وفائدة بدخول حياتك.

لم أتمكن من النوم في الليلة الفائتة. ليس بسبب القلق بل للهفة. فارتديت ملابس، وخرجت للتنزه في الحدائق. كان القمر بديراً، يشعّ فوقي، وينشر نوره الماسي من حولي. وكان الهواء عابقاً برائحة السيامين، فضلاً عن العطر الذي يدير الرأس المنبعث من الأجمة المزهرة التي تبت هنا والتي لا تفتح سوى ليلاً. كان النهار رطباً وحرّاً، ولم يكن الجو الآن سوى أقلّ حرارة بقليل. تحركّ الهواء الدافئ حولي، وأدركت الفكرة التالية: "أنا في الهند!".

أنا أرتدي صندلي وأنا في الهند!

رحت أركض، ابتعدت عن الطريق وشققت طريقي بين أعشاب المرج التي ينيرها ضوء القمر. شعرت بأنّ جسدي يضعّ حياة وصحة بعد تلك الأشهر من اليوغا والطعام النباتي والنوم المبكر. كان صوت صندلي وهو يدوس العشب النديّ الناعم هو الصوت الوحيد المسموع في الوادي بأكمله. شعرت بالجلد، فركضت مباشرة إلى مجموعة شجر الأوكاليتوس وسط الحديقة (حيث يقال إنّه كان ثمة معبد قديم لغانيش، مزيل العقبات)، وأحطت إحدى الأشجار بذراعي، وكانت لا تزال دافئة بفعل حرارة النهار، ثمّ قبلتها بشغف. أعني أنّي قبلت الشجرة من أعماق قلبي من دون أن يخطر لي في تلك اللحظة أنّ هذا أسوأ كابوس لكلّ أميركي هربت ابنته إلى الهند للبحث عن نفسها، أنّ تنتهي في وضع مشبوه مع الأشجار تحت ضوء القمر.

لكنّ الحب الذي كنت أشعر به كان طاهراً. شملت بنظري
الوادي المعتم ورأيت الخالق في كلّ شيء. شعرت بسعادة عميقة
ورهيبة. قلت لنفسني: "مهّما كان هذا الشعور، هذا ما كنت أدعو
لأجله. وهذا أيضاً من كنت أدعوه".

69

للمناسبة، وجدت كلمتي.

وجدتها في المكتبة بالطبع، مكاني المفضّل. فقد كنت أتساءل عن
كلمتي منذ ذلك اليوم في روما حين أخبرني صديقي جوليو أنّ كلمة
روما هي الجنس، وسألني عن كلمتي فلم أجد جواباً. ولكن تصوّرت
أنّي سأعثر عليها لاحقاً وسأعرفها حين أراها.

لقد رأيتها في الأسبوع الأخير لي في المعتزل. كنت أقرأ نصّاً قديماً
عن اليوغا، حين وجدت وصفاً لسعاة روحانيين قدماء. فقد وقعت
على كلمة سنسكريتية في الفقرة: أنتيفازين (ANTEVASIN). أي:
الذي يعيش على الحدود. ففي العصور القديمة، كان هذا الوصف
حرفياً بمعناه، ويشير إلى الشخص الذي يترك الحياة الدنيوية ليعيش في
طرف الغابة حيث يقطن المعلّمون الروحانيون. هكذا، لا يعود
الأنتيفازين واحداً من القرويين، سيد عائلة يعيش حياته التقليدية، ولا
هو واحد من أولئك الحكماء المتنوّرين الذين يعيشون في أعماق الغابة،
بسل ما بين بين. يقيم على الحدود. يعيش في مكان يطلّ على العالمين،
ولكنّه ينظر نحو المجهول. وكان تلميذاً.

شعرت بالإثارة وأنا أقرأ هذا الوصف للأنتيفازين، وتحمّست
وكأنّي تعرّفت عليه. تلك هي كلمتي! بالطبع في العصر الحديث،

الغابة والحدود ليسا سوى صورة مجازية. مع ذلك، يمكنك أن تعيش فيها. يمكنك العيش على هذا الخطّ الفاصل بين تفكيرك القديم وفهمك الجديد، في حالة تعلّم دائم. وتلك الحدود تتحرّك دوماً وأنت تتقدّم في دراستك وإدراكك، وتبقى تلك الغابة المجهولة على بعد خطوات منك، تسافر نحوها خفيفاً لكي تتمكن من اللحاق بها. عليك أن تبقى متحرّكاً، ليناً، لا بل حتى زلقاً. وهذا مضحك، لأنّ صديقي الشاعر السّبّاك القادم من نيوزيلندا غادر المعتزل البارحة، وفي أثناء خروجه أعطاني قصيدة صغيرة لطيفة عن رحلتي. تذكّرت منها هذا المقطع:

إليزابيث، ما بين بين
جمال إيطاليا وأحلام بالي،
إليزابيث، ما بين بين
زلقة أحياناً كالسمكة...

أمضيت وقتاً طويلاً في السنوات الأخيرة أتساءل ماذا يفترض بي أن أكون. زوجة؟ أمّاً؟ عشيقة؟ عازبة؟ إيطالية؟ نّمة؟ مسافرة؟ فنانة؟ يوغانية؟ ولكنني لست أيّاً منهم، على الأقل ليس تماماً. كما أنني لست العمّة ليز المجنونة. أنا مجرد أنتيفازين زلقة - ما بين بين - تلميذة على الحدود المتغيرة أبداً للغابة الجديدة الرائعة والمخيفة.

70

غالباً ما تنشأ الطقوس الدينية من التجربة الصوفية. إذ يخرج أحد المستكشفين الشجعان للبحث عن طريق جديد، فيعيش تجربة تجاوزية ثم يعود. فيعمد الآخرون إلى تكرار كلمات أو أعمال أو صلوات أو

أفعال ذاك المستكشف للعبور هم أيضاً. وينجح الأمر في بعض الأحيان، إذ من شأن المزيح المألوف نفسه من الكلمات والممارسات التعبدية، أن يحمل أناساً كثيرين إلى الضفة الأخرى. غير أنه لا يعطي النتيجة المرجوة دائماً. فلا بدّ حتى لأكثر الأفكار حداثة من أن تتصلّب وتحوّل إلى عقيدة أو تخسر مفعولها مع الجميع.

لدى الهنود قصة معبرة عن شخص عظيم كان محاطاً دوماً في معتزله بالأتباع المخلصين. وكان وأتباعه يمضون ساعات كلّ يوم في التأمّل. ولكن كان ثمة مشكلة وحيدة، فلدى ذلك الشخص قطعة صغيرة مزعجة لا تفتأ تتحوّل في المعبد وهي تموء وترزعج الجميع في أثناء التأمّل. فأمر بحكمته العملية البالغة، تقييد القطعة إلى عمود في الخارج لوضع ساعات في اليوم في أثناء جلسة التأمّل فقط، لكي لا تزعج أحداً. فتحوّل الأمر إلى عادة؛ تقييد القطعة ومن ثمّ التأمّل. ولكن مع مرور السنوات، تحجّرت العادة وتحوّلت إلى طقس ديني. فلم يعد بإمكان أحد أن يتأمّل من دون ربط القطعة إلى العمود أولاً. في أحد الأيام، ماتت القطعة. فأصيب الأتباع بالذعر وعانوا من أزمة خطيرة. كيف لهم أن يمارسوا التأمّل الآن، من دون قطعة يربطونها إلى العمود؟ كيف سيصلون إلى...؟ في عقولهم، أصبحت القطعة هي الوسيلة.

تحدّر هذه القصة من الانشغال كثيراً بتكرار الطقس الديني لأجله وحسب. ففي هذا العالم المنقسم الذي تواصل فيه الحرب العالمية الطابع بين طالبان والتحالف المسيحي... من المفيد أن نتذكّر بأن ربط القطعة إلى العمود ليس السبب الذي ساعد أيّاً كان على الاتصال...، بل هي الرغبة الدائمة للساعي بالشعور بالحب الأبدي. والمرونة لا تقل أهمية عن الالتزام وضبط النفس في هذا المجال.

فواجبك إذاً، إن اخترت القبول به، هو الاستمرار بالبحث عن الصور المجازية والطقوس والمعلمين لمساعدتك على التقرب أكثر. وتقول الكتب اليوغانية إن الصلوات وجهود البشر تستجاب بأيّ طريقة يختارها البشر للعبادة، ما دامت تلك الصلوات صادقة. واستناداً إلى ما ورد في اليوبانيشاد: "يتبع الناس وسائل مختلفة، إمّا مستقيمة أو ملتوية، بحسب مزاجهم وما يروونه الأفضل أو الأصحّ، وجميعها تنتهي إليك، مثلما تصبّ الأنهار في المحيط".

الهدف الثاني هو بالطبع محاولة إيجاد معنى للفوضى التي تسود العالم وشرح كلّ الأمور الغريبة التي نراها حولنا كلّ يوم: الأبرياء المعذبون، الأشرار الذين ينعمون بالسعادة، ما سبب ذلك؟ بالنسبة إلى التقاليد الغريبة، الكلّ يلقي جزاءه بعد الموت، إمّا في الجنة أو في النار. أمّا في الشرق، فيستبعد اليوبانيشاد أيّ محاولة لتفسير الفوضى في هذا العالم. حتى إنهم غير واثقين من وجود فوضى أساساً، بل يعتقدون بأنّ العالم يبدو لنا كذلك بسبب رؤيتنا المحدودة. ولا تعدّ تلك النصوص أيّاً كان بالعدالة أو الثأر، مع أنّها تقول بوجود نتيجة لكلّ عمل، وينبغي بالتالي اختيار السلوك على هذا الأساس. مع ذلك، قد لا نرى تلك النتائج قريباً، فليوغاً دوماً نظرة بعيدة الأمد. لا بل يعتقد اليوبانيشاد أنّه قد يكون لتلك الفوضى المزعومة وظيفة...، وبالتالي، يكمن الحلّ الأمثل لمواجهة عالمنا الغامض والخطر في التمسك بالتوازن الداخلي، مهما كان الجنون الذي يفوح منه.

لقد شرح لي شون، صاحب مزرعة الألبان الأيرلندي، الأمر على هذا النحو. "تحلّي الكون وكأنّه عجلة عظيمة تدور بسرعة. أنت بحاجة إلى البقاء قريباً من المركز، عند محور العجلة، وليس قرب الأطراف التي يحدث فيها الدوران العنيف وإلاّ أصبت بالجنون. ومحور

السكينة هو القلب. توقفي بالتالي عن البحث عن الأجوبة في العالم وعودي إلى ذاك المركز وستجدين السلام دوماً".

في الواقع، لطالما كانت هذه الفكرة ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلي، على الصعيد الروحي. وقد نجحت معي. ولو وجدت شيئاً أكثر فاعلية منها، سأستعمله على الفور.

لديّ كثير من الأصدقاء غير المتدينين في نيويورك. لا بل معظمهم كذلك في الواقع. فهم إمّا ابتعدوا عن التعاليم الروحية التي تلقّوها في صغرهم أو أنّهم نشأوا من دون دين على الإطلاق. وبالطبع ذعر بعضهم من الجهود التي أبذلها. ولم يكن ثمة مهرب من التعليقات الساخرة. هكذا، قال لي صديقي بوب يوماً وهو يحاول إصلاح حاسوببي: "مع احترامي لهالك، ولكنك ما زلت تجهلين كل شيء عن تحميل البرامج". دعاباتهم لا تزعجني، بل أجدها مضحكة أنا أيضاً. هي مضحكة من دون شك.

ولكنني أرى لدى بعض أصدقائي وهم يتقدمون في السن توفقاً لأن يكون لديهم إيمان بشيء ما. ولكنّ هذا التوق يصطدم بمواجز كثيرة، منها عقلهم وحسّهم العام. وعلى الرغم من عقلهم، لا يزال هؤلاء الأشخاص يعيشون في عالم يترنّح في وجه سلسلة من العواصف المدمّرة والجنونية. فالتجارب الرائعة والمريعة للفرح أو العذاب تطرأ في حياة جميع أولئك الأشخاص، كما يحدث معنا بالضبط، وهذه التجارب الهائلة تجعلنا نتوق إلى سياق روحي نعبر فيه عن حزننا أو امتناننا أو نسعى إلى فهم ما يحدث حولنا. والمشكلة هي ماذا يعبدون ولن يصلّون.

لديّ صديق ولد طفله الأوّل بعد وفاة أمّه الحبيبة. وبعد أن توالى عليه خسارة ومعجزة في وقت واحد، شعر بالحاجة إلى مكان يذهب

إليه أو شعيرة يؤديها لكي يتمكن من اجتياز كل تلك الانفعالات المتضاربة. كان صديقي كاثوليكيّ المنشأ ولكنه لم يتمكن من هضم فكرة العودة إلى الكنيسة بعد أن كبر. (قال لي: "لم يعد بإمكانني ذلك، ليس بعد أن أصبحت أعرف ما أعرف"). وبالطبع، من المخرج بالنسبة إليه أن يصبح هندوسياً أو بوذياً أو شيئاً من هذا القبيل. فماذا يفعل؟ قال لي: "ليس من المنطقي أن تذهبي لانتقاء ديانة".

هو شعور أحترمه، ولكنني لا أوافق عليه إطلاقاً. فبرأيي، لديك كلّ الحقّ بالانتقاء حين يتعلّق الأمر بتحريك الروح وإيجاد السلام. أعتقد أنّ لك حرية البحث عن أيّ صورة مجازية لتعبّر بها الحدود الدنيوية كلما احتجت إلى الانتقال أو الراحة. وليس ثمة ما يدعو للحرج في ذلك. إنّه تاريخ بحث الجنس البشري. ولو لم تتطور البشرية في بحثها، لكان كثير منا ما زالوا يعبدون تماثيل القطط الذهبية المصرية. وهذا التطور للتفكير الديني يشتمل بالفعل على الانتقاء. بحيث تأخذ كلّ ما يساعدك أينما وجدته وتستمرّ بالتحرك نحو النور.

يعتقد الهنود الهوبيون أنّ كلّ دين من الأديان في العالم يحتوي على خيط روحيّ، وأنّ تلك الخيوط تبحث عن بعضها دوماً سعياً إلى الالتقاء. وحين تحاك جميعها مع بعضها أخيراً ستشكّل حبلاً يشدّنا من دائرة هذا التاريخ المظلم إلى العالم التالي. وقد كرّر الدايلاما هذه الفكرة نفسها لاحقاً مؤكداً لتلاميذه الغربيين أنّهم لا يحتاجون إلى أن يكونوا بوذيين تيبتيين ليكونوا تلاميذه. فهو لا يمانع إطلاقاً بأن يأخذوا الأفكار التي تعجبهم من البوذية التيبّية ويدخلوها في ممارساتهم الدينية. وحتى في أكثر الأماكن تحفظاً، يمكنك أحياناً إيجاد هذا الوميض...

لكن ليس هذا منطقيًا؟ أن يكون اللاهائي لانهائياً بالفعل؟ ألاّ
يتمكّن حتى أكثرنا تقوى سوى من رؤية قطع مبعثرة من الصورة
الأبدية في أيّ وقت من الأوقات؟ وربما، لو تمكّنا من جمع تلك
الأجزاء ومقارنتها، سنبدأ بالحصول على قصّة تشبه وتشمل جميع
البشر؟ ألا يملك كلّ منا الحقّ بعدم التوقّف عن البحث إلى أن نصبح
أقرب ما يمكن من مصدر تساؤلاتنا؟ حتى لو استدعى الأمر المجيء إلى
الهند وتقبيل الأشجار تحت ضوء القمر لمدة من الزمن؟
تلك هي أنا في الزاوية، بتعبير آخر. تلك أنا تحت الضوء،
أختار ديانتتي.

71

سأغادر الهند في رحلة الرابعة فجرًا، ما يعتبر نموذجاً لنمط
الحياة هناك. قرّرت عدم النوم إطلاقاً تلك الليلة، وقضاء الأمسية
بأكملها في أحد كهوف التأمل، أسجد. أنا لا أطيل السهر عادة،
ولكنني رغبت بالبقاء مستيقظة خلال تلك الساعات الأخيرة لي في
المعتزل. فكثيرة هي الأمور التي بقيت مستيقظة لأجلها طوال الليل
خلال حياتي: ممارسة الحبّ، الجدل مع شخص ما، القيادة لمسافات
بعيدة، الرقص، البكاء، القلق (وفي بعض الأحيان جميع هذه الأشياء
في ليلة واحدة). ولكنني لم أضحّ أبداً بالنوم لأجل السجود وحسب.
فلمَ لا أفعل الآن؟

حزمت حقيبتي ووضعتها عند بوابة المعبد لأكون جاهزة
للرحيل فور وصول سيارة الأجرة، قبل طلوع الفجر. ثمّ صعدت
التملة، ودخلت كهف التأمل وجلست. كنت بمفردي، ولكنني

جلست في مكان أستطيع فيه رؤية صورة كبيرة لسواميجي، معلّم مرشدتي ومؤسس هذا المعتزل، الأسد الذي غاب منذ وقت طويل ولكنه لا يزال موجوداً نوعاً ما. أغمضت عينيّ وتركت المانترا تأتي. تسلّقت السلم في محور السكون الخاصّ بي. وحين وصلت إلى هناك، شعرت بالعالم يتوقّف، تماماً كما أردت حين كنت في التاسعة من عمري، يعتريني الخوف من هروب الوقت. في قلبي، توقّفت عقارب الساعة ولم تعد أوراق الروزنامة تتطاير عن الجدار. جلست متعجّبة بصمت من كلّ ما فهمته. ففعلياً لم أكن أسجد، بل أصبحت أنا السجود.

بإمكاني الجلوس هنا طيلة الليل.
في الواقع هذا ما حصل.

لا أعرف ما الذي نَبّهني حين حان الوقت لملاقاة السائق، ولكن بعد عدة ساعات من السكون، هزّني شيء ما، وحين نظرت إلى ساعتي، وجدت بأنّ الوقت قد حان للرحيل. عليّ السفر إلى إندونيسيا الآن. كم هذا مضحك وغريب. فوقفت وانحنيت أمام صورة سواميجي؛ السيد، الرائع، الناري. ثمّ دسست قصاصة ورق تحت السجادة، تحت الصورة مباشرة. كانت الورقة تحتوي على قصيدتين كتبتهما خلال إقامتي في الهند. إنهما أوّل قصيدتين حقيقتين لي في حياتي، والسبّاك من نيوزيلندا هو الذي شجّعني على تجربة الشعر مرّة؛ وهذا ما حدث. كتبت الأولى بعد شهر واحد من وجودي هنا، أمّا الثانية فكتبتها هذا الصباح. وبين القصيدتين، عرفت نعماً لا تحصى.

قصيدتين من معتزل في الهند.

القصيدة الأولى

كلّ هذا الحديث عن الرحيق والنعيم بدأ يزعجني.
لا أعرف ماذا عنك يا صديقي،
ولكنّ طريقي ليس نسمة بخور عذبة.
إنّه قطة طليقة في قفص حمام،
وأنا القطة؛ وكذلك الحمام الذي يصرخ يجنون
كلّما أوشك على الهلاك.

طريقي هو انتفاضة عمّالية،
لن نحلّ السلام قبل أن يتوحّدوا.
نورتم مخيفة جداً
حتى إنّ الحرس الوطني لن يقترب منهم.

طريقي ضرب أمامي حتى فقد وعيه،
من قبل رجل أسمر قصير لم أراه أبداً،
سعى عبر الهند، ذقنه مغمورة بالوحل،
حافياً، جائعاً، لوّثت الملاريا دمه،
ينام أمام أبواب المنازل، تحت الجسور؛ مشرداً.
فهو على طريق العودة إلى الوطن
وهو يطاردني الآن قائلاً: "ألم تفهمي بعد يا ليز؟
ما معنى العودة؟ ما معنى الوطن
فعلاً؟".

القصيدة الثانية

ولكن.

لو تركوني أرتدي ثوباً منسوجاً
من العشب النديّ لهذا المكان،
لفعلت.

لو تركوني أعانق
كلّ شجرة أوكاليتوس في غابة غانيش
أقسم، لفعلت.

لقد رشحت الندى هذه الأيام،
تخلّصت من الحثالة،
حففت ذقني على لحاء الشجر،
معتقدة أنّها ساق معلّمي.

لا يمكنني الذهاب بعيداً كما ينبغي.

لو تركوني أكل تراب هذا المكان
على طبق من أعشاش العصافير،
لأنهيت نصف الطبق،
ونمت على الباقي الليل بطوله.

إندونيسيا

أو

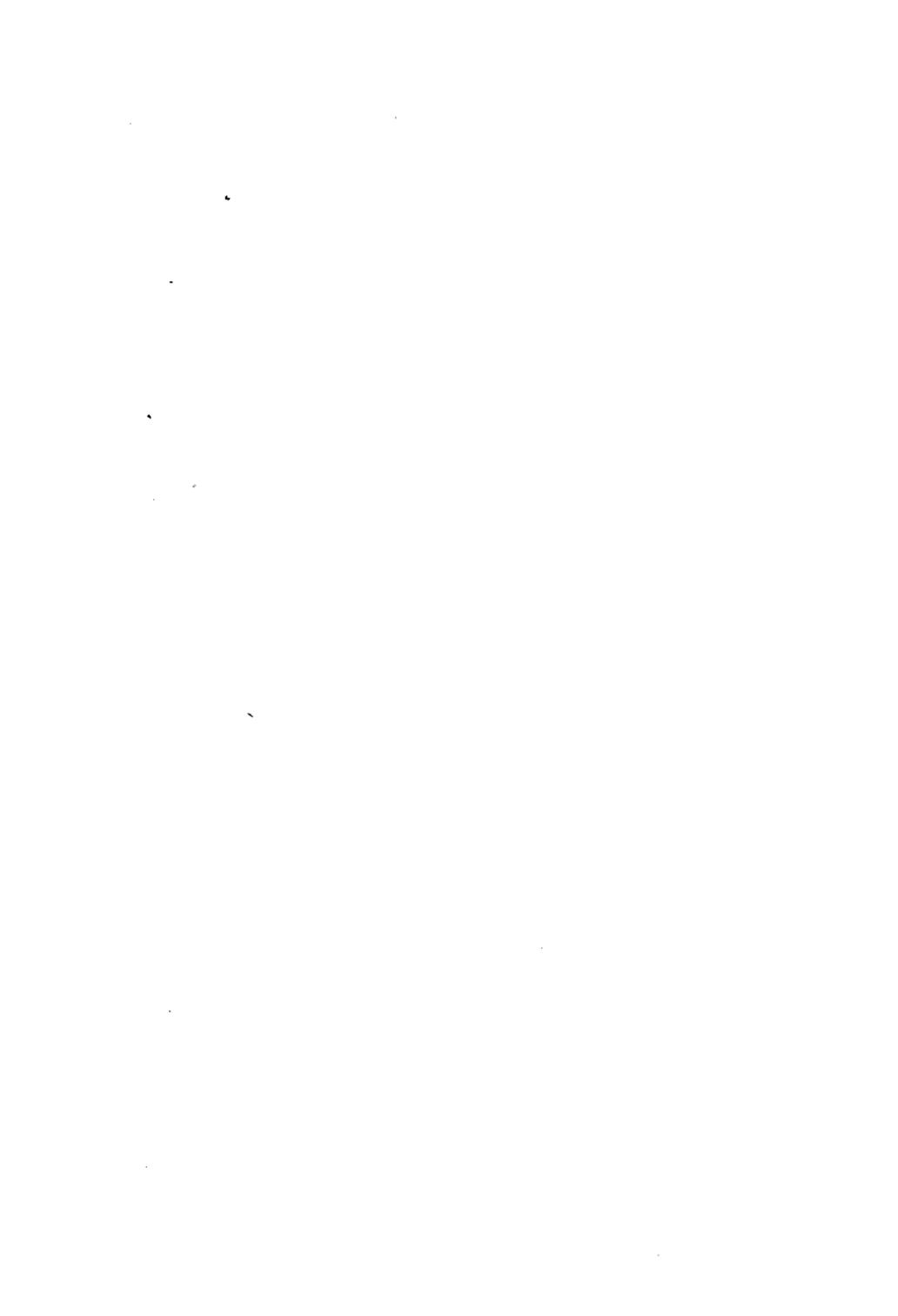
"حتى بملابسي الداخلية،

أشعر بأنني مختلفة"

أو

36 حكاية

عن السعي إلى التوازن



لم يسبق لي أبداً أن قمت بشيء لم أخطّط له جيداً كما حدث عند وصولي إلى بالي. فعبر تاريخي الحافل بالأسفار الطائشة، كانت تلك الرحلة الأكثر طيشاً التي قمت بها في حياتي. لم أكن أعرف أين سأسكن أو ماذا سأفعل، كما كنت أجهل قيمة صرف العملة أو كيفية إيجاد سيارة أجرة في المطار؛ أو حتى إلى أين أطلب من السائق إيصالني. ما من أحد كان يتوقع وصولي أساساً. إذ لم يكن لديّ أصدقاء في إندونيسيا، أو حتى أصدقاء أصدقاء. وتلك هي مشكلة السفر مع دليل سياحي عفا عنه الزمن وعدم قراءته أساساً: فأنا لم أكن أدرك أنه لا يسمح لي بالإقامة في إندونيسيا لأربعة أشهر، حتى لو أردت ذلك. اكتشفت الأمر عند دخولي البلاد. وتبيّن لي أنني أستطيع البقاء لشهر واحد بالتأشيرة السياحية. لم يخطر في بالي أن الحكومة الإندونيسية ستكون أقل من مسرورة باستضافتي ما طاب لي البقاء.

بينما كان موظف الهجرة يختم جواز سفري بإذن إقامة في بالي لثلاثين يوماً بالضبط، سألته بلطف بالغ ما إذا كان باستطاعتي البقاء لوقت أطول.

"كلا،" أجابني، بكلّ ودّ. فالشعب الباليي معروف بكونه شعباً ودوداً.

"في الواقع، يفترض بي أن أبقى هنا لثلاثة أو أربعة أشهر." لم أذكر له أمر التوقع - إنّ إقامتي هنا لثلاثة أو أربعة أشهر توقّعه منذ سنتين عرّاف باليي عجوز ومجنون ربّما، خلال قراءة كفّ استغرقت عشر دقائق. لا أعرف تحديداً كيف أشرح هذا.

ولكن أنا بالكاد أذكر ما قاله لي ذاك العرّاف. أقال فعلاً بأنني سأعود إلى بالي وأمضي معه ثلاثة أو أربعة أشهر؟ هل قال حقاً "أمضي معه"؟ أم أنّه أرادني أن أمرّ عندما أكون في الجوار، وأعطيه عشرة دولارات أخرى لقراءة كفتي مجدداً؟ هل قال بأنني سأعود أم بأنني يجب أن أعود؟ هل قال فعلاً: "إلى اللقاء قريباً؟" أم "الوداع"؟

لم أتصل بالعرّاف أبداً منذ تلك الليلة، حتى إنني لا أملك وسيلة للاتصال به بأيّ حال. أين يمكن أن يكون عنوانه؟ العرّاف، على شرفته، بالي، إندونيسيا؟ لا أدري ما إذا كان حياً أم ميتاً. أذكر أنّه بدأ لي عجوزاً جداً حين التقيت به منذ سنتين، ومن المحتمل أن يحدث أيّ شيء منذ ذلك الحين. لست متأكّدة سوى من اسمه - كيتوت لاير- وأذكر أنّه يعيش في قرية خارج مدينة أوبود تماماً، لكنني لا أذكر اسم القرية.

ربّما كان يجدر بي التفكير أكثر في هذه الخطوة.

74

لكنّ بالي منطقة يسهل التحوّل فيها. فالأمر لا يشبه هبوطي وسط بلد ما من دون أي فكرة عمّا سأفعله لاحقاً. إنّها جزيرة بنفس حجم ديلاوير تقريباً كما أنّها منطقة سياحية معروفة. والمكان مجهّز لمساعدتك، فالغريون يتحوّلون بحرية مع بطاقات اعتمادهم. واللغة الإنكليزية واسعة الانتشار والبالينيون يتكلّمونها بسعادة. (وهذا ما يشعري بالارتياح والذنب في آن. ذلك أنّ ذهني مثقل بالجهود التي بذلتها لتعلّم اللغة الإيطالية الحديثة والسنسكريتية القديمة خلال الأشهر الماضية بحيث أعجز عن محاولة تعلّم اللغة الإندونيسية أو حتى البالينية،

الأكثر صعوبة وتعقيداً من لغة أهل المريخ). في الواقع، ليس من الصعب أبداً التواجد هنا. فمن الممكن تبديل العملة في المطار، وإيجاد سائق تاكسي لطيف يقترح عليك فندقاً جميلاً لا مشكلة في ذلك على الإطلاق. وبما أن السياحة اتهارت في أعقاب التفجير الإرهابي منذ عامين (بعد بضعة أسابيع من مغادرتي بالي في المرة الأولى)، أصبح التحوال أكثر سهولة. فالكل متلهّف لمساعدتك ومتعطّش للعمل.

هكذا ركب التاكسي إلى مدينة أوبود، التي بدت لي بداية مناسبة لرحلتي. قصدت فندقاً صغيراً وجميلاً يقع على طريق غابة القرد، غريبة الاسم. كان الفندق يضمّ بركة سباحة جميلة وحديقة مليئة بأزهار استوائية براعمها أكبر حجماً من طابات الكرة الطائرة، تتمايل بدلال تحت ثقل فريق منظم من الطيور المغرّدة والفراشات. كان الموظفون بالينيين، أي أنهم سرعان ما يبدأون بالإطراء عليك ومدح جمالك ما إن تدخل. كانت الغرفة تطلّ على قمم الأشجار الاستوائية ويقدم الفندق فطوراً كلّ صباح يحتوي على كمية كبيرة من الفاكهة الاستوائية الطازجة. باختصار، هو من أجمل الأماكن التي أقمت فيها على الإطلاق ويكلفني أقلّ من عشرة دولارات في اليوم. كم أنا سعيدة بالعودة.

تقع أوبود وسط بالي، في الجبال، وهي محاطة بحقول الأرزّ وأعداد لا تحصى من المعابد الهندوسية، فيما تشقّ الأنهار السريعة طريقها عبر السوديان الضيقة في الأدغال وبين البراكين الموزّعة في الأفق. لطالما اعتبرت أوبود المركز الثقافي للجزيرة، المكان الذي ازدهرت فيه الفنون التقليدية من رسم ورقص ونحت فضلاً عن الطقوس الدينية. وبما أنّها غير مطّلة على أيّ شاطئ، فإنّ السياح الذين يقصدونها أتيقون، يختارون النهج إليها عن سابق تصميم، ويفضلون مشاهدة طقس عبادة

قديم على شرب البينيا كولا داس على الشاطيء. بغضّ النظر عمّا سيؤول إليه توقّع عزّائي، سيكون من اللطيف العيش في هذا المكان لفترة من الزمن. كانت البلدة عبارة عن نسخة مصغّرة لسانتا في، تتحوّل في أرحائها القروء والعائلات الباليئية بأزيائها التقليدية. وكان ثمة مطاعم جيّدة ومكتبات صغيرة جذّابة. يمكنني بسهولة قضاء كلّ وقتي هنا في أوبود أقوم بما اعتادت المطلّقات الأميركيات اللطيفات على فعله منذ عقود؛ الانتساب إلى صفّ تلو الآخر: التطبيع الباتيكي، قرع الطبول، صنع المجوهرات، الرقص الإندونيسي التقليدي، والطبخ... لا بل إنّ الطريق الذي يضمّ الفندق يحتوي على محلّ يسمّى متجر التأمّل، وهو عبارة عن واجهة علقت عليها لافتة تعلن عن جلسات تأمّل مفتوحة كلّ ليلة من السادسة حتى السابعة. وكتب عليها فليعمّ السلام الأرض. أنا مستعدة تماماً.

حين انتهيت من إفراغ حقائبي عصر ذلك اليوم، كان الوقت لا يزال مبكراً، فقرّرت الذهاب في نزهة لكي أتعرف مجدداً على هذه المدينة التي لم أرها منذ عامين. ثمّ حاولت التفكير في طريقة للعثور على العرّاف. تخيلت بأنّ المهمّة لن تكون سهلة، وقد تستغرق أياماً أو حتى أسابيع. لم أكن واثقة من أين أبدأ، لذا توقّفت عند مكتب الاستقبال وأنا خارجة لأطلب مساعدة ماريو.

ماريو هو أحد الشباب العاملين في الفندق. كان لاسمه دور كبير في نشوء صداقتنا السريعة. فمنذ وقت غير بعيد، كنت في بلد معظم رجاله يدعون ماريو، ولكنّ أحداً منهم لم يكن رجلاً بالينياً قصيراً، قسوي العضلات ومفعماً بالنشاط، يرتدي سارونغ من الحرير ويضع زهرة خلف أذنه. فما كان منّي إلّا أن سألته: "هل اسمك ماريو بالفعل؟ فهو لا يبدو إندونيسياً".

"هذا ليس اسمي الحقيقي، بل نيومان".

آه، كان عليّ أن أعرف. كان عليّ أن أعرف أن لديّ فرصة بنسبة 25 بالمئة لمعرفة اسم ماريو الحقيقي. ففي بالي أربعة أسماء يطلقها أغلب السكان على أطفالهم، بغضّ النظر عمّا إذا كانوا إناثاً أم ذكوراً. والأسماء هي واي-آن، ماداي، نيومان وكيوت. ومعناها بكلّ بساطة الأوّل، الثاني، الثالث والرابع، وتشير إلى ترتيب الطفل في العائلة. وفي حال ولادة طفل خامس، يبدأون بدورة الأسماء من جديد، بحيث يعرف الطفل الخامس بشيء من هذا القبيل: "واي-آن الثاني"، وهكذا دواليك. ويسمّى التوائم بالترتيب الذي ولدوا فيه. ونظراً لوجود أربعة أسماء وحسب في بالي، (لدى النخبة الأعلى منزلةً مجموعتها الخاصة من الأسماء)، من الممكن جداً، لا بل من الشائع، أن يتزوَّج شخصان يدعيان واي - آن بعضهما، ثمّ يطلقان على مولودهما الأوّل، بالطبع، اسم واي - آن.

وهذا ما يعطى إشارة بسيطة إلى مدى أهمية العائلة في بالي، ومدى أهمية مرتبتك فيها. وقد يبدو لك بأنّ هذا النظام يصبح معقداً أحسباً، ولكنّ الباليين يتدبّرون أمرهم معه. ومن الطبيعي في هذه الحالة، لا بل من الضروري، أن تشيع الألقاب. على سبيل المثال، إحدى أبرز سيدات الأعمال في أوبود هي امرأة تدعى واي-آن وتملك مطعماً هاماً يدعى كافييه واي - آن، لذا فإنّها معروفة باسم واي - آن كافييه، أي: واي - آن التي تملك كافييه واي - آن. وقد يطلق على شخص آخر لقب ماداي السمين، أو نيومان لتأجير السيارات أو كيتوت الأحمق الذي أحرق منزل عمّه. أمّا صديقي الباليّ الجديد ماريو فعالج المشكلة بتسمية نفسه ماريو وحسب.

"لماذا ماريو؟"

أجاب: "لأنتي أحبّ كلّ ما هو إيطالي".

وحين أخبرته أنّي أمضيت مؤخراً أربعة أشهر في إيطاليا، خرج من خلف مكتبه وقال: "تعال، اجلسي، تحدّثي". فجئت، جلست وتحدّثنا. وهكذا أصبحنا صديقين.

هكذا قررت البدء بالبحث عن عرّابي بسؤال ماريو ما إذا كان يعرف رجلاً باسم كيتوت لاير.

عبس ماريو مفكراً.

توقّعت أن يقول: "آه أجل! كيتوت لاير! العرّاف العجوز الذي توقّي الأسبوع الماضي؛ لقد حزنّت كثيراً على هذا العجوز الطيب...".

طلب مني ماريو تكرار الاسم، فكتبته له هذه المرّة، مفترضة أنّي لفظته بشكل خاطئ. فأضاء وجه ماريو حين عرف الاسم.

"كيتوت لاير!".

انتظرت هذه المرّة أن يقول: "آه أجل! كيتوت لاير! ذاك المنحون! لقد تمّ توقيفه الأسبوع الفائت...".

ولكنّه قال عوضاً عن ذلك: "كيتوت لاير هو معالج مشهور".

"أجل! هذا هو!".

"أنا أعرفه، فأنا أقصد منزله. في الأسبوع الماضي اصطحبت ابنة عمّي إلى هناك، كانت تحتاج إلى دواء لابنها الذي يبكي طوال الليل. وقد عاجله كيتوت. أخذت مرّة فتاة أميركية مثلك إلى منزل كيتوت. أرادت الفتاة سحراً يجعلها أجمل في عيون الرجال. فرسم لها كيتوت رسماً سحرياً، لمساعدتها على أن تكون أكثر جمالاً. وكنت أضايقها بعد ذلك وأقول لها كلّ يوم: "الرسم يعطي مفعوله! انظري كم أصبحت جميلة! الرسم يعطي مفعوله!".

فتذكّرت الرسم الذي رسمه لي كتوت لاير منذ بضع سنوات،
وأخبرت ماريو أنني حصلت أنا أيضاً على رسم من العراف مرّة.
فضحك ماريو وقال: "الرسم نجح معك أنت أيضاً!".
غير أنني شرحت له قائلة: "الرسم كان لمساعدتي على إيجاد...".
فسألني مريبكاً: "ألا تريدان أن تكوني أكثر جمالاً في أعين الرجال؟".
قلت: "ماريو، هل لك أن تصطحبني لزيارة كتوت لاير يوماً ما؟
إن لم تكن مشغولاً؟".
"ليس الآن".
وما إن بدأت أشعر بالخيبة حتى أضاف: "ربّما بعد خمس دقائق؟".

75

هكذا وجدت نفسي فجأة - عصر اليوم الذي وصلت فيه إلى
بالي - على ظهر دراجة نارية، متشبّثةً بصديقي الجديد ماريو الإيطالي
الإندونيسي وهو يسرع بي بين سهول الأرز نحو منزل كتوت
لاير. وعلى الرغم من تفكيري في هذا اللقاء بالعراف خلال العامين
الماضيين، إلّا أنني لا أملك في الواقع أدنى فكرة عمّا سأقوله له عند
وصولي. وبالطبع، نحن لم نحدّد معه موعداً، بل وصلنا من دون سابق
إنذار. عرفت الالافطة المعلّقة على بابه، كانت لا تزال هي نفسها:
"كيتوت لاير، رسّام". كان المكان عبارة عن مجمّع عائلي باليني
تقليدي. إذ كان ثمة جدار حجريّ يحيط بالملكية بأكملها، فيما تمتدّ
باحة في الوسط ويرتفع معبد في الخلف. ويحيط الجدار بعدد من البيوت
الصغير المتصلة ببعضها والتي تحيا فيها عدّة أجيال معاً. دخلنا من دون
أن نقرع الباب (فلم يكن ثمة باب على أي حال) وكان باستقبالنا عدد

من كلاب الحراسة الباليئية النموذجية، النحيلة والغاضبة، وهناك في
الباحة، كان يجلس كيتوت لاير، العراف العجوز، يرتدي السارونغ
وقميص الغولف ويبدو تماماً مثلما كان منذ سنتين حين التقيت به
للمرة الأولى. قال ماريو شيئاً لكيتوت، ومع أنني لا أتكلّم الباليئية
بطلاقة، إلا أنّ ما قاله بدا أشبه بتعريف عام، شيء على غرار: "هذه
فتاة من أميركا؛ قم إليها".

التفت إليّ كيتوت بابتسامته الخالية من الأسنان بمعظمها والتي تشفّ
عن تعاطف هائل، وكان ذلك مطمئناً جداً: لم أكن مخظّطة، إنّه رائع
بالفعل. كان وجهه موسوعة شاملة للتعاطف. سلّم عليّ بحماسة وقوّة.
قال: "تشرّفت جداً بلقائك".

ليست لديه أدنى فكرة عمّن أكون.

قال: "تعالى، تعالى". وقادني إلى شرفة منزله الصغيرة، المؤثّثة
بمُحصِر الخيزران، تماماً كما كانت منذ عامين. جلسنا نحن الاثنين، ومن
دون تردد، أخذ كفيّ في يده، مفترضاً أنّي، شأن بقية زوّاره
الأجانب، جئت لقراءة كفيّ. قرأه بسرعة اطمأننت لأنّه أعطاني نسخة
مختصرة عمّا قاله في المرّة الماضية بالضبط. (ربّما نسي وجهي، ولكنّ
قدري لم يتغيّر في عينيه الخبريتين). إنكليزيته أفضل ممّا أذكر وأفضل من
إنكليزية ماريو. فقد كان يتكلّم مثل الحكماء الصينيين العجائز في أفلام
الكونغ فو الكلاسيكية.

انتظرتّه حتى توقّف قليلاً ثمّ قاطعته وذكّرتّه بأنني سبق أن جئت
إليه، منذ عامين.

بدا مرتبكاً. "أليست هذه زيارتك الأولى إلى بالي؟".

"كلّاً سيدي".

فكّر ملياً ثمّ قال: "أأنت من كاليفورنيا؟".

"كلّا"، أجبته، وازدادت معنوياتي هبوطاً. "أنا من نيويورك".

قال لي كيتوت (ولا أعرف ما علاقة ما قاله بموضوعنا)، "لم أعد وسيماً، خسرت أسناناً كثيرة. قد أزور طبيب الأسنان يوماً ما، وأحصل على أسنان جديدة. ولكنني أخشاه كثيراً".

فتح فمه المهجور وأراني امتداد الضرر. كان قد خسر بالفعل معظم أسنانه في الجانب الأيسر، فيما كانت أسنانه اليمنى صفراء ومكسّرة وتبدو مؤلمة. أخبرني بأنّ أسنانه كسرت إثر حادث سقوط تعرّض له.

عبّرت له عن أسفي، ثمّ حاولت مجدداً تذكيره بنفسي وأنا أتحدّث ببطء: "لا أعتقد بأنك تذكرني، كيتوت. لقد أتيت إلى هنا منذ عامين مع معلّمة يوغا أميركية عاشت في بالي لسنوات عديدة".

ابتسم مبتهجاً: "تذكرت، آن باروس!".

"هذا صحيح. آن باروس هو اسم معلّمة اليوغا. أمّا أنا فاسمي ليز. أتيت أطلب مساعدتك، ورسمت لي حينها صورة سحرية".

هزّ كتفيه بودّ، لم يكن ليبدو أقلّ اكتراثاً، وقال: "لا أذكر".

شرّ البلية ما يضحك. ماذا سأفعل في بالي الآن؟ لا أعرف بالضبط كيف تخيلت لقائي بكيتوت ثانية، ولكنني أملت أن يتمّ لِمّ الشمل على نحو مؤثّر وداعم. ومع أنني خشيت أن يكون قد مات، إلّا أنّه لم يخطر لي إلّا يتذكرني إطلاقاً لو كان حيّاً. كان من الحمق أن أظنّ بأنّه يذكر لقاءنا الأوّل بقدر ما أذكره. ربّما كان عليّ التخطيط أكثر لهذه الرحلة، فعلاً.

فوصفت له الرسم الذي رسمه لي، الوجه ذو الأقدام الأربع ("المشبّت جداً على الأرض") والرأس المفقود ("لا ينظر إلى العالم من خلال عقله") والوجه الموجود في القلب ("ينظر إلى العالم عبر قلبه")،

أصغى إليّ بتهذيب، بشيء من الاهتمام، وكأننا نناقش حياة شخص آخر.

أكره ما فعلت لأنني لا أريد إحراجهم، ولكن أصبح لا بدّ منه، فما كان منّي سوى أن قلت: "قلت لي بأنني سأعود إلى بالي. قلت إنني سأبقى هنا لثلاثة أو أربعة أشهر. قلت إن بإمكانني مساعدتك على تعلّم الإنكليزية وأنك ستعلّمني أشياء تعرفها". لم أحبّ نبرة صوتي؛ بدت يائسة قليلاً. لم أذكر شيئاً عن الدعوة التي وجهها إليّ للعيش مع عائلته. بدا ذلك في غير محله، نظراً للظروف.

أصغى إليّ بتهذيب وهو يهزّ رأسه وكأنه يقول، أليس مضحكاً ما يقوله الناس أحياناً؟

كنت على وشك الاستسلام. ولكنني أتيت من مكان بعيد، لا بدّ من محاولة أخيرة. قلت له: "أنا الكاتبة، كيتوت. أنا مؤلفة الكتب من نيويورك".

ولسبب ما، نجح الأمر هذه المرّة. فجأة أضاءت البهجة وجهه، الذي بدا صافياً وشفافاً. برقت في ذهنه شرارة الذكرى: "أنت!" هتف لي، "أنا! أتذكرك!" وانحنى إلى الأمام ووضع كفيه على كتفيّ وبدأ يهزّني مسروراً، كما يهزّ الطفل هدية العيد محاولاً أن يتوقّع ما في داخلها. "لقد عدت! لقد عدت!".

قلت: "لقد عدت! لقد عدت!".

"أنت، أنت، أنت!".

"أنا، أنا، أنا!".

كانت الدموع تملأ عينيّ، ولكنني حاولت عدم إظهارها. كانت راحتي لا توصف. فقد فاجأني. وكأنني تعرّضت لحادث سيارة، وانحرفت سيارتي عن جسر وسقطت في قعر نهر وتمكّنت بطريقة ما من

الخروج من السيارة الغارقة بالسباحة عبر نافذة مفتوحة، ثم رحلت أجاهد لبلوغ السطح عبر المياه الخضراء الباردة، وكنت على وشك الاختناق، شرايبي تكاد تنفجر وخذائي منتفخان بأخر نفس لي ثم - أخيراً! - شققنت سطح الماء، ورحلت أنتفّس الهواء. ونجوت. ذاك النفس هو ما شعرت به حين سمعت العراف الإندونيسي يقول: "لقد عدت!" كانت راحتي بهذا القدر.

لا أصدّق أنّه تذكّرني أخيراً.

قلت له: "أجل لقد عدت، بالطبع عدت".

قال: "كم أنا سعيد!" كُنّا نمسك بأيدي بعضنا وكان متحمّساً جداً. "لم أذكرك في البداية! لقد مضى زمن طويل على لقائنا! كما أنّك تبدين مختلفة! مختلفة جداً عمّا كنت عليه منذ عامين! يومها بدوت امرأة حزينة جداً. أمّا الآن فأنت سعيدة! وكأنتك شخص آخر!". مجرد هذه الفكرة جعلته يضحك مقهقهاً.

توقّفت عن حبس دموعي، وتركتها تفيض قائلة: "أجل كيتوت. كنت حزينة جداً. ولكنّ حياتي أفضل الآن". أضاف بإنكليزيته الركيكة: "المرة الماضية كنت في طلاق. غير جيّد".

"غير جيّد"، أكذت له.

"المرة الماضية كنت قلقة جداً، حزينة جداً. المرة الماضية كنت مثل عجوز حزينة. الآن أنت مثل فتاة شابة. المرة الماضية كنت بشعة! الآن أنت جميلة!".

اندفع ماريو مصفّقاً وقال: "أترين؟ الرسم أعطى مفعوله!".

سألته قائلة: "أما زلت تريدني أن أساعدك على تعلّم الإنكليزية، كيتوت؟".

أجاب أن باستطاعتي البدء منذ الآن ثم وثب بخفّة، كالقزم، ودخل منزله الصغير وعاد بكومة من الرسائل التي تلقّاها من الخارج خلال السنوات القليلة الأخيرة (لديه عنوان إذا!). طلب منّي قراءتها بصوت عالٍ. فهو يفهم الإنكليزية جيّداً، ولكنّه لا يحسن قراءتها. أصبحت سكريتيرته. أنا سكريتيرة عرّاف. هذا خياليّ. كانت الرسائل من جامعي تحف فنيّة عبر البحار، من أشخاص تمكّنوا بطريقة ما من الحصول على رسوماته السحرية الشهيرة. كانت إحدى الرسائل من جامع لوحات في أستراليا، يثني على مواهب كيتوت الفنية قائلاً: "لا بدّ من أنك تتمتع بذكاءٍ حادّ لكي ترسم بهذا التفصيل". قال كيتوت وكأنّه يعلّي عليّ الردّ: "هذا لأنني تمرّنت لسنوات طويلة جداً".

بعد انتهاء الرسائل، راح يخبّري عمّا حدث معه في الأعوام القليلة الفائتة. فقد طرأت بعض التغييرات. لديه زوجة الآن، على سبيل المثال. وأشار عبر الباحة إلى امرأة بدينة تقف في ظلّ باب مطبخها، وتحّدق إليّ وكأنّها غير واثقة ما إذا كان يجدر بها رمي بالرصاص على الفور أم تسممي أولاً. في زيارتي السابقة، أراني كيتوت بحزن صوراً لزوجته التي توفيت مؤخراً، كانت عجوزاً بالينيّة بدت مشرقة وطفولية الملامح على الرغم من سنّها. لوحتُ للزوجة الجديدة عبر الباحة، ولكنّها تراجمت واختفت في مطبخها.

"امرأة طيبة"، أعلن كيتوت نحو ظلال المطبخ. "امرأة طيبة جداً". تابع يخبّري كم كان مشغولاً مع مرضاه البالينيين، كان لديه دوماً ما يفعله، كثير من السحر للأطفال الرضع، طقوس للموتى، علاج للمرضى، مراسم زواج. قال إنّه في المرّة التالية التي يذهب فيها إلى حفل زفاف: "يمكننا الذهاب معاً! سأخذك معي!" المشكلة الوحيدة أنّه لم يعد لديه كثير من الزوار الأجانب، ذلك أنّ أحداً لم يعد يأتي إلى

بالي بعد التفجير الإرهابي. لذلك هو يشعر بأنه مريباً كثيراً في رأسه". كما يجعله يشعر بأنه مفلس جداً في مصرفه. سألني: "ستأتين إلى منزلي كل يوم للتمرّن معي على الإنكليزية؟" هزرت رأسي بسعادة فقال: "وأنا سأعلمك التأمل البالي، اتفقنا؟".
"اتفقنا".

قال: "أعتقد بأن ثلاثة أشهر هي مدة كافية لتعليمك التأمل البالي. ربّما أربعة أشهر. أتعجبك بالي؟".
"أحبّ بالي".
"هل ستزوجين في بالي؟".
"ليس بعد".
"أعتقد ربّما تقريباً. ستعودين غداً؟".

وعده بالعودة. لم يقل شيئاً عن انتقاله للعيش مع عائلته، ولم أثر الموضوع بعدما استرقت نظرة أخيرة إلى الزوجة المخيفة في المطبخ. ربّما أقيم في الفندق اللطيف طيلة الوقت عوضاً عن ذلك. فهو مريح أكثر على أي حال. من ناحية المياه وما إلى ذلك. ولكنني سأحتاج إلى درّاجة للمحجّيء كلّ يوم...
حان وقت الرحيل.

قال وهو يسلم عليّ: "تشرفّت جداً بلبائك".
فأعطيته درس اللغة الأوّل. علّمته الفرق بين تشرفّت بلبائك وسررت لرؤيتك. شرحت له بأننا لا نقول العبارة الأولى إلّا في أوّل لقاء لنا مع شخص ما. بعد ذلك، نستعمل العبارة الثانية دائماً، لأننا لا نتعرّف على الناس سوى مرّة واحدة. أمّا الآن، فسرى بعضنا يومياً.
أحبّ الفكرة، وكرّر الجملة من بعدي: "سررت لرؤيتك! سررت لرؤيتك! أستطيع رؤيتك! لست أصمّاً!".

انفجرنا جميعاً بالضحك، حتى ماريو. ثم سلمنا على بعضنا واتفقنا على أن أعود عصر يوم غد. فقال: "إلى اللقاء". قلت: "إلى اللقاء".

"دعي ضميرك يقودك. وإن كان لديك أصدقاء غربيون في بالي، أرسلهم إليّ لأقرأ لهم كفهم، فأنا مفلس جداً في مصري الآن منذ التفجير. أنا أعطي نصائح جيّدة. سررت جداً لرؤيتك، ليزا".

"أنا أيضاً سررت جداً لرؤيتك، كيتوت".

76

بالي هي جزيرة هندوسية صغيرة تقع في وسط الأرخيبيل الإندونيسي الممتد على طول ألفي ميل والذي يضم أكبر دولة إسلامية. وبالتالي، تشكّل بالي مصدر تساؤل واستغراب، حتى إنّه لا يجدر بها أن تكون موجودة. غير أنّ الهندوسية أتت إلى الجزيرة من الهند عبر جافا. فقد أحضرها التجّار الهنود معهم إلى الشرق خلال القرن الرابع بعد الميلاد. فأسّس ملوك جافا سلالة هندوسية عظيمة، لم يتبقّ منها الكثير اليوم، باستثناء آثار معبد هائل في بورودور. ففي القرن السادس عشر، قامت انتفاضة إسلامية عنيفة في المنطقة بأكملها وهربت الأسرة الملكية التي تعبد شيفا من جافا إلى بالي في حشود خلال ما سيعرف لاحقاً بحجرة الماجاباهيت. ولم يحضر معهم الجافانيون إلى بالي سوى أسرهم الملكية وحرفيهم وكهنتهم. لذا، لا مغالاة في القول بأنّ جميع الباليين يتحدّرون إمّا من ملك أو من كاهن أو من فتّان، ولهذا السبب هم فخورون ولا معون جداً.

أحضر المستوطنون الجافانيون معهم نظامهم الطبقي الهندوسي إلى بالي، مع أن التقسيمات الطبقيّة لم تطبّق هنا بشدّة كما كانت في الهند. مع ذلك، يعترف الباليينيون بنظام طبقي اجتماعي معقد (فئمة خمسة أقسام من البراهمانيين وخدمهم) ومن الأسهل لي فكّ شيفرة الخريطة الوراثية البشرية على أن أحاول فهم النظام القبلي المتداخل والمعقد الذي لا يزال سائداً هناك. (تذهب مقالات الكاتب فريد بي. أيزمن حول الثقافة الباليينيّة بعيداً في شرح هذه التفاصيل، وقد استمددت من بحثه معظم معلوماتي العامّة، ليس في هذا المجال فحسب، بل عبر الكتاب بأكمله). ويكفي القول هنا بأنّ كلّ شخص في بالي ينتمي إلى قبيلة، وكلّ شخص يعرف القبيلة التي ينتمي إليها ويعرف إلى أيّ قبيلة ينتمي كلّ شخص آخر. وفي حال تم طردك من قبيلتك لسبب من الأسباب، ليس أمامك سوى القفز في أحد البراكين، لأنّك تصبح فعلاً أسوأ من ميت.

تعتبر الثقافة الباليينيّة واحدةً من الأنظمة الاجتماعية والدينية الأكثر منهجية، خلّية نحل حقيقية من المهمات، والأدوار، والطقوس. والباليينيون مقيّدون تماماً في شبكة معقدة من العادات والتقاليد. وفي الواقع، ثمة مزيج من عوامل متعددة ساهم في إنتاج هذه الشبكة، غير أنّه يمكننا القول إن بالي هي ما حدث حين فرضت الطقوس الهندوسية التقليدية على مجتمع زراعي كبير يعيش من زراعة الأرز ويقوم على تعاون مُحكّم بين أبنائه. فسهول الأرز تحتاج إلى كثير من العمل المشترك والعناية والهندسة لكي تزدهر، لذا تملك كلّ قرية بالينيّة بانجار؛ أي منظمة متّحدة من المواطنين الذين يتّخذون بالإجماع القرارات السياسية والاقتصادية والدينية والزراعية. ففي بالي، الجماعة أهمّ بكثير من الفرد، وإلامات الناس جوعاً.

للطقوس الدينية أهمية بالغة في بالي (فالجزيرة تضمّ سبعة براكين ناشطة، ولو كنت تعيش هناك لشاركت في الطقوس أنت أيضاً). فاستناداً إلى التقديرات، تمضي المرأة الباليّة ثلث ساعات نهارها إمّا في الإعداد للطقس الديني أو المشاركة فيه أو التنظيف من بعده. فالحياة هنا هي عبارة عن دورة متواصلة من القرابين والطقوس. وينبغي القيام بما جميعاً، بالترتيب الصحيح والنية السليمة، وإلاّ اهدار توازن الكون بأكمله. فقد كتبت مارغاريت ميد عن الانشغال الهائل للبالينيين، وهو أمر صحيح، ذلك أن المجتمع الباليي نادراً ما يعرف الكسل. فثمة مراسم دينية تتمّ تأديتها خمس مرات في اليوم وأخرى مرّة في اليوم، مرّة في الأسبوع، مرّة في الشهر، مرّة في السنة، مرّة كلّ عشر سنوات، مرّة كلّ مئة سنة، مرّة كلّ ألف سنة. ويقوم الكهنة بتنظيم جميع هذه التواريخ والطقوس، مستندين إلى نظام تقويم بيزنطي لثلاث روزنامات مختلفة.

ثمّة ثلاثة عشر طقس عبور رئيسي يمرّ به الكائن البشري في بالي، لكلّ منها مراسم بالغة التنظيم. فيتمّ إجراء مراسم تهدئة روحية عبر حياة المرء بأكملها لحماية الروح من الرذائل البالغ عددها 108 (ها هو الرقم يظهر هنا مجدداً!)، ومنها العنف والسرقة والكسل والكذب. ويمرّ الطفل الباليي باحتفال بلوغ خطير يتمّ فيه برد الأنياب لتصبح مسطّحة، لغرض جمالي. فمن أسوأ الصفات في بالي أن يكون المرء فظاً وحيوانياً، وتعتبر الأنياب تذكّر بطبيعتنا الوحشية وتجدر بالتالي إزالتها. فمن الخطير في هذه الثقافة المغلقة والمتشابكة أن يكون الناس عنيفين. إذ من شأن شبكة التعاون بأكملها أن تتفكك بسبب النية الإجرامية لشخص واحد. بالتالي، أفضل ما تكون في بالي شخصاً ألوساً (ألوسي)، أي مصقولاً أو مجمّلاً. فالجمال هو صفة جيّدة في بالي، للرجال والنساء على السواء. إنّها صفة مبجّلة. الجمال أمان. والأطفال

يتعلمون منذ الصغر مواجهة المصاعب والمشاكل بوجه مشرق وابتسامة عريضة.

والفكرة الأساسية في بالي هي عبارة عن شبكة هائلة وغير مرئية من الأرواح والمرشدين والأساليب والعادات. وكل مواطن باليني يعرف تماماً إلى أين ينتمي، توجهه تلك الخريطة العظيمة غير الملموسة. ويكفي النظر إلى الأسماء الأربعة لمعظم البالينيين - الأول، الثاني، الثالث، الرابع - التي تذكرهم متى ولدوا في العائلة وإلى أين ينتمون. لن تحصل على نظام اجتماعي أفضل لرسم خريطة المجتمع لو أسميت أولادك شمال، جنوب، شرق، غرب. فقد أخبرني ماريو، صديقي الإندونيسي الجديد، أنه يشعر بالسعادة حين يتمكن من إبقاء نفسه - عقلياً وروحياً - عند نقطة التقاطع بين خط عمودي وخط أفقي، في حالة توازن تام. لهذا السبب، هو يحتاج إلى معرفة موقعه بالضبط في كل لحظة، في علاقته بعائلته هنا على الأرض. وإن احتل هذا التوازن، فقد قوته.

بالتالي، ليس من السخافة الافتراض بأن البالينيين هم أساتذة التوازن الشامل، الشعب الذي يمثل الحفاظ على التوازن التام بالنسبة إليه فناً وعلماً. بالنسبة إليّ، وفي بحثي الشخصي عن التوازن، أملت أن أتعلّم الكثير من البالينيين عن كيفية الثبات في هذا العالم الذي تسوده الفوضى. ولكن كلما قرأت ورأيت عن هذه الثقافة، أدركت كم سقطت بعيداً عن شبكة التوازن، من المنظور باليني على الأقل. فعادتي بالهيام في هذا العالم، غير واعية لاتجاهي الجسدي، إضافة إلى قراري بأنني انحرفت خارج شبكة الزواج والعائلة، يجعلني، بالنسبة إلى المجتمع الباليني، شيئاً أشبه بالشبح. ومع أنني أستمتع بهذه الحياة، إلا أنها كابوس بمقاييس أي مواطن باليني يحترم نفسه. فإن كنت لا تعرف أين أنت أو إلى أي قبيلة تنتمي، فكيف لك إذاً أن تجد التوازن؟

لهذا السبب، لست واثقة كم يمكنني أن أعني نظرتي إلى العالم من نظرة الباليينين إليه، بما أنني ما زلت حتى الآن كما يبدو أعتمد التعريف الحديث والغربي لكلمة توازن. (فأنا أترجمها حالياً الحرة المتساوية، أو الإمكانية المتساوية للسقوط في أي اتجاه في أي وقت كان، وفقاً لكيفية سير الأمور). ولكنّ الباليينين لا ينتظرون لرؤية كيفية سير الأمور. لكان هذا فظيماً بالنسبة إليهم. بل هم ينظّمون كيفية سير الأمور، لكي لا تعمّ الفوضى.

إن التقيت بغريب في الطريق وأنت تسير في بالي، فإنّ أوّل سؤال يطرحه عليك هو: "إلى أين أنت ذاهب؟" أمّا الثاني فيسكون: "من أين أنت آت؟" بالنسبة إلى الغربي، يبدو هذا استحواباً في غير محله من شخص غريب، ولكنّه يحاول في الواقع تحديد اتجاهك، يحاول إدخالك في الشبكة لتشعر بالأمان والراحة. ولو أجبت بأنك لا تعلم إلى أين تذهب أو بأنك تتحوّل بلا هدف، قد تولّد لدى صديقك الباليين الجديد شيئاً من الأسى. ومن الأفضل بكثير اختيار اتجاه محدد - أيّ مكان - ليشرح الجميع بالاطمئنان.

السؤال الثالث الذي سيشرح عليك الباليين هو بالتأكيد: "هل أنت متزوّج؟" والهدف من هذا السؤال هو أيضاً تحديد الموقع والاتجاه. فمن الضروري بالنسبة إليه معرفة ذلك، للتأكد من أنّ حياتك منظمّة تماماً. وهو يودّ حقاً أن تقول أجل. عندها، سيشرح براحة كبيرة لو قلت أجل. أمّا إن كنت عازباً، فمن الأفضل ألاّ تخبره بذلك على نحو مباشر. وأنصحك حقاً ألاّ تذكر له أنّك مطّلق، إن كنت كذلك، وإلاّ سيّبت له القلق. فوحدتك تثبت له انفصالك الخطير عن الشبكة. فإن كنت امرأة عازبة مسافرة إلى بالي وسألك أحدهم: "هل أنت متزوّجة؟" فإن أفضل إجابة هي: "ليس بعد". إنّها طريقة مهذّبة لقول

كلا، مع الإشارة إلى نوايك التفاؤلية بشأن تصحيح هذا الوضع في أقرب وقت.

حتى إن كنت بسن الثمانين أو كنت شاذة أو مناصرة شديدة الحماسة للمساواة بين الجنسين أو راهبة، ولم يسبق لك الزواج قبلاً ولا تنوين الزواج إطلاقاً، يبقى الجواب الأكثر تهدياً هو: "ليس بعد".

77

في الصباح، ساعدني ماريو على شراء دراجة. قال لي على طريقة الإيطاليين: "أعرف شخصاً"، واصطحبني إلى متجر ابن عمه الذي اشتريت منه دراجة جبلية جميلة، وخوذة، وسلّة بأقلّ من خمسين دولاراً أميركياً. أصبحت الآن قادرة على التنقل في بلدي الجديدة أوبود، بقدر ما يمكنني أن أشعر بالأمان على هذه الطرقات الضيقة والمتعرّجة التي تفتقر إلى الصيانة وتكثر فيها الدراجات النارية، والشاحنات، وباصات السيّاح.

بعد الظهيرة، ركبت دراجتي، وتوجهت إلى قرية كيتوت، لقضاء بعض الوقت مع عرّافي في أوّل يوم لنا من... مهما كان ما سنفعله معاً. لست واثقة بصراحة. دروس إنكليزية؟ دروس تأمل؟ جلوس على شرفة قديمة الطراز؟ لا أعرف في ماذا يفكر كيتوت، ولكنني سعيدة لأنّه دعاني إلى حياته.

كان لديه زوّار عند وصولي، عائلة قروية صغيرة أحضرت طفلتها ذات السنة من العمر إلى كيتوت طلباً للمساعدة. فالطفلة المسكينة تتألّم من أسنانها وكانت تبكي لعدة ليال. كان الوالد شاباً وسيماً يرتدي السارونغ ويبدو بعضلات ساقيه وكأنّه تمثال حرب سوفياتي.

أما الأم فكانت جميلة وخجولة، تنظر إليّ من خلال رموشها المنخفضة بحياء. وقد أحضرا معهما قرباناً صغيراً لكيتوت على خدماته؛ 2000 روبيه، أي ما يعادل 25 سنتاً، وضعت في سلة يدوية الصنع من سعف النخيل، أكبر بقليل من منفضة في صالة فندق. وكان في السلة برعم زهرة واحد، مع المال وبضع حبات من الأرز. (شدة فقرهم برزت بوضوح أمام العائلة الأغني حلاً الآتية من العاصمة دينبزار التي أتت لزيارة كيتوت عصرًا، إذ كانت الأم تؤرجح على رأسها سلة من ثلاث طبقات تمتلئ بالفاكهة والأزهار فضلاً عن بطة مشوية. بدت السلة غطاء رأس فخماً ورائعاً إلى حدّ أنّ كارمن ميراندا كانت لتتحنى أمامه تواضعاً).

كان كيتوت مسترخياً ولطيفاً مع ضيوفه. أصغى إلى الأبوين وهما يشرحان مشاكل الطفلة، ثمّ بحث في صندوق صغير على شرفته، وأخرج دفترًا قديماً يحتوي على كتابات صغيرة بالسنسكربتية الباليئية. راجع دفتره مثل طالب وبحث عن مزيج الكلمات الذي يناسبه وهو يتحدّث ويضحك مع الأبوين طيلة الوقت. ثمّ تناول صفحة بيضاء من دفتر عليه صورة ضفدع كامل وكتب ما قال بأنه وصفة للطفلة. كانت الطفلة حسب تشخيصه تعاني من عفريت صغير بالإضافة على انزعاجها من أسنانها. بالنسبة إلى الأسنان، نصح الأبوين بفرك لثتها بعصارة بصله حمراء. أمّا لتهدئة العفريت، فينبغي عليهم تقديم قربان مؤلف من دجاجة وخنزير صغيرين مع بعض الحلوى الممزوجة بأعشاب خاصة يمكن لجدتهما العثور عليها بالتأكيد في حديقتهما الطبية. (ولن يذهب هذا الطعام هباءً. فبعد الاحتفال، يسمح دائماً للعائلات الباليئية بتناول قربانينهم، لأنّ القربان هو عمل ماورائي أكثر تما هو فعلي).

بعد كتابة الوصفة، أدار لنا كيتوت ظهره، وملاً إناءً من الماء، ولفظ فوّه مانترا تثير القشعريرة. ثمّ بارك الطفلة بالماء الذي نفخ فيه للتوّ قوّة مقدّسة. وحتى في عمر السنة، كانت الطفلة تعرف كيف تستلم المباركة بالطريقة التقليدية الباليينّة. فبيما حملتها الأمّ، مدّت الطفلة يدها الصغيرة لاستلام الماء الذي رشفت منه مرتين ثمّ رشّت الباقي على رأسها. ولم يبدُ عليها أيّ خوف من العجوز الذي يغيّي لها بفسم خال من الأسنان. هنا أخذ كيتوت بقية الماء، وصبّه في كيس من النايلون قبل أن يربطه ويعطيه للعائلة لتستعمله لاحقاً. فحملت المرأة كيس الماء معها وهي خارجة وبدت وكأنّها رجحت للتو سمكة ذهبية من أحد المعارض، إلاّ أنّها نسيت أخذ السمكة معها.

أعطى كيتوت هذه العائلة حوالى أربعين دقيقة من انتباهه الكامل مقابل حوالى 25 سنتاً. ولو لم تكن تملك المال على الإطلاق، لفعل الشيء نفسه. فواجهه كعلاج يحمّ عليه ذلك. لذا، هو لا يردّ أحداً، وإلاّ حُرم من قدراته العلاجية. يستقبل كيتوت عشرة زوار تقريباً في اليوم من هذا النوع؛ بالينيون يحتاجون إلى المساعدة أو النصيحة في مسائل روحانية أو طبية. غير أنّه في الأيام السعيدة، التي يحتاج فيها الجميع إلى مباركة خاصة، قد يستقبل ما يفوق المئة زائر في اليوم. "ألا تتعب؟"

أجابني: "هذه مهنتي، وهوايتي أيضاً؛ عرّاف".

أتى بعض المرضى بعد الظهر، ولكننا حصلنا أنا وكيتوت على قليل من الخلوة على الشرفة أيضاً. أشعر بكثير من الراحة والاسترخاء مع هذا العرّاف، وكأني مع جدّي. أعطاني درسي الأوّل في التأمل. أخبرني بأنّه ثمة عدة وسائل لذلك، ولكنّ معظمها معقد جداً بالنسبة إلى الغربيين، لذا سيعلمني طريقة تأمل سهلة. وهي تقوم على التالي:

اجلسي بصمت وابتسمي. أحببتها كثيراً. كان يضحك حتى وهو يعلمني إياها. اجلسي وابتسمي. ممتاز.

سألني: "هل درست اليوغا في الهند يا ليز؟"

"أجل، كيتوت".

قال: "يمكنك ممارسة اليوغا، ولكنها صعبة جداً". وهنا لوى نفسه في وضعية لوتس متشنجة وقوس وجهه بشكل مضحك ومنقبض. ثم قام وراح يضحك ويسألني: "لماذا يبدو هذا الجدية في اليوغا؟ فهذه التعابير الجادة تخيف الطاقة الجيدة. للتأمل، ليس عليك سوى الابتسام. ابتسمي بوجهك، ابتسمي بعقلك، والطاقة الجيدة ستأتي إليك وتزيل الطاقة القذرة. ابتسمي حتى بكبدك. جرّبها الليلة في الفندق. ليس عليك التسرع ولا بذل مجهود كبير. فالجدية المفرطة تسبب المرض. يمكنك استدعاء الطاقة الجيدة بابتسامة. انتهى كل شيء لهذا اليوم. إلى اللقاء، عزيزتي. عودي غداً. أنا مسرور جداً لرؤيتك، ليز. دعي ضميرك يقودك. وإن أتى أصدقاء لك إلى بالي، أرسلهم إليّ لأقرأ لهم كفهم، فأنا مفلس جداً في مصري منذ التفجير".

78

هذه هي قصة حياة كيتوت لاير تماماً كما يرويها بإنكليزيتها
الركيكة:

"نحن عائلة عرافين تعود إلى تسعة أجيال. أبي، جدي، جدّ أبي، كلهم عرافون. وقد أرادوني جميعاً أن أكون عرافاً لأنّ عندي نوراً برأيهم. برأيهم عندي جمال وعندي ذكاء. ولكنني لم أكن أريد أن أكون عرافاً. كثير من الدراسة! كثير من المعلومات! ولا أعتقد

بالعراف! أردت أن أكون رسّاماً! أردت أن أكون فنّاناً! فأنا موهوب في هذا المجال".

"حين كنت لا أزال يافعاً، التقيت برجل أميركي غنيّ جداً، ربّما كان مثلك من نيويورك. أحبّ رسمي. أراد شراء رسم كبير منّي، ربّما بطول متر، مقابل كثير من المال. ما يكفي من المال لأصبح غنيّاً. هكذا بدأت رسم تلك اللوحة له. كلّ يوم أنا أرسم، أرسم، أرسم. حتى في الليل، أنا أرسم. في ذلك الوقت، لم يكن ثمة مصباح كهربائي مثل اليوم، كان لديّ مصباح على الزيت. كنت أضخّه لسحب الزيت. وكنت أرسم كلّ ليلة أمام مصباح الزيت".

"في إحدى الليالي، انطفأ المصباح، فبدأت أضخّ، أضخّ، أضخّ حتى انفجرت! واشتعلت النار بذراعي! بقيت في المستشفى لشهر، والتهت ذراعي. وصل الالتهاب إلى قلبي. قال الطبيب إنّه ينبغي عليّ الذهاب إلى سنغافورة لبتّر ذراعي. لم أرد ذلك، ولكنّ الطبيب قال إنّ عليّ إجراء الجراحة وبتّر ذراعي. فقلت له إنني أريد الذهاب إلى قريتي أولاً".

"تلك الليلة في القرية، رأيت حلماً. أتى أبي وجدي وجدّ أبي في المنام إلى منزلي وأخبروني كيف أعالج ذراعي المحروقة. قالوا لي: اصنع عصارة من الزعفران وخشب الصندل وضع العصير على ذراعك. ثمّ اصنع مسحوقاً من الزعفران وخشب الصندل وضعه على الحرق. قالوا إنّ عليّ القيام بذلك كي لا أحسر ذراعي. كان الحلم حقيقياً جداً، وكانهم معي فعلاً في البيت".

"استيقظت. ولم أعرف ماذا أفعل، لأنّ الأحلام تكون مجرد مزحات أحياناً، أتفهمين؟ ولكنني وضعت عصارة الزعفران وخشب الصندل على ذراعي، ثمّ وضعت مسحوق الزعفران وخشب الصندل

على الحرق. كانت ذراعي ملتبهة جداً، ومؤلمة جداً ومتورمة جداً. ولكن بعد العصاراة والمسحوق، أصبحت باردة جداً. ثم بدأت تتحسن. وبعد عشرة أيام، شفيت تماماً".

"هكذا، بدأت أعتقد بهذا الطب. ثم رأيت أبي وجدي وجدّ أبي في حلم آخر. قالوا لي إنّ عليّ أن أصبح عرّافاً. روحي، عليّ أن أهبها إلى الله. لذلك، يجب أن أصوم ستة أيام، أتفهمين؟ بلا طعام ولا ماء. لا أشرب، لا أأفطر. ليس سهلاً. عطشت كثيراً من الصيام، ذهبت إلى حقول الأرزّ في الصباح قبل شروق الشمس. جلست في حقل الأرزّ وفمي مفتوح، وأخذت الماء من الهواء. ماذا تسمونه، الماء في الهواء في حقل الأرزّ في الصباح؟ ندى؟ أجل، ندى. لم أتناول سوى الندى لستهة أيام. في اليوم الخامس، أغمي عليّ. رأيت اللون الأصفر في كلّ مكان. كلا، لم يكن أصفر، بل ذهبياً. رأيت اللون الذهبي في كلّ مكان، حتى في داخلي. شعرت بالسعادة. الآن فهمت..."

"ينبغي عليّ الآن إذاً أن أكون عرّافاً. عليّ أن أدرس كتب جدّ أبي الطبية. وهي ليست مكتوبة على الورق بل على أوراق النخيل المسماة لونتار. وهي موسوعة طبية بالينية. عليّ أن أتعرّف إلى جميع النباتات في بالي. لم يكن سهلاً. بالتدريج، تعلمت كلّ شيء. تعلمت علاج مشاكل الناس. أعالج الجسد المريض بالأعشاب، وأعالج العائلة المريضة، التي تتشاجر دوماً بالتناغم، برسم سحري خاص، وأيضاً بالتحدّث. أضع الرسم السحري في المنزل، فيتوقف الشجار. في بعض الأحيان، يمرض الناس بالحب، لا يجدون الشريك المناسب. فلدى الباليين والغريين أيضاً كثير من المشاكل مع الحب، من الصعب العثور على الشريك المناسب. وأنا أصلح مشاكل الحبّ بمانترا وبرسم

سحري، حيث يجلبان لك الحب. حين تضعين رسمي السحري في بيتك، فإنه يجلب لك الطاقة الإيجابية".

"ما زلت أحب أن أكون فتاناً، أحب الرسم حين أجد الوقت، وبيع اللوحات للمعارض. أرسم دائماً الموضوع نفسه، حين كانت بالي فردوساً، ربّما منذ ألف عام. أرسم أدغالاً، حيوانات، نساء ذات... ما هي الكلمة؟ ثدي. نساء ذات أُنذاء. يصعب عليّ إيجاد الوقت للرسم لأنني عرّاف ولكن عليّ أن أكون عرّافاً. هذه مهنتي. هذه هوايتي. عليّ أن أساعد الناس وإلا غضب الله مني. أقوم أحياناً بتوليد النساء أو بمراسم للموتى أو باحتفالات برد الأسنان أو الزفاف. أحياناً أستيقظ عند الثالثة بعد منتصف الليل وأرسم على ضوء المصباح الكهربائي، هذا هو الوقت الوحيد الذي يمكنني الرسم فيه. أحب هذا الوقت الذي أمضيه وحدي، وأتمكّن فيه من الرسم".

"أقوم بسحر حقيقي، إنني لا أمزح. أنا أقول الحقيقة دوماً، حتى لو كانت أخباراً سيئة. عليّ أن أكون حسن الأخلاق في حياتي وإلا دخلت النار. أتحدّث الباليينية والإندونيسية وقليلاً من اليابانية والإنكليزية والألمانية. فخلال الحرب، أتى كثير من اليابانيين إلى هنا. لم يكن هذا سيئاً بالنسبة إليّ؛ كنت أقرأ لهم كفهم وأتصادق معهم. قبل الحرب، أتى كثير من الألمان. والآن كثير من الغربيين، كلهم يتحدثون الإنكليزية. ألمانيّتي... كيف تقولونها؟ ما هي الكلمة التي علمتني إياها أمس؟ صديّ؟ أجل، صديّ. ألمانيّتي صديّة!".

"أنا أنتمي إلى الطبقة الرابعة في بالي، الطبقة الأدنى مرتبة. ولكنني أرى كثيراً من الناس من الطبقة الأولى لا يتمتعون بذكائهم. اسمي كيتوت لاير. لاير هو الاسم الذي أطلقه عليّ جدّي حين كنت ولداً صغيراً، ويعني النور الساطع. هذا أنا".

أنا حرة تماماً هنا في بالي، إلى حدّ يثير الضحك. إذ تنحصر واجباتي في زيارة كيتوت لبضع ساعات عصرًا، وهو عمل بسيط جدًّا. أمّا بقية اليوم فأقضيه بأشكال متنوعة وغير مبالية. أتأمل لمدة ساعة كلّ صباح بتقنيات اليوغا التي علمتني إياها مرشدتي، ثمّ أتأمل لمدة ساعة كلّ مساءً على طريقة كيتوت ("اجلسي ساكنة وابتسمي"). وبين هاتين الجلستين أنتزّه سيرًا على الأقدام، وأركب دراجتي، وأتحدّث أحيانًا مع الناس، وأتناول طعام الغداء. عثرت على مكتبة صغيرة هادئة تُعير الكتب في تلك البلدة، فحصلت على بطاقة، وأصبحت أمضي الآن أجزاءً كبيرة وممتعة من حياتي وأنا أقرأ في الحديقة. فبعد حدة الحياة في المعتزل، وحتى بعد فترة الانحطاط التي أمضيتها وأنا أجوب إيطاليا وأكمل كلّ ما يقع عليه نظري، كانت هذه الفترة من حياتي جديدة وهادئة على نحو جذري. كان لديّ من الفراغ ما يمكن قياسه بالأطنان.

كلّما غادرت الفندق، سألني ماريو والموظفون الآخرون على مكتب الاستقبال إلى أين أذهب، وكلّما عدت، سألوني أين كنت. أتخيّلهم يحتفظون بخرائط صغيرة في درج مكتبهم لجميع أحبائهم، مع علامات تشير إلى أين يذهب الجميع في كلّ وقت.

في الأمسيات، أقود دراجتي إلى أعلى التلال وعبر سهول الأرزّ شمال أوبود، وأستمتع بالمناظر الخضراء الخلّابة. كنت أرى الغيوم الوردية منعكسة على صفحة المياه الراكدة لحقول الأرزّ، وكأنّه نّمة سماء: واحدة في الأعلى وأخرى هنا في المياه الموحلة، لنا نحن البشر. قدت الدراجة مرّةً إلى ملتجأ مالك الحزين، مع لوحة الترحيب الغريبة

حسناً، يمكنكم رؤية مالك الحزين هنا، ولكن لم يكن ثمة طيور مالك الحزين، بل بطّ وحسب، فتفرّجت على البطّ لبعض الوقت، ثمّ توجهت إلى القرية المجاورة. مررت في طريقي برجال ونساء وأطفال ودجاج وكلاب، كلّ منهم كان مشغولاً على طريقته، ولكن ليس إلى حدّ عدم التوقّف لتحيّتي.

منذ بضع ليالٍ، رأيت لوحة عند أعلى تلة جميلة مكسوة بالأشجار مكتوب عليها: منزل فنان للإيجار، مع مطبخ. وبفضل كرم الله، انتقلت إليه بعد ثلاثة أيام. ساعدني ماريو في ذلك، وودّعني جميع أصدقائه في الفندق بأعين دامعة.

يقع منزلي على طريق هادئ محاط بحقول الأرز من جميع جهاته. هو أشبه قليلاً بكوخ محاط بجدران مكسوة باللبلاب. مالكة المنزل هي امرأة إنكليزية، ذهبت لقضاء الصيف في لندن، فدخلت منزلها وحللت محلّها في هذا المكان الساحر. كان المنزل يضمّ مطبخاً أحمر زاهي اللون وحوض أسماك ذهبية وشرفة رخامية وحمّاماً خارجياً مكسوّاً بالموزاييك البرّاق، بحيث يمكنني أن أشاهد وأنا أستحمّ طيور مالك الحزين المعشّشة في أشجار النخيل. كان ثمة طرقات سرّية صغيرة تقود إلى حديقة فاتنة. يأتي المنزل مع جنائني، وليس عليّ بالتالي سوى مشاهدة الأزهار. لم أكن أعرف اسم أيّ من تلك الأزهار الاستوائية الخلابّة، فابتكرت لها أسماءً بنفسني. لمّ لا؟ فهذه خاصة بي، أليست كذلك؟ وسرعان ما أطلقت على نباتات الحديقة أسماءً جديدة: شجرة النرجس الأصفر، نخلة الملفوف، طحالب فستان السهرة، اللولبية، برعم الإصبع، كرمة الكآبة وسحلية وردية رائعة أسميتها كفّ الطفل. في الواقع، إنّ حجم الجمال الخالص المفرط وغير الضروري يفوق الوصف. يمكنني مثلاً

قطف الموز والبابايا عن الأشجار من نافذة غرفتي. ثمّة قطّ يعيش هنا يحطّرتي بجنانة لنصف ساعة قبل أن أطعمه، ثمّ يبدأ بالمواء بجنون بقية الوقت وكأته يسترجع ذكريات حرب فييتنام. ومن الغريب أنّ الأمر لم يزعجني. فلا شيء يزعجني هذه الأيام. لا يمكنني تخيل أو تذكر الاستياء.

أصوات الطبيعة رائعة أيضاً في هذا المكان. في المساء تنطلق أوركسترا الجُدُجُد فيما تؤدّي الضفادع الصوت الخفيض. وفي منتصف الليل، تنبح الكلاب متدمّرة لأنّ أحداً لا يفهمها. وقبل الفجر تعلن الديوك على عدة أميال كم هي سعيدة لكونها ديوكاً. ("نحن ديوك! لا يوجد ديوك غيرنا!") وكلّ صباح مع اقتراب شروق الشمس، تبدأ منافسة الزفرقة بين الطيور الاستوائية، وهي دوماً تستعدّ للبطولة. عند شروق الشمس، يهدأ المكان وتنطلق الفراشات إلى عملها. المنزل مكسوّ بأكمله بشجر الكرمة. أشعر بأنّه سيختفي تقريباً بين الأوراق وسأحتفي معه وأتحوّل إلى زهرة أدغال. أمّا إيجار المنزل، فهو أقلّ ممّا كنت أدفعه في نيويورك لسيارة الأجرة كلّ شهر.

80

ينبغي عليّ الآن أن أكون صادقة وأقول أنّ الأمر استغرق منّي ثلاثة أيام فقط من البحث في المكتبة المحلية لأدرك أنّ أفكاري الأساسية عن الفردوس الباليينية كانت مضلّلة بعض الشيء. فقد كنت أخير الناس منذ أن زرت بالي منذ عامين أنّ هذه الجزيرة الصغيرة هي المدينة الفاضلة الوحيدة في العالم، مكان لم يعرف سوى السلام والتناغم

والتوازن باستمرار. إنه فردوس حقيقية لم يعرف تاريخها العنف أو الدماء إطلاقاً. لا أعرف من أين أتيت بهذه الفكرة، ولكنني كنت أبرهنها بثقة تامة.

كنت أقول: "حتى ضباط الشرطة يضعون زهرة في شعرهم". وكان هذا الأمر يؤكد كلامي.

غير أنه تبين لي أن لبالي تاريخاً حافلاً بالعنف والقمع شأنها شأن أيّ مكان عاش فيه الإنسان على هذا الكوكب. فحين هاجر ملوك جافا إليها في القرن السادس عشر، أسسوا فيها مستوطنة إقطاعية قامت على نظام طبقي صارم لم يختلف في قلة اكرثائه بالسواد الأعظم من الناس عن غيره من الأنظمة الطبقية التي تحترم نفسها. وكان اقتصاد بالي في البداية قائماً على تجارة الرقيق المربحة (التي لم تسبق وحسب المشاركة الأوروبية في تجارة الرقيق العالمية بعدة قرون، بل واستمرت بعدها لفترة طويلة). في الداخل، عرفت الجزيرة حروباً مستمرة بين الملوك المتنافسين الذين كانوا يقومون بهجمات متقطعة على جيرانهم مع خطف وقتل جماعي). وحتى أواخر القرن التاسع، كانت الباليين معروفين بين التجار والبحارة بأنهم مقاتلون وحشيون. (كلمة أموك، هي كلمة بالينية تصف تقنية قتالية تقوم على الهجوم فجأة بشكل وحشي وجنوني على العدو في قتال فردي انتحاري ودموي. وهذه الممارسة أثارت رعب الأوروبيين). فقد تمكن الباليين بجيش منظم يبلغ عدده 30 ألفاً من هزيمة الغزاة الألمان عام 1848، ومرة ثانية عام 1849، وثالثة عام 1950. ولم يسقطوا تحت السيطرة الألمانية إلا حين انشقّ صفّ ملوك بالي و خانوا بعضهم تنافساً على السلطة، ووقفوا في صفّ العدو مقابل وعود بصفقات مربحة لاحقاً. بالتالي فإن تحويل تاريخ الجزيرة إلى فردوس هو أمر مهين للحقيقة، فهؤلاء الأشخاص لم

يقضوا الألفية الماضية وهم جالسون مبتسمون ينشدون أغنيات سعيدة.

لكن في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، حين اكتشفت بالي مجموعة من المسافرين، ينتمون إلى صفوة المجتمع الغربي، تم تجاهل كل هذا التاريخ الدموي حين اتفق القادمون الجدد على أن هذا المكان هو فعلاً جزيرة جميع من فيها فنانون وتعيش فيها الإنسانية في نعيم مقيم. وعاش هذا الحلم طويلاً، وظلّ يؤيده معظم زوّار بالي (بمن فيهم أنا في زيارتي الأولى). فقد قال المصور الألماني جورج كراوزر بعد زيارته بالي في الثلاثينيات: "أنا غاضب لأنني لم أولد بالينياً". وسقط بعض مشاهير السياح تحت إغراء ما قيل عن الجمال الخلاب والهدوء اللذين تتمتع بهما بالي، فبدأوا يقصدون الجزيرة: فنانون أمثال والتر سبايز وأدباء أمثال نويل كوارد وراقصون أمثال كلير هولت وممثلون أمثال تشارلي تشابلن وباحثون أمثال مارغاريت ميد.

انتهت تلك المرحلة في الأربعينيات حين خاض العالم الحرب. فاجتاح اليابانيون إندونيسيا واضطّرّ المغتربون إلى مغادرة نعيم الجنة الباليينيّة. وخلال النضال في سبيل الاستقلال الإندونيسي الذي أعقب الحرب، عرفت بالي الانقسام والعنف شأنها شأن بقية أنحاء الأرخيل، وبحلول الخمسينيات (بحسب دراسة تحت عنوان: بالي: فردوس مبتكرة) لو تجرّأ أحد الغربيين على زيارة بالي، فإنّه لا ينال من دون مستس تحت وصادته. وفي الستينيات حوّل الصراع على السلطة إندونيسيا بأكملها إلى ساحة حرب بين القوميين والشيوعيين. وبعد محاولة انقلاب في جاكرتا عام 1965، تم إرسال جنود قوميين إلى بالي مع لائحة بأسماء جميع الشيوعيين المشتبه بهم على الجزيرة. وخلال أسبوع، وبمساعدة

رجال الشرطة المحلية وسلطات القرية في كلّ خطوة، شقّت القوات القومية طريقها الدامي بثبات عبر كلّ بلدة. وبانتهاؤهم مهمتها، غصّت أنهار بالي الجميلة بما يقارب 100 ألف جثة.

في أواخر الستينيات، عاد حلم الفردوس إلى الحياة، حين قررت الحكومة الإندونيسية إعادة ابتكار بالي في سوق السياحة الدولية وأطلقت لها حملة تسويق ضخمة وناجحة. والسياح الذين أغرهم بالي مجدداً كانوا من المثقفين الذين جذبهم الجمال الفني المتأصل في الثقافة الباليينيّة. أمّا صفحات التاريخ السوداء فتمّ إغفالها، وظلّت مهملة منذ ذلك الحين.

هذه الحقائق التي اكتشفتها خلال الساعات التي كنت أمضيها أقرأ في المكتبة المحلية سبّبت لي الإرباك. ما الذي أتى بي إلى بالي؟ سعبي إلى التوازن بين اللذة الدنيوية والتعبّد الروحاني، صحيح؟ هل أنا في المكان المناسب لهذا البحث؟ هل يعيش البالييون فعلاً في هذا التوازن والسكينة أكثر من بقية أهل الأرض؟ أعني أنهم يبدوون متوازنين، مع كلّ الرقص والاحتفالات والجمال والابتسام، ولكنني لا أعرف ما الذي يجري فعلاً خلف كلّ هذا. رجال الشرطة يضعون فعلاً أزهاراً خلف آذانهم، ولكنّ الفساد يعمّ أرجاء بالي، كما هو الحال في مختلف أنحاء إندونيسيا (كما تبين لي شخصياً في اليوم الفائت حين دسست لرجل يرتدي بزّة رسمية بضع مئات من الدولارات ليمدّد لي تأشيرتي وأتمكّن من البقاء في بالي لأربعة أشهر). البالييون أوفياء للصورة التي تجعل منهم شعباً مسالماً ومتعبداً وبارعاً في التعبير الفني أكثر من أيّ من شعوب العالم، ولكن كم من هذه الصفات حقيقي وكم منها محسوب اقتصادياً؟ وكم يمكن لغريب مثلي رؤية الضغوط الكامنة خلف تلك الوجوه المشرقة؟ هذا المكان هو مثل أيّ مكان آخر في

العالم، حين تتأمل الصورة عن كعب، تبدأ الخطوط البارزة بالتلاشي وتتحول إلى مزيج غامض من الألوان الضبابية.

ما أنا أكيدة منه الآن هو أنني أحبّ المنزل الذي استأجرته وأنّ الناس في بالي كانوا لطفاء معي من دون استثناء. أجد قنهم وطقوسهم جميلة ومجدّدة، وهذا ما يظنونه هم أيضاً على ما يبدو. هذه هي تجربتي في مكان أكثر تعقيداً مما ظننت. ولكن مهما احتاج الباليون إلى فعله ليحافظوا على توازهم ويكسبوا قوتهم، فإنّ الأمر من شأنهم وحدهم. أنا هنا للعمل على توازني وحسب، ولا يزال المكان يبدو لي، حتى الآن على الأقلّ، مناخاً مناسباً لذلك.

81

لا أعرف كم عمر عرّافي. سألته ولكنّه ليس أكيداً. أذكر أنني حين أتيت إلى بالي منذ عامين، أخبرنا المترجم أنّه في العقد الثامن من عمره. ولكنّ ماريو سأله مؤخراً عن سنّه وأجاب كيتوت: "ربّما خمس وستون، لست أكيداً". وحين سألته عن العام الذي ولد فيه، أجاب بأنّه لا يذكر أنّه وُلد. أعرف أنّه كان راشداً خلال الاحتلال الياباني لبالِي في الحرب العالمية الثانية، ما يعني أنّه الآن في العقد الثامن من عمره تقريباً. ولكن حين أخبرني قصّة احتراق ذراعه وهو شابّ، وسألته متى حدث ذلك، قال: "لا أعرف، ربّما عام 1920؟" بالتالي، إن كان في حوالي العشرين عام 1920، ما سنّه الآن؟ ربّما مئة وخمس سنوات؟ إذا، يمكننا القول إنّ عمره يتراوح بين خمس وستين ومئة وخمس سنوات.

لاحظت أيضاً أنّ تقديره لسنّه يتغيّر بين يوم وآخر، بحسب وضعه. فحين يكون متعباً جداً، يتنهد قائلاً: "ربّما خمس وثمانون

السيوم"، ولكن حين يكون أكثر سعادة ونشاطاً يقول: "أظنّ أنني في الستين اليوم". وأظنّ أنّ هذه الطريقة هي الأفضل لتقدير العمر: كم تشعر بأنّ عمرك؟ وهل للأمر أهمية فعلاً؟ مع ذلك، أحاول دوماً تقدير عمره. سألته يوماً ببساطة شديدة: "كيتوت، متى ذكرى ميلادك؟".

أجاب: "الخميس".

"هذا الخميس".

"كلا. ليس هذا الخميس بل يوم خميس".

تلك بداية جيّدة... ولكن لا مزيد من المعلومات؟ يوم خميس من أيّ شهر؟ من أيّ سنة؟ لا إجابة. على أي حال، اسم اليوم الذي ولدت فيه هو أكثر أهمية في بالي من العام، لهذا السبب، ومع أنّ كيتوت لا يعرف تاريخ ميلاده، إلّا أنّه أخبرني بأنّ شيفا المعظم هو راعي مواليد يوم الخميس، وأنّ لهذا اليوم روحين حيوانيتين ترشدهما الأسد والنمر. أمّا الشجرة الرسمية لمواليد يوم الخميس فهي الأثاب، والطيّر الرسمي هو الطاووس. والشخص المولود يوم الخميس يتحدث دائماً أولاً ويقاطع الجميع، وقد يكون عدوانياً بعض الشيء ولكنّه يميل إلى الوسامة ولديه طباع محترمة عموماً كما يتمتّع بذاكرة ممتازة ورغبة بمساعدة الناس.

حين يتلقّى كيتوت زيارات من مرضى بالنيين يعانون من مشاكل صحية أو اقتصادية أو عاطفية خطيرة، يسألهم دوماً في أيّ يوم من أيام الأسبوع ولدوا، لكي يعدّ لهم العلاجات والصلوات المناسبة. ففي بعض الأحيان، يقول كيتوت: "يمرض الناس من تاريخ ميلادهم". ويحتاجون إلى تعديل فلكي يعيد إليهم التوازن. في أحد الأيام، أحضرت عائلة تعيش في البلدة أصغر أبنائها لرؤية كيتوت. كان الطفل في الرابعة من عمره تقريباً. سألت عن المشكلة فترجم لي كيتوت بأنّ العائلة قلقة

من "مشاكل مع عدوانية هذا الصبي. هذا الصبي لا يسمع الأوامر. سلوك سيئ. لا انتباه. كل من في المنزل تعب من هذا الصبي. أيضاً، في بعض الأحيان يصاب هذا الصبي بالدوار".

سأل كيتوت الأبوين ما إذا كان بإمكانه حمل الطفل قليلاً. فوضعاها في حجره، واستند إلى صدر العراف العجوز مسترخياً وغير خائف. حمل كيتوت الطفل بحنان ووضع راحته على جبينه وأغمض عينيه. ثم وضع راحته على بطن الصبي وأغمض عينيه ثانية. كان يتنسم، ويتحدث إليه بلطف طيلة الوقت. انتهى الفحص بسرعة، فأعاد كيتوت الطفل إلى والديه وسرعان ما غادر الثلاثة مع وصفة وبعض الماء الذي تلا عليه الأديعية. ثم أخبرني كيتوت أنه سأل الأبوين عن ظروف ولادة الطفل واكتشف بأنه ولد تحت نجم سيئ يوم السبت؛ وهو يوم يحتوي على عناصر أرواح يحتمل أن تكون سيئة، مثل روح الغراب وروح البومة وروح السديك (وهذا ما يجعل الطفل مشاكساً) وروح الدمية (وهذا ما يسبب له الدوار). ولكن ليس الأمر سيئاً تماماً. فحسد الطفل الذي يولد يوم السبت يحتوي على روح قوس قزح وروح الفراشة، اللتين يمكن تقويتيهما. وينبغي تقديم سلسلة من القرابين لإعادة التوازن إلى الطفل.

سألته: "لماذا وضعت يدك على جبين الطفل ومعدته؟ هل كنت تتحقق من حرارته؟".

أجاب: "كنت أتحقق من دماغه، لأرى ما إذا كان ثمة أرواح شريرة في عقله".

"أي نوع من الأرواح الشريرة؟".

"أنا باليبي يا ليز. أعتقد أن الأرواح الشريرة تخرج من الأنهار وتؤذي الناس".

"وهل كان ثمة أرواح شريرة لدى الطفل؟".

"كلّا. كان مرضه في تاريخ ميلاده وحسب. ستقوم عائلته بتقديم ذبيحة. سيكون هذا كافياً. ماذا عنك، ليز؟ هل تمارسين التأمل الباليي كلّ ليلة؟ هل تحافظين على نظافة عقلك وقلبك؟".

وعدته قائلة: "كلّ ليلة".

"هل تتعلّمين الابتسام حتى بكبكك؟".

"حتى بكبدي، كيتوت. ابتسامة عريضة بكبدي".

"جيد. هذه الابتسامة ستجعلك امرأة جميلة. ستعطيك القوة لتكوّني جميلة. ويمكنك استعمال هذه القوة - القوة الجميلة! - لتحصلي على ما تريد في الحياة".

كرّرت بعده: "القوّة الجميلة!" وأحببتها. وكأني دمية متألمة.

"أريد قوّة جميلة!".

"أما زلت تمارسين التأمل الهندي أيضاً؟".

"كلّ صباح".

"جيد. لا تنسي اليوغا. فهي مفيدة لك. من المفيد ممارسة طريقي التأمل، الهندية والباليية. فهما مختلفتان ولكنّ فائدتهما متساوية. إنهما سيان".

"لا يفكر جميع الناس بهذه الطريقة، كيتوت".

قال: "لا ضرورة لذلك. لديّ فكرة جيدة. إن التقيت بشخص من معتقد مختلف وأراد الجدال معك أصغي لما يقوله. لا تتجادلي معه أبداً. أفضل ما تقولينه: "أنا أوافقك الرأي". ثمّ اذهبي إلى بيتك، وتألمي كما تشائين. هذه فكرتي للتوصّل إلى السلام بين المعتقدات".

لاحظت بأنّ كيتوت بقي ذقنه مرفوعة طيلة الوقت، ويرجع رأسه قليلاً إلى الوراء، على نحو ساحر وأنيق في الوقت نفسه. ينظر إلى العالم كله من فوق أنفه، وكأنّه ملك عجوز فضولي. بشرته سمراء ذهبية

لامعة. رأسه أصلع تقريباً، ولكنه يتمتع عوضاً عن الشعر برموش طويلة وممتلئة، كجناحي طائر متلهّف للطيران. وباستثناء فمه المفتقر إلى الأسنان ويده التي تحمل ندب الحروق، يبدو في صحّة ممتازة. أخبرني بأنّه كان راقصاً في شبابه، وبأنّه كان جميلاً حينها. أصدّق ذلك. فكيتوت يتناول وجبة واحدة في اليوم، تتألف من طبق باليني بسيط من الأرزّ المزوج إمّا بلحم البطّ أو بالسّمك. كما يحبّ شرب فنجان واحد من القهوة مع السكّر كلّ يوم، احتفالاً بقدرته على احتمال القهوة والسكّر. بإمكانك أنت أيضاً أن تعيش مئة وخمسة أعوام على هذا النظام الغذائيّ. يقول إنه يحافظ على قوّته بالتأمّل كلّ ليلة قبل النوم وسحب الطاقة المفيدة الموجودة في الكون إلى داخله. فبحسب قوله، يتألف الجسد من العناصر الخمسة التي تتألف منها جميع مخلوقات، لا أكثر ولا أقلّ: الماء (apa)، النار (tejo)، الهواء (bayu)، السماء (akasa) والتراب (pritiwi)، وكلّ ما عليك فعله هو التركيز على هذه الحقيقة في أثناء التأمّل وستحصل على الطاقة منها جميعاً وستبقى قوياً. ويشرح ذلك قائلاً: "الكون الصغير يصبح الكون الكبير. الكون الصغير، أي أنت، يصبح سيان مع الكون الكبير".

كان كيتوت اليوم شديد الانشغال، فقد غصّت باحة منزله بالمرضى البالينيين، وبدت أشبه بباصات النقل العامّ، جميعهم يحملون الأطفال أو الهدايا في أحضانهم. كان لديه المزارعون ورجال الأعمال، الآباء والجدّات. كان ثمة أهل مع أطفالهم الذين يعانون من التقيؤ ورجال عجائز تلاحقهم اللعنات. كان ثمة شباب تفقاذهم مشاعر العدوانية والشهوة وشابات ييحثن عن الحبّ، فيما يتذرّم الأطفال الصغار من الطفححات الجلدية. كان الجميع يعاني من احتلال في التوازن، الجميع يحتاج إلى إعادة التوازن إلى أجسادهم.

مع ذلك، كان الصبر هو المزاج السائد في باحة كيتوت دوماً. إذ ينبغي على البعض الانتظار لثلاث ساعات قبل أن يجد كيتوت الوقت لهم، ولكنّ أحداً منهم لا ينقر الأرض بقدمه أو ينظر إلى الأعلى تدمراً. والأعجب من ذلك أيضاً، الطريقة التي ينتظر بها الأطفال، متّكئين إلى صدور أمهاتهم الجميلات، يلعبون بأصابعهم لتمضية الوقت. وقد فوجئت لاحقاً حين اكتشفت بأنّه تم إحضار هؤلاء الأطفال الهادئين لأنهم برأي أهلهم سيّءو السلوك ويحتاجون إلى علاج. تلك الفتاة الصغيرة؟ تلك الطفلة ذات الأعوام الثلاثة التي كانت جالسة بصمت في الشمس لأربع ساعات متواصلة، من دون تدمّر أو طعام أو لعبة؟ هي سيّئة السلوك؟ تمّيت لو أمكنني أن أقول لهم: "أيها الناس، تعالوا إلى أميركا لتروا سوء السلوك على حقيقته. تعالوا لأريكم بعض الأطفال الذين سيدفعونكم إلى الجنون". ولكنّ مقاييس السلوك الحسن مختلفة هنا بالنسبة إلى الأطفال.

عالج كيتوت جميع المرضى بلطف، من دون الاهتمام بمرور الوقت، وأعطى لكلّ فرد الاهتمام الذي يحتاج إليه بغضّ النظر عمّن يكون المريض التالي. وكثرة انشغاله حالت دون أن يتناول حتى وجبته الوحيدة في وقت الغداء، بل ظلّ مسمراً على شرفته، ملتزماً باحترامه لأسلافه، وجلس هناك لساعات متواصلة لمعالجة الجميع. بحلول المساء، بدت عيناه متعبتين كعيني جراح في ساحة حرب أهلية. وكان آخر مرضاه لذلك اليوم رجل باليني يعاني من اضطراب شديد ويشتكى من قلة النوم منذ أسابيع بسبب كابوس يلاحقه حسب قوله، إذ إنّه يرى نفسه يغرق في تهرين في الوقت نفسه.

حتى هذا المساء، لم أكن واثقة من دوري في حياة كيتوت لاير. كنت أسأله كلّ يوم ما إذا كان أكيداً من رغبته في أن أكون عنده،

وظلّ يصرّ بأن آتي لأمضي الوقت معه. كنت أشعر بالذنب لأنني آخذ كثيراً من وقته، ولكنّ علامات الخيبة كانت تعلو وجهه كلّ يوم حين أغادر منزله في آخر النهار. ولم أكن أعلمه الإنكليزية فعلاً. فإنكليزيتي التي تعلّمها منذ عقود قد حفرت في ذهنه ولم يعد ثمة مجال كبير للتصحيح أو لإدخال مفردات جديدة. وكلّ ما أمكنني التوصل إليه هو جعله يقول "سعيد لرؤيتك"، حين أصل عوضاً عن "تشرّفت بلقائك".

حين غادر آخر مرضى كيتوت الليلة، وبدا منهكاً من كثرة العمل، سألته ما إذا كان يجدر بي الذهاب وتركه يرتاح قليلاً، فأجاب: "السيّد دوماً الوقت لك". ثمّ طلب منّي أن أخبره عن الهند وأميركا وإيطاليا وعائلتي. هنا أدركت أنني لست مدرّسة اللغة الإنكليزية بالنسبة إليه، ولا تلميذة لاهوت، بل أنا من أبسط المتع بالنسبة إلى هذا العرّاف العجوز، أنا رفيقته. أنا شخص يحبّ التحدّث معه لأنّه يستمتع بسماع القصص عن العالم الذي لم يحصل على فرصة رؤيته.

وخلال الساعات التي قضيناها على الشرفة، طرح عليّ كيتوت أسئلة عن كلّ شيء، من أسعار السيارات في مكسيكو إلى أسباب مرض الإيدز. (بذلت جهدي في المجالين، مع أنني أعتقد بأنّه ثمة خبراء كانوا ليفيدونه أكثر منّي). لم يغادر كيتوت جزيرة بالي في حياته. لا بل قلّماً غادر شرفته في الواقع. فقد ذهب مرّة إلى جبل آغونغ، أكبر وأهمّ بركان في بالي على الصعيد الروحي، ولكنّ الطاقة هناك كانت حسب قوله قوية جداً إلى حدّ أنّه بالكاد أمكنه التأمّل خوفاً من أن تبتلعه النار المقدّسة. كما أنّه يذهب إلى المعبد للاحتفالات الهامّة ويُدعى إلى منازل جيرانه لأداء مراسم الزواج أو البلوغ، غير أنّه في

معظم الأحيان، يتواجد هنا، متربّعاً على حصيرة الخيزران ومحاطاً بالموسوعات الطبية المكتوبة على ورق النخيل التي آلت إليه من جدّه، يعتني بالناس، يسكّن العفاريّات ويستمتع من وقت إلى آخر بفنجان من القهوة مع السكر.

قال لي اليوم: "حلمت بك في الليلة الماضية. رأيتك تركبين الدراجة في أيّ مكان".

لأنّه توقّف لرهة، صحّحت له قائلة: "هل تعني أنّك حلمت بأنني أركب الدراجة في كلّ مكان؟".

"أجل! حلمت البارحة أنّك تركبين دراجتك في أيّ مكان وفي كلّ مكان. كنت سعيدة جداً في حلمي! كنت تجوين العالم على دراجتك. وأنا أتبعك!".

ربّما يتمنى لو يستطيع ذلك.

قلت له: "ربّما أمكنك الجيء لزيارتي في أميركا يوماً ما، كيتوت".
هزّ رأسه نافيّاً ومستسلماً بمرح لقدره: "لا يمكنني يا ليز. لا أملك ما يكفي من الأسنان للسفر بالطائرة".

82

بالنسبة إلى زوجة كيتوت، استغرقني الأمر بعض الوقت للاتفاق معها. نيومو، كما يناديها كيتوت، هي امرأة كبيرة وممتلئة، عريضة الوركين، أسنانها تحمل بقعاً حمراء بسبب مضغ التبغ. أصابع قدميها معقوفة على نحو مؤلم بسبب التهاب المفاصل، ولديها نظرة حادة. بدت لي مخيفة منذ النظرة الأولى. فهي تتمتع بشكل المرأة العجوز الشرسة التي تراها أحياناً لدى الأرامل الإيطاليات والنساء السوداوات

المستقيمات. تبدو وكأنها ستعاقبك على أبطأ الأخطاء. كانت في البداية متشككة تجاهي بوضوح؛ من هو هذا الفلامينكو الذي يتسكع في داري كلَّ يوم؟ كانت تحدِّق إليَّ من داخل مطبخها المعتم، غير واثقة من حقِّي في الوجود. وكنت أبتسم لها بينما تواصل هي التحديق إليَّ محاولة أن تقرّر ما إذا كان ينبغي عليها طردي بالمكنسة أم لا.

ولكن تغيّر شيء ما يوماً. وكان ذلك بعد حادثة آلة التصوير.

بملك كيتوت لاير أكواماً من الدفاتر المملّثة بكتابات صغيرة من الأسرار العلاجية الباليينية السنسكريتية. كان قد نسخ تلك المعلومات عليها في الأربعينيات أو الخمسينيات، بعد وفاة جده، لتسجيل كلِّ تلك المعلومات الطبية. تلك الدفاتر لم تكن تقدّر بثمن. فهي تضمّ مجلّدات من المعلومات عن أشجار نادرة وأوراق ونباتات مع كلِّ مواصفاتها الطبية. ولديه ستون صفحة من الرسومات عن قراءة الكفّ، ومزيد من الدفاتر عن المعلومات الفلكية والمانترا والرقيات والعلاجات. إلاّ أنّ تلك الدفاتر أصبحت مهترئة بفعل عقود من العفن والفقران. كانت صفراء، مفتّنة وبالية وكأنّها أكوام يابسة من أوراق الخريف. وكلّما قلب صفحة، تمزّقت في يده.

قلت له الأسبوع الفائت وأنا أحمل أحد دفاتره المتهالكة: "كيتوت، أنا لست طيبة مثلك، ولكنني أعتقد بأنّ هذا الكتاب يحتضر".

ضحك قائلاً: "تعتقدين أنّه يحتضر؟".

قلت له بجديّة: "سيدي، سأعطيك رأيي المهنيّ، إن لم يحصل هذا الكتاب على بعض المساعدة، فسيموت خلال ستة أشهر".

ثمّ سألته ما إذا كان يسمح لي بأخذ الدفتر إلى البلدة لتصوير نسخة فوتوغرافية عنه قبل أن يموت. وكان عليّ أن أشرح له ما معنى

نسخة فوتوغرافية وأن أعدّه بأنني لن أحتفظ به لأكثر من أربع وعشرين ساعة وسأعيدّه سالمًا. وافق أخيراً على السماح لي بإخراج الكتاب من الشرفة مع وعودي الصادقة بأن أحافظ على حكمة جدّه. قدت دراجتي إلى المحلّ الذي يحتوي على حواسيب لاستعمال الإنترنت وآلات تصوير وصوّرت كلّ صفحةً بحذر شديد، ثمّ جمعت النسخ الجديدة النظيفة في غلاف جميل من النايلون. ثمّ أحضرت النسختين القديمة والجديدة معي في اليوم التالي قبل الظهر. كان كيتوت مذهولاً وسعيداً لأنّه يملك هذا الكتاب منذ خمسين سنة على حدّ قوله. ما قد يعني فعلاً خمسين سنة أو منذ وقت طويل جداً وحسب.

سألته ما إذا كان يسمح لي بتصوير بقية الدفاتر للحفاظ على تلك المعلومات أيضاً. فأعطاني دفترًا آخر متهاكاً وممزقاً يلفظ آخر أنفاسه، يحتوي على رسومات بالينيّة سنسكربتية معقّدة.

قال: "مريض آخر!".

أجبتّه: "دعني أعالجه!".

حقّقت نجاحاً باهراً آخر. وبنهاية الأسبوع، كنت قد نسخت عدّة مخطوطات قديمة. كلّ يوم، كان كيتوت ينادي زوجته ويريها النسخ الجديدة بفرح عارم. ومع أنّ ملامح وجهها لم تتغيّر إطلاقاً، إلّا أنّها كانت تتفحص الدليل جيّداً.

يوم الاثنين التالي، حين أتيت لزيارة كيتوت، أحضرت لي نيومو القهوة الساخنة، في مرطبان للحلوى الهلامية. شاهدتها تحمل القهوة عبر الباحة على صحيفة صينية، تعرج ببطء في أثناء رحلتها الطويلة من المطبخ إلى شرفة كيتوت. ظننت بأنّ القهوة لزوجها، ولكنّه كان قد شرب فنجانها. كانت تلك القهوة لي. حضرتها لي أنا. حاولت شكرها ولكنها بدت منزعجة من شكري، واكتفت بدفعي كما تدفع الديك

الذي يحاول دوماً الوقوف على طاولة المطبخ الموضوعة في الخارج وهي تحضّر الغداء. غير أنّها في اليوم التالي، أحضرت لي كأساً من القهوة ووعاءً من السكر إلى جانبه. وفي اليوم التالي، كان كأساً من القهوة مع وعاء من السكر وحبّة بطاطا مسلوقة باردة. كانت تضيف كل يوم شيئاً جديداً. وبدا الأمر شبيهاً بلعبة الأحرف الأبجدية التي كنّا نلعبها في رحلات السيارة: "ذهبت عند جدتي وأحضرت إحاصة... ذهبت عند جدتي وأحضرت إحاصة وبالوناً... ذهبت عند جدتي وأحضرت إحاصة وبالوناً وفنجان قهوة في مرطبان للحلوى الهلامية ووعاء من السكر وبطاطا باردة...".

البارحة، كنت أفق في الباحة أودّع كيتوت، أتت نيومو تجرّ قدميها وهي تكنس مدعية بأنها لا تنته إلى كلّ ما يجري في إمبراطوريتها. كانت يداي مشبوكتين خلف ظهري وكنت أفق هناك، فأنت من خلفي، وأمسكت إحدى يدي. تحسّست يدي وكأنّها تحاول فتح قفل، ثمّ عثرت على سبّابتي. فلنّفت قبضتها الكبيرة القوية حول إصبعي، وشدّت عليه طويلاً بعمق. تمكّنت من الإحساس بحبّها وهو ينبض عبر قبضتها القوية ليصعد عبر ذراعي ويصل إلى أحشائي. ثمّ تركت يدي، وعرجت مبتعدة من دون أن تنبس ببنت شفة، وتابعت عملها وكأنّ شيئاً لم يحدث. أمّا أنا، فوقفت هناك بهدوء أعرق في نهرين من السعادة في الوقت نفسه.

83

لديّ صديق إندونيسي جديد يدعى يوداي، أصله من جافا. تعرّف به لأنّه هو من أجرني المنزل، فهو يعمل لحساب المرأة الإنكليزية التي تملك البيت، يعتني بأملّاكها حين تكون في لندن في

الصيف. يبلغ يوداي سبعة وعشرين عاماً، قصير القامة، ممتلئ الجسم، يتحدث مثل رياضي يركب الأمواج من جنوب كاليفورنيا. يقول لي يا صاح طيلة الوقت. لديه ابتسامة يمكنها إيقاف جريمة فضلاً عن قصة حياة طويلة ومعقدة بالنسبة إلى رجل بسته.

ولد يوداي في جاكارتا. والدته سيدة منزل ووالده من هواة إلفيس، يملك متجرّاً صغيراً لبيع المكيفات والبرادات. كانت العائلة مسيحية، وهو أمر غريب في تلك البقعة من العالم. لم تكن أمه تحب أن تراه يتسكّع مع أطفال من غير معتقده الديني لسبب بسيط، هو أنهم يمشون حفاةً دائماً، وكان يوداي يحب ذلك، ما اعتبرته منافياً لشروط النظافة. فأعطت ابنها خيارين، إما يتعل حذاءه ويلعب في الخارج أو يبقى حافياً ويلازم البيت. وبما أن يوداي لم يكن يحبّ ارتعال الأحذية، أمضى جزءاً كبيراً من طفولته ومراهقته في غرفة نومه، وهناك تعلّم العزف على الغيتار، حافياً.

يتمتع الشاب بأذن موسيقية لم أرَ مثلها في حياتي. فهو يعزف بشكل رائع، مع أنّه لم يتلقَ أيّ دروس، إلّا أنّه يفهم اللحن والتناغم وكأنّه نشأ معها. يمزج الموسيقى الغربية والشرقية على نحو يصعب وصفه. في الواقع يجدر بهذا الرجل أن يكون مشهوراً. لم أعرف أحداً سمع موسيقى يوداي إلّا وأكد أنه يجب أن يكون مشهوراً.

لطالما رغب يوداي أكثر من أيّ شيء في العالم، بالعيش في أميركا والعمل في الاستعراضات. هكذا، حين كان لا يزال مراهقاً حافانياً، تمكّن من الحصول على عمل على إحدى السفن (وبالكاد كان يتحدث الإنكليزية حينها) وأخرج نفسه من محيط جاكارتا إلى العالم الأزرق الكبير. كان العمل الذي حصل عليه على السفينة من تلك الأعمال المذلّة التي يقوم بها المهاجرون، بحيث يعيشون في الحضيض ويعملون

اثنى عشرة ساعة في اليوم في التنظيف، وتقتصر إجازتهم على يوم واحد في الشهر. كان زملاؤه من الفلبينيين والإندونيسيين. وكان الإندونيسيون والفلبينيون ينامون في قسمين منفصلين من المركب تجنّباً لأيّ اختلاط، ولكنّ يوداي صادق الجميع وتحوّل إلى وسيط بين المجموعتين من العمال الآسيويين. كان يرى كثيراً من الشبه عوضاً عن الاختلاف بين أولئك الخدم والحرس والعاملين في جلي الصحون، الذين يعملون جميعاً لساعات متواصلة لكي يرسلوا مئة دولار تقريباً كلّ شهر إلى أهلهم في الوطن.

في المرّة الأولى التي دخلت فيها السفينة إلى ميناء نيويورك، ظلّ يوداي مستيقظاً طيلة الليل، جائعاً في أعلى مكان من ظهر المركب، يراقب المدينة وهي تظهر في الأفق، وقلبه ينبض فرحاً. بعد ساعات، نزل من السفينة إلى نيويورك، وأوقف سيارة أجرة صفراء، تماماً كما في الأفلام. وحين سأله المهاجر الأفريقي الذي أتى مؤخراً إلى المدينة إلى أين يريد الذهاب، أجابه: "إلى أيّ مكان يا صاح، خذني في جولة وحسب. أريد رؤية كلّ شيء". وبعد بضعة أشهر، عادت السفينة إلى نيويورك مجدّداً، وهذه المرّة نزل يوداي منها نهائياً. كان عقده مع السفينة قد انتهى ويريد العيش في أميركا الآن.

انتهى به الأمر في نيو جيرسي، من بين كلّ الأمكنة، وعاش هناك لفترة مع رجل إندونيسي التقى به على متن السفينة. حصل على عمل في محلّ للشطائر في مركز تجاري، وراح يعمل مجدّداً من عشر إلى اثنى عشرة ساعة في اليوم، مع المكسيكيين هذه المرّة، وليس الفلبينيين. فتعلّم من الإسبانية أكثر من الإنكليزية في تلك الشهور الأولى. وفي لحظات فراغه القليلة، كان يستقلّ الباص إلى منهاتن، ويهيم في الشوارع، مفتوناً بالمدينة التي يصفها اليوم بأنّها

المكان الأكثر امتلاءً بالحب في العالم كله. وحدث أن التقى في نيويورك (تلك الابتسامة مجدداً) بمجموعة من الموسيقيين الشباب من مختلف أنحاء العالم، وراح يعزف معهم على الغيتار، يؤدّي الألحان الجميلة طيلة الليل مع شباب موهوبين من جامايكا وأفريقيا وفرنسا واليابان... وفي إحدى تلك الحفلات، التقى آن، شقراء جميلة من كونكتيكت وهي الأخرى عازفة. فأغرما ببعضهما وتزوجا. ثمّ عثرا على شقة في بروكلين وكانا محاطين بالأصدقاء الذين يسافران معهم في رحلات برية إلى فلوريدا كيز. كانت حياتهما سعيدة جداً. وسرعان ما أصبحت إنكليزيته ممتازة. حتى إنه كان يفكر في الدخول إلى الجامعة.

في 11 أيلول، شاهد يوداي البرجين يتهاويان من سطح منزله في بروكلين. وكالجميع، هاله ما حدث. كيف يمكن لأيّ كان أن يتصرّف بهذه الوحشية المروعة تجاه المدينة الأكثر امتلاءً بالحبّ من أيّ مكان آخر في العالم؟ ولا أعرف كم كان يوداي واعياً لما يحدث حوله حين أصدر الكونغرس الأميركي قانون الوطنية في أعقاب الهجمات الإرهابية. واحتوى التشريع الجديد على قوانين جديدة ومتشدّدة للهجرة، كثير منها كان موجّهاً ضدّ الدول الإسلامية، كإندونيسيا. ونصّ أحد تلك الأحكام على أن يقوم جميع المواطنين الإندونيسيين الذين يعيشون في أميركا بالتسجيل لدى قسم الأمن الوطني. وبدأت الهواتف ترنّ. حينها أخذ يوداي ورفاقه الإندونيسيون المهاجرون يفكّرون في ما يفعلونه، فكثير منهم انقضت مدّة تأشيرتهم وكانوا يخشون من أن يؤدي بهم التسجيل إلى ترحيلهم عن البلاد. من جهة ثانية، فإنّ عدم التسجيل يجعلهم مجرمين. لا شكّ بأنّ الإرهابيين الأصليين الذين يحومون حول أميركا

يجهلون هذا القانون، ولكن يوداي قرر التسجيل. كان متزوجاً من أميركية وأراد تجديد وضعه كمهاجر لكي يصبح مواطناً شرعياً. ولم يكن يريد أن يعيش مختبئاً.

استشار هو وآن عدداً كبيراً من المحامين، ولكن أحداً لم يستطع أن يقدم له المشورة. فقبل 11 أيلول، كانت الأمور بسيطة جداً، كان على يوداي أن يذهب إلى مكتب الهجرة ويجدد تأشيرته لتبدأ عملية اكتساب الجنسية. أما الآن؟ من يعلم؟ لم تتم تجربة القوانين الجديدة بعد، هذا ما قاله محامو الهجرة. ستتم تجربة القوانين عليكم. هكذا قام يوداي وزوجته بمقابلة مع موظف هجرة لطيف ورويا له قصتهما. فقبل لهما إن على يوداي العودة مجدداً إلى المكتب عصر ذلك اليوم لمقابلة ثانية. كان عليهما الانتباه حينها. فقد أعطي يوداي أوامر مشددة بأن يعود وحيداً من دون محام ومن دون أي أموال. تأمل يوداي خيراً، وعاد بالفعل وحيداً فارغ اليدين للمقابلة الثانية، ليفاجأ باعتقاله.

نُقل إلى معتقل في إليزابيث، نيوجيرسي وظلّ فيه لأسابيع بين مجموعة كبيرة من المهاجرين الذين تمّ توقيفهم مؤخراً. بموجب قانون الأمن الوطني، وكثير منهم كانوا يعيشون ويعملون في أميركا منذ سنوات ومعظمهم لا يتحدثون الإنكليزية. ولم يتمكن بعضهم من الاتصال بعائلاتهم عند توقيفهم. ولم يكن يسمح برؤية المعتقلين، لم يعد أحد يعرف بأنهم موجودون. استغرقت آن التي كانت في حالة هستيرية تقريباً أياماً لمعرفة مكان زوجها. أكثر ما يتذكره يوداي في المعتقل كان مجموعة من النيجيريين السود النحيلين والمدعورين، الذين تم العثور عليهم على متن باخرة نقل داخل قفص لشحن الفولاذ. ظلّوا مختبئين في ذلك المستوعب في قعر السفينة لشهر تقريباً قبل أن يتمّ

اكتشافهم وهم يحاولون دخول أميركا؛ أو أيّ مكان آخر. لم تكن لديهم فكرة عن مكائهم. كانت أعينهم المذهولة واسعة جداً، وكأنهم، على حدّ قول يوداي، ما زالوا مبهورين بأضواء المصايح بعد طول جلوسهم في الظلام.

بعد مدّة من الاعتقال، أرسلت الحكومة الأميركية صديقي المسيحي يوداي - الذي أصبح الآن مشتبهاً بكونه إرهابياً إسلامياً - إلى إندونيسيا ثانية. كان هذا في العام الماضي. لا أدري إن كان سيسمح له بالاقتراب من أميركا مجدداً. وما زال هو وزوجته يحاولان التفكير في ما سيفعلانه بجياقهما الآن. فأحلامهما لم تكن تشمل على العيش في إندونيسيا.

لم يتمكّن يوداي من التأقلم مع بطء وتيرة الحياة في جاكارتا بعد أن عاش في العالم المتحضّر. فأتى إلى بالي ليرى ما إذا كان سيتمكن من تأسيس حياة هنا، مع أنّه يواجه صعوبة في قبوله في هذا المجتمع لأنّه ليس بالينياً بل من جافا. والبالينيون لا يحبّون الجافانيين إطلاقاً، بل يعتبرونهم لصوصاً ومتسولين. وهكذا وقع يوداي هنا، في وطنه إندونيسيا، ضحية أحكام مسبقة أقسى من تلك التي واجهها في نيويورك. ولم يعد يعرف ماذا سيفعل، ربّما تلحق به زوجته آن إلى هنا. وربّما لا. ماذا ستفعل هنا؟ زواجهما القصير المستمرّ الآن عبر البريد الإلكتروني يتأرجح على شفير الهاوية. كما أنّه لا يشعر بالراحة هنا. فقد أصبح أميركياً أكثر من أيّ شيء آخر. أنا ويوداي نستخدم اللغة العامية نفسها، نتحدّث عن مطاعمنا المفضّلة في نيويورك ونحبّ أنواع الموسيقى نفسها. يأتي لزيارتي في المساء، فاقدّم له الشراب ويعزف لي ألحاناً مدهشة على غيتاره. أتمنّى لو أنّه كان مشهوراً.

وهو يقول: "يا صاح، لمّ الحياة مجنونة بهذا الشكل؟".

"كيتوت، لِمَ الحياة مجنونة بهذا الشكل؟" سألت عرّافي في اليوم التالي.
 أجاب: "بوتّا إيا، دوا إيا".
 "ما معنى ذلك؟".

"الإنسان خيّر، الإنسان شرير. كلاهما صحيحان".
 كانت هذه الفكرة مألوفة جداً بالنسبة إليّ. فهي هندية جداً،
 يوغانية جداً. وتفيد الفكرة أنّ البشر ولدوا، بحسب ما شرحت مرشدتي
 مراراً، مع قدرتين متساويتين على الانقباض والتمدد. فمكوّنات الظلام
 والسنور موجودة بشكل متساوٍ لدينا جميعاً، ويعود إلى المرء (أو العائلة،
 أو المجتمع) القرار بغلبة أحدها على الآخر: الفضيلة أو الرذيلة. ومعظم
 الجنون الذي يسود هذا الكوكب ناتج عن صعوبة توصّل الإنسان إلى
 توازن مع نفسه. فينتج عن ذلك الجنون (الجماعي والفردي على
 السواء).

"إذاً، ماذا يمكننا أن نفعل حيال جنون العالم؟".
 "لا شيء"، قال كيتوت وهو يضحك بلطف ويضيف: "هذه
 طبيعة العالم. هذا هو القدر. لا تقلقي سوى على جنونك؛ توصّلي إلى
 السلام".

فسألته: "ولكن، كيف لنا أن نجد السلام في داخلنا؟".
 "بالتأمّل. فهدف التأمل الوحيد هو السعادة والسلام؛ سهل جداً.
 سأعلّمك اليوم طريقة تأمل جديدة، تجعل منك شخصاً أفضل. اسمها
 تأمل الإخوة الأربعة".

وراح كيتوت يشرح لي أنّ الباليينيين يعتقدون أنّنا نولد مع أربعة
 إخوة غير مرئيين، يرافقوننا إلى الدنيا ويحموننا خلال حياتنا. فحين

تكون الطفلة في الرحم، يكون إخوتها الأربعة معها هناك، وهم المشيمة والسائل النخطي والحبل السري والمادة الشمعية الصفراء التي تحمي بشرة الجنين. وحين يولد الطفل، يجمع الأهل ما أمكنهم من هذه المواد ويضعونها في صدفة جوز الهند ويدفونها بقرب الباب الأمامي لمنزل العائلة. وبالنسبة إلى الباليين، فإن جوزة الهند تلك هي المكان الذي يرتاح فيه الإخوة الأربعة الذين لم يولدوا، وتتمّ العناية بتلك البقعة وكأنها ضريح.

ويتمّ تعليم الطفلة منذ نعومة أظفارها أنّها تملك هؤلاء الإخوة الأربعة معها في الحياة أينما ذهبت، وبأنهم سيعتنون بها دوماً. ويمثّل الإخوة الفضائل الأربعة التي يحتاج إليها المرء ليكون آمناً وسعيداً في الحياة: الذكاء، والصدقة، والقوة، والشاعرية (أحببت هذه الأخيرة). ويمكن مناداتهم في أي لحظة حرجة طلباً للنجدة والمساعدة.

أخبرني كيتوت اليوم أنّه لم يعلم أحداً من أبناء الغرب تأمل الإخوة الأربعة بعد، ولكنه يعتقد بأنني جاهزة لذلك. فعلمني أولاً أسماء إخوتي غير المرئيين: أنغو باي، مارادجو باي، بانوس باي وبنوس باي رادجو. وأمرني بحفظ هذه الأسماء وبطلب مساعدة إخوتي كلما احتجت إليهم. وقال إنني لست مضطّرة إلى التحدّث معهم برسمية، بل يمكنني التوجّه إليهم بخنان، لأنهم عائلتك وحسب! وطلب منّي أن أذكر أسماءهم وأنا أستحمّ في الصباح، وسيضمّون إليّ. وأن أقول أسماءهم ثانية قبل تناول الطعام، وسيستمعون معي بالوجبة. كما يمكنني مناداتهم قبل الخلود إلى النوم قائلة: "سأنام الآن، وعليكم أن تبقوا مستيقظين لحمايتي"، فيقومون بحمايتي طيلة الليل من الكوايبس.

قلت له: "هذا جيد، لأنني أعاني أحياناً مع الكوايبس".

"أيّ كوايبس؟".

أخبرت العرّاف أنني أرى منذ طفولتي الكابوس نفسه، أن رجلاً يحمل سكيناً يقف بقرب سريري. وهذا الحلم حيّ جداً، والرجل حقيقي جداً إلى حدّ أنني أستيقظ في بعض الأحيان وأنا أصرخ من الفزع وقلبي ينبض بعنف (و لم يكن الأمر مسلماً لمن يشاركني سريري أيضاً). أرى هذا الكابوس كلّ بضعة أسابيع منذ زمن طويل.

قال كيتوت إنني كنت أسوء فهم هذه الرؤية. فالرجل الذي يحمل السكين في غرفة نومي ليس عدوًّا، بل هو أحد إخوتي الأربعة. إنَّها روح الأخ الذي يمثّل القوّة. وهو لا يقف هناك لمهاجمتي بل لحمايتي وأنا نائمة. وربما ما يوقظني هو شعوري باحتياج روح أخي وهي تحارب أحد الذين يحاولون إيدائي. وما يحمله أخي ليس سكيناً، بل كرّيس، خنجر صغير وقوي. لا يجدر بي أن أخاف، بل يمكنني العودة إلى النوم وأنا مطمئنّة لأنني محمية.

قال كيتوت: "أنت محظوظة لأنك تستطيعين رؤيته. أنا أرى إخوتي أحياناً في أثناء التأمّل، ولكن من النادر أن يراهم شخص عاديّ. أظنّ بأنك تملكين قوة روحية كبيرة. قد تصبحين عرافة يوماً ما". قلت وأنا أضحك: "حسناً، ولكن هذا إن حصلت على مسلسلتي التلفزيوني الخاص بي".

ضحك معي مع أنّه لم يفهم النكتة بالطبع، ولكنّه يحبّ فكرة أن يمازحه الناس. ثمّ أخبرني كيتوت أنّه ينبغي عليّ كلّما تحدّثت مع إخوتي الأربعة أن أذكر لهم من أنا كي يعرفوني. عليّ استعمال اللقب الذي يطلقونه عليّ، فأقول: "أنا لاغو برانو".

لاغو برانو تعني الجسد السعيد.

ركبت دراجتي عائدة إلى البيت، أدفع جسدي السعيد إلى أعلى التلال نحو منزلي تحت شمس المغيب. وفي طريقي عبر الغابة، ففز قرد

كبير عن الشجرة وخطّ أمامي وأظهر لي أنيابه. فلم أجفل حتى، بل قلت له: "ابتعد من هنا، جاك، لديّ أربعة إخوة يحمونني"، ومررت من أمامه متابعاً طريقي.

85

مع ذلك (وعلى الرغم من الإخوة الأربعة القائمين على حمايتي) صدمني باص في اليوم التالي. كان باصاً صغيراً، إلاّ أنّه صدمني مع ذلك وأوقعتني عن دراجتي وأنا أقودها على الطريق غير المسوّر لأنتهي في قناة إسمنتية للرّي. فأوقف حوالي ثلاثين بالينياً دراجتهم النارية لمساعدتي حين شاهدوا الحادث (وكان الباص قد رحل منذ وقت طويل)، ودعاني الجميع إلى منازلهم لشرب الشاي أو لاصطحابي إلى المستشفى، فقد كانوا آسفين جداً لما حدث. لم يكن الحادث خطيراً، بالنسبة إلى ما كان يمكن أن يقع. كانت الدراجة بحالة جيدة، إلاّ أنّ السلّة التوت وانكسرت الخوذة. (والخوذة أفضل من الرأس في هذه الحالات). إلاّ أنّ الضرر الأسوأ هو ذاك الشقّ العميق الذي أصاب ركبتي، والذي امتلأ بالتراب والأوساخ، ما أدّى إلى إصابته بالتهاب قوي تحت تأثير الرطوبة الاستوائية. لم أشأ إثارة قلق كيتوت، ولكنني قرّرت أن أريه جرحي بعد بضعة أيام ونحن على الشرفة. فرفعت ساق بنطالي ونزعت الضمادة الصفراء. حدّق كيتوت إلى الجرح بقلق وقال: إنّه ملتهب. مؤلم."

"أجل."

"عليك الذهاب إلى الطبيب."

كان هذا مثيراً للاستغراب بعض الشيء. ألم يكن طبيياً؟ ولكن لسبب ما، لم يتبرّع لمساعدتي، ولم ألحّ على ذلك. ربّما لم يكن يصف

الأدوية للغربيين. أو ربّما كان لدى كيتوت خطة سرّية لأنّ جرحي كان هو السبب في لقائي بوايان. وإثر ذلك اللقاء، كلّ ما كان مقدراً له أن يحدث... حدث بالفعل.

86

وايان نورياسي هي معالجة بالنيّة، شأنها شأن كيتوت، مع بعض أوجه الاختلاف. فهو رجل عجوز وهي امرأة في أواخر العقد الثالث من عمرها. هو أكثر شبهاً بالنسك، وأكثر غموضاً، أمّا هي فطبيبة أكثر عملية، تمزج الأعشاب والأدوية في متجرها الخاص وتعتني بالمرضى مباشرة.

تملك وايان متجرّاً في وسط أوبود يعرف بمركز العلاج الباليني التقليدي. مررت من أمامه على درّاجتي مرات عديدة وأنا في طريقي إلى منزل كيتوت، وكنت ألاحظه بسبب النباتات الكثيرة المزروعة في أصص خارج المتجر وبسبب اللوحة التي كتب عليها بخطّ اليد الإعلان الغريب التالي: وجبة غداء خاصة متعدّدة الفيتامينات. ولكن لم يسبق لي دخول المكان قبل إصابة ساقِي. وحين نصحتني كيتوت برؤية طبيب، تذكّرت المتجر وأتيت على أمل أن أجد من يساعدني على علاج الالتهاب.

كان متجر وايان عبارة عن مكان صغير جداً هو عيادة ومنزل ومطعم في وقت واحد. كان في الأسفل مطبخ صغير وقاعة طعام عامة متواضعة فيها ثلاث طاولات وعدد من الكراسي. أمّا في الأعلى، فثمّة غرفة خاصة تقوم فيها وايان بالتدليك وإعطاء العلاجات. وكان في الخلف غرفة نوم واحدة مظلمة.

دخلت المتجر وأنا أعرج وقدّمت نفسي لوايان، امرأة في غاية الجاذبية تتمتع بابتسامة عريضة وشعر أسود لماع ينسدل حتى خصرها. كان ثمة فنانان خجولتان تختبئان خلفها في المطبخ، ابتسمتا لي حين لوّحت لهما ثمّ اختفتا فيه مجدّداً. أريت وايان جرحي الملتهب وسألتهما ما إذا كان بإمكانهما المساعدة. فما كان منها إلاّ أن بدأت بغلي بعض الأعشاب على النار وجعلتني أشرب الجامو، وهو مزيج من الأعشاب الإندونيسية الطبية التقليدية المعدة في المنزل. كما وضعت أعشاباً خضراء ساخنة على ركبتي.

بدأنا نتحدّث. كانت إنكليزيتها ممتازة. وبما أنّها بالينية، طرحت عليّ الأسئلة التعارفية الثلاثة التقليدية: إلى أين أنت ذاهبة اليوم؟ من أين أتيت؟ هل أنت متزوّجة؟.

وحين أحرّتها أتني لست متزوّجة ("ليس بعد!") بدت متفاجئة.

"لم تتزوّجي أبداً؟".

كذبت قائلة: "كلاً". أنا لا أحبّ الكذب، ولكنني وجدت ذلك أسهل من ذكر الطلاق للبالينيين لأنّه يزعجهم.

سألّتها مجدّداً: "حقاً لم يسبق لك الزواج؟" وكانت تنظر إليّ بفضول كبير.

"صدّقاً، لم يسبق لي الزواج".

"هل أنت واثقة؟" أصبح الأمر يبدو مريباً.

"واثقة تماماً".

"ولا حتى مرّة؟".

حسناً، تستطيع إذاً أن تقرّ أفكارِي.

اعترفت أخيراً: "في الواقع، حدث ذلك مرّة واحدة...".

فأشرق وجهها وكأنتها تقول: أجل، هذا ما ظننت. ثم سألتني: "مطلّقة؟".

أجبت وقد اعتراني الخجل: "أجل، مطلّقة".

"عرفت أنّك مطلّقة".

"هذا ليس شائعاً هنا، أليس كذلك؟".

فوجئت بما تجيب: "ولكن أنا أيضاً. أنا أيضاً مطلّقة".

"أنت؟".

قالت: "فعلت ما في استطاعتي. حاولت كلّ شيء قبل أن أحصل على الطلاق، صليت كلّ يوم. ولكن، كان عليّ الابتعاد عنه".

ترقرقت عيناها بالدموع، فما كان مني إلا أن أمسكت يديها، كنت قد التقيت للتوّ بصديقتي البالينيّة المطلّقة الأولى، وقلت لها: "أنا واثقة بأنك فعلت ما في وسعك عزيزتي. أنا أكيدة بأنك جرّبت كلّ شيء".

قالت: "الطلاق حزين جداً".

واقفتها على ذلك.

بقيت في متجر وايان للساعات الخمس التالية، أتحدّث مع صديقتي المقرّبة الجديدة عن مشاكلها. نظّفت لي الجرح وأنا أستمع إلى قصّتها. قالت إن زوجها الباليني كان رجلاً يشرب طيلة الوقت، يقامر دوماً، يخسر كلّ مالنا، ثم يضربني حين أرفض إعطائه مزيداً من المال للقمار والشرب. قالت: "ضربني في المستشفى عدّة مرات". فرقت شعرها وأرتني ندباً على رأسها قائلة: "تلك الآثار حين ضربني بخوذة الدراجة النارية. كان يضربني دائماً بهذه الخوذة وهو يشرب، حين لا أجنبي المال. ضربني بقوة إلى أن فقدت وعيي وشعرت بالدوار ولم أعد أرى. أعتقد أنّي محظوظة لأنني معالجة، ورثتها عن عائلتي، لأنني أعرف

كيف أعالج نفسي بعد أن يضربني. لو لم أكن معالجة، لخسرت أذني، أعني أن أتمكن من سماع الأصوات. أو ربّما خسرت عيني، توقّفت عن الرؤية". أخبرتني أنّها تركته بعد أن ضربها بعنف شديد إلى أن خسرت طفلي، ابني الثاني الذي كان في بطني. بعد تلك الحادثة، قالت لها ابنتها الأولى، وهي فتاة صغيرة ذكية يلقّبونها توتّي: "أعتقد أنّه عليك الحصول على الطلاق، ماما. فكلّما ذهبت إلى المستشفى تتركين كثيراً من العمل في البيت لتوتّي".

كانت توتّي في الرابعة من عمرها حين قالت ذلك.

الخروج من الزواج في بالي يترك المرء وحيداً ومفتقداً للحماية بوسائل يستحيل على الإنسان الغربي تحيّلها. فالعائلة الباليّة، المطوّقة ضمن أسوار مجمّع العائلة، هي كلّ شيء. أربعة أجيال من الإخوة والأقارب والأهل والأجداد والأطفال، جميعهم يعيشون معاً في سلسلة من البيوت الصغيرة التي تحيط بمعبّد العائلة، ويعتنون ببعضهم من الولادة وحتى الوفاة. بمجمّع العائلة هو مصدر القوّة والأمان المالي والعناية الصحية والعناية بالأطفال والتعليم والترابط الروحي، وهو الأهمّ بالنسبة إلى الباليّين.

مجمّع العائلة هو أمر حيوي إلى حدّ أنّ الباليّين يعتبره شخصاً حيّاً واحداً. ولا يتمّ إحصاء عدد سكّان القرية الباليّة تقليدياً بعدد الأشخاص بل بعدد المجمّعات. فالمجمّع هو عالم مكتفٍ بذاته. وبالتالي، لا ينبغي عليك مغادرته. (إلاّ بالطبع بالنسبة إلى المرأة، التي تغادره مرّة واحدة، فتنقل من مجمّع عائلة والدها إلى مجمّع عائلة زوجها). وحين ينجح هذا النظام، وهذا ما يحدث دائماً تقريباً في هذا المجتمع الصحيّ، فإنّه ينتج الأشخاص الأكثر سلامة وحماية وهدوءاً وسعادة وتوازناً في العالم. ولكن حين يفشل؟ كما حدث مع صديقتي الجديدة وايان؟

يضع النبوذون منه في الفراغ. كان خيارها إمّا البقاء في أمان بجمع العائلة، مع زوجها الذي يرسلها باستمرار إلى المستشفى، أو إنقاذ حياتها والرحيل، ما يعني خسارة كل شيء.

لم تخسر وايان كل شيء بالضبط. فقد أخذت معها موسوعة علاجية، طبيعتها، أخلاقيات عملها وابتنتها توتّي، التي حاربت ببسالة للاحتفاظ بها. فمجتمع بالي أبوي حتى العظم. وفي حالات الطلاق النادرة، يبقى الأولاد مع أبيهم دائماً. وللحصول على حضانة توتّي، اضطرت وايان إلى توكيل محامٍ دفعت له كل ما لديها. أعني كل شيء. لم تبع أثاثها ومجوهراتها وحسب، بل ملاحقها وسكاكينها، جواربها وأحذيتها، مناشفها القديمة وشموعها نصف المحترقة، كل شيء ذهب لتسديد أجر ذاك المحامي. ولكنها استعادت ابتنتها. ووايان محظوظة لأن توتّي فتاة. ولو كانت صبياً، ما كانت لتراها مجدداً. فالذكور أكثر أهمية بكثير في بالي.

هكذا عاشت وايان وتوتّي بمفردهما في السنوات القليلة الماضية - وحيدتان في خلية نخل بالي! - تنتقلان من مكان إلى آخر كل بضعة أشهر بحسب إيرادتهما من المال، ويقضّ القلق على المستقبل مضجعهما كل ليلة وهما تفكران إلى أين ستذهبان لاحقاً. فحياتهما لم تكن سهلة، لأنه كلما انتقلت وايان إلى مكان مختلف، يجد مرضاها (ومعظمهم من الباليين الذين يعانون من المصاعب هم أيضاً هذه الأيام) صعوبة في العثور عليها مجدداً. كذلك، ومع كل انتقال لهما، تضطرت توتّي إلى الرحيل عن مدرستها. وبعد أن كانت دوماً الأولى في صفها، أصبحت الآن في المرتبة العشرين من بين خمسين طالباً.

فيما كانت وايان تروي لي قصتها، دخلت توتّي فجأة إلى المتجر وقد وصلت للتو من المدرسة. كانت الآن في الثامنة من عمرها، تتمتع

بشخصية في غاية السحر والجادبية. سألتني تلك الفتاة الصغيرة الفاتنة (ذات الضفيرة المدلاة على ظهرها والجسد النحيل والحماسة الفياضة) بإنكليزية زاهية ما إذا كنت أرغب بتناول الطعام، فقالت واين: "لقد نسيت! يجب أن تتناولي الغداء!" واندفعت الأم وابنتها إلى المطبخ، وبمساعدة الفتاتين الخجولتين المختبئتين هناك، حضرنا أفضل وجبة تدوّقتها في بالي.

أحضرت توتّي كلّ طبق من الأطباق وهي تشرح بصوت مرح محتواه، تعلق وجهها ابتسامة عريضة.

أعلنت قائلة: "عصير الكركم، للحفاظ على نظافة الكلى!".

"أعشاب البحر، للكالسيوم!".

"مزيج من الأعشاب، للوقاية من الملاريا!".

أخيراً قلت لها: "توتّي، أين تعلّمت التحدّث بالإنكليزية جيّداً هكذا؟".

قالت: "من أحد الكتب!".

"أعتقد بأنك فتاة في غاية الذكاء".

أجابتنني وهي تقوم برقصة صغيرة سعيدة: "شكراً. أنت أيضاً فتاة ذكية جداً".

بالمناسبة الأطفال الباليونيون ليسوا هكذا عادةً. بل هم عادة هادئون ومهذبون، يخبثون خلف تنانير أمهاتهم. ولكنّ توتّي مختلفة. كانت عبارة عن عرض مستمر من الحركة والكلام.

"سأريك كتبي!" وأسرعت تصعد السلم لإحضارها.

قالت واين: "تريد أن تصبح طبيبة حيوانات. ما هي الكلمة بالإنكليزية؟".

"طبيبة بيطرية؟".

"أجل. بيطرية. ولكنها تطرح عليّ أسئلة كثيرة عن الحيوانات لا أعرف جوابها. تقول: ماما، إن أحضر لي أحدهم نمراً مريضاً، هل ينبغي عليّ أن أعصب فمه لكي لا يعضني؟ ولو مرض ثعبان واحتاج إلى العلاج، كيف أعطيه إياه؟ لا أعرف من أين تأتي بهذه الأفكار. أتمنى أن تتمكن من الذهاب إلى الجامعة".

نزلت توتّي السّلم وذراعاها مثقلتان بالكُتب وجلست في حضن والدتها. فضحكت وايان وقبلت ابنتها وبدأ أن كلّ حزنها قد اختفى فجأة من وجهها. راقبتها وأنا أفكر في أن الفتيات الصغيرات اللواتي يجعلن أمهاتهنّ يعشن، يكبرن ليصبحن نساء قويات جداً. فهذا قد وقعت في حبّ تلك الطفلة خلال ساعات من لقائها. فدعوت الله قائلة: أتمنى أن تعصب توتّي نورياسي يوماً أفواه ألف نمراً!

أحببت أمّ توتّي أيضاً. ولكن يجدر بي الرحيل الآن، فقد مضت عليّ ساعات في متجرها. كما أتى بعض السياح وهم يرغبون بتناول الطعام. وكانت إحدى السائحات، وهي أسترالية متقدّمة في السنّ، تسأل وايان بصوت مرتفع ما إذا كان لديها علاج للإمساك الفظيع الذي تعاني منه. ففكرت بيني وبين نفسي، غنني بصوت أعلى عزيزي، لنرقص جميعاً...

وعدت وايان قائلة: "سأعود غداً وسأطلب الوجبة المتعدّدة الفيتامينات ثانية".

قالت وايان: "ركبتك أفضل الآن. تحسّنت بسرعة وزال الالتهاب". مسحت آخر الأعشاب الخضراء عن ركبيّ ثمّ راحت تتحسّسها قليلاً، بحثاً عن شيء ما. ثمّ كرّرت ذلك على الركبة الأخرى وهي تغمض عينيها. أخيراً فتحتهما وقالت مبتسمة: "أستطيع أن أعرف من ركبتك بأنك لم تمارسي الجنس كثيراً مؤخراً".

سألته قائلة: "لماذا؟ أهما شديدا القرب من بعضهما؟".
فضحكت وقالت: "كلاً، إنه الغضروف. فهو جاف جداً.
هرمونات الجنس تليّن المفاصل. كم مضى عليك منذ آخر مرّة مارست
فيها الجنس؟".
"حوالي سنة ونصف".

"أنت بحاجة إلى رجل جيد. سأعثر لك على واحد. سأصلي في
المعبد لكي تجدي رجلاً جيّداً، لأنك أصبحت أختي الآن. وإن أتيت
غداً، سأنظّف لك كليتيك".

"رجل جيد وكليتان نظيفتان؟ هذا كثير".
"أنا لا أؤخر أحداً بهذه الأمور عن طريقي. ولكنّ حياتي حزينة
جداً وصعبة جداً. لا أفهم لِمَ الحياة صعبة إلى هذا الحدّ".
عندها قمت بشيء غريب. أمسكت بيدي وايان وقلت لها بقناعة
بالغة: "الجزء الأصعب من حياتك أصبح خلفك الآن، وايان".
ثمّ غادرت المتجر وأنا أرتحف بلا سبب، يجتاحني حدس قوي لم
أتمكّن من فهمه.

87

أصبحت أيامي مقسّمة الآن إلى أثلاث طبيعية. أمضي الصباح مع
وايان في متجرها، في الضحك والأكل، والعصر مع كيتوت العراف
نستحدّث ونشرب القهوة، والمساء في حديقتي الجميلة، إمّا وحدي أقرأ
كتاباً، أو أتحدّث مع يوداي الذي يأتي لعزف الغيتار. أجلس للتأمل كلّ
صباح في أثناء شروق الشمس فوق حقول الأرزّ وقبل النوم أتحدّث مع
إخوتي الأربعة، وأطلب منهم حراستي وأنا نائمة.

لم يعضر عليّ في بالي سوى بضعة أسابيع، ومع ذلك، أشعر بأنّ مهمّتي قد تمّت. فقد أتيت إلى إندونيسيا بحثاً عن التوازن، ولكنّي لم أعد أشعر بأنّي أبحث عن أيّ شيء لأنّ التوازن أتى بشكل طبيعي. ولا أعني بذلك أنني أصبحت بالينية (كما أنني لم أصبح إيطالية أو هندية) ولكن أصبح بإمكانني أن أشعر بسلامي كما أحببت أيامي التي أمضيها بين الممارسات الروحية ومنتعة المناظر الجميلة والأصدقاء الأعزّاء والطعام الجيّد. كنت أصليّ كثيراً مؤخراً، وكنت مرتاحة في ذلك. معظم الوقت، أشعر بالرغبة في الصلاة وأنا أفود الدراجة، عائدة من منزل كيتوت إلى البيت عبر غابة القرد وسهول الأرزّ عند المغيب. أَدْعُو بالطبع ألاّ يصدمني باص آخر، أو يقفز أمامي قرد أو يعصني كلب، ولكنها أدعية كمالية. ذلك أنّ معظم أدعيتي كانت تعبيراً عن الامتنان العميق للرضى الذي كان يملأ كياني. لم أشعر يوماً بأنّي أقلّ تعباً من نفسي أو العالم.

أتذكّر دوماً أحد تعاليم مرشدتي عن السعادة. تقول بأنّ الناس عموماً يميلون إلى الاعتقاد بأنّ السعادة هي ضربة حظّ، تنزل على المرء مثل الطقس الجميل إن كان محظوظاً بما يكفي. ولكنّ السعادة لا تأتي هكذا، بل هي نتاج مجهود شخصي. على المرء أن يجارب لأجلها، يكافح لأجلها، يصرّ عليها، وأحياناً أن يجوب العالم بحثاً عنها. عليك أن تشارك دائماً في تحلّيات نعيمك. وحين تبلغ حالة السعادة، ينبغي عليك أن تعمل للحفاظ عليها وأن تبدل مجهوداً عظيماً لتستمرّ بالسباحة إلى الأعلى في تلك السعادة إلى الأبد، لتبقى طافياً على سطحها. وإلاّ فستخسر رضاك الفطري. فمن السهل علينا أن ندعو ونحن في الشدّة ولكنّ الاستمرار في الدعاء بعد مرور الأزمة هو أشبه بضمان يساعد الروح على التمسك بإنجازاتها الجيدة.

تذكرت تلك التعاليم وأنا أركب درّاجتي بحرية تحت شمس المغيب في بالي، ورحت أرسل أدعية هي أقرب إلى النذور، تظهر حالة انسجامي قائلة: "هذا ما أريد التمسكّ به. أرجوك ساعدني على تذكرّ حالة الرضى هذه وساعدني على الحفاظ عليها دائماً". أنا أضع هذه السعادة في مصرف ما بحراسة إخوتي الأربعة، كتأمين ضدّ التجارب القادمة في الحياة. وصرت أسمى هذه الممارسة السعادة المجتهدة. وأنا أركّز على السعادة المجتهدة، أتذكرّ فكرة بسيطة قالها لي صديقي دارسي مرّة، بأنّ جميع أحزان ومشاكل العالم ناجمة عن أناس غير سعداء. ولا ينطبق ذلك على صعيد الصورة الشاملة لهتلر وستالين، بل على المستوى الشخصي الضيق أيضاً. وحتى في حياتي أنا، يمكنني أن أرى كيف أنّ فترات حزني جلبت التعاسة أو العذاب أو (على الأقلّ) الإزعاج للمحيطين بي. بالتالي، فإنّ البحث عن الرضى لا يهدف إلى الحماية والفائدة الذاتيتين، بل يشكّل هبة كريمة للعالم. فتخلّص المرء من كلّ بؤسه، يزيحه من الطريق. لا يعود عقبة، ليس أمام نفسه وحسب، بل وأمام الآخرين أيضاً. عندها فقط يصبح حرّاً لخدمة الناس والاستمتاع بهم.

في هذه اللحظة، فإنّ من أستمتع به أكثر من أيّ شخص آخر هو كيتوت. ذلك أنّ الرجل العجوز - أحد أسعد البشر الذين التقيت بهم حقاً - كان يفتح أمامي جميع أبوابه، ويمنحني حرية طرح أيّ أسئلة عالقة لديّ عن الطبيعة البشرية. أحببت التأمل الذي علّمني إياه، البساطة المضحكة لعبارته/بتسمي بكبكك والحضور المطمئن لأرواح الإخوة الأربعة. وقد قال لي مؤخراً أنّه يعرف ستّ عشرة تقنية تأمل مختلفة ومانترات عديدة متنوعة الأغراض. بعضها يجلب السلام أو السعادة، وبعضها يجلب الصّحة، ولكنّ بعضها الآخر صوفيّ خالص،

يهدف إلى نقل المرء إلى مستويات وعي أخرى. على سبيل المثال، يعرف طريقة تأمل تنقله إلى فوق.

سألته: "فوق؟ ماذا تعني بذلك؟".

"إلى سبعة مستويات فوق".

حين سمعت فكرة المستويات السبعة المألوفة، سألته ما إذا كان يعني بأنها تنقله عبر مقامات الجسد السبعة، المعروفة في اليوغا.

فقال: "ليست مقامات، بل أماكن. هذه التقنية تحملني عبر سبعة أماكن في الكون. أعلى فأعلى".

...

جلست صامتة لبرهة، أحاول القيام بعمل حسابي.

فضحك كيتوت مجدداً، وربّت على ركبتي بجنان قائلاً: "من

الصعب دوماً على الشباب أن يفهموا هذا!".

88

كنت جالسة في متجر وايان مجدداً هذا الصباح وكانت تحاول إيجاد علاج يجعل شعري ينمو بشكل أسرع ويجعله أكثر كثافة. فمع شعرها الكثيف اللامع الرائع الذي ينسدل حتى وركيها، تشعر بالأسف على حفنة شعري الشقراء. وكمعالجة، لديها بالطبع علاج يساعد على جعل شعري أكثر كثافة، ولكنّه لن يكون سهلاً. أولاً، عليّ أن أعثر على شجرة موز وأن أقطعها بنفسني. ثم أقوم برمي الجزء الأعلى من الشجرة، وتجويف الجذع والجذور (التي ما زالت في الأرض) على شكل وعاء كبير وكأنها حوض سباحة. بعد ذلك، أقوم بتغطية هذه الحفرة بقطعة خشب لمنع ماء المطر والندى من الدخول

إليها. وبعد بضعة أيام، سأجد بأن حوض السباحة الذي صنعته امتلاً
بسائل غنيّ بالمغذيات أفرزته جذور الموز، فأجمعه في زجاجات،
وأحضره لويان التي ستباركه لي في المعبد. عندها أفرك به فروة رأسي
كلّ يوم. وخلال بضعة أشهر، يصبح شعري كثيفاً، لامعاً وطويلاً مثل
شعر وايان.

قالت: "حتى لو كنت صلعاء، سينبت شعرك بهذا العلاج".

بينما كنا نتحدّث، كانت توتّي، التي وصلت للتوّ من المدرسة،
جالسة على الأرض ترسم منزلاً. فالمنازل هي أكثر ما ترسمه توتّي.
هذه الأيام. إنّها تتمنى من أعماق قلبها أيضاً، أن يكون لها منزل.
كان ثمة دوماً قوس قرح في خلفية رسوماتها، وعائلة سعيدة، مع أب
وما إلى ذلك.

هذا ما كنّا نفعله طيلة اليوم في متجر وايان. نجلس ونتحدّث،
توتّي ترسم وأنا ووايان في قيل وقال، نضحك ونمازح بعضنا. كانت
وايان تتمتع بروح الفكاهة، تتحدّث دوماً عن الجنس، تمازحني لأنني
عزباء وتبدي رأيها بجميع الرجال الذين يمرّون بالمتجر. كانت تخبرني
دوماً بأنّها تذهب إلى المعبد كلّ مساء وتصلّي لكي يظهر رجل جيد في
حياتي، وأغرم به.

أخبرتها من جديد هذا الصباح: "كلاً ووايان، لا أحتاج إلى ذلك.
فطرّ قلبي مرات عديدة".

قالت: "أعرف علاجاً للقلب المفطور". ثمّ عدّت على أصابعها
على طريقة الطبيب الحازم العناصر الستة لعلاجها المضمون للقلب
المفطور: "فيتامين E، كثير من النوم، كثير من الماء، السفر إلى مكان
بعيد عن المحبوب، التأمل وتعليم القلب بأنّ هذا هو القدر".

"قمت بكلّ شيء حتى الآن، ما عدا الفيتامين E".

"إذاً لقد شفيت الآن، وأصبحت بحاجة إلى رجل جديد. سأجد لك رجلاً".

"أنا لا أدعو لإيجاد رجل. الشيء الوحيد الذين أدعو لأجله هذه الأيام هو إيجاد السلام مع نفسي".

ففظرت وايمان إلى الأعلى سئمة، وكأنها تقول أجل، صحيح، كما تشائين آيتها البيضاء الغريبة الأطوار، وقالت: "هذا لأنك تعانين من ضعف الذاكرة. ما عدت تذكرين كم أن الجنس رائع. كنت أعاني من ضعف الذاكرة أنا أيضاً حين كنت متزوّجة. كلما رأيت رجلاً وسيماً يسير في الشارع، أنسى أن لديّ زوجاً في البيت".

وضحكت حتى كادت تسقط أرضاً. ثم استعادت حديثها وقالت: "كلنا نحتاج إلى الجنس، ليز".

في تلك اللحظة، دخلت امرأة رائعة الجمال إلى المتجر، وابتسامة مشرقة تنير وجهها. فنهضت توتّي وركضت إلى ذراعيها وهي تصرخ: "أرمينيا! أرمينيا! أرمينيا!" ما تبين بأنه اسم المرأة، وليس صرخة حرب قومية غريبة. قدّمت نفسي لأرمينيا وقالت لي إنها من البرازيل. كانت ديناميكية جداً، برازيلية جداً. جذابة، أنيقة، تتمتع بشخصية كاريزماتية وفاتنة، سنّها غير محدد، شديدة الإثارة وحسب.

أرمينيا هي أيضاً صديقة وايمان، تأتي غالباً لتناول طعام الغداء ولشراء علاجات تقليدية مختلفة طيبة وتجميلية. وجلست معنا لساعة وشاركت في أحاديثنا الأثوية. كانت باقية في بالي لأسبوع آخر قبل أن تسافر إلى أفريقيا أو تعود إلى تايلاند، لتوتّي أعمالها. واكتشفت بأن أرمينيا هذه تعيش حياة أقلّ ما يقال عنها بأنها ساحرة. فقد كانت تعمل مع الهيئة العليا للأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين. وفي الثمانينيات، تم إرسالها إلى أدغال السلفادور ونيكاراغوا في أوج الحرب كمفاوض

سلام، واستغلت جمالها وسحرها وذكاءها لتهدئة الجنرالات والثوار وجعلهم يصغون لصوت العقل. (أهلاً بالقوة الجميلة!) وهي تدير الآن شركة تسويق متعدّدة الجنسيات تدعى نوفيكا، تدعم الفنانين المحليين في مختلف أنحاء العالم عبر بيع منتجاتهم عبر الإنترنت. تتحدّث سبع أو ثماني لغات، وتتعلّج أجمل حذاء رأته منذ أن كنت في روما.

نظرت إلينا وايان وقالت: "ليز، لم لا تحاولين أن تبدي مثيرة مثل أرمينيا؟ فأنت فتاة جميلة جداً، تتمتعين بوجه جميل، وجسد رشيق، وابتسامة جذابة. ولكنك ترتدين دوماً قميصاً وبنطال جينز. ألا تحبين أن تكوني مثيرة مثلها؟".

قلت: "وايان، أرمينيا برازيلية. الوضع مختلف تماماً".
"وكيف ذلك؟".

التفت إلى صديقتي الجديدة قائلة: "أرمينيا، هل يمكنك أن تشرحي لوايان ما أعنيه بالمرأة البرازيلية؟".

ضحكت أرمينيا ولكنها فكرت بجدية وأجابت: "لطالما حاولت أن أبدي جميلة ومفعمة بالأناثة حتى في مناطق الحروب وفي مخيمات اللاجئين في أميركا الوسطى. حتى في أسوأ المآسي والأزمات، ما من سبب لأزيد بؤس الناس بشكلي البائس. تلك هي فلسفتي. لهذا السبب، أضع دائماً مساحيق التجميل وأرتدي المجوهرات في الأدغال، ليس بإسراف، بل ربّما مجرد سوار ذهبي جميل وأقراط، بعض أحمر الشفاه، عطر جيد. ما يكفي وحسب لأظهر بأنني لا زلت أحتفظ باحترامي لذاتي".

ذكرتني أرمينيا إلى حدّ ما بالنساء المسافرات في الحقبة الفيكتورية البريطانية العظمى، اللواتي اعتدن القول إنّه ما من عذر لارتداء ملابس لا تليق بجزانة امرأة إنكليزية في أفريقيا. كانت أرمينيا كالفراشة. لم

تمكث كثيراً عند وايان لأنها مشغولة ولكنها دعيتني مع ذلك إلى حفلة الليلة. فهي تعرف برازيلياً آخر في أوبود يقيم حفلة خاصة في مطعم جميل هذا المساء. سيعدّ الفيچوادا، وهو طبق برازيلي تقليدي مؤلف من اللحم والفاصولياء. وسيكون ثمة مشروبات برازيلية أيضاً. كما سيحضر الحفلة عدد كبير من المغتربين من كافة أنحاء العالم يعيشون هنا في بالي. فسألتنني ما إذا كنت أرغب بالجمي. قد يذهبون جميعاً للرقص لاحقاً أيضاً. لم تكن تعرف ما إذا كنت أحبّ الحفلات ولكن...

شراب؟ رقص؟ لحم؟

بالطبع سآتي.

89

لا أذكر آخر مرّة ارتديت فيها ملابس سهرة، ولكن هذا المساء أخرجت من حقيبتني فستاناً طويلاً بلا كمين وارتديته. حتى إنني وضعت أحمر شفاه. لا أذكر آخر مرّة استعملت فيها أحمر الشفاه، ولكن بالتأكيد ليس في جوار الهند. مررت بمنزل أرمينيا في طريقي إلى الحفلة، فزيتني ببعض من مجوهراتها الجميلة، وسمحت لي باستعمال عطرها الجذاب، كما تركتني أضع دراجتي في حديقته لأذهب إلى الحفلة بسيارتها الرائعة، كأني امرأة راشدة ولائقة.

كان العشاء مع المغتربين مسلياً جداً، وشعرت بأنه أيقظ جميع نواحي شخصيتي النائمة. حتى إنّ الشراب جعل رأسي يدور قليلاً، وكان هذا ملحوظاً بعد نقاوة الأشهر الأخيرة التي أمضيتها في الصلاة في المعتزل وفي ارتشاف الشاي في حديقتي الباليينية. وكنت ألهو أيضاً! لم أله منذ عقود. كنت أصاحب مؤخراً الرهبان والعرفان وحسب،

ولكن فجأة، ها أنا أظهر جاذبيتي مجدداً. مع أنني لم أكن واثقة مع من ألهو. كنت أنشر اللهو حولي في كل مكان. هل شعرت بالانجذاب إلى الصحفي الأسترالي السابق الذكي الجالس بقربى؟ أم للمفكر الألماني الهادئ الجالس إلى الطاولة نفسها، الذي وعدني بإعاري روايات من مكتبته الخاصة؟ أم مع البرازيلي الوسيم المتقدم في السن الذي أعد هذه الوليمة الهائلة لنا جميعاً؟ فقد أحببت عينيه البتيتين الطيبتين ولهجته، وطبخه بالطبع. قلت له شيئاً مثيراً جداً بلا سبب. كان يمزح ويقول: "أنا كارثة حقيقية، لا أتقن الرقص ولا كرة القدم ولا العزف على أي آلة موسيقية". ولسبب ما قلت له: "ربما كان هذا صحيحاً. ولكن لدي شعور بأنك تتقن لعب دور الكازانوفاً جيداً". توقّف الزمن للحظات طويلة، وانتشرت جراءة عبارتي في الهواء حولنا كالعطر. لم ينف ذلك. فأشحت نظري أولاً، وشعرت بالاحمرار يعلو خدي.

كانت الفيجوادا رائعة بأي حال. لذيدة، غنية وملیئة بالتوابل، كل ما لا يمكن أن تحصل عليه عادة في الطعام الباليي. التهمت طبقاً تلو الآخر من اللحم، واستنتجت رسمياً أنني لا أستطيع أن أكون نباتية بوجود طعام كهذا في العالم. ثم خرجنا للرقص في ملهى ليلى، هو أقرب إلى تلك الأكواخ التي تبنى على الشواطئ، ولكن من دون شاطئ. وكان ثمة مجموعة من الشباب الباليين يعزفون موسيقى الريغيه بإتقان، وكان المكان يفضّ بالساهرين من جميع الأعمار والجنسيات، من مغتربين وسياح وشباب وبنات بالينين جذابات، يرقصون جميعاً بحرية وبلا نحجل. لم ترافقنا أرمينيا، بل ادّعت بأن لديها عملاً في اليوم التالي، غير أن الكهل البرازيلي الوسيم كان مضيفي. وتبين بأنه ليس راقصاً سيئاً كما ادّعى. ربما كان يلعب كرة القدم أيضاً. أحببت وجوده معي، يفتح لي الأبواب ويحاملني وينادي بي حبيتي. ولكنني

لاحظت بأنه ينادي الجميع حبيبي أو حبيبي؛ حتى النادل غزير الشعر. مع ذلك، كان اهتمامه لطيفاً.

كان قد مضى عليّ زمن طويل لم أخرج فيه للرقص، حتى في إيطاليا. كما أنني لم أخرج كثيراً في فترة مرافقتي ديفيد. أعتقد أن آخر مرة خرجت فيها للرقص تعود إلى أيام زواجي... يا الله، مضت قرون على ذلك. وأنا أرقص، التقيت بصديقتي ستيفانيا، شابة إيطالية مفعمة بالحياة التقيت بها مؤخراً في درس تأمل في أوبود ورقصنا معاً، فيما تطاير شعرنا الأشقر والداكن في الهواء ودار حولنا. وبعد منتصف الليل، توقفت الفرقة عن العزف واختلط الموجودون ببعضهم.

كانت تلك هي اللحظة التي التقيت فيها بالشاب المدعوّ إيان. آه، أعجبتني حقاً ذاك الشاب. أعجبت به على الفور. كان وسيماً جداً. وكان ويلزياً، ولهذا السبب كان يتمتع بصوت جميل. كان يتحدث بوضوح وذكاء، طرح الأسئلة وتحدث مع صديقتي ستيفانيا بنفس اللهجة الإيطالية التي أتحدث بها. وتبين بأنه عازف الطبل في فرقة الريغيه تلك، عازف البونغو. فمازحته قائلة بأنه "بونغولي"، على غرار أولئك الشباب في البندقية، ولكن مع طبل عوضاً عن القارب. وهنا بدأنا نضحك ونتحدث.

أتى فيليبه بعد ذلك، ذاك كان اسم البرازيلي، ودعانا إلى مطعم يملكه مغتربون أوروبيون قال بأنه لا يقفل أبوابه أبداً. فوجدت نفسي أنظر إلى إيان (هل كان يرغب بالذهاب؟) وحين وافق، وافقت أنا أيضاً. فذهبنا جميعاً إلى المطعم، وجلست مع إيان، وتحدثنا، وضحكنا طيلة الليل، وقد أعجبتني ذاك الشاب حقاً. كان أول رجل التقي به منذ وقت طويل ويعجبني حقاً بتلك الطريقة، كما يقولون. كان يكبرني بضع سنوات، وقد عاش حياة مثيرة للاهتمام (يحبّ مسلسل

سيمبسونز، سافر إلى جميع أنحاء العالم، عاش في معتزل مرّة، ذكر تولستوي، بدا لي بأنّه موظّف). بدأ حياته المهنية في الجيش البريطاني في شمال أيرلندا كخبير متفجّرات، ثمّ أصبح خبيراً دولياً في التفجير المنجمي. بنى منحيمات للاجئين في البوسنة، وهو الآن في عطلة في بالي للتمرّن على الموسيقى... كان فاتناً.

لم أصدّق بأنّي كنت ما أزال صاحبة عند الساعة الثالثة والنصف وأنّني لم أتأمّل أيضاً! كنت صاحبة في منتصف الليل، أرندي فستان سهرة وأتحدّث إلى رجل جذّاب، يا له من تغيير جذريّ. في نهاية السهرة، أقررنا أنا وإيان كم سررنا للقاء بعضنا. سألني ما إذا كنت أملك رقم هاتف، فقلت له لا ولكنني أملك بريداً إلكترونيّاً. غير أنّه قال إنّّه لا يحبّ البريد الإلكترونيّ. وفي النهاية، لم نتبادل شيئاً بل قال: "سنرى بعضنا مجدداً إن شاء الله".

قبل الفجر بقليل، عرض عليّ فيليبه، الكهل البرازيلي الوسيم، إيصالي إلى المنزل. وفيما كنّا نعبر الطرقات الملتوية قال لي: "حبيبي، كنت تتحدّثين مع أكبر متفوّه بالحماقات في أوبود طيلة الليل. غاص قلبي عند سماعي تلك العبارة.

سألته: "إيان تافه؟ قل لي الحقيقة الآن ووفّر عليّ المشاكل لاحقاً".

"إيان؟" ضحك وقال: "كلا حبيبي! إيان شابّ جدّي. إنّهُ رجل طيّب. عنيت نفسي. أنا أكبر متفوّه بالحماقات في أوبود".
تابعنا طريقنا بصمت لفترة.

ثمّ أضاف: "لقد كنت أمازحك وحسب".
ثمّ تبع ذلك صمت طويل قبل أن يسألني: "يعجبك إيان، أليس كذلك؟".

قلت: "أعرف". ذهني لم يكن صافياً فقد أكثرت من الشراب البرازيلي. "أجده جذاباً وذكياً. مضى عليّ زمن طويل لم أعجب فيه برجل".

"ستعيشين أياماً رائعة هنا في بالي، سترين".
"ولكنني لا أعرف كم يمكنني أن أكون اجتماعية، فيليه؟ لا أملك سوى فستان واحد. سيلاحظ الناس قريباً أنني أرتدي الفستان نفسه طيلة الوقت".

"أنت شابة جميلة، حبيبي. لا تحتاجين سوى إلى فستان واحد".

90

هل أنا شابة جميلة؟

ظننت أنني عجوز مطلقاً.

بالكاد تمكّنت من النوم تلك الليلة لقلّة اعتيادي على السهر، كانت الموسيقى لا تزال تضحّ في أذنيّ وتفوح من شعري رائحة السجائر، فيما احتجّت معدتي على كثرة الشراب. غفوت قليلاً ثمّ استيقظت مع شروق الشمس، كما كنت معتادة. غير أنني هذا الصباح لم أكن مرتاحة ولا هادئة ولا في حالة تسمح لي بالتأمّل. ما سبب هذا الالتهاج؟ أمضيت ليلة لطيفة، وقابلت أناساً مثيرين للاهتمام، وارتديت فستاناً، ورقصت، ولهوت مع بعض الرجال...

الرجال.

تضاعف احتياجي حين فكّرت في تلك الكلمة ليتحوّل إلى نوبة ذعر خفيفة. لم أعد أعرف كيف أفعل ذلك. كنت من أكثر الفتيات جرأة ووقاحة في سنوات المراهقة في العقد الثاني من عمري. ويبدو أنني

أذكر كم كان الأمر مسلياً حينها، أقابل شاباً ما وأبدأ بجذبه إليّ
ويطلق الدعوات المبطنّة والعبارات المثيرة، أرمي بالحذر عرض الحائط
وأترك الأمور تسير على هواها.

لكنني لا أشعر الآن سوى بالذعر والتردد. ورحت أضخم
الأمسية كلّها، وأتحيل بأنني أتورط مع الشابّ الويلزيّ الذي لم
يُعطني عنوانه الريدي حتى. ورحت أرى مستقبلنا بتفاصيله، بما في
ذلك شجارنا على عادة التدخين لديه. وتساءلت ما إذا كان
استسلامي لرجل ما مجدداً سيقوّض رحلتي ومهنتي وحياتي...
بالمقابل، سيكون من الجميل عيش بعض الرومانسية بعد تلك الفترة
الطويلة الجافة. (تذكّرت ريتشارد من تكساس وهو ينصحني حول
حياتي العاطفية قائلاً: "أنت بحاجة إلى كسر هذا الجفاف، حبيبتى.
جدي لنفسك صانع مطر"). ثمّ تحيلت إيان يقترب على دراجته
السنارية، ثمّ بدأت أشعر بالاشتياق لديفيد كما لم أفعل منذ أشهر،
وفكّرت أنّه ربّما كان يجدر بي الاتصال به لأرى ما إذا كان يودّ
أن يحاول العودة إليّ ثانية... (فتلقّيت رسالة واضحة من صديقي
القدم ريتشارد تقول: أنت عبقرية يا بقول، هل فقدت عقلك الليلة
الماضية تحت تأثير الشراب؟) ولكن سرعان ما عدت أفكر (كما في
الماضي) في زوجي السابق، طلاقى...

ظننت أنّنا انتهينا من هذا الموضوع يا بقول.

ثمّ بدأت أفكر في فيليبه، لسبب ما، ذاك الكهل البرازيلي الوسيم.
إنّه لطيف. قال إنّي شابة جميلة وإنّي سأمضي وقتاً ممتعاً هنا في بالي.
هو على حقّ، أليس كذلك؟ عليّ الاسترخاء والاستمتاع. ولكنّ هذا
الصباح لا يبدو ممتعاً.

لم أعد أعرف كيف أستمتع.

"ما هذه الحياة؟ هل تفهمينها؟ أنا لا أفهمها".

كانت وايان هي المتحدثّة.

كنت في مطعمها أتناول وجبة الغداء المغذية التي تعدّها، آملة أن تساعدني على التخلص من آثار الشراب ومن القلق. كانت أرمنييا، المرأة البرازيلية، هناك أيضاً، وبدت كالعادة وكأنّها توقفت في مركز تحميل وهي عائدة من أحد منتجعات الاستحمام. كانت توتّي الصغيرة جالسة على الأرض، ترسم صور بيوت كعادتها.

كانت وايان قد علمت للتوّ أنّ إيجار متجرها سيرتفع عند تجديد العقد في آخر شهر آب، أي بعد ثلاثة أشهر من الآن. وسيكون عليها الانتقال ثانية لأنّها عاجزة عن تحمّل أعباء الإيجار الجديد. فهي لا تملك سوى خمسين دولاراً في المصرف وليس لديها مكان آخر تذهب إليه. ناهيك عن أنّ انتقالها يعني خروج توتّي من المدرسة ثانية. هما بحاجة إلى منزل حقيقي وإلى حياة تليق بعائلة باليتية.

سألّتي وايان: "لمّ لا ينتهي العذاب؟" لم تكن تبكي بل تطرح سؤالاً بسيطاً لا جواب له. "لمّ يتكرّر كلّ شيء باستمرار بلا توقّف. نعمل بجدّ يوماً وفي اليوم التالي علينا أن نعمل بجدّ ثانية. نأكل، وفي اليوم التالي سرعان ما نجوع. نعثر على الحبّ ثمّ نفقده. نولد من دون أي شيء؛ لا ساعة ولا قميص. نعمل بكدّ ثمّ نموت من دون أي شيء؛ لا ساعة ولا قميص. نكون شباباً ثمّ نصير عجائز. ومهما فعلنا، لا يمكننا أن نهرب من الشيخوخة".

فمازحتها قائلة: "ولكن هذا لا ينطبق على أرمنييا. فهي لا تكبر على ما يبدو".

قالت وايان: "هذا لأن أرمينيا برازيلية". وقد فهمت الآن كيف يسير العالم. فضحكنا جميعاً، ولكنّ مرحنا لم يكن حقيقياً لأنّ وضع وايان لم يكن مضحكاً على الإطلاق. أمّ عزباء، طفلة واعية، عمل يؤمن قوت كلّ يوم بيومه، وشبح الفقر والتشرّد يهدّدهما باستمرار. إلى أين ستذهب؟ من الواضح أنّها لا تستطيع العيش مع عائلة زوجها. كما أنّ عائلتها ترزع الأرز في الريف وهي فقيرة. ولو ذهبت للعيش معها، تخسر عملها في البلدة لأنّ مرضاها لن يتمكنوا من الوصول إليها كما أنّ توتّي لن تتمكن من متابعة دراستها لدخول كلّية طبّ الحيوانات يوماً ما.

وظهرت عوامل أخرى مع الوقت. إذ تبين بأنّ الفتاتين الخجولتين اللتين لمحتهما تحتبتان في المطبخ في اليوم الأوّل هما يتيمان تبتتتهما وايان. كلاهما تدعيان كيتوت (لزيادة الإهام في هذا الكتاب) ونحن نناديهما كيتوت الكبرى وكيتوت الصغرى. وجدتهما وايان في السوق منذ بضعة أشهر تتصوّران جوعاً وتسوّلان. كانتا قد تركتا هناك من قبل امرأة هي أشبه بشخصيات ديكينز - قد تكون إحدى أقاربهما - تجر مجموعة من الأطفال على التسوّل، فتترك الأيتام في أماكن مختلفة من أسواق بالي ثمّ تجمعهم في المساء في باص صغير وتأخذ ما يجمعون من المال وتتركهم ينامون في أحد الأكواخ. وحين عثرت وايان على كيتوت الكبرى والصغرى، كانتا بلا طعام منذ أيام، وتعانيان من القمل والطفيليات. تعتقد بأنّ الصغرى تبلغ العاشرة ربّما والكبرى الثالثة عشرة، أمّا هما فتجهلان اسمهما وحتى اسم عائلتيهما. (كلّ ما تعرفه كيتوت الصغرى هو أنّها ولدت في نفس العام هي والحيوان القدر الكبير في قريتها؛ وهذا لم يساعدنا على تحديد تاريخ ميلادهما). فأخذتُهما وايان، واعتنت بهما تماماً كما تفعل مع ابنتها توتّي. والأربع ينامن معاً على الفراش نفسه في غرفة النوم الوحيدة خلف المتجر.

كيف يمكن لأمّ عزباء تواجه خطر الطرد أن تتحمّل مسؤولية طفلتين مشرّدين؟ هو عمل يتجاوز إلى حدّ بعيد فهمي لمعنى التعاطف. أريد مساعدتهنّ.

هذا هو السبب إذاً. ذاك هو سبب الرعشة التي اجتاحتني بعد لقائي بوايان للمرّة الأولى. أردت مساعدة تلك المرأة الوحيدة وابنتها واليتميتين التي تولّت رعايتهما. أردت أن أقودهما إلى حياة أفضل. غير أنّي لم أكن أعرف كيف لي ذلك من قبل. أمّا اليوم، وفيما كنّا أنا ووايان وأرمينيا نتناول وجبة غذائنا ونسج أحداثنا المعتادة نظرت إلى توتّي الصغيرة ولاحظت بأنّها تقوم بأمر غريب. كانت تسير حول المتجر وتحمل على كفيها قطعة بلاط سيراميك جميلة زرقاء اللون، تغطّي وكأنّها تنشد. راقبتها لبرهة متسائلة عمّا تفعل. لعبت توتّي بالبلاطة لوقت طويل، تقذفها في الهواء، تمسّ لها، تغطّي لها، ثمّ تدفعها على الأرض وكأنّها سيارة ماتشوكس. أخيراً جلست عليها في زاوية هادئة، وأغلقت عينيها وهي تغطّي لنفسها، وكأنّها في مكان غير مرئيّ خاصّ بها.

سألت وايان ما كان هذا، فأجابت بأنّ توتّي وجدت البلاطة أمام ورشة بناء لفندق فخم فوضعتها في جيبتها. ومنذ ذلك اليوم، لا تفتأ تقول لأُمّها: "ربّما لو حصلنا على بيت يوماً ما، قد تكون أرضه ذات لون أزرق جميل كهذه البلاطة". والآن، بحسب وايان، تحبّ توتّي الجلوس على تلك البلاطة الزرقاء الصغيرة لساعات، مغمضة العينين، تحلم بأنّها داخل منزلها.

ماذا يمكنني القول؟ حين سمعت القصّة، ونظرت إلى تلك الطفلة الغارقة في التأمل فوق بلاطتها الزرقاء الصغيرة، قلت لنفسني: حسناً، هذا يكفي.

ثمّ استأذنت منهما، وخرجت لتوتّي هذه المشكلة، وحلّها نهائيّاً.

قالت لي وايان مرّة أنّها تشعر وهي تعالج مرضها أحياناً بأنّها نهر جار من حبّ الله، وأنها تتوقّف عن التفكير في ما ينبغي فعله لاحقاً. يتوقّف العقل وتستيقظ الغريزة وكلّ ما يصبح عليها فعله هو السماح لهذا الحب بالتدفّق عبرها. تقول: "أشعر وكأنّ رياحاً هبّت وأخذت بيدي".

ربّما كانت تلك الرياح نفسها هي التي دفعتني خارج متجر وايان في ذلك اليوم وخارج قلقي على ما إذا كنت جاهزة لمواعدة رجال جدد وقادتني إلى مقهى للإنترنت في أوبود. هناك جلست وكتبت - من دون جهد - رسالة لجمع التبرّعات أرسلتها إلى كلّ أصدقائي وأفراد عائلتي عبر العالم.

أخبرت الجميع بأنّ ذكرى ميلادي تصادف في تمّوز وأني سأبلغ الخامسة والثلاثين تقريباً. وأخبرتهم أنّه ليس ثمة ما أريده أو أتمناه في هذا العالم وأني لم أكن يوماً أكثر سعادة في حياتي ممّا أنا عليه الآن. وأني لو كنت في نيويورك، لأقمت حفلة كبيرة ودعوتهم جميعاً إليها ولكان عليهم أن يشتروا لي الهدايا ولأنفقنا ثروة لا ضرورة لها على الحفل. ثمّ شرحت لهم أنّه ثمة طريقة أقلّ كلفة وأكثر جمالاً للاحتفال لو قبلوا بالتبرّع لامرأة تدعى وايان نورياسي لمساعدتها على شراء منزل في إندونيسيا لها ولبناتها.

ثمّ أخبرتهم بقصة وايان وتوتّي واليتيمتين بأكملها وبوضعهنّ. ووعدت بأنّ أقدم من مدّخراتي مبلغاً يساوي قيمة التبرّعات المقدّمة. وشرحت لهم أنّي أعيى بالطبع كم أنّ العالم مليء بالعذاب والحروب وبأنّ الكلّ يحتاج إلى المال اليوم، ولكن ما العمل؟ هذه المجموعة

الصغيرة من الأشخاص في بالي هم عائليتي، وعلينا الاهتمام بعائلاتنا أينما وجدناها. وأنا أحتّم الرسالة، تذكّرت شيئاً قالته لي صديقتي سوزان قبل ذهابي في هذه الرحلة منذ تسعة أشهر. قالت يومها: "أنا أعرفك يا ليز. ستلتقين برجل يوماً ما وتغرمين به وينتهي بك الأمر إلى شراء منزل في بالي".

وكأنّها نوستراداموس.

لكن حين فتحت بريدي في اليوم التالي، اكتشفت بأنّه قد تمّ التبرّع بمبلغ 700 دولار. وفي اليوم التالي، فاقت التبرّعات ما يمكنني تقديمه.

لن أتحدّث عن دراما ذلك الأسبوع بتفاصيلها أو أحاول شرح ما أحسست به وأنا أفتح بريدي كلّ يوم لأجد رسائل من مختلف أنحاء العالم تقول، "اعتبريني من ضمن المتبرّعين!" فالجميع تبرّع بالمال. حتى أشخاص أعرف أنّهم مفلسون ومدنيون، تبرّعوا بلا تردّد. ومن أولى الرسائل التي تلقيتها رسالة من إحدى صديقات صديقة مصفّف شعري، أرسلت لها الرسالة وأرادت التبرّع بمبلغ 15 دولاراً. أمّا صديقي جون، فكان عليه أن يوجّه لي تعليقاً ساخراً كعادته عن رسالتي الطويلة والعاطفية ("اسمعي، في المرة القادمة التي ترغبين فيها بالبكاء على اللبن المسكوب، هلاً حرصت على أن تكوني موجزة")، ولكنّه تبرّع بالمال على أي حال. صديق صديقتي آني الجديد (مصريّ من وول ستريت لم تسبق لي رؤيته) تبرّع بضعف المبلغ النهائي الذي تمّ جمعه. ثمّ راحت تلك الرسالة تدور حول العالم بحيث بتّ ألقَى تبرّعات من أشخاص غرباء تماماً. كان فيضاً عالمياً للكرم. وسأحتّم تلك الحادثة بالقول إنّه بعد سبعة أيام فقط من إرسالني ذلك الطلب، حصلت من أصدقائي وعائليتي ومجموعة من الغرباء من مختلف أنحاء العالم على 18.000 دولار تقريباً لشراء منزل لويان نورياسي.

أعرف بأنّ توّتي هي التي تسبّبت بتلك المعجزة، بفضل دعواتها ورغبتها بأنّ تلين بلاطتها الزرقاء الصغيرة وتكبر حولها - مثل سام وحبّات الفاصولياء السحرية - لتصبح منزلاً حقيقياً يأويها هي وأمّها واليتيمتين إلى الأبد.

كلمة أخيرة. أشعر بالحرج للاعتراف بأنّ صديقي بوب هو الذي لاحظ بأنّ توّتي تعني بالإيطالية الجميع. كيف لم أدرك ذلك بعد كلّ تلك الأشهر في روما! غير أنّي لم أرّ الرابط، بل كان بوب من يوتاه هو الذي لفت نظري إليه. فقد أرسل لي رسالة الأسبوع الماضي مع وعده بالتبرع للمنزل الجديد: "إذاً، ذاك هو الدرس الأخير، أليس كذلك؟ حين تشرعين بالسفر حول العالم لتساعدني نفسك، تنتهين حتماً بمساعدة... توّتي".

93

لا أريد إخبار وايان بالأمر، ليس قبل جمع المال الكافي. يصعب عليّ الاحتفاظ بسرّ كهذا، لا سيّما وهي تعيش في قلق مستمر على مستقبلها، ولكنني لا أريد منحها الأمل قبل أن أكون أكيدة. هكذا لم أبح بخطّتي طيلة الأسبوع، وشغلت نفسي بالعشاء مع فيليبه البرازيلي كلّ ليلة تقريباً، فهو لم يمانع كوني أملك فستاناً جميلاً واحداً. اعتقد بأنّني معجبة به. فبعد خروجنا عدّة مرّات، أصبحت أكيدة بأنّني معجبة به. فهو أعمق ممّا يبدو، سيّد الحماقات هذا كما وصف نفسه، يعرف جميع من في أوبود وهو دوماً مركز الاهتمام. سألت أرمينسيا عنه، فهما صديقان منذ مدّة. قلت لها: "أجد فيليبه أعمق من الآخرين، أليس كذلك؟ كما أنّه أعمق ممّا يبدو عليه". أجابت: "أجل".

إِنَّه رجل طيب ولطيف. ولكنّه مرّ بطلاق صعب. اعتقد أنّه أتى إلى بالي لينسى".

آه، هذا موضوع لا أعرف شيئاً عنه.

لكنّه في الثانية والخمسين. وهذا الأمر مثير للاهتمام. هل بلغت سنّاً أصبحت أجد فيها رجلاً بسنّ الثانية والخمسين ضمن دائرة اهتمامي؟ مع ذلك، هو يعجبني بشعره الفضيّ ورأسه الذي بدأ يحتاجه الصلع على نحو جذاب. عيناه بتيان ودافتان. وجهه لطيف ورائحته رائعة. كما أنّه رجل ناضج فعلاً، وهذا جديد بالنسبة إليّ.

يعيش فيلبه في بالي منذ خمس سنوات ويعمل مع صائغي الفضة لصنع حلّي من الأحجار الكريمة البرازيلية لتصديرها إلى أميركا. أحببت كونه ظلّ متزوّجاً لعشرين عاماً قبل أن ينهار زواجه لأسباب شديدة التعقيد. كما أحببت كونه ربّي أطفالاً تربية جيّدة وهم يحبّونه. وأحببت كونه هو الذي لازم البيت واعتنى بالأطفال فيما سعت زوجته الأسترالية خلف مهنتها. (قال لي: "أردت أن أكون إلى الجانب الصحيح من التاريخ الاجتماعي"). كما يعجبني حنانه البرازيلي الفيّاض. فحين كان ابنه في الرابعة عشرة من عمره، اضطرّ إلى أن يقول له أخيراً: "بابا، بما أنّي بلغت الرابعة عشرة الآن ربّما يجدر بك التوقّف عن تقبيل فمي حين توصلني إلى المدرسة". ويعجبني إتقانه أربع لغات أو أكثر. ومع أنّه يدّعي عدم إتقانه للإنجليزية، إلّا أنّي أسمعته يتحدّث بها طيلة النهار. أحبّ كونه سافر إلى أكثر من خمسين بلداً في حياته وأنّه يرى العالم مكاناً صغيراً سهّل الإدارة. أحبّ طريقته في الإصغاء إليّ، يتكئ إلى الأمام ولا يقاطعني إلّا حين أقاطع نفسي لأسأله ما إذا كنت أسبّب له الملل، فيجيب: "لديّ كلّ الوقت لأجلك، يا حبيبي الصغيرة الجميلة". أحببت هذا الوصف، وإن كان يطلقه على النادلة أيضاً.

قال لي في إحدى الأمسيات: "لم لا تتخذين عشيقاً وأنت في بالي؟". مع أنني أعتقد أنه ما كان ليرفض القيام بهذه المهمة، إلا أنه لم يعن نفسه وحسب. فقد أكد لي بأن الشابّ الوسيم إيان يناسبني كثيراً، غير أنه ثمة مرشّحون آخرون. كان يعرف طبّاناً من نيويورك، شخصاً عظيماً، طويلاً، قوي العضلات ووثقاً من نفسه، يعتقد أنه قد يعجبني. ثمة حقاً أنواع عديدة من الرجال هنا على حدّ قوله، جميعهم يعيشون في أوبود، مغتربون من مختلف بقاع العالم وكثير منهم سيسرّهم يا حبيبتي الجميلة أن تمضي هنا صيفاً رائعاً.

قلت له: "لا أعتقد بأنني جاهزة لذلك. لا أشعر بأنني أقوى على خوض كلّ جهود الرومانسية مجدداً. ولا أريد أن أروي قصة حياتي من جديد أو أتخذ تدابير لمنع الحمل. على أي حال، لست واثقة من أنني ما زلت أجيد القيام بذلك. أشعر بأنني كنت أكثر جرأة في موضوع الجنس والرومانسية في سن السادسة عشرة ممّا أنا عليه الآن".

قال فيليبه: "بالطبع، فقد كنت شابة وغبية في ذلك الوقت. وحدهم الشباب والأغبياء واثقون من أنفسهم في موضوع الجنس والرومانسية. هل تظنين أنّ أيّاً منّا يعرف ماذا يفعل؟ هل تظنين أنه يمكن للبشر أن يحبّوا بعضهم من دون تعقيد؟ عليك أن تري ما يحدث في بالي، عزيزتي. فهؤلاء الرجال الغريبون يأتون إلى هذا المكان بعد أن يكونوا قد خسروا حياتهم في بلادهم، ويقرّرون أنّهم قد اكتفوا من النساء الغربيات، فيتزوّجون مراهقة بالينية صغيرة، جميلة، مطيعة. ويعتقدون أنّ تلك الفتاة الصغيرة ستجعلهم سعداء وتجعل حياتهم سهلة. ولكن في كلّ مرّة أرغب بأن أقول لهم الشيء نفسه. حظاً سعيداً. لأنك ما زلت أمام امرأة يا صديقي، وما زلت رجلاً. ما زلتما كائنين بشريّين يحاولان العيش معاً، وسيكون ذلك معقداً. والحبّ معقّد

دائماً. مع ذلك، ينبغي على البشر أن يحاولوا حبّ بعضهم. ولا مهرب من أن تنفطر قلوبنا أحياناً. لا بل هي إشارة جيّدة لأنّها تعني بأننا حاولنا".

قلت له: "لقد فطر قلبي بشكل خطير آخر مرّة حتى إنّه ما زال يؤلمني. أليس غريباً أن تتألّم لستين تقريباً بعد انتهاء قصّة حبّ؟".

"عزيزتي، أنا من جنوب البرازيل. يمكنني أن أتألّم لعشر سنوات لأجل امرأة لم أقبّلها حتى".

تحدّثنا عن زواجنا وطلاقنا، ليس بطريقة سيّئة، بل لمواساة بعضنا. وقارنّا تجاربنا عن الإحباط العميق الذي لا قرار له والذي يعقب الطلاق. أكلنا وشرّبنا معاً وأخبرنا بعضنا أجمل القصص التي تذكّرها عن طليقينا، لنزيل مرارة تلك الخسارة.

قال: "هل ترغبين بأن نفعل شيئاً معاً في عطلة الأسبوع؟" وجدت نفسي أقول نعم، سيكون الأمر لطيفاً. لأنّه سيكون كذلك.

للمرة الثانية، حين يوصلني فيليبه إلى البيت، ينحني ليقبّلني قبله وداع، وللمرة الثانية، أقوم بالشيء نفسه، أدعه يشدّني إليه، ولكنني أحيي رأسي في اللحظة الأخيرة وأضع حدّي على صدره. فأتركه يحضني هكذا لبرهة، أطول ممّا هو ضروري بين الأصدقاء. كنت أشعر به يدفن وجهه في شعري فيما يضغط وجهي على صدره. كنت أستمّ رائحة قميصه الكتّاني الناعم. تعجّبتني رائحته حقاً. كان صدره عريضاً وعضلات ذراعيه قوية. فقد كان بطلاً في رياضة الجمباز حين كان في البرازيل. بالطبع، كان ذلك عام 1969، أي في العام الذي ولدت فيه. مع ذلك، كان جسده قويا.

حين رأسي بهذه الطريقة كلّما اقترب منّي هو نوع من الاختباء، كنت أجنّب قبله وداع بسيطة. ولكنّه نوع من عدم الاختباء أيضاً.

فتركه يضمّني خلال تلك اللحظات الطويلة الصامتة في نهاية الأمسية
يعني أنني كنت أترك نفسي أضمّ.
وهذا ما لم يحدث منذ وقت طويل.

94

سألت كيتوت، عرّافي العجوز: "ماذا تعرف عن الرومانسية؟".
فما كان منه إلا أن سأل: "وما هي الرومانسية؟".
"لا بأس، إنس الأمر".
"كلا، ما هذه؟ ما معنى هذه الكلمة؟".
رحت أعرفها له: "الرومانسية، هي حين يغرم الرجال والنساء.
القبل والجنس والزواج وما إلى ذلك".
"أنا لم أمارس الجنس مع كثير من الناس في حياتي، فقط مع
زوجتي".
"أنت على حقّ، هذا ليس بالكثير. ولكن أتعني زوجتك الأولى أم
الثانية؟".
"ليس لي سوى زوجة واحدة يا ليز، وقد توفيت الآن".
"وماذا عن نيومو؟".

"نيومو ليست زوجتي فعلاً، بل هي زوجة أخي". وأمام الإرباك
الذي علا وجهي أضاف: "هذا عاديّ في بالي". وشرح لي أن أخاه
الأكبر، وهو مزارع أرزّ، يعيش في المنزل المجاور وأنه متزوج من
نيومو التي أنجب منها ثلاثة أطفال. وبما أن كيتوت وزوجته لم يتمكّنا
من الإنجاب، فقد تبّنا أحد أبناء أخيه ليكون لهما وريثاً. وحين توفيت
زوجة كيتوت، بدأت نيومو تعيش في المنزلين، وتقسّم وقتها بينهما

وتعتني بزوجها وبشقيقه وبعائلتي أولادها. وهي زوجة لكيتوت بالطريقة الباليينية، أي أنها تطبخ، وتنظف، وتتولى طقوس المنزل الدينية، إلا أنهما لا يمارسان الجنس.

سألته: "ولم لا؟".

أجاب: "نحن عجوزان جداً!" ونادى نيومو ليخبرها بأن السيدة الأميركية تريد أن تعرف لماذا لا يمارسان الجنس. فكادت نيومو أن تموت من الضحك لجرّد التفكير في الأمر. حتى إنها اقتربت، وقرصت ذراعي بقوة.

تابع كيتوت قائلاً: "لم يكن لي سوى زوجة واحدة، وقد ماتت الآن".

"هل تشناق إليها؟".

ابتسم بجزن وأجاب: "انتهى عمرها. سأخبرك الآن كيف التقيت بزوجتي. فحين كنت في السابعة والعشرين، التقيت بفتاة وأحببتها".
"في أي عام كان ذلك؟" سأله متلهفة كالعادة لتقدير سنّه.
"لا أعرف، ربّما عام 1920؟".

(أي أنه يبلغ مئة واثني عشر عاماً الآن. أعتقد أنني اقتربت من حل اللغز).

"أحببت تلك الفتاة. كانت جميلة ولكنها سيئة الطباع. لم تكن تريد سوى المال. لاحقت شاباً آخر. لم تكن تقول الحقيقة أبداً. أظن أنها كانت تملك عقلاً سريعاً في عقلها ولا يمكن لأحد أن يعرف ما فيه. توقفت عن حبّي، ورحلت مع الشاب الآخر. شعرت بالخزن الشديد. انفطر قلبّي. دعوت ودعوت لأرواح إخوتي الأربعة وسألتهم لمّ لم تعد تحبني؟ ثم أخبرني أحد إخوتي الأربعة الحقيقة. قال: هي ليست مناسبة لك. اصبر. فصبرت، ثم التقيت بزوجتي. امرأة جميلة

وطيِّبة. دائماً لطيفة معي. لم نتشاجر أبداً، بل كنا منسجمين دائماً. كانت تبتسم دائماً، حتى إن لم يكن لدينا نقود. كانت تبتسم كلَّ الوقت وتخبرني كم هي سعيدة لرؤيتي. وحين ماتت، حزنت كثيراً في عقلي".

"بكيت؟".

"قليلاً فقط في عيني. ولكنني قمت بالتأمل لتنظيف جسدي من الألم. تأملت لروحها. كنت حزينة وسعيداً أيضاً. أزورها بالتأمل كلَّ يوم، حتى لتقيلها. إنها المرأة الوحيدة التي مارست معها الجنس. لذا أنا لا أعرف... ما هي الكلمة هذه الأيام؟".

"الرومانسية؟".

"أجل، الرومانسية. لا أعرف الرومانسية، ليز".

"لا تقع ضمن مجال خيترك إذا؟".

"وما هي خيترك؟ ما معنى هذه الكلمة؟".

95

أخيراً جلست مع وايان وأخبرتها بشأن المال الذي جمعته لمنزلها. أخبرتها عن أميني في ذكرى مولدي وأريتها لائحة بأسماء أصدقائي ثم أخبرتها بالمبلغ النهائي الذي تمّ التبرّع به: 18.000 دولار أميركي. صُدمت في البداية إلى حدّ أنّ وجهها اكتسى بملامح الحزن. من الغريب والصحيح أيضاً أنّ الانفعالات الحادة تجعلنا نستجيب إلى الأخبار المزلزلة بعكس ما يملّيه المنطق. تلك هي القيمة المطلقة للعواطف البشرية؛ فتسجّل الأحداث السعيدة أحياناً على مقياس ريجنر على أنّها صدمة خالصة، فيما تدفعنا الأحزان المروّعة أحياناً إلى الانفجار

بالضحك. وكانت الأخبار التي حملتها لوايان أقوى من أن تتحملها، فتلقّتها كسبب للحزن. لذا جلست معها لبضع ساعات وأخبرتها القصة تكراراً وأربيتها الأرقام ثانية إلى أن بدأت تقتنع بالحقيقة.

كانت استجابتها الشفهية الأولى (أعني قبل أن تنفجر باكية حين أدركت أنه سيكون لديها حديقة) أنها قالت بلحاح: "أرجوك، ليز، عليك أن تخبري جميع من ساهم في التبرّع أنّ هذا ليس منزل وايان. إنه منزل كلّ من ساعد وايان. وإن أتى أيّ منهم إلى بلي، يجب عليهم عدم الإقامة أبداً في فندق، مفهوم؟ أخبريهم أن يأتوا للإقامة في منزلي، مفهوم؟ عديني أن تخبري الجميع بذلك. سنسمّيه منزل المجموعة... منزل الجميع...".

ثمّ أدركت أنها ستمكّن من امتلاك حديقة، فشرعت بالبكاء. إلاّ أنّ أفكاراً أكثر سعادة راحت تحتلّ ذهنها ببطء. كانت أشبه بمحفظة نقود تهرّت من الأعلى إلى الأسفل وتسكب العواطف في كلّ مكان. إن امتلكت منزلاً سيكون لديها مكتبة صغيرة للكتب الطبية! وصيدلية لعلاجاتها التقليدية! ومطعم مناسب مع كراسٍ وطاولات (لأنّها اضطرت إلى بيع كلّ كراسيها وطاولاتها القديمة لتدفع أتعاب المحامي). إن كان لديها منزل، سيصبح من الممكن إدراج اسمها في كتيبات الكوكب الوحيد (Lonely Planet)، وسيتمكّن الذين يرغبون منذ وقت طويل بذكر خدماتها من ذكر اسمها وعنوانها، ولكنها لم تكن تملك عنواناً ثابتاً. إن أصبح لديها منزل، فستتمكّن من إقامة حفل بمناسبة مولد توّمي يوماً!

ثم استعادت وعيها وجدّيتها. "كيف يمكنني أن أشكرك يا ليز؟ يمكنني إعطاؤك أيّ شيء. لو كان لديّ زوج أحبّه وكنت بحاجة إلى رجل لأعطيتك زوجي".

"احتفظي بزوجك، وايان. احرصي وحسب على أن تذهب توتّي إلى الجامعة".

"ماذا كنت لأفعل لو لم تأتي أبداً إلى هنا؟".

ولكنني كنت دائماً آتية إلى هنا. تذكرت إحدى القصائد الصوفية المفضّلة لديّ. لم يكن ممكناً ألا آتي إلى هنا. ما كان ذلك ليحدث أبداً. سألتها: "أين ستبنين منزلك الجديد يا وايان؟".

وكالطفلة التي كانت عينها على دمية جميلة في واجهة المتجر منذ زمن طويل، أو فتاة تصمّم فستان زفافها منذ أن كانت في الثالثة عشرة، تبين بأنّ وايان تعرف بالضبط أين تقع قطعة الأرض التي تودّ شرائها. كانت في وسط بلدة مجاورة، تصلها مياه وكهرباء البلدية، وثمة مدرسة جيّدة في الجوار لتوتّي وتقع في بقعة مركزية بحيث يمكن لمرضاها الوصول إليها سيراً على الأقدام. ويمكن لإخوتها مساعدتها على بناء المنزل. تعرف منذ الآن ما سيكون عليه لون جدران غرفة النوم الرئيسية.

فقصّدتنا معاً مستشاراً مالياً فرنسياً مغترباً يعمل أيضاً في مجال العقارات، أرشدنا بلطف إلى أفضل طريقة لتحويل المال. فاقترح عليّ تسهيلاً للأموال أن أقوم بتحويل المال مباشرة من حسابي المصرفي إلى حساب وايان لتتمكّن من شراء المنزل أو قطعة الأرض التي تريدها، وبذلك لا أتورّط في مسألة شراء أملاك في إندونيسيا. وما دمت لا أحوّل مبلغاً يفوق 10,000 دولار دفعة واحدة، لن تشبه الحكومتان الأميركية والإندونيسية بأنني أغسل أموال مخدّرات. ثمّ قصّدتنا مصرف وايان الصغير وتحدّثنا إلى المدير عن أفضل طريقة لتحويل المال عبر التلغراف. وختم مدير المصرف قائلاً: "إذاً، حين يتمّ التحويل يا وايان، وذلك في غضون بضعة أيام فقط، سيكون لديك 180 مليون روبيا في حسابك المصرفي".

نظرنا إلى بعضنا أنا ووايان وانفجرنا بالضحك. كلّ هذا المبلغ الهائل! حاولنا استعادة جدّيتنا لأننا كنّا في مكتب مدير مصرف فخّم، ولكننا لم نستطع الامتناع عن الضحك. خرجنا من هناك ونحن نترنّح ونمسك ببعضنا لكي لا نقع أرضاً.

قالت: "لم يسبق لي أن رأيت معجزة تحدث بتلك السرعة! كنت أطلب من الله كلّ هذا الوقت مساعدة وايان، والله يطلب من ليز مساعدة وايان أيضاً".

أضفت: "وليز تطلب من أصدقائها مساعدة وايان أيضاً".

عدنا إلى المتجر، ووجدنا توتّي وقد وصلت للتوّ من المدرسة. فجثت وايان على ركبتيها، وأمسكت بالفتاة وقالت: "منزل! منزل! لدينا منزل!" فما كان من توتّي سوى أن ادّعت الإغماء، فسقطت مغشياً عليها على الأرض على طريقة أفلام الكرتون.

بينما كنّا نضحك جميعاً، رأيت اليتيمتين تتفرّجان على المشهد من المطبخ ولححت في أعينهما نظرة تشبه... الخوف. وبينما أخذت وايان وتوتّي تقفزان بمرح، تساءلت في ما تفكّر الفتاتان. ممّ هما خائفتان؟ من أن تتركاً ربّما؟ أم أنّي أصبحت مخيفة لأنني أتيت بكلّ هذا المال؟ أو ربّما حين تكون حياتك هشّة مثل حياتهما، فإنّ أيّ تغيير يسبب الذعر.

حين هدأت الاحتفالات، سألت وايان، للتأكد وحسب: "ماذا عن كيتوت الكبرى وكيتوت الصغرى؟ أهذه الأخبار سارة بالنسبة إليهما أيضاً؟".

التفتت وايان إلى الفتاتين في المطبخ ويبدو بأنّها لاحظت اضطرابهما هي أيضاً، لأنّها أسرعرت إليهما، واحتضنتهما بين ذراعيها، وهمست لهما بكلمات مطمئنة. فبدا عليهما الاسترخاء. ثمّ رنّ الهاتف،

وحاولت وايان سحب نفسها للإجابة إلا أنّ الأذرع النحيلّة تشبّثت بها بقوّة ودفنت اليتيمان رأسيهما في بطنها وتحت ذراعيها، وتعلّقتا بها بضراوة لم أشهدهما فيهما من قبل.

فأجبت على الهاتف عوضاً عنها.

قلت: "هنا مركز العلاج الباليني التقليدي. قم بزيارتنا اليوم، واستفد من الحسومات لمناسبة انتقالنا!".

96

خرجت مجدّداً مع فيليبه البرازيلي، مرّتين خلال عطلة الأسبوع. اصططحته يوم السبت للتعرفّ بوايان والبنات، فرسمت له توتّي منازل فيما غمزتني وهمست: "صديق جديد؟" غير أنّي بقيت أهرّ برأسي نافية: "لا، لا، لا". (مع أنّي ما عدت أفكّر في الشابّ الوليزيّ) اصططحبت فيليبه أيضاً لزيارة كيتوت، عرّافي، فقرأ له كفه وقال سبع مرات على الأقلّ (وهو يرمقني بنظرة حادة) بأنّه "رجل طيّب، رجل طيّب جداً، رجل طيّب جداً جداً. ليس رجلاً سيّئاً يا ليز، بل رجلاً طيّباً".

ثمّ سألني فيليبه يوم الأحد ما إذا كنت أرغب بقضاء اليوم على الشاطئ. فلاحظت أنّي أعيش في بالي منذ شهرين ولم أذهب إلى الشاطئ بعد، يا لها من حماقة! فوافقت. مرّ لاصطحابي من منزلي بسيارة الجيب وقادها لساعة إلى أن وصلنا إلى ذاك الشاطئ المنعزل الذي لا يزوره أيّ سائح تقريباً. كان ذاك الشاطئ أقرب ما رأيته إلى الفردوس، بمياهه الزرقاء ورماله البيضاء وظلال أشجار النخيل المنتشرة فيه. تحدّثنا طيلة النهار، ولم نقطع أحاديثنا سوى للسباحة أو النوم أو

القراءة، وقرأنا أحياناً بصوت عالٍ لبعضنا. وقامت النساء البالينيات في أحد الأكواخ خلف الشاطئ بشي السمك الطازج لنا واشترينا الشراب والفاكهة الباردة. وفيما كانت الأمواج تداعبنا في المياه، أخبرنا بعضنا كل ما بقي من تفاصيل في قصة حياتنا لم نذكرها لبعضنا في الأسابيع الفائتة التي أمضينا أمسياتنا فيها معاً في أكثر مطاعم أوبود هدوءاً، نتحدث ونتحدث.

أعجب بجسدي حين رآه للمرة الأولى على الشاطئ، وقال لي إنَّ لدى البرازيليين (بالطبع) عبارة تصف جسدي بدقة، وهي *magrafalsa* أي نحيلة في الظاهر، بحيث تبدو المرأة نحيلة عن بعد ولكن لدى الاقتراب منها، ترى أنَّ جسدها مستدير ومكتنز، ما يعتبره البرازيليون شيئاً جيداً. بارك الله فيهم. وفيما نحن نتحدث ممددين على مناشفنا، كان يمدّ يده لفض الرمال عن أنفي أو إبعاد خصلة متمرّدة من الشعر عن وجهي. تحدّثنا لعشر ساعات إلى أن حلّ الظلام، فجمعنا أشياءنا وقمنا نتمشّي على الطريق المتسخ خفيف الإضاءة الذي يشكل الشارع الرئيسي في قرية الصيد البالينية القديمة تلك، وقد شبكنا ذراعينا تحت النجوم. وهنا سألتني فيليبه بطريقة طبيعية ومرتاحة جداً (وكأنه يتساءل ما إذا كنت أرغب بتناول الطعام): "هل ينبغي علينا إقامة علاقة معاً، ليز؟ ما رأيك؟".

أحببت الطريقة التي حدث فيها ذلك. من دون أيّ حركة، من دون محاولة تقبيل أو حركة جريئة، بل بسؤال. والسؤال الصحيح، أيضاً. تذكّرت شيئاً قالته لي معالجاتي النفسية منذ عام تقريباً قبل أن أغادر لهذه الرحلة. فقد أخبرتها بأنني أرغب بالبقاء عازبة خلال هذه السنة ولكنني كنت قلقة: "ماذا لو التقيت بشخص أعجبتني حقاً؟ ماذا أفعل؟ هل أتورط معه أم أحافظ على استقلالي؟ هل أمنح نفسي فترة

من الرومانسية؟" فأجابته معالجتني مبتسمة: "ليز، يمكن مناقشة كلّ هذا حين تطرأ المسألة فعلاً، مع الشخص المعنيّ".

ها قد طرأت؛ الزمان والمكان والمسألة والشخص المعنيّ. فرحنا نناقش الفكرة، ودار الحديث بسهولة خلال زهنتنا الودودة على الشاطئ. قلت: "كنت لأوافق على الأرجح في الظروف الطبيعية. أيّاً تكن الظروف الطبيعية...".

فضحكنا، ولكنني أخبرته بتردّدي. فمع أنّي قد أستمتع بوضع قلبي بين يدي عشيق مغترب خبير لفترة من الزمن، إلّا أنّ شيئاً في داخلي يرحوني بجديّة أنّ أكرّس هذه السنة من السفر بأكملها لنفسني. بأنّ تحوّلًا حيويًا يحدث في حياتي وأنّ هذا التحوّل يحتاج إلى الوقت والمجال لكي يتمّ من دون تشويش. إنّني قالب الحلوى الذي خرج للتوّ من الفرن وما زال يحتاج إلى بعض الوقت حتى يبرد قبل أن يدخل البراد. لا أريد أن أفقد السيطرة على حياتي مجددًا.

بالطبع، قال فيليبه إنّه فهم وأنّ عليّ اختيار الأفضل لي وإنّه يأمل أن أسامحه لأنّه طرح الموضوع أساساً. ("كان يجب أن أسأل، عزيزتي، آجلًا أم آجلًا"). وأكّد لي أنّه مهما يكن قراري، فهو يؤدّ الحفاظ على صداقتنا لأنّها ممتعة لنا نحن الاثنين على ما يبدو.

وتابع: "مع أنّه ينبغي عليك سماع حجّتي الآن".
"هذا عادل".

"أولاً: على حدّ قولك، أنت خصّصت هذا العام للبحث عن التوازن والمتعة. ومن الواضح أنّك قمت بكثير من الممارسات التعبدية، ولكنني لست واثقاً أين حصلت على المتعة حتى الآن".
"أكلت الكثير من الباستا في إيطاليا، فيليبه".

"الباستا، ليز؟ الباستا؟".

"معك حقّ".

"ثانياً: أعتقد أنني أعرف ما الذي يقلقك. أنت تخشين دخول رجل في حياتك يأخذ كلّ شيء منك. ولكنني لن أفعل ذلك بك، عزيزتي. عشت وحدي لوقت طويل أنا أيضاً وخسرت الكثير في الحبّ، مثلك تماماً. لا أريد أن يأخذ أيّ منا من الآخر شيئاً. كلّ ما في الأمر أنني لم أستمتع يوماً بصحبة أحد كما أفعل بصحبتك، وأودّ أن أكون معك. ولا تقلقي، لن أجري خلفك إلى نيويورك حين تغادرين في أيلول. أمّا بالنسبة إلى الأسباب التي شرحتها لي منذ أسابيع حول عدم رغبتك باتخاذ عشيق... في الواقع، لا آبه ما إذا اعتنيت بجسدك أم لا، يعجبني كما هو، وقد سبق ورويت لي كلّ قصة حياتك وليس عليك أن تقلقي بخصوص منع الحمل، فقد سبق وأجريت جراحة لقطع القناة الدافقة.

"فيليبه، هذا العرض الأكثر إغراء ورومانسية الذي تلقّيته في حياتي".

وكان كذلك فعلاً. ولكنني رفضت مع ذلك.

أوصلني إلى المنزل. وحين أوقف السيارة، تبادلنا بضع قبل عذبة، مالحة ورملية بعد يومنا على الشاطئ. بالطبع، كان الأمر ممتعاً ولكنني مع ذلك قلت لا ثانية.

قال: "لا بأس، عزيزتي. ولكن تعالي إلى منزلي مساء غد، وسأعدّ لك شرائح اللحم".

ثمّ رحل، وخلدت إلى السرير بمفردي.

لديّ تاريخ من القرارات السريعة حول الرجال. لطالما وقعت في الحبّ بسرعة من دون قياس المخاطر. كما أميل إلى رؤية الأفضل لدى الجميع، ليس هذا وحسب، بل وأفترض بأنّ الجميع قادرين عاطفياً

على بلوغ أوج قدراتهم. وقد أغرمت لمرات لا تحصى بأوج قدرات الرجل أكثر مما أغرمت بالرجل نفسه، ثم تمسكت بتلك العلاقة لوقت طويل (طويل جداً في بعض الأحيان) وأنا أنتظر أن يرقى الرجل إلى عظيمته الخاصة. وفي كثير من المرات، وقعت ضحية تفاؤلي.

تزوَّجت شابة وبسرعة، كنت مغرمة ومتفائلة، ولكنني لم أناقش كثيراً حقيقة الزواج. ولم ينصحي أحد في ذلك. فقد تربيّت على الاستقلالية، والاكتفاء الذاتي، واتخاذ القرارات بنفسني. وحين بلغت الرابعة والعشرين، افترض الجميع بأنني قادرة على أن أقوم بخياراتي بنفسني، على نحو مستقل. بالطبع، لم يكن العالم كذلك دوماً. ولدت في حقبة أخرى من تاريخ المجتمع الغربي الأبوي، لا عتبرت ملكاً لوالدي، إلى أن ينقلني لزوجي وأصبح ملكية زوجية. وكان لديّ القليل لأقوله في شؤون حياتي الخاصة. ولو تقدّم أحد الشباب طالباً يدي، لجلس والدي معه، وأمطره بوابل من الأسئلة ليرى ما إذا كان مناسباً لي. ولأراد أن يعرف: "كيف ستعيل ابنتي؟ كيف هي سمعتك في مجتمعتك؟ ما وضعك الصحي؟ أين ستعيش معك؟ ما حجم ديونك وأملاكك؟ ما هي نقاط القوة في شخصيتك؟" وما كان والدي ليوافق على زواجي من أيّ شخص لمجرد كوني مغرمة به. ولكن حين اتّخذت قرار الزواج في أيامنا المعاصرة، لم يتدنّخل أبني على الإطلاق. وما كان ليتدنّخل في هذا القرار أكثر مما يفعل في موضوع كيفية تصفيف شعري.

عفواً، أنا لا أحنّ إلى المجتمع الأبوي. ولكنني بدأت أدرك أنّه حين تمّ تفكيك النظام الأبوي (وكان هذا في محلّه)، لم يتمّ استبداله بالضرورة بنظام حماية آخر. ما أعنيه هو أنني لم أطرح يوماً على أيّ متقدّم لخطبتي الأسئلة الصعبة نفسها التي كان لي طرحها والدي، في زمن

مختلف. بل سلّمت نفسي مرّات عديدة لأجل الحبّ وحسب. ولو كنت أرغب بأن أكون امرأة مستقلّة، عليّ أن أؤدّي دور وصيّ بنفسي. وقد نصحت غلوريا شتاينم النساء مرّة بأن يناضلن ليصبحن مثل الرجال الذين لطالما أردن الزواج بهم. وقد أدركت مؤخراً أنّه ليس عليّ أن أصبح زوجي وحسب، بل ووالدي أيضاً. ولهذا السبب، أرسلت نفسي إلى السرير وحيدة تلك الليلة. ذلك أنّي شعرت أنّه من المبكر جداً أن أتلقّى عرضاً من شابّ.

استيقظت عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأنا أشعر بجوع جسدي عميق إلى حدّ أنّي لم أعرف كيفية إشباعه. وكان القطّ المجنون في منزلي يموء بحزن لسبب ما فقلت له: "أعرف تماماً ما تشعر به". كان عليّ القيام بشيء حيال ذلك. فنهضت من السرير وتوجّهت إلى المطبخ بقميص النوم. فقشّرت نصف كيلوغرام من البطاطا التي سلقتها ثمّ قطعتها إلى شرائح وقليتها بالزبدة وملحتها جيّداً وأكلتها كلّها وأنا أسأل جسدي ما إذا كان يقبل بالبطاطا المقلية عوضاً عن ممارسة الحبّ. فأجاب جسدي بعد أن قضى على الطعام كلّه: "مستحيل، صغيرتي".

فعدت إلى السرير، وتنهّدت بسأم...

كالعادة، راح فكّري يبحث في ملفّاته الإباحية عن الفانتازيا المناسبة للمساعدة على إنجاز المهمة ولكنّ شيئاً لم يكن ينجح هذه الليلة. في النهاية، الشيء الوحيد الذي نجح في إشباع رغبتني هو إقرارني على مضض بفكرة صعود صديقي الطيّب من البرازيل معي إلى السرير...

أخيراً، غفوت. استيقظت على سماء زرقاء هادئة وغرفة أكثر هدوءاً. كنت لا أزال أشعر بالاضطراب وعدم التوازن، فتمهلّت في

صباحي، وأنشدت أبيات الغوروجيتا السنسكريتية البالغ عددها 182 بيتاً بأكملها، تلك الترنيمة العظيمة المطهّرة التي تعلّمتها في المعتزل في الهند. ثم تأملت لساعة من السكون وتنميل الأطراف إلى أن شعرت أخيراً بذاك الكمال الخاصّ، الثابت، الصافي، غير المرتبط بشيء، غير المتحوّل أبداً لسعادتي الخاصة. تلك السعادة الأفضل حقاً من أيّ شيء شعرت به في حياتي، بما في ذلك القبلات المألحة والدسمة والبطاطا الأكثر ملوحة ودسامة.

كنت في غاية السعادة لأنني اتخذت قرار البقاء وحيدة.

97

هكذا فوجئت نوعاً ما في الليلة التالية. فبعدما أعدّ لي فيليه العشاء في منزله وتمدّدنا على أريكته لساعات وتحدّثنا في جميع المواضيع، وبعدما مال إليّ وأخبرني كم يحبّ رائحتي، وضع أخيراً راحته على خدي وقال: "هذا يكفي حبيبي، تعالي الآن"، ففعلت.

...

كنت قد فقدت صوتي في مكان ما بين الأريكة والسرير، فاكثفت بهزّ رأسي موافقة. لم يعد ثمة ما يمكن أن يقال. أمضيت فصلاً طويلاً وقاسياً من الوحدة، وقد أبلت حسناً، ولكنّ فيليه على حقّ؛ هذا يكفي.

أجاب مبتسماً: "حسناً". وأبعد بعض الوسائد من طريقنا ثم استلقينا وقال: "فلننظّم نفسينا هنا".

وكان تعبيره مضحكاً في الواقع لأنّ تلك اللحظة وضعت حدّاً لكلّ جهودي بتنظيم حياتي.

أخبرني فيليه لاحقاً كيف رآني تلك الليلة. قال بأنني بدوت صغيرة جداً، ولا أشبه بشيء المرأة الواثقة من نفسها التي تعرف بها في ضوء النهار. قال بأنني بدوت صغيرة إلى حد كبير، ولكن منفتحة ومثارة في الوقت نفسه ومتعبة من كوني شجاعة. قال إنه كان واضحاً بأن أحداً لم يلمسني منذ وقت طويل. فقد وجدني أضجَّ بالرغبة، ولكنني كنت ممتنة في الوقت نفسه لفرصة التعبير عنها. ومع أنني لا أذكر كل ذلك، إلا أنني صدقت كلامه لأنه بدا بأنه كان يوليني اهتماماً فظيعاً.

أكثر ما تذكّرته تلك الليلة هي الناموسية البيضاء التي كانت تحيط بنا. فقد بدت لي أشبه بمظلة الهبوط، وشعرت بأنني أفتحتها لأترجل عن متن الطائرة القوية المنظمة التي كنت أطير بها خلال هذه السنوات بعيداً عن وقت عصيب في حياتي. غير أنّ طائرتي العنيدة أصبحت الآن مهجورة في وسط الهواء، فخرجت من تلك الطائرة أحادية الرأي، وأحادية المحرك، وتركت تلك المظلة البيضاء تؤرجحني عبر الفضاء الفارغ الغريب بين ماضي ومستقبلي، وتحطّ بي بأمان على هذه الجزيرة الشبيهة بالسريير، التي يقطنها بحار برازيلي وسيم تحطمت سفينته والذي كانت سعاداته ودهشته كبيرتين. بمجيئي (بعد أن عاش هو نفسه وحيداً لمدة طويلة) إلى حدّ أنّ لغته الإنكليزية انكشمت فجأة إلى خمس كلمات لم يردّد غيرها كلّما نظر إلى وجهي: جميلة، جميلة، جميلة، جميلة وجميلة.

98

لم ننم إطلاقاً بالطبع. وفي الصباح، كان عليّ الذهاب. كان عليّ العودة إلى منزلي بكل حماسة باكراً في الصباح التالي لأنني كنت على موعد مع صديقي يوداي. فقد خططنا منذ وقت طويل للذهاب هذا

الأسبوع بالذات في رحلة بالسيارة عبر بالي معاً. خطرت لنا الفكرة خلال إحدى الأمسيات في منزلي حين قال يوداي إن أكثر ما يشواق إليه في أميركا من بعد زوجته ومنهاتن كانت القيادة، مجرد الانطلاق بسيارة مع بعض الأصدقاء والذهاب في مغامرة لمسافات طويلة على تلك الطرقات السريعة بين الولايات. قلت له: "حسناً، فلنذهب في رحلة هنا في بالي معاً، على الطريقة الأميركية".

أضحكتنا تلك الفكرة، إذ ليس من الممكن الذهاب في رحلة بالسيارة في بالي على الطريقة الأميركية. فهذه الجزيرة التي لا تتجاوز مساحتها مساحة ديلاوير، تفتقر إلى المساحات الطويلة. كما أن الطرقات السريعة فيها فظيعة، تزيد خطورة الدراجات النارية العديدة التي تنقل بها العائلة الباليئية بكلمها، بحيث تقل خمسة أشخاص، يقودها الأب بيد ويحمل طفله حديث الولادة باليد الأخرى (وكأنه كرة قدم) وتجلس الأم جانبياً خلفه بفستان السارونغ الضيق حاملة سلّة على رأسها، وتحث ولديها الصغيرين على عدم السقوط عن الدراجة المسرعة، التي تسير على الأرجح بعكس السير ومن دون مصباح. ومع أن الخوذة لا تلبس إلا نادراً، إلا أنهم كثيراً ما يحملونها، ولم أفهم السبب بتاتاً. تخيل الأرقام القياسية التي تسجلها هذه الدراجات المحملة بالبشر، وهي تسير بسرعة بلا هوادة، تتجاوز وتتفادى بعضها وكأنها تقوم برقصة جنونية، على الطرقات الباليئية السريعة الحافلة بالبشر. لا أعرف كيف لم يقتل جميع من في بالي بعد في حوادث سير.

غير أننا قرّرنا أنا ويوداي القيام بالرحلة على أي حال، واستئجار سيارة لمدة أسبوع وقيادتها عبر هذه الجزيرة الصغيرة وكأننا في أميركا بلا هموم. أعجبتني الفكرة كثيراً حين خطرت لنا في الشهر الماضي، ولكن التوقيت الآن لا يبدو ملائماً، وأنا ممددة في السرير وفيليه يقبل

رؤوس أصابعي وذراعيّ وكتفيّ ويطلب منّي البقاء. ولكن عليّ الذهاب، كنت أرغب بذلك. ليس فقط لتمضية أسبوع مع صديقي يوداي، ولكن لأرتاح بعد تلك الليلة مع فيليبه، وأستوعب حقيقة أنني، كما يقولون في الروايات: أتخذتُ عشيقاً.

هكذا أوصلني فيليبه إلى منزلي، ووَدّعني بقبلة أخيرة شغوفة، وبالكداد كان لديّ الوقت للاستحمام واستحمام شتات نفسي قبل وصول يوداي بسيارتنا المستأجرة. فنظر إلي قائلاً: "متى عدت إلى البيت البارحة يا صاح؟".

أجبت: "لم أعد إلى البيت البارحة يا صاح".

قال: "يا صاح". وغرق في الضحك، متذكراً على الأرجح حديثنا منذ أسبوعين حين أخبرته بجديّة أنني قد لا أمارس الجنس ثانية لبقية حياتي. فقال: "استسلمت إذأ؟".

"يوداي، دعني أخبرك قصة. في الصيف الماضي، قبل أن أغادر الولايات المتحدة، قمت بزيارة جدي في نيويورك. تلك السيدة اللطيفة حقاً، وتدعى غايل، هي في الواقع زوجة جدي الثانية، وقد بلغت العقد الثامن من العمر الآن. فأخرجت ألبوم صور قدم، وأرتني صوراً أخذت لها في الثلاثينيات، حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها وذهبت في رحلة لمدة عام مع صديقتين لها ومرافقة. راحت تقلّب الصفحات وتريني صوراً قديمة رائعة لإيطاليا، فوقعنا فجأة على صورة شابٍ إيطالي وسيم حقاً في البندقية. قلت لها: "غايل، من هذا الشابّ الرائع؟" قالت: "إنّه ابن أحد ملاكّ الفندق الذي نزلنا فيه. كان صديقي". قلت لها: "صديقك؟" فنظرت إليّ زوجة جديّ الرقيقة بجنّث وأصبحت غاية في الإثارة وكأَنَّها بيتي دايفيس وقالت: "كنت قد تعبت من النظر إلى دور العبادة في إيطاليا، ليز".

ضرب يوداي كفه بكفّي ثم قال لي: "هيا، يا صاح".

انطلقنا في رحلتنا البرية الأميركية المزيّفة عبر بالي، أنا وذاك الموسيقار الإندونيسي العبقري الشابّ المنفيّ، وكان المقعد الخلفي من السيارة ممتلئاً بالغيتارات والشراب والطعام الباليّ الذي يشبه طعام الرحلات البرية الأميركية: رقائق أرزّ مقلية وسكاكر بلدية ذات نكهات فظيعة. تفاصيل تبدو لي ضبابية الآن، فقد كانت مشوشة بأفكاري عن فيليبه وبالضبابية التي ترافق أيّ رحلة برية بالسيارة في أيّ بلد في العالم. ما أذكره هو أننا تحدّثنا أنا ويوداي بالأميركية طيلة الوقت، وهي لغة لم أتحدّث بها منذ وقت طويل. تحدّثت بالإنكليزية كثيراً خلال هذه السنة، بالطبع، ولكن ليس بالأميركية، وبالتأكيد، ليس بلغة الهيب هوب التي يحبّها يوداي. فاستمتعنا بذلك طيلة الرحلة وتحوّلنا إلى مراهقين أميركيين حديثهما حافل بكلمات على غرار يا صاح وباهانات حنونة.

لم ندخل قلب بالي، بل قدنا السيارة على الساحل، على طول الشواطئ لمُدّة أسبوع. وكنا نركب أحياناً زورق صيد صغيراً ونقصد إحدى الجزر لنرى ما يجري فيها. كانت بالي حافلة بأنواع عديدة من الشواطئ. فقضينا يوماً على شاطئ كوتا الرملي الأبيض الطويل الشبيه بجنوب كاليفورنيا، ثمّ توجهنا إلى الشاطئ الصخري الأسود الكئيب للساحل الغربي الخلاب، وعبرنا الخطّ الباليّ الفاصل غير المرئيّ الذي لا يجتازه أبداً السائح العادي ووصلنا إلى الشواطئ المقفرة للساحل الشمالي التي لا يطؤها سوى راكبي الأمواج (والمجانين منهم فقط). جلسنا على الشاطئ، وتفّرّجنا على الأمواج الخطيرة وهي تتكسّر أمامنا فيما كان راكبو الأمواج ينزلقون ويختفون في قلب المحيط ليظهروا مجدّداً ويركبوا موجة أخرى، فنلتقط أنفاسنا قائلين: "يا صاح، هذا جنون تام".

كما أردنا، نسينا لساعات طويلة أننا في إندونيسيا ونحن نجول بتلك السيارة المستأجرة ونتناول الطعام الجاهز ونغني الأغاني الأميركية ونأكل البيتزا أينما وجدناها. وكلّما غلب الطابع البالييني على محيطنا، نحاول تجاهله وندّعي بأنني عدنا إلى أميركا. فأسأل مثلاً: "ما هو أفضل طريق لعبور هذا البركان؟" فيجيب يوداي: "أعتقد أنّ علينا سلوك الطريق أي - 95". فأضيف: "ولكنّ هذا الطريق سيقودنا مباشرة إلى لوس أنجلوس وسط ذروة ازدحام السير...". كانت مجرد لعبة، ولكنها نجحت نوعاً ما.

كنا نقع في بعض الأحيان على شواطئ هادئة فمضي اليوم في السباحة. صادقنا كلّ من التقينا به. فيوداي من النوع الذي إذا كان يسير على الشاطئ ورأى رجلاً يبني زورقاً، يتوقّف ويقول له: "كم هذا رائع! هل تبني زورقاً؟" وهو بارع في كسب ودّ الناس إلى حد أنّ باني الزورق دعانا للعيش مع عائلته لمُدّة عام.

أمّا المساء، فكان يشهد أحداثاً غريبة. كنّا نقع على معابد تدور فيها طقوس غامضة، فنؤخذ بصوت الأناشيد والطبول. عثرنا على قرية ساحلية تجمع أهلها في شارع معتم للقيام باحتفال ذكرى ميلاد. فتمّ سحبنّا أنا ويوداي من بين الحشود (تكريماً لنا لكوننا غربيين) ودعينا للرقص مع أجمل فتاة في القرية. (كانت مكسوة بالذهب والمجوهرات والبخور فيما زينت وجهها على الطراز المصري). كانت في الثالثة عشرة على الأرجح، ولكنها كانت تمزّ وركيها بثقة رقيقة ومغرية لامرأة تعرف بأنّها قادرة على إغراء أيّ رجل تريده). في اليوم التالي، وجدنا في القرية نفسها مطعماً عائلياً غريباً يعلن مالكه أنّه طبّاح عظيم للأكل التايلندي، علماً أنّه لم يكن كذلك، إلّا أنّنا أمضينا اليوم هناك على أي حال، نشرب الكوكا كولا المثلجة ونتناول الطعام التايلندي

المسدهن ونلعب مع ابن المالك المراهق المخنث. (ولم ننتبه سوى لاحقاً بأنّ ذاك المراهق الوسيم كان على الأرجح الراقصة الجميلة التي رأيناها في الليلة السابقة. في الواقع، البالينيون ماهرون في التشبّه).

كنت أتصل بفيليه كلّ يوم من أيّ هاتف أحده، فيسألني: "كم ليلة عليّ الانتظار بعد إلى أن تعودني إليّ؟" ويقول: "أنا أستمع في الوقوع في حبّك، عزيزتي. يبدو الأمر طبيعياً جداً وكأنّه يحدث كلّ أسبوعين، مع أنّي لم أشعر كذلك تجاه أيّ امرأة منذ ثلاثين عاماً".

لم أبلغ تلك المرحلة بعد، مرحلة الوقوع الحرّ في الحبّ، بل كانت تصدر عنيّ أصوات متردّدة وكأنّها تذكّرني بأنني سأعادر خلال بضعة أشهر. غير أنّ فيليه لم يكن يكثرث لذلك، بل يقول: "قد تكون هذه فكرة رومانسية غبية من أميركا الجنوبية، ولكنني أريد أن تفهمي أنّي أريد أن أتعدّب لأجلك. مهما كان الألم الذي سيلحق بنا في المستقبل، أقبل منذ الآن، لمجرّد متعة أن أكون معك. فلنستمع بهذا الوقت. إنّه رائع".

قلت له: "أتعلم، هذا مضحك، ولكن كنت أفكّر جدّاً قبل أن ألتقي بك في أنّني قد أمضي حياتي وحيدة وعازبة. اعتقدت أنّني سأعيش حياة تأملّ روحي".

قال: "تأملي في هذا، حبيبي...". تركت الهاتف وأنا أرتعش قليلاً وركبتي تترتجفان من هذا الشغف الجديد. أمضينا اليوم الأخير من رحلتنا وأنا ويوداي على أحد الشواطئ نتسكّع لساعات، وكما يحدث معنا عادة، عدنا نتحدّث عن نيويورك وعن عظمتها ومدى حبنا لها. قال يوداي إنّه يفتقد المدينة بقدر ما يفتقد زوجته، وكأنّ نيويورك هي شخص أو قريب فقدته حين تمّ ترحيله. وفيما كنّا نتحدّث، مسح يوداي بقعة جميلة من الرمل الأبيض بين منشفتينا ورسم خريطة لمنهاتن

ثم قال: "تعالى نحاول ملاًها بما نتذكره من المدينة". استعملنا رؤوس أصابعنا لرسم جميع الشوارع والطرق الرئيسية والفضى التي يحدثها برودواي وهو يمتد على نحو مائل عبر الجزيرة والأهوار وفيلادج وسترال بارك. اخترنا صدفه جميلة لتكون مبنى إمباير ستايت وأخرى لتحتل مكان مبنى كريستل. ثم أخذنا عودين وأعدنا وضع برجى التجارة عند قاعدة الجزيرة، حيث ينتميان.

استعملنا تلك الخريطة الرملية لنرى بعضنا مواقعنا المفضلة فى نيويورك. من هنا اشترى يوداي نظارته الشمسية التي يضعها الآن، ومن هناك اشترى الصندل الذي أتعله. هذا هو المطعم الذي تناولت فيه العشاء مع زوجي السابق للمرة الأولى، وذاك هو المكان الذي التقى فيه يوداي بزوجه. هنا يعدّ ألدّ طعام فييتنامي فى المدينة، وهناك أفضل بايغل، وهذا أفضل مطعم نودلز ("غير ممكن يا صاح، هذا هو أفضل مطعم نودلز"). ثم رسمت الشوارع المجاورة لمنزلى وقال يوداي: "أعرف مطعماً جيداً هناك".

"تيك تويك، شاين أم ستارلايت؟".

"بل تيك تويك".

"هل جرّبت يوماً قشدة البيض لدى تيك تويك؟".

فأن قائلاً: "يا الله، أعرف...".

شعرت بهذا التوق إلى نيويورك بشدة إلى حدّ أنّى اعتقدته صادراً عني. فحينه إلى تلك المدينة انتقل إليّ حتى إنني نسيت للحظة بأننى حرة فى العودة إلى منهناتن يوماً، بعكسه هو. راح يحركّ العودين ويغرزهما أكثر فى الرّمّل الأبيض ثمّ نظر إلى المحيط الأزرق الساكن وقال: "أعرف أنّ هذا المكان جميل... ولكن هل تعتقدن أنّى سأرى أميركا مجدداً؟".

ماذا يمكنني أن أقول له؟

غرقنا في الصمت. ثم بصق الحلوى الإندونيسية كريهة الطعم من فمه قائلاً: "يا صاح، هذه الحلوى تنتنة. من أين أتيت بها؟".

99

حين عدنا إلى أوبود، ذهب مباشرة إلى منزل فيلييه، ولم أعاد غرفة نومه لشهر تقريباً. ولست أبالغ إذ أقول إنّ أحداً لم يجبني ويعشقني هكذا من قبل، ليس بتلك اللذة والتركيز. لم يسبق لي أبداً أن استمتعت بهذا الشكل.

ثمّ أعرفه عن الحميمة أنّه ثمة قوانين طبيعية تسود التجربة الجنسية بين شخصين، وبأنّ تلك القوانين غير قابلة للنقاش أكثر من موضوع الجاذبية الأرضية. فالشعور بالراحة الجسدية مع جسد شخص آخر ليس قراراً شخصياً. ولا علاقة له بطريقة تفكير الناس أو حديثهم أو حتى شكلهم. ذلك أنّ الجاذب الغامض يكون إمّا موجوداً، عميقاً خلف عظم الصدر، أو لا يكون. وحين لا يكون (وهذا ما تعلّمته في الماضي، بوضوح فطر قلبي) لا يمكنك أن تجبره على أن يكون موجوداً تماماً كما لا يمكن للجراح أن يجبر جسد المريض على قبول كلية من المتبرّع غير المناسب. واستناداً إلى صديقتي آني، يتلخّص الأمر في سؤال بسيط: "هل تريد أن يكون جسدك ملتصقاً بجسد ذاك الشخص إلى الأبد أم لا؟".

كما اكتشفنا أنا وفيلييه: جسدانا مصمّمان لأجل ذلك. فلم يكن ثمة أجزاء فيهما تتحمّس تجاه جسد الآخر. لم يكن ثمة شيء خطير أو صعب أو مرفوض. كان كلّ ما في عالمنا الحسي متكاملاً و... بجاملاً.

قال لي فيليبه "انظري إلى نفسك، انظري كم أنت جميلة... كلّ خطوط جسدك منحنية... وكأنتك كثنان رملي...".

فيليبه هو أيضاً أستاذ في لغة التّجَبِّ. وحين نكون في السرير، يطرني بعبارات الحبّ البرتغالية. كنت كسولة جداً في بالي ولم أحاول تعلّم الإندونيسية أو الباليّة، إلّا أنّ البرتغالية كانت تأتيني بسهولة. ومع أنّني لم أكن أتعلّم سوى لغة السرير، إلّا أنّه استعمال رائع للبرتغالية. كان يقول لي: "حبيبي، ستسامين منّي. سألمسك وأكرّر لك كم أنت جميلة إلى أن تسامي".

"جربيني".

أحببت شعور عدم معرفة الوقت. فجدولي المنظّم ذهب أدراج الرياح. أخيراً، مررت بعراقي عصر أحد الأيام بعد غيبة طويلة. فقرأ كيتوت الحقيقة في وجهي قبل أن أتفوّه بشيء.

قال لي: "عثرت على صديق في بالي".

"نعم، كيتوت".

"جيد، ولكن احذري من أن تصبحي حاملاً".

"سأفعل".

"أهو رجل طيّب؟".

"أخبرني أنت، كيتوت. أنت من قرأ كفه وأكد لي أنّه رجل طيّب. كرّرت ذلك حوالى سبع مرات".

"أنا؟ متى؟".

"أحضرته إليك في حزيران. هو برازيلي، وأكبر منّي. قلت لي إنّك أحببته".

أصرّ قائلاً: "لم أره أبداً". وما من شيء كان ليقنعه بالعكس. في بعض الأحيان ينسى كيتوت بعض الأمور، كما كنت لتفعل أنت أيضاً

لو كان سنك يتراوح بين الخامسة والستين والمئة واثنى عشر عاماً. فمع أنه حادّ الذهن وذكيّ، إلاّ أنّي أشعر أحياناً وكأنّني أخرجته من مستوى وعي آخر، من عالم آخر. (منذ بضعة أسابيع، قال لي بلا مناسبة: "أنت صديقة جيّدة، ليز. وفيّة ومحبّة". ثمّ تنهّد مضيئاً بحزن: "لست مثل شارون". من تكون شارون؟ ماذا فعلت له؟ حين حاولت أن أسأله، لم يجب بشيء. وتصرّف وكأنّه لا يعلم عمّ أتحدّث، وكأنّني أنا من ذكر شارون الماكرة في الأساس).

"لمّ لا تحضرينه لتعرفيني به؟".

"فعلت، كيتوت. حقاً. وقلت لي إنّك أحببته".

"لا أذكر. أهو غنيّ؟".

"كلا كيتوت، ليس غنيّاً. ولكن لديه ما يكفي من المال".

"حالته متوسّطة؟" كان العرّاف يريد معرفة التفاصيل.

"لديه ما يكفي من المال".

بدا جوابي بأنّه يزعج كيتوت: "إن طلبت مالاً من هذا الرجل، هل يمكنه إعطاؤك أم لا؟".

"كيتوت، أنا لا أريد مالاً منه. لم يسبق لي أن أخذت مالاً من رجل".

"تمضين معه كلّ ليلة؟".

"أجل".

"جيّد. هل يدلّلك؟".

"كثيراً".

"جيّد. أما زلت تتأمّلين؟".

نعم. أتأمّل كلّ يوم. أتسلّل من سرير فيلييه، وأجلس على الأريكة بصمت لأعبّر عن شكري على كلّ ذلك. خارج الشرفة، كان

البطّ يصيح وهو يذرع سهول الأرزّ جيئةً وذهاباً ويرشّ الماء من حوله. (يقول فيليبه إنّ أسراب البطّ الباليي النشيطة لطالما ذكرته بالنساء البرازيليات وهنّ يتبخترن على شواطئ الريو، يثرثرن بصوت عال ويقاطعن بعضهنّ باستمرار ويميلن أوراكنهنّ بفخر). كنت مسترخيةً جداً في تلك الفترة إلى حدّ أنّي أنزلق في التأمل بسهولة وكأنّه حمام أعدّه لي عشيقتي...

لِمَ كانت الحياة تبدو لي صعبة؟

اتصلت يوماً بصديقتي سوزان في نيويورك وأصغيت إليها وهي تروي لي، على الرغم من عويل سيارات الشرطة المألوف، آخر تفاصيل آخر علاقة فاشلة في حياتها. فخرج صوتي من بين أنغام الجاز الليلية الهادئة ورحت أخبرها كيف أنّ عليها أن تنسى الرجل وأنّ الله سيعوّض عليها وأنّ الكون ليس سوى سلام وتناغم... استطعت تقريباً أن أراها وهي تنظر نحو الأعلى بسأم وترفع صوتها فوق صوت صفارات الإنذار قائلة: "تحدّثين مثل امرأة..."

100

إلا أنّ كلّ المرح واللعب انتهى بعد بضعة أسابيع. فبعد كلّ تلك الليالي من السهر، تعب جسدي وأصبت بالتهاب قوي في المثانة. وهي إصابة مألوفة لفرط ممارسة الجنس حين لا تعود معتاداً عليه. أتت الإصابة على نحو مفاجئ، كالنأساة. فقد كنت أسير في البلدة صباح أحد الأيام أقوم ببعض الأعمال حين شعرت بألم حارق وارتفعت حرارتي. سبق أن أصبت بهذا النوع من الالتهابات خلال شبابي الطائش، فعرفت على الفور سبب الألم. ذعرت للحظة، فمن شأن تلك

الإصابات أن تكون فظيعة، ولكن تذكّرت أن صديقتي المقرّبة في بالي هي معالجة، فهرعت إليها على الفور.

دخلت متجرها قائلة: "أنا مريضة!".

نظرت إليّ وقالت: "أنت مريضة من كثرة الجنس، ليز؟".

فدفت وجهي بين كفّي وأنا أئنّ محرّجة.

قالت ضاحكة: "لا يمكنك إخفاء شيء عن وايان...".

كنت أشعر بألم رهيب. فكلّ من سبقت له الإصابة بهذا النوع من المشاكل يعرف الشعور الفظيع، ومن لا يعرفه، ما عليه سوى أن يتخيّل صورته الخاصة عن التعذيب ويستحسن أن يستعمل فيها سيخ نار.

إلا أنّ وايان لا تحرك بسرعة. بل باشرت بتقطيع بعض الأعشاب وغليّ بعض الجذور وهي تروح وتجيء من وإلى المطبخ، وتحضر لي شراباً بنياً ساخناً الواحد تلو الآخر، طعمه كطعم السمّ وتقول: "اشربي حبيبي...".

كلّما وضعت الشراب التالي على النار، جلست أمامي ورمتني بنظرات خبيثة واستغلّت الفرصة للحديث في الموضوع.

"هل أنت محتاطة لعدم الحمل، ليز؟".

"غير ممكن، وايان. فيليه أجرى جراحة قطع أنابيب".

"فيليه أجرى جراحة قطع أنابيب؟" سألتني بنفس النبرة وكأنّها تقول: "فيليه يملك فيلاً في توسكانيا؟" (علماً أنّي أشعر بالشيء نفسه حيال ذلك، للمناسبة.) "من الصعب جداً على الرجل في بالي إجراء جراحة كهذه. فمشكلة تحديد النسل تقع دوماً على عاتق المرأة".

(على الرغم من صحّة ذلك، إلا أنّ معدّلات الإنجاب انخفضت مؤخّراً بفضل برنامج ذكي لتحديد النسل أطلق مؤخّراً. إذ وعدت

الحكومة بتقديم دراجة نارية جديدة لكل رجل يتطوع لإجراء جراحة قطع أنابيب... مع أنني لا أحب أن أتحلّل الرجال وهم يركبون دراجاتهم عائدين إلى المنزل في اليوم نفسه).

"الجنس مضحك". قالت وايان وهي تراني أنقبض من الألم وأنا أشرب المزيد من دوائها المنزلي.
"أجل وايان، شكراً. إنه مضحك جداً".

"كلا، إنه مضحك فعلاً. فهو يدفع الناس إلى القيام بأمور مضحكة. الكلّ يتصرفون على هذا النحو في البداية. يريدون الكثير من السعادة والمتعة إلى أن يمرضوا. حتى وايان فعلت ذلك في بداية قصة حبّها. احتلّ توازنها".
قلت لها: "أنا محرّجة".

قالت: "لا". ثمّ أضافت بإنكليزية ممتازة (ومنطق باليبي ممتاز):
"اختلال التوازن أحياناً لأجل الحبّ هو جزء من عيش حياة متوازنة".
قرّرت الاتصال بفيليبه. كان لديّ بعض المضادّات الحيوية في المنزل، مع الإسعافات الأولية التي لا أسافر من دونها، كنتدبير احتياطي. فأنا أعرف، من تجاربي السابقة، كم يمكن لهذه الحالات أن تتفاقم، حتى إنّها قد تبلغ الكلى. ولم أشأ الوصول إلى هذا الحدّ. فاتصلت به وأخبرته بما حدث (حزن كثيراً) وطلبت منه أن يحضر لي بعض الأقراص. صحيح أنني أتق براءة وايان الطيبة، إلّا أنّ الألم كان قويّاً حقّاً...

قالت وايان: "لست بحاجة إلى الأقراص الغربية".
"ربّما يستحسن أن أستعملها، للاطمئنان وحسب...".
قالت: "أعطيني ساعتين، إن لم تتحسّني، تناولي أقراصك".
وافقت على مضمض. فأنا أعرف أنّ هذه الالتهابات تستغرق أياماً لتزول، حتى بالمضادّات الحيوية القوية. ولكنني لم أرغب بخذل وايان.

كانت توتّي تلعب في المتجر وتحضر لي رسوماها للمنازل لكي
تموّه عَنّي، وتربّت على يدي بتعاطف ابنة الثماني سنوات. "ماما
إليزابيث مريضة؟" على الأقلّ لا تعرف سبب مرضي.

سألت وايان: "هل اشتريت منزلاً؟".

"ليس بعد، لست في عجلة".

"ماذا عن المكان الذي يعجبك؟ اعتقدت أنك ستشترينه".

"لم يكن للبيع. ثمّنه مرتفع جداً".

"هل ثمة أماكن أخرى في ذهنك؟".

"لا تقلقي لذلك، ليز. دعيني الآن أعالجك".

وصل فيلييه ومعه الدواء والندم يعلو وجهه، ثمّ راح يعتذر منّي
ومن وايان للألم الذي سبّب لي، أو على الأقلّ هكذا كان يرى
الأمر.

"حالتها ليست خطيرة، لا تقلق. سأعالجها سريعاً وستتحسّن على

الفور".

ثمّ دخلت المطبخ وحضرت كوباً كبيراً يمتلئ بالأوراق والجذور
والبذور وشيء عرفت بأنه كركم فضلاً عن كتلة شعشاء بدت وكأنّها
شعر ساحرة وعين أظنتها عين سمندل ماء... كلّها تطوف في ذاك
الشراب البتيّ. كان في الكوب ما يقارب الغالون منه، ويبدو نثناً
وكأته جثّة.

قالت وايان: "اشربي يا حبيبي، اشربيه كلّه".

تجرّعته. وفي أقلّ من ساعتين... حسناً، كلّنا نعرف نهاية القصة.

في أقلّ من ساعتين، شفيت تماماً. زال الالتهاب الذي كان ليستغرق
أياماً ليشفى بواسطة المضادّات الحيوية الغربية. حاولت أن أدفع لوايان
شيئاً مقابل علاجي، ولكنها قالت ضاحكة: "لا ينبغي عليّ أحتي أن

تدفع لي". ثم استدارت نحو فيليبه وقالت له بجدية: "عليك أن تكون حذراً معها الآن. لا تقتربا من بعضكما الليلة".

سألت وايان: "ألا يجرحك علاج الناس الذين سيعانون من مشاكل جنسية؟".

"أنا معالجة، ليز. أعالج جميع الأمراض، النسائية والذكورية".
ثم نظرت إلى فيليبه وقالت له: "إن احتجت إلى مساعدتي، لا تردّد في طلبها".

فرحت أوكد لوايان أنّ فيليبه لا يحتاج إلى أيّ مساعدة في هذا المجال، حين قاطعني لسؤال وايان ما إذا كان يمكن بيع دوائها في زجاجات في الأسواق. أكّد لها قائلاً: "يمكننا جمع ثروة". ولكنها شرحت له أنّ جميع أدويتها تعدّ في اليوم نفسه لتعطي مفعولاً. على أي حال، وايان لا تستعمل العلاج الداخلي وحسب، بل تعالج الرجال أيضاً بواسطة التدليك وهي تردّد أدعية خاصة.

مهارات وايان الطبية تتعدّى ذلك أيضاً. فقد أخبرتنا بأنّه يتم استدعاؤها أحياناً من قبل الأزواج الذين يعانون من العجز أو البرود الجنسي، ويعجزون عن إنجاب طفل. فترسم لهم صوراً سحرية على الملاءات وتشرح لهم عن الوضعيات الأنسب في أوقات معينة من الشهر.

تقول وايان إنّها تعرف أنّ هذا جنون، ولكن هذا عملها كعلاجية. وتعترف أنّ الأمر يحتاج إلى كثير من المراسم التطهيرية من قبل ومن بعد لتبقى روحها نقيّة.

ثمّ أخبرتنا وايان أمراً مثيراً للاهتمام. قالت إنّها في حال عجز الزوجان عن إنجاب طفل، فإنّها تعمد إلى فحص الزوجين لترى ثمن العيب. إن كان من المرأة، لا مشكلة في ذلك، تستطيع علاجها بواسطة

تقنيات العلاج القديمة. أما إن كان من الرجل، تصبح الحالة دقيقة في مجتمع ذكوري كمجتمع بالي. فحيارات وايان الطبية محدودة هنا لأنه من الخطر إخبار الرجل البالي أنه عاقر. فالرجال ليسوا سوى رجال في النهاية. وإن لم تحب المرأة طفلاً لزوجها سريعاً، تتعرض إما للضرب أو للعار أو للطلاق.

سألتها: "وماذا تفعلين في هذه الحالة؟".

...

تقول وايان إنها تلجأ لهذا العلاج لأنه من غير الممكن إخبار رجل باليني بأنه عاقر من دون المخاطرة بأن يتوجه إلى البيت ويؤذي زوجته. لو لم يكن الرجال في بالي هكذا، لأمكنها علاج عقمهم بأساليب عديدة. ولكن، تلك هي ثقافتهم. حتى إن معظم الرجال في بالي لا يعرفون كيف يمارسون الحب مع المرأة، بل يتصرفون بخشونة وفظاظة.

فاقترحت عليها قائلة: "ربما يجدر بك إعطاء دروس في التربية الجنسية. يمكنك تعليم الرجال كيف يلمسون المرأة بركة، وهكذا ستحب نساؤهم الجنس أكثر. لأنه إن لمسك الرجل بلطف ولطف بشرتك وقال لك كلاماً رقيقاً وقَبَل جسدك بأكمله وأخذ وقته... سيكون الجنس جميلاً".

فجأة غزا الاحمرار وجهها. وايان نورياسي، تلك المعالجة الجريئة، شعرت بالخجل.

"تجعليني أشعر بالخجل حين تتحدثين هكذا. هذا الحديث يشعرني أنني... مختلفة. حتى بملابسي الداخلية أشعر بأنني مختلفة! اذهبا إلى البيت أنتما الاثنان، لا مزيد من الحديث عن الجنس. اخلدا إلى النوم، ولكن النوم وحسب، مفهوم؟ النوم وحسب!".

خلال رحلة العودة، سألني فيليه: "هل اشترت منزلاً؟".
 "ليس بعد. ولكنّها تقول إنّها تبحث".
 "مضى أكثر من شهر منذ أن أعطيتها المال، أليس كذلك؟".
 "أجل، ولكنّ المكان الذي أرادته لم يكن معروضاً للبيع...".
 "كوبي حذرة يا حبيبي. لا تتركي الموضوع يطول أكثر من ذلك
 وينقلب عليك".
 "ماذا تعني؟".

قال: "أنا لا أحاول التدخل في شؤونك، ولكنني عشت في هذا
 البلد خمس سنوات، وصرت أعرف كيف تجري الأمور. من شأن
 الأحداث أن تتعقد هنا. وفي بعض الأحيان، تصعب معرفة حقيقة ما
 يجري".

سألته: "ماذا تحاول أن تقول، فيليه؟" وحين لم يجب على الفور،
 كرّرت له أحد أقواله: "إن أخبرتني ببطء سأفهمك بسرعة".
 "ما أحاول قوله ليز، هو أنّ أصدقاءك تبرّعوا بمبلغ هائل من المال
 لستك المرأة، والمال كله يقبع الآن في حساب وايان المصرفي. احرصي
 على أن تشتري به منزلاً بالفعل".

حلّت نهاية تموز ومعها ذكرى ميلادي الخامسة والثلاثين. أعدت
 لي وايان حفلة في متجرها تختلف عن كلّ الحفلات التي حضرتها حتى
 الآن. ألبستي وايان ثوباً بالينياً تقليدياً لمناسبات الميلاد - سارونغ

أرجواني زاهي اللون مع سترة بلا كمين وقطعة طويلة من القماش الذهبي لفتها بشدة حول صدري حتى عجزت تقريباً عن التنفس أو حتى تناول كعكة ذكرى ميلادي. وفيما كانت تلفني كالمومياء في غرفة نومها الصغيرة المعتمة (المزدحمة بممتلكات الفتيات الثلاث اللواتي يعشن معها)، سألتني وهي تلف القماش وتغرز الدبابيس من دون أن تنظر إليّ: "هل تنوين الزواج من فيلييه؟".

"كلاً، ليس لدينا أي نية بالزواج. لا أريد مزيداً من الأزواج، وايان. ولا أعتقد بأن فيلييه يريد مزيداً من الزوجات. غير أنني أحب أن أكون معه".

"يسهل إيجاد رجل وسيم المظهر، ولكن من الصعب إيجاد من يتمتع بوسامة الشكل والخلق، مثل فيلييه". وافقتها على ذلك.

ابتسمت قائلة: "ومن أحضر لك هذا الرجل، ليز؟ من صليّ لذلك كل يوم؟".

قيلتها وقلت: "شكراً لك وايان، أحسنت عملاً".

توجهنا إلى مكان الاحتفال. كانت وايان قد قامت والفتيات بتزيين المكان بالبالونات وسعف النخيل فضلاً عن رسائل مركبة مكتوبة بخط اليد، مثل: "ذكرى مولد سعيدة للرقيقة والحبيبة ليز، أختنا العزيزة، لحبيبتنا الليدي إليزابيث، ذكرى مولد سعيدة لك، حفظك الله وذكرى مولد سعيدة". وكان أولاد أخ وايان راقصين موهوبين في الاحتفالات الدينية، فأتوا ورقصوا لي في المطعم، وأدّوا عرضاً رائعاً مخصّصاً عادة للكهنة. كان جميع الأولاد يعتمرون أغطية ذهبية ضخمة على رؤوسهم، مزينة برسم ملكة شرسة ذات قدمين قويتين وأصابع أنثوية جميلة.

تنظّم الحفلات الباليّة عادة على مبدأ أن يقوم الناس بارتداء أجمل ثيابهم، ومن ثمّ الجلوس والتحديد إلى بعضهم. وهذا شبيه بحفلات نيويورك إلى حدّ كبير في الواقع. (تذمّر فيليبه حين علم أنّ وايان ستقيم لي حفلة ذكرى مولد، وقال: "ستكون سهرة مملة جداً...") ولكنها لم تكن مملة، بل هادئة وحسب. ومختلفة أيضاً. أولاً ارتداء الملابس، ومن ثمّ العرض الراقص، تلاه الجلوس وتحديد كلّ من الحاضرين إلى الآخر، ولم يكن هذا سيئاً. فالجميع بدوا جميلين. وكان جميع أفراد عائلة وايان حاضرين، وقد قضوا الوقت وهم يتسمون لي ويلوحون لي بأيديهم وأنا أبادلهم الابتسام والتلويح لهم.

أطفأت الشموع مع كيتوت الصغيرة التي قررت منذ بضعة أسابيع أن تكون ذكرى ميلادها في نفس يوم ذكرى ميلادي، 18 تموز، لأنّه لم يسبق لها أن احتفلت بذكرى ميلادها. بعد إطفاء الشموع، قدّم فيليبه لكيتوت الصغيرة لعبة باربي. ففتحت الغلاف ونظرت إليها بدهشة من حصل على تذكرة سفر بصاروخ إلى المريخ؛ شيء ما كان لها أن تتخيل الحصول عليه ولو بعد ملايين السنوات الضوئية.

كان كلّ ما في الحفلة غريباً نوعاً ما. فقد كان الحضور عبارة عن مزيج غير متناسق من الجنسيات والأعمار لزمرة من أصدقائي، فضلاً عن عائلة وايان وبعض زبائننا ومرضاها الغربيين الذين لم يسبق لي أن التقيت بهم من قبل. أحضر لي صديقي يوداي صندوقاً من الشراب، كما حضر الكاتب التلفزيوني الشاب الآتي من لوس أنجلوس، ويدعى آدم. كنّا قد التقينا به أنا وفيليبه في إحدى الحانات ودعونا. أمضى آدم ويوداي الوقت في الحديث مع صبي صغير يدعى دون، أمّه تعالجت لدى وايان، وهي مصمّمة ملابس ألمانية متزوجة من أميركي

ويعشون في بالي. وجون الصغير - الذي يبلغ السابعة من عمره ويقول بأنه أميركي نوعاً ما لأنّ أباه أميركي (مع أنّه لم يسبق له الذهاب إلى أميركا أبداً)، ولكنّه يتحدّث الألمانية مع أمّه والإندونيسية مع أولاد وايان - قد أعجب بآدم لأنّه من كاليفورنيا ويتقن ركوب الأمواج.

سأله جون: "ما هو حيوانك المفضّل، سيدي؟" أجابه آدم: "البعج".

سأل الصبي: "ما هو البعج؟" فهبّ يوداي قائلاً: "يا صاح، ألا تعرف ما هو البعج؟ عليك أن تذهب إلى البيت وتسأل أبك عنه. البعج، يا صاح!".

ثمّ استدار جون، الصبي الأميركي نوعاً ما ليقول شيئاً بالإندونيسية لتوتّي (وربّما سألها على الأرجح ما هو البعج) بينما كانت توتّي جالسة في حجر فيليبه تحاول قراءة بطاقات المعايدة التي وصلتني، وكان فيليبه يتحدّث الفرنسية مع رجل متقاعد من باريس أتى لعلاج كليتيه لدى وايان. في هذا الوقت، كانت وايان قد شغلت الراديو وراح كيبي رودجرز يغنيّ جبان البلدة. وفيما كنت أدعو ثلاث فتيات يابانيات لتناول بعض من كعكة ذكري ميلادي، كانت اليتيماتان تزينان شعري بدبايس ملونة وفرتا كلّ مصروفهما لشرائها لي. أمّا أولاد أخ وايان، راقصو المعبد وأبناء مزارعي الأرز، فجلسوا ساكنين يحدّقون إلى الأرض بملابسهم الذهبية التي بدوا فيها وكانهم تماثيل صغيرة من الذهب. في الخارج، صاحت الديوك في غير وقتها. وفيما كان ثوبي الباليي التقليدي يعصرني وكانّه عناق حارّ، شعرت بأنّ هذه الحفلة هي بالتأكيد أغرب حفلة ذكري ميلاد لي، إلّا أنّها قد تكون الأكثر سعادة.

مع ذلك، ما زالت وايان بحاجة إلى شراء منزل، وبدأت أقلق من تأخر ذلك. لم أكن أفهم السبب، ولكن ينبغي عليها الإسراع. تدخلنا أنا وفيليبه ووجدنا سمسار عقارات اصطحبنا في جولة لاختيار منزل، ولكن أياً منها لم يعجب وايان. قلت لها مراراً: "وايان، من الضروري أن نشترى شيئاً. سأغادر في أيلول ويجب أن أخبر أصدقائي بأن المال قد استعمل فعلاً لشراء منزل لك. كما أنك بحاجة إلى سقف يحميك قبل أن يتم إخراجك من هذا المتجر".

إلا أنها كانت تجيب دوماً: "ليس من السهل شراء أرض في بالي. ليس كمن يدخل متجراً ويشترى زجاجة من العصير. الأمر يحتاج إلى الوقت".

"ليس لدينا كثير من الوقت".

غير أنها كانت تكتفي بهز كتفها. فتذكرت مجدداً مفهوم الوقت المطاط في إندونيسيا، حيث إن الوقت هو فكرة نسبية وغير ثابتة لديهم. أربعة أسابيع لا تعني بالنسبة إلى وايان ما تعنيه لي. واليوم لديها ليس بالضرورة أربعاً وعشرين ساعة، قد يكون أكثر أو أقل، استناداً إلى طبيعة ذلك اليوم الروحية والعاطفية. وكما هو الحال مع عراقي وستة الغامض، في بعض الأحيان يعدّ الأيام، وفي أحيان أخرى يزها.

في تلك الأثناء، تبين لي أيضاً أنني أسأت تقدير مدى ارتفاع ثمن الأملاك في بالي. فنظراً إلى انخفاض ثمن كل شيء، افترضت بأن الأمر يسري أيضاً على العقارات، ولكنني أخطأت. فثمن العقار في بالي، لا سيما في أوبود، قد لا يقل عن ثمن عقار في ويستشستر كاونتي في طوكيو أو على روديو درايف. وهذا ليس منطقياً لأنك حين تملك

العقار لا يمكنك أن تستردّ مالك من خلاله بالشكل التقليدي والمنطقي. فقد تدفع 25.000 دولار لقاء قطعة صغيرة من الأرض، تبني عليها متجراً صغيراً تباع فيه سارونغا واحداً في اليوم لسائح واحد في اليوم لبقية حياتك، مقابل ربح لا يتجاوز خمسة وسبعين سنتاً في كلّ مرّة. هذا عبثي.

مع ذلك، يقدر الباليونيون قيمة الأرض على نحو يتجاوز المنطق الاقتصادي. فبما أنّ الملكية هي تقليدياً الشيء الوحيد الذي يعترف به الباليونيون كثروة شرعية، فإنهم يقدرّون الأملاك كما يقدرّ شعب الماساي المواشي أو كما تقدرّ ابنة أخي ذات الخمس سنوات أحمر الشفاه: أي أنّهم لا يتخلّون عنها متى أصبحت بين أيديهم.

كما اكتشفت أيضاً في شهر آب، خلال بحثي في تعقيدات العقارات الإندونيسية، أن من المستحيل تقريباً معرفة متى تكون الأرض معروضة للبيع. فالباليونيون الذين يرغبون ببيع أرضهم، لا يحبّون أن يعرف الناس بأنهم يعرضون أرضهم للبيع. ومع أنّ الإعلان عنها يساعدهم، إلّا أنّهم لا يرون الأمور من هذا المنظار. فعين يبيع المزارع البالييني أرضه، هذا يعني بأنّه يحتاج إلى المال، وهو أمر مخجل بالنسبة إليهم. وفي حال علم الجيران والأقارب أنّه باع جزءاً من أرضه، سيفترضون بأنّه أصبح يملك مالاً وسيحاول الجميع الاستدانة منه. لذا، لا تعرض الأرض للبيع إلّا عبر... الإشاعة. وكلّ صفقات بيع الأراضي تتمّ تحت غطاء غريب من السريّة والخفية.

حين سمع المغتربون الغربيون الذين يعيشون هنا بأنني أحاول شراء أرض لوايان، تجمّعوا حولي وراحوا يخبرونني قصصاً عن تجاربهم المؤسفة. فحدّروني من أنّي لا يمكن أبداً أن أكون أكيدة ممّا يحدث حين يتعلّق الأمر بالعقارات في بالي. فالأرض التي تبتاعها قد لا تنتمي فعلاً

للشخص الذي يبيعها. الرجل الذي يريك العقار قد لا يكون المالك حتى، بل ربّما ابن أخيه الذي يحاول مضايقة عمّه بسبب نزاع عائلي قديم. ولا تتوقع أن تكون حدود أرضك واضحة. لا بل إن الأرض التي قد تشتريها لبناء منزل أحلامك قد تعتبر قريبة جداً من أحد المعابد لتحصل على رخصة بناء (ومن الصعب في هذا البلد الصغير الذي يضمّ ما يقارب العشرين ألف معبد، إيجاد أرض غير قريبة جداً من أحد المعابد).

عليك أن تأخذ أيضاً في الاعتبار أنك تعيش ربّما على سفح أحد البراكين وأنّ منزلك قد يكون مبنياً فوق صدع. والصدع قد لا يكون جيولوجياً وحسب. على المرء أن يتذكّر أنّ إندونيسيا ليست مستقرّة سياسياً، وأنّ الفساد متغلغل فيها من أعلى وزرائها وصولاً إلى الرجل إلى يملأ سيارتك بالوقود ويدّعي وحسب بأنه ملأها فعلاً. ومن الممكن في أيّ لحظة أن تقوم ثورة هنا وأن يضع الفريق الظافر يده على أملاكك، على الأرجح بقوة السلاح.

ومع أنّي خضت دعوى طلاق في نيويورك، إلا أنّني لست ضليعة في أمور كهذه. فالقضية مختلفة تماماً هنا. وفي هذه الأثناء، ثمة 18 ألف دولار في حساب وايان المصري، تبرّعت بها أنا وعائلتي وأعزّ أصدقائي، حوّلت إلى العملة الإندونيسية، التي عرفت تاريخاً من الاهیارات من دون سابق إنذار وتحوّلت إلى رماد. ويفترض بوايان أن تخلي متجرها في أيلول، أي تقريباً في الوقت الذي سأغادر فيه البلاد، في غضون ثلاثة أسابيع تقريباً.

لكن تبين أنّه من المستحيل على وايان إيجاد قطعة أرض مناسبة برأيها لتبني عليها بيتاً لها. فبعض النظر عن جميع الاعتبارات العملية، عليها أن تفحص تاكسو (takso)، أي روح المكان. وإحساس وايان،

كمعالجة، بالتاكسو حاداً جداً حتى بالنسبة إلى المعايير الباليئية. فقد وجدتُ مكاناً اعتقدته ممتازاً، ولكنَّ وايان قالت إنه مسكون من قبل عفاريت غاضبة. ورفضت قطعة الأرض التالية لأنها قريبة جداً من أحد الأتهار، فكما هو معروف، الأشباح تعيش في الأتهار. (في الليلة التالية التي رأيت فيها ذلك المكان، حلمت بامرأة جميلة ترتدي ثياباً ممزقة وتبكي، فأخذت قرارها، لا يمكنها شراء تلك الأرض). ثمَّ عثرنا على متجر صغير وجميل قرب البلدة، مع حديقة أيضاً، ولكنَّه كان في زاوية، ووحده من يرغب بأن يفلس ويموت شاباً يعيش في منزل واقع في زاوية. كما هو معروف.

نصحني فيليبه قائلاً: "لا تحاولي النقاش معها. ثقِي بي حبيبتِي، لا تتدخلِي بين الباليين والتاكسو".

ثمَّ عثر فيليبه في الأسبوع الماضي على مكان بدا أنه يفي بالغرض تماماً: قطعة أرض صغيرة وجميلة، قريبة من وسط أوبود، تقع على طريق هادئ قريب من سهل أرز، ومساحتها كافية لأجل الحديقة، كما أنها ضمن ميزانيتنا. ولكن حين سألت وايان: "هل نشترها؟" أجابت: "لا أعرف بعد، ليز. لا نأخذ هذه القرارات بتلك السرعة. أحتاج إلى التحدُّث مع كاهن".

شرحت لنا أن عليها استشارة كاهن لكي يخبرها بيوم ميمون مناسب للشراء، هذا إن قررت شراءها أساساً. ذلك أن الباليين لا يقومون بشيء هام من دون اختيار يوم ميمون لذلك. ولكنَّها لا تستطيع سؤال الكاهن عن اليوم حتى تقرَّر بأنها ترغب فعلاً بالعيش هناك. وهذا التزام ترفض القيام به ما لم ترَ حلماً يبشِّر بالخير. ونظراً لأيامي المعدودة في البلاد، سألت وايان على طريقة النيويوركيين: "بأي سرعة يمكنك ترتيب رؤية حلم يبشِّر بالخير؟".

أجابت وايان، على طريقة الباليينين: "لا يمكن الإسراع في ذلك".
فمع أنّها فكّرت كثيراً، إلّا أنّه قد يكون من المفيد الذهاب إلى أحد
المعابد الكبرى في بالي لتقدم قربان والتضرع لرؤية حلم يبشّرها
بالخير...

قلت لها: "حسناً. غداً يصطحبك فيلبه إلى أحد المعابد الكبرى
لتقدّمي قرباناً وتضرعي".

قالت وايان بأنّها كانت لتتمنى ذلك. فهي فكرة رائعة. ولكن ثمة
مشكلة واحدة. لا يسمح لها بدخول أيّ معبد طيلة ذاك الأسبوع.
فقد كانت... حائضاً.

104

ربّما لم أذكر بالضبط كم أنّ كلّ هذا كان ممتعاً. أو ربّما كنت
أستمع كثيراً بتلك اللحظة السريالية في حياتي لأنّني كنت أقع في
الحبّ، وهذا ما يجعل العالم يبدو بهيجاً، مهما كانت الحقيقة جنونية.
لطالما أعجبتني فيلبه. ولكنّ الطريقة التي تعاطى فيها مع موضوع
منزل وايان، قرّبتنا من بعضنا خلال شهر آب، وكأنا زوجان
حقيقيان. طبعاً، لا يعنيه ما يحدث لتلك المعالجة الباليّية. فهو رجل
أعمال، وقد تدبّر أمره وعاش في بالي خمس سنوات من دون التداخل
كثيراً في حياة الباليينين الشخصية وطقوسهم المعقّدة، ولكنّها هو الآن
يجول بين سهول الأرزّ الموحلة ويحاول إيجاد كاهن يجبر وايان بتاريخ
ميمون...

كان يردّد دوماً: "كنت سعيداً جداً بحياتي المملّة قبل أن
تظهري فيها".

كان يشعر بالملل في بالي. كان يتكاسل ويقتل الوقت، مثل إحدى شخصيات رواية غراهام غرين. إلا أن ذاك التراخي انتهى حين تعرفنا على بعضنا. والآن وقد اجتمعنا، تمكّنت من سماع روايته لكيفية لقائنا، وهي قصة ممتعة لا أملّ أبداً من سماعها، حيث يخبرني كيف رأني في الحفلة تلك الليلة، أقف وظهري إليه، وكيف أنه أدرك في أعماقه، من دون حتى أن يرى وجهي: "تلك هي امرأة حياتي. سأفعل أيّ شيء للحصول على تلك المرأة".

ويتابع قائلاً: "وكان من السهل الحصول عليك. ما كان عليّ سوى التوسّل إليك لأسابيع".
"أنت لم تتوسّل إليّ".

"لم تلاحظني بأنني كنت أتوسّل إليك؟".

تحدّث عن الليلة التي ذهبنا للرقص فيها، وكيف رأني أنجذب إلى ذاك الشابّ الويلزيّ اللطيف، وكيف غاص قلبه وهو يفكر: "أنا أبذل كلّ جهدي لإغراء تلك المرأة ليأتي هذا الشابّ الوسيم ويأخذها منّي ويعقد حياتها. لو أنّها تعرف الحبّ الذي يمكنني أن أقدمه لها".

وقد فعل. كان محبباً بطبيعته، وكنت أشعر به وهو يتحوّل إلى فلك يدور من حولي، ويجعلني محوراً له ويتحوّل ليكون فارساً لي. في الواقع، فيليبه هو من النوع الذي يحتاج بشدّة إلى امرأة في حياته، ليس لتعتني به، بل ليكون لديه من يعتني هو به ويكرّس نفسه لها. وبعد أن افتقر إلى علاقة كتلك منذ طلاقه، كان تائهاً في الحياة، ولكنّه بدأ الآن ينظّم نفسه حولي. ومن اللطيف في الحقيقة أن يعامل المرء بهذا الشكل. إلا أن الأمر يخيفني أيضاً. أسمع أحياناً وهو يحضّر لي العشاء في الطابق السفلي فيما أكون ممدّدة أقرأ في الأعلى، وهو يصفر بموسيقى السامبا البرازيلية السعيدة ويناديّني قائلاً: "حبيبي، هل ترغبين بكأس آخر من

الشراب؟" فأتساءل ما إذا كنت أستطيع أن أكون شمساً في حياة شخص ما، كل شيء في حياته. هل أصبحت مستقرّة الآن بما يكفي لأكون مركز حياة شخص آخر؟ ولكن حين فتحت معه الموضوع في إحدى الليالي، قال: "هل طلبت منك أن تكوني كذلك، حبيبي؟ هل طلبت منك أن تكوني مركز حياتي؟".

شعرت على الفور بالخجل من غروري، من افتراضي بأنه أراد مني البقاء معه إلى الأبد ليدلّني إلى الأبد.

قلت له: "أنا آسفة. كان هذا غروراً من قبلي، أليس كذلك؟".
أقرّ قائلاً: "قليلاً". ثمّ قبل أذني وأضاف: "ولكن ليس كثيراً. بالطبع علينا مناقشة ذلك، حبيبي، لأنني في الحقيقة، مغرم بك بجنون". شحب وجهي عند سماعي ذلك، فأسرع بممازحتي وحاول طمأنيتي قائلاً: "أعني بشكل افتراضي، بالطبع". ثمّ قال بجديّة تامّة: "اسمعي. أنا في الثانية والخمسين من عمري. صدّقي، لقد خبرت الحياة. صحيح أنّك لا تحبيني كما أحبّك، ولكنني لا أهتمّ بذلك. لسبب ما، شعوري تجاهك هو نفس شعوري تجاه أولادي حين كانوا صغاراً؛ إنهم ليسوا مجرّين على حبي، ولكنّ واجبي أن أحبهم. أنت حرّة في شعورك تجاهي، ولكنني أحبك وسأفعل دوماً. حتى لو لم نرَ بعضنا ثانية، أنت أعدتني إلى الحياة، وهذا كاف. بالطبع، أودّ أن تشاركوني حياتي، ولكن لست واثقاً أيّ حياة يمكنني أن أقدم لك هنا في بالي".

أنا أيضاً فكّرت في هذه المشكلة. كنت أشاهد خلال إقامتي في مجتمع المغتربين في أوبود، وأدركت أنّ حياتهم لا تناسبني على الإطلاق. فالنموذج الذي تراه هنا واحد؛ غريبون عاشوا حياة صعبة، فانسحبوا منها، وقرّروا المكوث هنا في بالي لوقت غير محدّد، بحيث يعيشون في منزل جميل مقابل 200 دولار في الشهر، ويتخذون شريكة أو شريكاً

بالنيأ، يعيشون على هواهم ويجنون بعض المال من تصدير شيء من الأثاث لشخص ما. ولكنهم عموماً يحرصون على ألا يسألوا القيام بشيء جدّي مرة أخرى. وهؤلاء المغتربون هم للمناسبة من وسط اجتماعي رفيع، متعدّد القوميات، موهوبون وأذكياء. ولكن يبدو لي أنّ الجميع كانوا شيئاً في الماضي، إمّا متزوجين أو موظّفين، والآن يجمعهم غياب الشيء الوحيد الذي يبدو بأنهم تخلّوا عنه تماماً وللأبد، ألا وهو الطموح.

بالطبع، ليست أوبود مكاناً سيئاً لتضيع حياتك فيه، وتنسى مرور الأيام. فمعظم المغتربين لا يعرفون كم مضى عليهم هنا بالضبط. وربّما كانوا غير واثقين من أنّهم يعيشون هنا فعلاً. فهم لا ينتمون إلى أيّ مكان. فبعضهم يحبّون أن يتخيّلوا أنّهم يمضون هنا بعض الوقت، وكأنهم أطفالاً المحرّك حين توقّف السير عند إشارة المرور وينتظرون أن تضيء الإشارة ثانية لينطلقوا. ولكن، بعد سبعة عشر عاماً تبدأ بالتساؤل... هل ثمة من يغادر على الإطلاق؟

مع أنّه ثمة الكثير للاستمتاع به بصحبتهم في أيام الآحاد الطويلة الكسولة، إلّا أنّني حين أكون على مقربة منهم أشعر وكأنني دوروثي في حقول الأفيون وأقول لنفسني: كوني حذرة! لا تنامي في هذا المكان وإلّا غضوت هنا لبقية حياتك!

إذاً ما الذي سيحصل لنا أنا وفيليبه؟ بما أنّه أصبح هنالك على ما يبدو أنا وفيليبه. قال لي منذ وقت غير بعيد، "أتمنّى أحياناً لو كنت فتاة صغيرة ضائعة، عندها لاحتضنتك وقلت لك، تعالي للعيش معي، دعيني أعطني بك إلى الأبد. ولكنك لست فتاة ضائعة. أنت امرأة، ولديك مهنة وطموح. مثل سلحفاة، تحمل بيتها على ظهرها. عليك التمسك بهذه الحرية أطول وقت ممكن. ولكن ما أريد قوله لك هو التالي: إن أردت هذا البرازيلي، يمكنك الحصول عليه. أنا ملكك أساساً".

أنا لست واثقة مما أريده. أعلم أنني لطالما رغبت بسماع رجل يقول لي: "دعيني أعتني بك إلى الأبد"، ولم يسبق لأحد أن قالها لي من قبل. وفي السنوات الأخيرة، توقفت عن البحث عن ذلك الشخص، وتعلّمت قول هذه الجملة المشجّعة لنفسِي، لا سيّما في أوقات الخوف. ولكن أن أسمعها الآن من شخص آخر يقولها بصدق...

رحت أفكّر في هذا الأمر في الليلة الفائتة بعدما غطّ فيليبه في النوم، وأنا ممدّدة بقربه، وأتساءل ما الذي سيحلّ بنا. ما هي أشكال المستقبل الممكنة؟ ماذا عن المسافة الجغرافية بيننا، أين سنعيش؟ وماذا عن فارق السنّ أيضاً؟ مع أنني حين اتصلت بأمي لأخبرها بأنني تعرّفت على رجل لطيف جداً، ولكن - تمالكي أعصابك، أمي - إنه في الثانية والخمسين من عمره، لم يرفّ لها جفن. بل اكتفت بالقول: "حسناً، أودّ إخبارك شيئاً، ليز. أنت في الخامسة والثلاثين". (ملاحظة ممتازة، ماما. أنا محظوظة لإيجاد رجل في تلك السنّ المتقدّمة). مع ذلك، أنا حقاً لا أمانع بوجود فارق في السنّ بيننا. لا بل أحبّ كون فيليبه أكبر منّي بهذا القدر. فالأمر مثير. يجعلني أشعر وكأنني... فرنسية.

ماذا سيحلّ بنا؟

لِمَ يشغلني الأمر على أي حال؟

ألم أتعلّم بعد بأنه لا جدوى من القلق؟

هكذا توقّفت عن التفكير في الموضوع بعد برهة واكتفيت باحتضانه وهو نائم. أنا أقع في حبّ هذا الرجل. ثمّ استغرقت في النوم بقربه ورأيت حلمين لا يمكنني نسيانهما.

كان الحلمان عن مرشدتي. في الأوّل أخبرتني بأنها ستقفل معترها ولن تتحدّث بعد الآن أو تعلّم أو تنشر الكتب. بل ألقت على تلاميذها خطاباً أخيراً قالت فيه: "حصلتم على ما يكفي من التعليم وعلى كلّ ما

تحتاجون إليه لتكونوا أحراراً. حان الوقت لكي تخرجوا إلى العالم وتعيشوا حياة سعيدة".

أما الثاني فكان أكثر تأكيداً من الأول. كنت أكل في مطعم خلّاب في نيويورك مع فيليبه. كنّا نتناول وجبة رائعة من لحم الضأن والأرضي شوكي ونحتسي الشراب اللذيذ وتحدّث ونضحك. نظرت عبر القاعة ورأيت سواميجي، معلّم مرشدتي الذي مات سنة 1982. ولكّنه كان حياً يرزق تلك الليلة، هناك في مطعم نيويوركي راق. كان يتناول العشاء مع مجموعة من أصدقائه وبدا عليهم أنّهم يستمتعون بوقتهم هم أيضاً. التقت أعيننا عبر الغرفة فابتسم لي سواميجي ورفع كأسه.

وبعدّها سمعت بوضوح هذا الغورو الهندي قصير القامة الذي لم يتفوّه سوى بكلمات إنكليزية نادرة وثمينة خلال حياته، يقول لي كلمة واحدة عبر المسافة التي تفصلنا:

"استمتعي".

105

مضى عليّ وقت طويل لم أر فيه كيتوت لاير. فبين علاقتي بفيليبه وسعيي إلى إيجاد منزل لويان، ولّى عهد جلساتنا الطويلة من الحديث عن الروحانيات منذ زمن. مررت بمنزله عدّة مرات لأسلم عليه وأحضر الفاكهة لزوجته، ولكّتنا لم نَمُضِ وقتاً هاماً معاً منذ حزيران. وكلّما حاولت الاعتذار له عن غيابي، يضحك كمن عُرِضت عليه مسبقاً إجابات كلّ الاختبارات في هذا الكون ويقول: "كلّ شيء على ما يرام، ليز".

مع ذلك، اشتقت إلى العجوز، فمررت به للجلوس معه هذا الصباح. حيّاني كعادته قائلاً: "تشرّفت بلقائك!"، لم أتمكّن أبداً من تغيير هذه العادة لديه).

أنا أيضاً سعيدة لرؤيتك، كيتوت".

"سترحلين عمّا قريب؟".

"أجل، كيتوت. في أقلّ من أسبوعين. لذا أردت المحيء اليوم. أردت أن أشكرك على كلّ ما أعطيتني إياه. لولاك، لما أتيت إلى بالي على الإطلاق".

"ما كان لك ألاّ تعودني إلى بالي"، قال من دون أيّ شكّ أو دراما، ثمّ سألتني: "أما زلت تتأمّلين مع إخوتك الأربعة كما علّمتك؟".

"أجل".

"أما زلت تتأمّلين مثلما علّمتك الغورو في الهند؟".

"أجل".

"أما زلت ترين أحلاماً مزعجة؟".

"كلاّ".

"هل أنت سعيدة الآن؟".

"كثيراً".

"هل تحبين صديقك الجديد؟".

"أجل، أعتقد ذلك".

"إذاً، عليك أن تدلّيه. وعليه أن يدلّلك".

وعدته قائلة: "حسناً".

"أنت صديقة جيدة. بل أفضل من صديقة. أنت مثل ابنتي".

(كست مثل شارون...) "حين أموت، ستأتين إلى بالي، لحضور مراسم

إحراق جثتي. المراسم الباليينيّة لإحراق جثث الموتى ممتعة جداً؛
ستحيينها".

وعده قائله: "حسناً"، ولكنّ الغصّة كانت تخنقي الآن.

"دعي ضميرك يقودك. وإن أتى أصدقاؤك إلى باي، أحضريهم
لأقرأ لهم الكفّ. فأنا مفلس جداً في مصرفي منذ التفجير. هل تريد
الجيء معي اليوم لحضور مراسم طفل صغير؟".

هكذا انتهى بي الأمر إلى المشاركة في مباركة طفل بلغ شهره
السادس وأصبح الآن مستعداً للمس الأرض للمرّة الأولى. فالباليون لا
يسمحون لأطفالهم بملامسة الأرض قبل بلوغهم الشهر السادس. لذا،
يحمل الباليون أطفالهم في تلك الأشهر الستة الأولى ويحترموهم
وكأنهم أسياد صغار. وإن توفي طفل ما قبل الشهر السادس من عمره،
تقام له مراسم إحراق خاصة ولا يوضع الرماد في مقبرة بشرية لأنّه لم
يصبح بشراً بعد، بل ظلّ سيّداً وحسب. ولكن إن عاش الطفل ليبلغ
الشهر السادس، يقام له احتفال كبير وتطأ قدماه الأرض أخيراً ويتم
الترحيب بدخول الطفل في الجنس البشري.

أقيم هذا الاحتفال اليوم في منزل أحد جيران كيتوت. كانت
الطفلة فتاة أعطيت لقب بوتو. كان أبواها مراهقين جميلين، الأب حفيد
ابن عم كيتوت، أو شيء من هذا القبيل. ارتدى كيتوت أجمل ثيابه؛
سارونغ من الساتان الأبيض المزركش بالخيوط الذهبية وسترة بيضاء طويلة
الكمسين مع أزرار ذهبية وقبة نيهرو، جعلته يبدو أقرب إلى حمّال في محطة
قطار أو موظف في فندق فخم. كما لفّ عمامة بيضاء على رأسه. وأراني
يفخر أصابعه التي وضع فيها حوالى سبعة خواتم ذهبية كبيرة ومرصعة
بالأحجار الكريمة. كانت تمتاز جميعها بقوى خارقة. وحمل جرس جدّه
النحاسي البراق لاستحضار الأرواح وطلب مني أخذ صور عديدة له.

سرنا معاً نحو منزل جاره. كانت المسافة بعيدة واضطربنا إلى السير على الطريق الرئيسي لبعض الوقت. ها أنا في بالي منذ أربعة أشهر تقريباً، ولم يسبق لي رؤية كيتوت يغادر مسكنه حتى الآن. شعرت بالارتباك وأنا أراه يسير بين السيارات المسرعة والدراجات النارية المجنونة. بدا صغيراً وضعيفاً وفي غير مكانه أمام هذه الخلفية العصرية من ازدحام المرور وأبواق السيارات. شعرت بالرغبة في البكاء، لسبب ما، ولكنني كنت منفعلة أكثر من العادة في ذلك اليوم.

كان ثمة أربعون ضيفاً تقريباً حين وصلنا، وكان مذبذب العائلة مليئاً بالقرابين: سلال من سعف النخيل حافلة بالأرز والأزهار والبخور وبعض الإوز والدجاج المذبوح وجوز الهند وقليل من النقود التي كانت ترفرف بفعل النسيم. كان الجميع في غاية الأناقة، بملابسهم الحريرية والمخرّمة. وعلى الرغم من ملابسي العادية والعرق الذي يتصبّب مني بسبب ركوبي الدراجة، تمّ الترحيب بي تماماً كما يرحّب بفتاة بيضاء دخلت من دون دعوة. ابتسم لي الجميع بحرارة، ثمّ تجاهلوني وانتقلوا إلى الجزء الذي يجلس فيه الجميع للتحديق إلى ملابس الآخرين.

استغرق الاحتفال ساعات، وكان كيتوت هو الذي يترأسه. وحده عالم اجتماعي مع فريق من المترجمين كان ليخبرك بما جرى بالضبط. إلّا أنّني تمكّنت من فهم بعض الطقوس بفضل شرح كيتوت والكتب التي قرأتها. فقد حمل الأب الطفلة خلال القسم الأوّل من المباركة، وحملت الأمّ تمثالاً للطفلة، كان عبارة عن جوزة هند ملفوفة لتبدو وكأنّها طفل. تمّت مباركة التمثال ورشّه بالماء المبارك وكأنّه طفل حقيقي، ثمّ وضع على الأرض قبل أن تلامس قدما الطفلة الأرض للمرة الأولى. كان هذا يهدف إلى خدع الشياطين لكي تهاجم الطفل المزيف وتترك الطفلة الحقيقية وشأنها.

تبع ذلك ساعات من الإنشاد قبل أن تلامس قدما الطفلة الحقيقية الأرض. ثم قرع كيتوت جرسه وغنى المانترا إلى ما لا نهاية وأشرق وجه الأبوين بالسعادة والفخر. أتى الضيوف وغادروا، تحدّثوا معاً وتفرّجوا على الاحتفال، ثم قدموا هداياهم، ورحلوا للذهاب إلى موعد آخر. كان الأمر عادياً على نحو غريب وسط كلّ تلك الرسميات والطقوس القديمة. كانت المانترا التي غناها كيتوت للطفلة جميلة، كانت مزيجاً من الدين والحنان. وفيما حملتها الأم، راح كيتوت يمرّ أمامها عينات من الأطعمة والفاكهة والأزهار والماء والأجراس وجانحاً من الدجاج المشوي وقطعة من جوز الهند... ومع كلّ صنف، كان ينشد شيئاً. وكانت الطفلة تضحك وتصفق براحتها فيضحك كيتوت ويتابع الغناء.

تخيلت ترجمتي الخاصة لكلماته:

"يا أيتها الطفلة، هذا دجاج مشوي لتأكله! يوماً ما ستحبين الدجاج المشوي ونتمنى أن تحبّي أكل الكثير منه! يا أيتها الطفلة، هذا قليل من الأرز المطبوخ، أرجو أن تحبّي على كلّ الأرز الذي ترغبين فيه في حياتك، فليرشّ عليك الأرز دائماً. يا أيتها الطفلة، هذا جوز الهند، أليس منظره مضحكاً؟ يوماً ما ستأكلين الكثير منه! يا أيتها الطفلة، هذه عائلتك، ألا ترين كم تحبّك؟ يا أيتها الطفلة، أنت غالية على الكون كلّاً! أنت تلميذة مجتهدة! أنت فتاتنا الرائعة! أنت بطّة لذيذة! يا أيتها الطفلة، أنت ابنتنا المدلّلة، أنت كلّ شيء بالنسبة إلينا..."

تمّت مباركة الجميع تكراراً بأوراق الورد المبللة بالمياه المباركة. وتبادلت العائلة بأكملها الطفلة وهددها فيما أنشد كيتوت المانترات القديمة. حتى إنهم سمحوا لي بحمل الطفلة قليلاً، وإن كنت أرثدي

الجينز، فهمست لها بمباركتي الخاصة بينما كان الجميع يغني. قلت لها: "حظاً سعيداً. كوني شجاعة". كانت الحرارة حارقة، حتى في الظل. كان العرق يتصبب من الأم التي ترتدي سترة مثيرة تحت قميصها المخرم. وكذلك الأب الشاب الذي بدا وكأن وجهه لا يعرف تعبيراً آخر غير الفخر. أما الجدات فكنّ يحركن مراوحنّ اليدوية لتخفيف شعورهنّ بالحر، وكان يبدو عيلهنّ الملل أحياناً، فيجلسن أو يقفن أو يجمن حول القرايين المشوية أو يطردن الكلاب. أمّا الباقون فكانوا يبدون اهتمامهم أحياناً وعدم اكتراثهم أحياناً أخرى، ويتبدل شعورهم بين التعب والمرح والجدية. أمّا كيتوت والطفلة، فبدوا غارقين في تجربتهما الخاصة معاً، واهتمام كلّ منهم مركز على الآخر. فالطفلة لم ترفع عينها عن العراف العجوز طيلة اليوم. من سمع من قبل عن طفلة في شهرها السادس لا تبكي أو تنام لأربع ساعات متوالية تحت الشمس الحارقة، بل تكفي بالنظر إلى شخص ما بفضول؟

قام كيتوت والطفلة بوظيفتهما على أكمل وجه. وكانت الطفلة حاضرة تماماً في أثناء مراسم انتقالها من منزلة الأسياء إلى منزلة البشر. كانت تتولى مسؤولياتها كما يجب، مثل فتاة بالينية أصيلة، منغمسة في الطقس، واثقة من معتقداتها، مطيعة لمتطلبات ثقافتها.

عند انتهاء الغناء، تم لفّ الطفلة بملاء بيضاء طويلة تتجاوز ساقها الصغيرتين بكثير، وتجعلها تبدو طويلة وملكية. ثمّ رسم كيتوت على قعر إناء فخاري الاتجاهات الأربعة في الكون، وملاً الإناء بالماء المبارك ووضعها على الأرض. وبرسمه اليدويّ حدّد البقعة المقدّسة من الأرض التي ستطوها قدما الطفلة للمرة الأولى.

ثمّ اجتمعت العائلة كلها حول الطفلة و - هوب! ها هي ذا! - قاموا بغمس قدمها قليلاً بالمياه المباركة، تماماً فوق الرسم السحري

الذي يشمل العالم بأسره، ثم لامسوا أخص قديمها بالأرض للمرة الأولى. وحين رُفعت الطفلة في الهواء مجدداً، بقيت آثار مبللة لقدمين صغيرتين تحتها على الأرض، لتدخلا الطفلة أخيراً في الشبكة الباليينية العظيمة، وتجدداً من تكون عبر تحديد أين تكون. صفق الجميع بسعادة. أصبحت الطفلة واحدة من الآن، أصبحت كائناً بشرياً، مع كل ما ينطوي عليه هذا التجسد المعقد من مخاطر ومخاوف.

نظرت الطفلة إلى الأعلى ثم نظرت حولها وابتسمت. لم تعد سيدة بعد الآن. ولم يبدُ عليها أنها تمنع ذلك، كما أنها لم تكن خائفة أيضاً. بل بدت راضية عن كل قرار اتخذته في حياتها.

106

فشلت الصفقة مع وايان ولم تتم عملية شراء الأرض التي عثر عليها فيليبه. حين سألتها أعطتني إجابة غير واضحة عن فشل ضياع صك الملكية. أعتقد أنها لم تخبرني بالسبب الحقيقي. وقد بدأ القلق يتملكني من هذه القصة. حاولت أن أشرح لوايان سبب استعجالي: "أنا أغادر بالي بعد أقل من أسبوعين. لا يمكنني مواجهة أصدقائي الذين قدموا كل هذا المال وأقول لهم إنك لم تجدي منزلاً بعد".

"ولكن ليز، إن لم يكن للمكان تاكسو جيدة..."

كلّ يعنّي على ليلاه.

ولكن اتصلت وایان بعد بضعة أيام بمنزل فيليبه وقالت بأنّها عثرت على قطعة أرض مختلفة وأنها تعجبها حقاً. كانت عبارة عن حقل أرزّ واقع على طريق هادئ تقريباً من البلدة. وهي تتمتع بتاكسو جيدة في أرجائها كافة. وقالت بأنّ الأرض تعود لمزارع متلهّف

للحصول على المال. لديه سبعة آرو يريد بيعها، ولكن بسبب حاجته الملحة إلى المال، لن يمانع في بيعها اثنين آرو لأنّ هذا كلّ ما يمكنها شراؤه. أعجبتها الأرض، وأعجبتنا أنا وفيليبه وتوتّي التي راحت تدور عبر العشب ويدها منبسّتان وكأنّها جولي أندروز بالينيّة.

قلت لوايان: "اشترىها".

ولكنها بقيت مترددة بعد بضعة أيام: "أتريدون العيش هناك أم لا؟".

ترددت أكثر، ثمّ غيرت قصتها مجدداً. أخبرتني هذا الصباح أنّ المزارع اتصل بها وقال إنّه ليس واثقاً ما إذا كان يستطيع بيع جزء من الأرض، بل يرغب ببيع مساحة السبعة آرو كلها... زوجته هي المشكلة... وهو يحتاج إلى التحدّث معها ليرى ما إذا كانت توافق على تجزئة الأرض...

يا الله، تريدني أن أعطيها المال لتبتاع الأرض كلها. حتى إنّني لا أعرف كيف يمكنني جميع مبلغ 22 ألف دولار أميركي إضافي. قلت لها: "لا يمكنني ذلك يا وايان. أنا لا أملك المال. ألا يمكنك التوصل إلى اتفاق مع المزارع؟".

عندها حبكت لي وايان، التي لم تعد عيناها تنظر في عينيّ، قصّة معقّدة. أخبرتني أنّها زارت ناسكاً وأنّ الناسك دخل في نشوة وقال لها إنّ عليها من كلّ بدّ شراء الأرض بأكملها لكي تبني عليها مركز علاج جيد... هذا هو القدر... وعلى أي حال، قال الناسك أيضاً إنّ لو تمكنت وايان من شراء الأرض بأكملها، لربما أمكنها بناء فندق فخم عليها يوماً ما...

فندق فخم؟

آه.

عندها فقط أحسست فحاةً بأنني أصبحت صماء، وتوقفت الطيور عن الغناء، وصرت أرى فم وايان يتحرك من دون أن أصغي لما تقول له لأن فكرة واحدة اجتاحت رأسي وكتبت فيه هذه الجملة: "إنها تعبت معك يا بقول".

وقفت وودعتها، ثم عدت إلى البيت وسألت فيليبه عن رأيه: "هل تظن بأنها تعبت معي؟".

لم يسبق له أن علق أبداً على ما بيني وبين وايان.

قال بلطف: "حبيبي، بالطبع هي تعبت معك".

غاص قلبي من الذعر.

فأضاف بسرعة: "ولكن ليس عن قصد. عليك أن تفهمي كيف يفكر الناس في بالي. فمط عيشهم يقوم على سحب أكبر قدر ممكن من المال من السياح. هكذا يعيش الجميع. وهي تلفق لك بعض القصص الآن عن المزارع. ولكن منذ متى يحتاج البالييني إلى التحدث مع زوجته قبل أن يعقد صفقة؟ اسمعي، الرجل متلهف لبيعها جزءاً من أرضه، وسبق أن وافق على ذلك. ولكنها تريد الأرض كلها الآن. وتريدك أن تشتريها لها".

أخافتني الفكرة لسببين. الأول هو أنني أكره التفكير في أن وايان قد تفعل أمراً مماثلاً. والثاني هو أنني أكره المعاني الضمنية الثقافية الكامنة خلف حديثه، تلك الأفكار الاستعمارية التي تملأ رأس البيض وحنة أن تلك هي حال الناس هنا.

لكن فيليبه ليس استعمارياً، بل برازيليّاً. شرح لي قائلاً: "اسمعي، لقد نشأت فقيراً في جنوب أميركا. تظنين أنني لا أفهم ثقافة الفقر تلك؟ لقد أعطيت وايان مبلغاً من المال ما كان لها أن تراه في حياتها. أنت بالنسبة إليها صنعت معجزة وأمامها فرصة أخيرة لتحصل على ما تريده. لذا تريد

أن تسحب منك أكبر قدر ممكن من المال قبل أن تذهبي. حباً بالله، منذ أربعة أشهر، لم تكن المرأة تملك قوت طفلتها والآن تريد فندقاً؟".
"ماذا أفعل؟".

"لا تغضبي، مهما حدث. إن غضبت فستحسرينها، مع أنها شخص رائع وتحببك. هذه خطتها للبقاء، اقبلي بذلك. لا تعتقدي بأنها امرأة سيئة وأنها لا تحتاج حقاً إلى مساعدتك هي والأولاد. ولكن لا تسمح لي لها باستغلالك. لقد رأيت هذا يحدث مراراً هنا. فالمغتربون الذين يعيشون هنا لمدة طويلة ينتهي بهم الأمر إلى حالتين. نصفهم يستمر بتأدية دور السائح قائلًا: آه، هؤلاء الباليينيون، كم هم لطفاء وكرماء... ويتركوهم ينهبون مالهم كالمجانين. أما النصف الآخر فيغضب من كثر تعرضه للنهب ويبدأ بكره الباليينيين. وهذا محجل، لأنهم يخسرون أصدقاء رائعين".
"ولكن ماذا أفعل؟".

"عليك أن تستعيدي السيطرة على الوضع. العبي معها كما تلعب معك. هديها بشيء يحفزها على التحرك. وبذلك تؤدين لها خدمة، فهي تحتاج إلى منزل".
"لا أريد اللعب، فيليه".

قَبِلَ رَأْسِي قَائِلًا: "إِذَا، لَا يُمْكِنُكَ الْعَيْشُ فِي بَالِي".
فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، وَضَعْتُ خَطِّي. لَا أَصْدَقُ آتِنِي بَعْدَ سَنَةٍ مِنْ تَعَلُّمِ فَضَائِلِ النِّضَالِ لِعَيْشِ حَيَاةٍ صَادِقَةٍ، أَعْمَدُ إِلَى تَلْفِيقِ كَذِبَةٍ كَبِيرَةٍ. فَأَنَا أَنْوِي الكَذِبَ عَلَى صَدِيقَتِي الْمَفْضَلَةِ فِي بَالِي، عَلَى مَنْ هِيَ كَأَخْتِ لِي، عَلَى مَنْ نَظَّفَتْ كَلْبِي. أَنَا أَنْوِي الكَذِبَ عَلَى أُمِّ تَوْتِي!
دَخَلْتُ مِنْزَلَهَا فَقَامَتْ لِاحْتِضَانِي. دَفَعَتَهَا نَفْسِي بَعِيدًا عَنْهَا وَادَّعَيْتُ بِأَتْنِي غَاضِبَةً.

"وايان، أنا بحاجة إلى التحدّث معك، لديّ مشكلة خطيرة".
"مع فيليبه؟".

"كلّاً، بل معك".

بدت وكأنها على وشك الإغماء.

"وايان، أصدقائي في أميركا غاضبون منك كثيراً".
"مَنّي؟ لماذا حبيبي؟".

"لأنّهم منذ أربعة أشهر، أعطوك كثيراً من المال لتشتري منزلاً، ولم تفعلي بعد. وهم يرسلون لي الرسائل الإلكترونيّة كلّ يوم ويسألون عن منزلك وعمّا حلّ بهم. ويعتقدون بأنك سرقت المال وتستعملينه لشيء آخر".
"أنا لم أسرق!".

"وايان، أصدقائي في أميركا يعتقدون بأنك... حثالة".

شهقت المرأة من أثر المفاجأة، وبدت مجروحة إلى حدّ أنّني ضعفت للحظة، وكادت أحتضنها وأقول لها: "لا، لا، هذا ليس صحيحاً! أنا التي حبكت الكذبة!" ولكن لا، عليّ الانتهاء من هذا الأمر. إلّا أنّها بدت مصعوقة فعلاً. فكلمة حثالة دخلت في الثقافة الباليونيسية أكثر من أيّ كلمة إنكليزية أخرى. وهي من أكثر الكلمات المستعملة لنعث الناس هنا. وفي هذه الثقافة، التي ينعت بها الناس بعضهم عشرات المرات قبل الفطور، حيث تعتبر الكلمة رياضة، فنّاً، عادة، تكتيكاً يائساً للبقاء، فإن نُعت شخص بما فهو عمل مروّع. أمر كان من شأنه في أوروبا القديمة أن يضمن لك مبارزة.
قالت بعينين دامعتين: "حبيبي، أنا لست حثالة".

"أعرف ذلك وايان، ولهذا السبب أنا منزعجة. حاولت إخبارهم بأنك لست كذلك ولكنهم لا يصدّقونني".

وضعت يدها على يدي: "أنا آسفة لوضعك في هذا المأزق".
"هذا مأزق كبير، وايان. أصدقائي غاضبون. يقولون إنّه لا بدّ
لك من شراء أرض قبل أن أعود إلى أميركا وإلّا... سيستعيدون
نقودهم".

هنا، لم يبدُ عليها أنّها على وشك الإغماء، بل على وشك الموت.
شعرت وكأني كاذبة كبيرة وأنا أحوك هذه القصة لتلك المرأة
المسكينة، التي بدت أنّها لا تدرك أنّي لا أستطيع استعادة المال من
حسابها أكثر مما أستطيع أخذ جنسيتها الباليينية. ولكن، كيف لها أن
تعلم؟ ألم أجعل المال يظهر فجأة في حسابها؟ يمكنني إذاً بكل سهولة
استعادته.

قالت: "عزيزتي، صديقي. سأجد قطعة أرض الآن، لا تقلقي،
سأجد أرضاً بسرعة. لا تقلقي أرجوك... ربّما أنّي الأمر في الأيام
الثلاثة القادمة، أعدك بذلك".

قلت لها: "لا بدّ من ذلك، وايان"، بجدية لم تكن سوى تمثيل.
ولكن، عليها أن تتحرّك. فبناها بحاجة إلى منزل قبل أن يتم
إخراجهنّ من المتجر. الوقت ليس مناسباً للمماطلة.

قلت لها: "أنا ذاهبة الآن إلى منزل فيلييه. اتصلي بي ما إن
تشتري شيئاً". ثمّ غادرت متجرها وأنا واثقة بأنّها تنظر إليّ ولكنني لم
استدر للنظر خلفي. وقطعت الطريق كلّه وأنا أدعو الله بدعاء غريب:
"أرجو أن تكون نصابة". لأنّها إن لم تكن نصابة، وإن كانت فعلاً عاجزة
عن إيجاد مكان لتعيش فيه على الرغم من 18 ألف دولار موجودة
بحوزتها، فنحن في ورطة حقيقية ولا أعرف كيف يمكن لهذه المرأة أن
تخرج نفسها من الفقر. أمّا إن كانت مخادعة، فثمة بصيص أمل. فهذا يعني
أنّها تملك بعض الشرّ وستكون بخير في هذا العالم المتقلب.

وصلت إلى بيت فيليبه وبدوت في حالة مزرية: "فقط لو تعلم
وايان بأني كنت أكذب عليها..."

"تكذبين لأجل سعادتها ونجاحها".

بعد أربع ساعات فقط رن هاتف فيليبه. كانت وايان. أخبرتنا
وهي تلهث من أثر الانفعال بأنها أنهت الأمر، واشترت للتو قطعة
الأرض من المزارع (الذي لم تمنع زوجته تجزئتها). وتبين أنه لم يكن ثمة
حاجة إلى أي أحلام سحرية أو إلى تدخّل أيّ كاهن أو إلى أيّ
اختبارات تاكسو. حتى إنّ وايان تملك صك الملكية بين يديها! وهو
مصدّق لدى كاتب عدل! كما أكدت لي أنها طلبت مواد البناء وأنّ
العمال سيبدأون بالبناء في الأسبوع القادم، قبل أن أرحل. هكذا يمكنني
رؤية المشروع. وكانت تأمل ألا أكون غاضبة منها. أرادتني أن أعلم
بأنها تحبني أكثر مما تحبّ جسدها وحياتها وهذا العالم بأسره.

أخبرتها بأني أحبها أنا أيضاً وأني متشوقة لأحلّ ضيفة عليها في
منزلها الجديد يوماً ما، وأني أريد نسخة عن صكّ الملكية.

حين أغلقت الخطّ، قال لي فيليبه: "فتاة طيبة".

لا أعلم من قصد بيننا. ثمّ قال: "هل لنا أن نذهب في عطلة الآن؟
أرجوك".

107

كان المكان الذي قصدناه في العطلة جزيرةً صغيرةً تدعى جيلي
مينو، واقعة أمام ساحل لومبوك، وهي المحطة التالية شرق بالي في
الأرخبيل الإندونيسي الكبير. وبما أنني زرتها من قبل، أردت أن يراها
فيليه، الذي لم تسبق له زيارتها.

وجزيرة جيلبي مينو هي من أهم الأماكن في العالم بالنسبة إليّ. فقد أتيت إليها بمفردتي حين زرت بالي للمرة الأولى. كنت في تلك المهمة للمحلة، أكتب عن عطل اليوغا، وكنت قد أهيت للتوّ دروس اليوغا التي امتدّت على أسبوعين وجدّدت نشاطي. ولكنني قرّرت تمديد إقامتي في إندونيسيا بعد انتهائي من المهمة، بما أنّني قطعت كلّ تلك المسافة إلى آسيا. ورجبت بإيجاد مكان بعيد جداً أنعزل فيه لعشرة أيام من الوحدة والصمت التام.

وحين أنظر الآن إلى السنوات الأربع التي تفصل بين انهيار زواجي ويوم حصولي على الطلاق، لا أرى سوى العذاب التام. واللحظة التي أتيت فيها إلى تلك الجزيرة الصغيرة كانت الأسوأ في تلك الفترة بأكملها. كانت في قعر العذاب ووسطه. فعقلي الحزين كان عبارة عن ساحة معركة من الشياطين المتصارعة. وحين اتخذت القرار بقضاء عشرة أيام وحيدة في الصمت في مكان لا أعرفه، قلت لأجزائي القلقة والمربكة الشيء نفسه: "نحن الآن هنا جميعاً معاً يا شباب، وحدنا. وسيتحمّ علينا التوصل إلى اتفاق لكي نستمرّ وإلاّ فسنموت جميعاً معاً، عاجلاً أم آجلاً". قد يبدو كلامي حازماً ومليئاً بالثقة، ولكن عليّ الاعتراف أيضاً أنّني لم أعرف في حياتي الرعب الذي شعرت به وأنا أبجر إلى تلك الجزيرة الهادئة بمفردتي. حتى إنّني لم أحضر معي كتباً تصرف انتباهي. بل كنّا أنا وعقلي وحسب، على وشك أن نواجه بعضنا في ساحة خالية. أذكر بأنّ ساقني كانتا ترتجفان فعلاً من الخوف. إلاّ أنّني كرّرت لنفسني أحد الأقوال المفضّلة لمرشدتي: "الخوف، من يهتمّ له؟" ونزلت من المركب وحيدة.

استأجرت حجرة على الشاطئ مقابل بضعة دولارات في اليوم، وأغلقت فمي، ونذرت ألاّ أفتحه قبل أن يتغيّر شيء في داخلي. كانت

جزيرة جيلي مينو جلسة الحقيقة والمصالحة الكبرى. فقد اخترت المكان المناسب لذلك، كان هذا واضحاً. كانت الجزيرة نفسها صغيرة، بدائية، رملية، مياهها زرقاء صافية، وتنت في أرضها أشجار النخيل الباسقة. كانت عبارة عن دائرة كاملة فيها طريق واحد يمتد حولها، ويمكن المشي حولها خلال ساعة تقريباً. تقع الجزيرة على خطّ الاستواء تقريباً، وبالتالي لا تشهد دورة الليل والنهار سوى تغييراً طفيفاً. إذ تشرق الشمس من إحدى جهات الجزيرة عند الساعة السادسة والنصف صباحاً وتغرب في الجهة المقابلة عند السادسة والنصف مساءً، على مدار أيام السنة. كان يقطن في الجزيرة زمرة صغيرة من الصيادين مع عائلاتهم. ولم تكن تحتوي على بقعة لا تسمع فيها صوت المحيط. كما كانت تخلو من السيارات ذات المحركات، وتصل إليها الكهرباء عن طريق مولد يتم تشغيله لبضع ساعات في المساء فقط. كانت أكثر الأماكن التي زرناها هدوءاً.

اعتدت أن أمشي حول الجزيرة كلّ صباح، ثم أعيد الكرّة عند المغيب. أمّا بقية الوقت، فكنت أكتفي بالجلوس والمراقبة. راقبت أفكارني، وعواظني، والصيادين. يقول حكماء اليوغا إنّ الألم الذي يعانيه البشر ناتج عن الكلمات، تماماً مثل الفرح. نحن نضع الكلمات لوصف تجربتنا وتلك الكلمات تحضر معها عواطف مرافقة تعذبنا. فتغرينا المانتترات التي نصنعها نحن (أنا فاشل... أنا وحيد... أنا فاشل... أنا وحيد...) ونصبح معابد لها. والتوقف عن الكلام لفترة من الزمن هو محاولة لتجريد الكلمات من قوّتها والتوقف عن خنق أنفسنا بها وتحرير أنفسنا من المانتترات الخائقة.

استغرقت وقتاً لأغرق في الصمت الفعلي. وحتى بعد أن توقفت عن الكلام، وجدت بأنني لا أزال أهمهم باللغة. فأعضاء

وعضلات النطق - دماغي، حلقي، صدري، مؤخر عنقي - كانت لا تزال ترتجّ من أثر التكلّم حتى بعد وقت طويل من توقفي عن إصدار الأصوات. كان صدى الكلمات يتردّد في رأسي مثلما يتردد صدى الأصوات والصراخ لوقت طويل في حوض سباحة داخليّ بعد مغادرة الأطفال. واستغرقت الأصداء والأصوات وقتاً طويلاً لتهدأ. ربّما ثلاثة أيام.

بعدها بدأ كلّ شيء يطفو إلى السطح. فحالة الصمت تلك أوجدت مكاناً.

كان السياح الوحيدون الآخرون على الجزيرة زمرة من الأزواج الذين يقضون عطلة رومانسية. (فالجزيرة جميلة جداً ونائية جداً ليزورها مجنون بمفرده). راقبت هؤلاء الأزواج وحسدتهم على الأوقات الرومانسية التي يمضونها معاً، ولكنني عرفت أنّ وضعي لا يسمح بأيّ رفقة. لديّ مهمة مختلفة هنا. بقيت بعيدة عن الجميع، وتركيت الناس وشأني. أظنّ أنّ ذبذبات مخيفة كانت تصدر عني. فلم أكن بخير طيلة السنة. ولا يمكن لأي شخص أن يخسر كلّ هذا النوم والوزن وأن يبكي بتلك القوّة من دون أن يبدو وكأنه مريض نفسي. لذا لم يقترب منّي أحد.

في الواقع، هذا ليس صحيحاً. شخص واحد تحدّث معي كلّ يوم. كان ولداً صغيراً بين عصابة من الأولاد الذين يركضون على طول الشاطئ لبيع الفاكهة الطازجة للسياح. ربّما كان يبلغ التاسعة من عمره وبدا بأنّه قائد المجموعة. بدا قويا، وكنت لأسميه فتى الشارع الذكي لو كان في جزيرته شوارع. أفترض بأنّه فتى الشاطئ الذكي. ويبدو بأنّه تعلّم الإنكليزية جيّداً من كثرة مضايقته للسياح الغربيين. وهذا ما فعله معي. إذ إنّ أحداً لم يسألني من أنا أو يزعجني، أمّا هو

فكان يأتي للجلوس بقربي على الشاطئ كل يوم ويسألني: "لِمَ لا تتكلمين؟ لِمَ أنت غريبة هكذا؟ لا تدعي بأنك صماء، أعلم أنك قادرة على سماعي. لِمَ أنت وحيدة دائماً؟ لِمَ لا تسبحين؟ أين صديقك؟ لِمَ لست برفقة زوج؟ ما خطبك؟

وفكرت بأن أصرخ في وجهه، اذهب أيها الولد! من أنت، نسخة عن أسوأ أفكارى؟

حاولت كل يوم الابتسام في وجهه بلطف وصرفه عني بحركة مهذّبة، ولكنه لم يكن يرحل عني. وكان غضبي يثور في النهاية. أذكر أنني انفجرت فيه يوماً: "أنا لا أتحدّث لأنني في رحلة روحية لعينة أيها الولد المزعج؛ والآن، ارحل عني!".

فركض وهو يضحك. وهذا ما كان يفعله كلما نجح في دفعي على الكلام. فأضحك أنا أيضاً ولكن بعد أن يغيب عن نظري. كنت أحشى هذا الصبي، وأتطلّع إلى قدمه في الوقت نفسه. كان الاستراحة الكوميديّة الوحيدة خلال رحلتي القاسية.

أظنني أعرف ما كان هذا الولد الشقي الذي كان ينجح دوماً في انتزاع ضحكة مني.

في اليوم التاسع من الصمت، جلست للتأمل في إحدى الأمسيات على الشاطئ في أثناء مغيب الشمس ولم أقم قبل منتصف الليل. أذكر أنني فكرت: "هذا هو الوقت، يا ليز". وقلت لعقلي: "هذه فرصتك. أرني كسل ما يسبب لك الحزن. دعني أراه كلّ. لا تحتفظ بشيء". فراححت الأفكار والذكريات المحزنة ترفع أيديها وتقف للتعريف عن نفسها. نظرت إلى كلّ فكرة ومكمن حزن وأقررت بوجودها وشعرت - من دون أن أحاول حماية نفسي - بألمها الفظيع. ثم قلت لها: "لا بأس. أنا أحبك وأقبل بك. ادخلي قلبي. انتهى الأمر". وكنت أشعر

في الواقع بأنّ الحزن يدخل قلبي وكأنه كائن حيّ وكأنّ قلبي غرفة حقيقية. ثمّ قلت: "التالي؟" فيطفئ حزن آخر. أنظر إليه، أشعر به، أباركه ثمّ أدعوه لدخول قلبي هو أيضاً. فعلت الأمر نفسه مع كلّ فكرة محزنة أحسست بها، وفتشت في سنوات من الذكريات، ولم يتبقّ شيء.

ثمّ قلت لعقلي: أربي غضبك الآن". فراح أحداث حياتي المثيرة للغضب تظهر وتعرّف عن نفسها. كلّ ظلم، وخيانة، وخسارة، وغيظ. رأيتها كلّها، واحدة تلو الأخرى واعترفت بوجودها. رأيت كلّ فكرة غضب بأكملها وكأنّها تحدث للمرة الأولى ثمّ قلت لها: "ادخلي قلبي الآن. يمكنك أن ترتاحي فيه. أنت بأمان، انتهى كلّ شيء. أنا أحبك". استمرّ ذلك لساعات وساعات وتأرجحت بين هذين القطبين من الأفكار المتضاربة، يتتابني الغضب الجامح للحظة ثمّ أبرد تماماً مع دخول الغضب إلى قلبي وكأنه يدخل باباً ثمّ ينزل ويتفوق بقرّب إخوته ويتوقّف عن القتال.

ثمّ وصلت إلى الجزء الأصعب. قلت لعقلي: "أربي خزيك". فرأيت الفضاء. كان عرضاً مثيراً للشفقة لكلّ مشاعري، وأكاديسي، وأنانيتي، وغيرتي، وغروري. ولكنني لم أراجع أمام أيّ منها. بل قلت له: "أربي الأسوأ". ثمّ حاولت دعوة تلك الأفكار المحزنة إلى قلبي، فتردّدت عند الباب قائلة: "كلا، أنت لا تريدني هناك... ألا ترين ما فعلت؟" فأقول لها: "بلا أنا أريدك. حتى أنت. أريدك. حتى إنني أرحّب بك هنا. لا بأس، لقد ساحتك. أنت جزء مني ويمكنك أن ترتاحي الآن. لقد انتهى كلّ شيء".

وحين انتهيت من كلّ هذا، صرت فارغة. لم يعد ثمة أفكار تتصارع في عقلي. نظرت إلى قلبي، إلى طبيعتي، ورأيت مدى سعته.

وجدته لم يقارب حتى على الامتلاء، على الرغم من إدخال جميع تلك الأفكار الفظيعة من الحزن والغضب والعار. كان بإمكان قلبي أن يستوعب ويسامح المزيد. كان حبه غير متناه.

عندها عرفت كيف يحبنا الله ويقبل بنا كلنا. فإن كان بوسع كائن بشري واحد منهار ومحدود مثلي أن يشعر بالقليل وحسب من الغفران والتسامح إزاء نفسه، فما عليك سوى أن تتخيل كم يمكن لله، برحمته الواسعة والأبدية، أن يغفر ويسامح.

كما عرفت أيضاً بأن فترة السلام تلك ستكون مؤقتة. عرفت أنني لم أنته تماماً من آلامي وأن غضبي وحزني وعاري ستتسلل مع تلك الأفكار مراراً وتكراراً قبل أن أنتهي منها تماماً حين أُغَيَّر حياتي كلها. ولن يكون هذا سهلاً، غير أن قلبي قال لعقلي: "أنا أحبك، لن أتخلى عنك أبداً، بل سأعتني بك دائماً". طار ذاك الوعد من قلبي فحبسته في فمي ورحت أتذوقه وأنا أغادر الشاطئ عائداً إلى الكوخ الصغير الذي أقيم فيه. وجدت دفترًا صغيراً خالياً، ففتحته على الصفحة الأولى وحينها فقط فتحت فمي، ونطقت بتلك الكلمات وحررتها في الهواء. تركت تلك الكلمات تكسر صممتي، وجعلت قلمي يدونها على الصفحة: "أنا أحبك، لن أتخلى عنك أبداً، بل سأعتني بك دائماً".

كانت تلك الكلمات الأولى التي دوتها على دفتر ملاحظاتي الخاص الذي حملته معي منذ تلك اللحظة، ولجأت إليه كثيراً خلال السنوات التالية طلباً للعون، الذي وجدته دائماً، حتى في أكثر أوقاتي حزناً أو خوفاً. وكان الدفتر، الذي ضمّ وعد الحبّ ذاك، السبب الوحيد لبقائي على قيد الحياة في السنوات التالية من حياتي.

ها أنا الآن عائدة إلى جيلي مينو في ظروف مختلفة تماماً. فمند زيارتي الأخيرة، جيت العالم، أتممت طلاقي، تجاوزت قضية انفصالي عن ديفيد، نظّفت جسدي من جميع الأدوية التي تؤثّر في المزاج، تعلّمت لغة جديدة، مررت بلحظات لا تنسى من الروحانية في الهند، درست عند قدمي عراف إندونيسي، واشترت منزلاً لعائلة كانت بأمرّ الحاجة إلى سقف تحتمي تحته. أنا سعيدة وأتمتع بالصحة والتوازن. ولا يمكنني ألاّ ألاحظ بأنني أبحر إلى تلك الجزيرة الاستوائية الخلّابة بصحبة عشيقتي البرازيلي. وأقرّ بأنّها نهاية سخيصة لهذه الرواية تشبه نهايات القصص الخرافية، وكأنّها صفحة من أحلام زوجة (ربّما صفحة من أحلامي أنا منذ بضع سنوات). إلاّ أنّ ما يعنني من الانغماس في وهم القصص الخرافية هي تلك الحقيقة الأكيدة التي أمدّنتني بالقوة على مرّ السنوات الماضية: لم ينقذني أمير، بل كنت أنا مديرة عملية إنقاذي.

تحوّلت أفكارني إلى ما قرأته مرّة، عن معتقدات بوذيّ الزن. إذ يقولون إنّ شجرة السنديان تنتج بقوتين متلازمتين. بالطبع، هنالك البزرة التي منها يبدأ كلّ شيء والتي تحمل الوعد والقدرة وتنمو لتصبح شجرة. الكلّ يعرف ذلك. إلاّ أنّ قلة يقرّون بوجود قوة أخرى تعمل في الوقت نفسه، ألا وهي الشجرة نفسها التي تريد أن توجد بكلّ قواها والتي تدفع البذرة إلى الحياة وتشدّها إلى الأمام من العدم وتقودها إلى النضوج. وبذلك، يعتقد بوذيّو الزن بأنّ شجرة السنديان هي التي تنتج البذرة التي تولد منها.

الآن أفكّر في المرأة التي أصبحت عليها مؤخراً وفي الحياة التي أعيشها الآن، وكم أردت أن أكون هذه المرأة وأن أحيها هذه الحياة،

حرّة من الادّعاء بأنني شخص آخر غير الذي أنا عليه. أفكّر في كلّ ما عانيته قبل أن أصل إلى هنا وأتساءل ما إذا كنت أنا - أعني هذه المرأة السعيدة والمتوازنة الممدّدة الآن على متن قارب الصيد الإندونيسي الصغير هذا - من دفع أنا الأخرى، الأصغر سنّاً والأكثر ارتباكاً وكفاحاً إلى الأمام خلال تلك السنوات الصعبة. أنا الصغرى كانت البذرة المليئة بالقدرة، ولكن أنا الكبرى، السنديانة الموجودة أصلاً، هي التي كانت تقول طيلة الوقت: "أجل، اكبري! تعيّرني! تطوّرني! تعالي وقابليني هنا، حيث أنا موجودة كاملة وناضجة! أحتاج إلى أن تكبري بداخلي!" وربّما كانت أنا الحالية هي التي حامت حول تلك الزوجة الشابة التي كانت تبكي على أرض الحمّام، وربّما كانت هي من همس بحنان في أذن الفتاة اليائسة: "عودي إلى سريرك، ليز...". فقد كانت تعرف أساساً بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، وأن كلّ شيء سيجمعنا معاً هنا، في هذه اللحظة، حيث كنت أنتظر دوماً بسلام ورضى لكي تصل وتنضمّ إليّ.

ثمّ استيقظ فيليه. كنّا نحن الاثنين ممدّدين طيلة عصر ذلك اليوم بين ذراعي بعضنا، على متن مركب الصيد الإندونيسي. كانت الأمواج تؤرّجحننا والشمس ترسل فوقنا أشعتها اللامعة. وفيما تمدّدت هناك ورأسني متكئ على صدره، قال لي فيليه بأنّ فكرة رائعة خطرت في ذهنه وهو نائم. قال: "كما تعلمين، من الواضح أنّني مضطّرّ إلى العيش في بالي بسبب عملي هنا، ولأنّنا قريبة من أستراليا التي يعيش فيها أولادي. كما أنّني أحتاج إلى الذهاب إلى البرازيل غالباً، لإحضار الأحجار الكريمة ولأنّ جزءاً من عائلتي يعيش هناك. ومن الواضح أنّك بحاجة إلى أن تكويني في الولايات المتحدة، لأنّك تعملين هناك ولأنّ عائلتك وأصدقائك يعيشون هناك. لذا خطر لي... بإمكاننا ربّما أن

نحاول بناء حياة لنا معاً موزعة بين أميركا، وأستراليا، والبرازيل، وبالي".

فما كان مني إلا أن ضحكت وفكرت، لم لا؟ قد تكون الفكرة مجسونة لتنجح. فبعض الناس قد يصدمون لهذه الفكرة، ولكنها تشبهني كثيراً. بالطبع هكذا يجب أن تكون الأمور. كما أنني أحبّ شاعرية الفكرة. فبعد هذه السنة التي قضيتها وأنا أحاول استكشاف نفسي الجسورة، اقترح عليّ فيليبه نظرية سفر جديدة:

أستراليا، أميركا، بالي، البرازيل = أ، أ، ب، ب.

وكأنها قوافي قصيدة غربية كلاسيكية.

رسمي مركب الصيد الصغير أمام شاطئ جيلي مينو. لم يكن ثمة أحواض لرسو السفن في الجزيرة، بل كان على الزائر أن يرفع بنطاله ويقفز من القارب ويجتاز الأمواج على طريقته. ولكن ما من سبيل لذلك من دون التعرّض للبلل أو حتى الارتطام بالشاطئ المرجاني، إلا أن الأمر يستحقّ التعب لأنّ الشاطئ رائع الجمال. هكذا خلعنا أنا وعشيقتي أحذيتنا وحملنا حقائبنا الصغيرة على رؤوسنا واستعدنا للقفز من القارب معاً في البحر.

ولكنّ الأمر كان مضحكاً. فاللغة الرومانسية الوحيدة التي لا يبدو بأنّ فيليبه يتقنها هي الإيطالية. مع ذلك، قلت له على كل حال ونحن على وشك أن نقفز:

"Attraversiamo"

فلنعبر الشارع.

الخاتمة

بعد بضعة أشهر من رحيلي عن إندونيسيا، عدت لزيارة أحبائي والاحتفال بذكرى الميلاد وعطلة رأس السنة. حطت طائرتي في بالي بعد ساعتين فقط من موجة التسونامي التي ضربت جنوب شرق آسيا وألحقت به دماراً واسعاً. فراح معارفي يتصلون بي من مختلف أنحاء العالم ليطمئنوا على سلامة أصدقائي الإندونيسيين. وبدوا قلقين جداً وهم يسألون: "هل إيان وتوتّي بخير؟" والجواب هو أنّ التسونامي لم تؤثر في بالي إطلاقاً (ما عدا عاطفياً بالطبع). كان الجميع بخير وكان فيليه بانتظاري في المطار (لأول مرة من المرات العديدة التي سناقي بعضنا فيها في مطارات مختلفة). كان كيتوت لاير جالساً على شرفته، كالعادة، يصنع الأدوية ويتأمل. وكان يوداي قد حصل على عمل في العزف على الغيتار في منتجع محلي راق وكان بخير. أمّا عائلة إيان فكانت تعيش سعيدة في منزلها الجديد، بعيداً عن الساحل الخطر، بين سهول الأرز في أوبود.

أودّ أن أوجّه امتناني (بالإضافة إلى امتنان إيان) إلى جميع من ساهم في التبرع بالمال لبناء ذلك المنزل.

في سياق آخر، أتمنى لو أجد طريقة مناسبة لشكر عمّي تيري وعمّي ديورا الحبيين للمساعدة الكبيرة التي قدّماها لي خلال هذا العام

من السفر، والتي من دونهما ما كان لي أن أكتب هذه الرواية. ولا أعرف في الواقع كيف أردّ لهما جميلهما. في النهاية، وعوضاً عن محاولة ردّ الجميل لمن دعمنا في حياتنا، قد يكون من الحكمة الاستسلام أمام عظمة كرم الإنسانية والاكتفاء بتوجيه الشكر الصادق إلى الأبد.

الكتاب الأكثر مبيعاً والذي يتكلم عنه الجميع

إليزابيث في العقد الثالث من عمرها، تسكن في منزل فاخر مع زوج محب يريد أن ينشئ عائلة. ولكن هذا المشروع ليس من ضمن أولوياتها، فيحصل الطلاق المر لتصفع تردّداته العنيفة إليزابيث، التي تنهض بعد وقت محطمة ولكن مصممة على البحث عن كل ما تفتقده.

هنا يبدأ البحث. في روما تغرق في ملذات الطعام والحفلات فيزداد وزنها عشرين كيلوغراماً دفعة واحدة. في الهند تنير الهداية روحها وهي تحفّ أرض المعابد. وأخيراً في بالي تكتشف على يدي عراف سقطت أسنانه الطريق إلى السلام الذي يقودها إلى الحب.

«أجمل سيرة شخصية قرأتها أبداً. إنها لذيذة» طوني كوليت

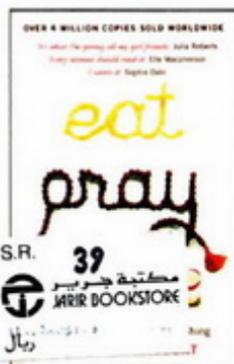
«لقد أحببت طعام، صلاة، حب» هيلاري كلينتون

«مدهشة ورائعة» ميني درايفر

«لقد أحببته... لقد تفهمت حاجتها إلى كتابة الكتاب

ورغبتها بالشفاء» ميغ رايان

«صاحب، متألّق وروحاني بلا خجل» استر فرويد



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com